ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف] أي : الآخرة ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف] فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السدّ ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عمل للدنيا فحسب ، فإذا أتى وَعْد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكّاً وسوّاه بالأرض ، ذلك لكي لا يغترون به ولا يتمردون على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلّين مُستْضعفين ليأجوج ومأجوج . وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف] واقعاً لا شكَّ فيه .

والتحقيق الأخير في مسألة ذي القرنين وبناء السد أنه واقع بمكان يُسمَّى الآن (بلخ) والجبلان من جبال القوقاز ، وهما موجودان فعلاً ، وبينهما فَجْوة مبنيٌّ فيها ، ويقولون : إن صاحب هذا البناء هو قورش ، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم في بعض ، كموج الماء لا تستطيع أن تفرق بعضهم من بعض ، كما أنك لا تستطيع فصل ذرات الماء في الأمواج ، يختلط فيهم الحابل بالنابل ، والقويّ بالضعيف ، والخائف بالمخيف ، فهم الآن في موقف القيامة ، وقد انتهت العداوات الدنيوية ، وشُغِل كل إنسان بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الكهف]

وهذه هي النفخة الثانية ؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما في قوله تعالى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) ﴾ [الذاريات]

أما الصَّعْقة التي تُسبِّب الإغماء فهي مثل التي حدثت لموسى - عليه السلام - حينما قال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالجبل الأشمّ الراسي الصُّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخَرَّ موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلِّي سبحانه ؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى - عليه السلام - فقال له : لست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن تراني انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أنْ يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلِّي الله ؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التي نحن عليها في الدنيا . أما في الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدُّنا إعداداً آخر ،

وسيخلقنا خلْقة تناسب تجلّيه سبحانه على المؤمنين في الآخرة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد في كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً نقتاتون ولا تتغوطون ؛ لأن طبيعتكم في الآخرة غير طبيعتكم في الدنيا .

لذلك جاء السؤال من موسى ـ عليه السلام ـ سؤالاً علمياً دقيقاً : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] أي : أرني كيفية النظر إليك ؛ لأني بطبيعتي وتكويني لا أراك ، إنما إنْ أريتني أنت أرى .

وفي ضوء هذه الحادثة لموسى ـ عليه السلام ـ نفهم حديث النبي ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صُعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى »[1] .

قالوا : لأنه صَعِق مرة في الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾

أي : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] والبعض يظن أن (واردها) يعني : داخلها ، لا بل واردها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤١٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري .

بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه ؛ ذلك لأن الصراط الذي سيمر عليه الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف انه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلتَ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة في سورة التكاثر حيث يقول تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر]

والمراد : لو أنكم تأخذون عنّي العلم اليقيني فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأنني أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمّيه علم اليقين ، أما في الآخرة فسوف ترونَ النار عينها . وهذا هو عين اليقين أي : الصورة العينية التي ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهي علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر]

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النار مرحلة ثالثة هي حَقُّ اليقين ، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : عندنا علْم اليقين ، وهو الصورة العلمية للنار ، والتى أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، وأن من صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن فى بحبوحة الدنيا وسعتها . وعَيْن اليقين : فى الآخرة عندما نمرُّ على الصراط ، ونرى النار رؤيا العين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفاتها كذا وكذا فأعطيك عنها صورة علمية صادقة ، فإنْ صدَّقتنى فهذا علْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رأىَ العين فهذا عَيْن اليقينَ ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ [الكهف] ليس كعرضها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحقَّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾

أى : على أبصارهم غشاوة تمنعهم إدراك الرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾ [الكهف]

والمراد هنا السمع الذى يستفيد منه السامع ، سَمْع العبرة

والعظة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سماعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم فى الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن فى لغتنا العامية : (أنت مطنش عنى) ، يعنى : لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ ؟ قال : نعم ، قال : أعطنى مائة جنيه ، قال : كأنى لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

يعنى : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر فى سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذنهم العربية وملكتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير فى سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربى الفصيح أنْ يهتزَّ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعجز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ

أثيم (٧) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨) ﴾ [الجاثية]

وقد يتعدى الأمر مجرد السماع إلى منع الكلام كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

فليس الأمر منع الاستماع ، بل أيضاً منع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم في حالة انتباه فتؤثر فيهم ، أي منعوهم الكلام كما يقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا (١٠٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء .. (١٠٢) ﴾ [الكهف] يعنى : أعموا عن الحق فظنوا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عبادى) وقلنا : إنهم المؤمنون بى المحبون لى ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرقنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحببين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

فكيف تتخذونهم أولياء من دونى وتعاندوننى بهم وهم أحبتى ؟

يقول تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله .. (٣٠) ﴾ [التوبة]

ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويرونَ شرفهم وعزَّتهم في عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دوني ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك في أعدائي ، فهذا منهم تغفيل حتى في اتخاذ الشركاء ؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعدَّ لهم جهنم :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾ [الكهف] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) ﴾

(قُلْ) أي : يا محمد ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) ﴾ [الكهف] الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعني أكثر خسارة (أعْمالاً) أي : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرون هم :

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾

وقد ضلَّ سَعْي هؤلاء ؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير ، فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله ؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكْراهم .

ومعنى : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أي : بطُل وذهب ،

وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه في قوله :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأجْر ؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا الجزاء يكون في الدنيا ؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم في جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله تعالى :
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ومع ذلك يُبقي للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدي عليه ، وفي حديث سيدنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت أن مُحدِّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألاَّ أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَلْتها[1] ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِيء ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقنا .

قال جابر : حدِّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله ﷺ : « إن الله ينادي يوم القيامة : يا ملائكتي ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصُّه منه ، حتى اللطمة »[2] .

(١) ارتحل البعير : جعل عليه الرحل . ويقال : رحلت البعير أرحله رحْلاً إذا علوته . [لسان العرب ـ مادة : رحل] .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٩٥) من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه .

فانظر إلى دقة الميزان وعدالة السماء التى تراعى حق الكافر ، فتقتص له قبل أن يدخل النار ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً .

وفى قوله تعالى : ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤)﴾ [الكهف] جاءت كلمة الضلال فى القرآن الكريم فى عدة استعمالات يحددها السياق الذى وردت فيه . فقد يأتى الضلال بمعنى الكفر ، وهو قمة الضلال وقمة المعاصى ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة]

ويطلق الضلال ، ويراد به المعصية حتى من المؤمن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب]

ويطلق الضلال ، ويراد به أن يغيب فى الأرض ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

يعنى : غبنا فيها واختفينا .

ويطلق الضلال ويراد به النسيان ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ويأتى الضلال بمعنى الغفلة التى تصيب الإنسان فيقع فى الذنب دون قصد . كما جاء فى قصة موسى وفرعون حينما وكز[1] موسى الرجل فقضى عليه ، فلما كلمه فرعون قال : ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)﴾ [الشعراء]

---

(١) وكز : دفع وضرب ـ أى : ضربه بجُمْع يده الواحدة نمات . [القاموس القويم ٢ / ٣٥٤] .

أى : قتلتْه حال غفلة ودون قصد ، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل ؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التى صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتى الضلال بمعنى : ألاَّ تعرف تفصيل الشيء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى] أى : لا يعرف ما هذا الذى يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] والآيات تُطلق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التى أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] هنا عامة فى كل هذه الأنواع .

(ولقائه) أى : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كلية فقال : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا في ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هي الحقيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] أي : بَطُلَت وذهب نفعُها ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف]

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التي تثبت الميزان ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

ونقول : إن العلماء في التوفيق بين هذه الآيات قالوا[1] : المراد بقوله تعالى : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أي : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن في نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندي . أي : لا قيمة له .

وبالبحث في هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ : عليهم ، إذن : الميزان

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٢٥١) : « قوله تعالى : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف] . أي قدراً لحقارتهم ، وليس المراد فلا ننصب لهم ميزاناً لأن الميزان إنما ينصب ليوزن به الحسنات في مقابلة السيئات ، والكافر لا حسنة له » .

موجود ، ولكنه ليس في صالحهم ، فالمعنى : لا نقيم لهم ميزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(ذلك) أى : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنّياً منّا عليهم أو ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفرهم فقوله ﴿ بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : بسبب كفرهم .

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] فقد استهزأوا بآيات الله ، وكلما سمعوا آية قالوا : أساطير الأولين : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم]

وكذلك لم يَسْلَم رسول الله ﷺ من سخريتهم واستهزائهم ، والقرآن يحكي عنهم قولهم لرسول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] فقولهم ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

وفى سورة « المنافقون » يقول القرآن عنهم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فقولهم ﴿ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ ليس إيماناً به ، ولكن إمّا غفلة منهم عن الكذب الذى يمارسونه ، وإما سُخْرية واستهزاءً كما لو كنتَ فى مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدّعِى العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِن

يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ[1] بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

ثم يتحدث القرآن عن المقابل لهؤلاء ، فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجدانى العقدى لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرَع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيمانى بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم فى قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل العمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لانك حين تُحسن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِيِّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه فى يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه ؛ لذلك تراه يكره وجوده، ولا يحب أنْ يراه ، وربما دبَّر لك المكائد لتختفى من طريقه ، وتُخلى له الساحة ؛ لأنك الوحيد الذى يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتى على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له

(١) أزلقه : جعله يزلق (تزل قدمه) كان أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ١/٢٨٩]

لِيُكرمك فإذا به يُهينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقرك ، فعلتَ له لِيُواليك فإذا به عدو لك ؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجل الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفى لك وقد لا يُوفى .

ثم أردف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمانَ بالعمل الصالح ؛ لأن العمل الصالح لا بُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧) ﴾ [الكهف]

﴿ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] يعني : عمل الشيء الصالح ، فإن كان الشيء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذي يشرب منه الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقي فيه ما يسدُّه أو يُفسده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسِّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبني حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو ؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغي أنْ تستثقلَ أوامر الشارع وتكليفاته ؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك وليُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفَّر لك هذا التكافل الاجتماعي تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر ، مطمئنة حال العُسْر .

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكفالة اليتيم وإكرامه ، فإنه يُطمئنك على أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه ؛ لأنك في مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم في ظل الإسلام وتعاليمه أسعد حظاً من حياته في رعاية أبيه ؛ لأنه بموت أبيه يجد

المؤمنين جميعاً آباءً له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه في حياته لا يُفيده بشيء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفل به .

لذلك يقول أحمد شوقي[1] :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أبَواهُ ... مِنْ هَمِّ الحياةِ وخلَّفَاهُ ذَليلا

إنَّ اليَتيمَ هُوَ الذِي تَلْقَى لَهُ ... أُمَّـاً تخلَّتْ أَوْ أبَا مَشْغُولا

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف]

الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوِّمات الحياة وترفها ، والإنسان حينما يُعِدُّ النزُلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعدّ للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

وخلود النعيم في الآخرة يُميِّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتي على قَدْر تصوُّرنا في النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة في التنعُّم في الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما في الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلَّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

---

(١) هو : أشهر شعراء العصر الحديث ، يلقب بأمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ في ظل البيت المالك بمصر ، ولد ١٨٦٨ م ، تابع دراسة الحقوق في فرنسا ، من آثاره « الشوقيات » « مجنون ليلى » « مصرع كليوباترا » توفي عام ١٩٣٢ م عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلي ١ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) ﴾ [الكهف]
أى : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر فى النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منهـا ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، وإلا فكيف يطلب نعيماً أعلى من نعيم الجنة الذى قال الله عنه : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

أى : كلما رزقهم الله ثمرةً أتتهم أخرى فقالوا : لقد رُزِقْنا مثلها من قبل ، وظنُّوها كسابقتها ، لكنهـا ليست كسابقتها بل بطعم جديد مختلف ، وإنْ كانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسباب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يُخرج لك الفاكهة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى فى قدرتها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف[1] .

والإنسان منَّا ليشقَّ طريقه فى الحياة يظل يتعلَّم ، ليأخذ شهادة مثلاً أو يتعلم مهنة ، ويظل فى تعب ومشقة ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من عمره أملاً فى أن يعيش باقى حياته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وهَبْ أنك ستعيش باقى حياتك فى راحة ، فكم سيكون الباقى منها ؟

---

(١) قال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة شىء إلا الأسماء . أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٩٦/١) وعزاه لمسدد وهناد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث .

أما الراحة الأبدية في الآخرة فهى زمن لا نهايةَ له ، ونعيم خالد لا ينتهى ، ففى أىِّ شىء يطمع الإنسان بعد هذا كله ؟ وإلى أىِّ شىء يطمح ؟

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

لأن قدرتـه تعالى لا حدود لها ، وما دامت قدرته لا حدود لـها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها ؛ لـذلك لو كان البحر مداداً اى : حبْراً يكتب به كلمات الله التى هى (كُنْ) التى تبرز المقدورات ما كان كافياً لكلمات الله ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرج أحسن من هذه ، أما صنعة الله فلا تقف عند حد ؛ لأن المصنع يعالج الأشياء ، أما الحق - تبارك وتعالى - فيصنعها بكلمة كُنْ ؛ لذلك نجد فى أرقى فنادق الدنيا أقصى ما توصَّل إليه العلم فى خدمة البشر أنْ تضغطَ على زِرٍّ معين ، فيُخرج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكٍّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسْبقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضغط على زر خاص بكل نوع ، لكن هل يوجد نعيم فى الدنيا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك ؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهى عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم فى الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أسباب الله ، وتعالوا عيشُوا بالله ، كنتم فى عالم الأسباب فتعالوْا إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم فى هذه الآية عن المداد الذى تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التى يكتب بها فى آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]

ونقف هنا عند دقَّة البيان القرآنى ، فلو تصوَّرنا ما فى الأرض من شجر أقلام ، مع ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْر لها ولا تنتهى ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود وثابت لا يزيد ولا ينقص .

لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد ، قال سبحانه : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات ؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء فى الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء فى الأرض ثابتة لا تزيد ؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخَّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَرِبَ طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بول وعرق وفضلات فى عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التى شربها ، وقد تبخرتْ وأخذتْ دورتها من جديد ؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ، وهذا كلام جديد ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : خُذُونى أسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسى على المنهج الذى أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشيء وأنا عنه بنجْوَى ، بل بالعكس كان ﷺ أقلَّ الناس حظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان فى المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ، ويرتدُونَ أغْلى الثياب فى حين كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد فى بيته نار لطعام[1] ، وكان يرتدى المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقى الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ، فحُرِموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان ﷺ أدنى الأسوات أى : أقل الموجودين فى مُتَع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْرِ لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُميِّزه عن غيره فى زَهْرة الدنيا الفانية ، إنما ميْزته فى القيم والفضائل .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : كان يمر بنا هلال وهلال وهلال وما يوقد فى منزل رسول الله ﷺ نار . قلت : أىْ خالة ، على أى شيء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمر والماء . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٥٦٧ - فتح) (١١/٦٤٥٩ - فتح) وكذا مسلم فى صحيحه (جـ ٤ - الزهد / ٢٨) .

ومن هنا كان ﷺ يقول : « يرد عليَّ - يعني من الأعلى - فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

والآية هنا لا تميزه ﷺ عن البشر إلا في أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] أنما : أداة قَصْر ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] أي : لا إله غيره ، وهذه قمّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر]

فلا يستوي عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه ؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضى هذا سخط ذاك . هل يستوي وعبد مملوك لسيد واحد ؟ إذن : فمما يُحمَد الله عليه أنه إله واحد .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم في الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضّح لنا غاية أسْمى من الجنة ونعيمها ، هي لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمَنْ أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه في الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا .. ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] فهذه هي الوسيلة إلى لقاء الله ؛ لأن العمل

الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآمر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حبِّه لك فارتاحتْ نفسك فى ظلِّ طاعته ، فإذا بك إذا أويتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحد ، ولا تخاف عاقبة أمر لا تُحمَدُ عقباه ، فمَنِ الذى أنعم عليك بكل هذه النعم ووفَّقك لها ؟

ثم : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحد ، فلا تشرك بعبادة الله شيئاً ، ولو كان هذا الشيء هو الجنة ، فعليك أنْ تسموَ بغاياتك ، لا إلى الجنة بل إلى لقاء ربها وخالقها والمنعِم بها عليك .

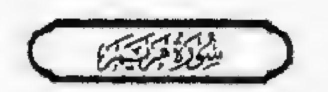
وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذى أعدَّ وليمة عظيمة فيها أطايب الطعام والشراب ، ودعا إليها أصحابه فلما دخلوا شغلهم الطعام إلا واحداً لم يهتم بالطعام والشراب ، وسأل عن صاحب الوليمة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

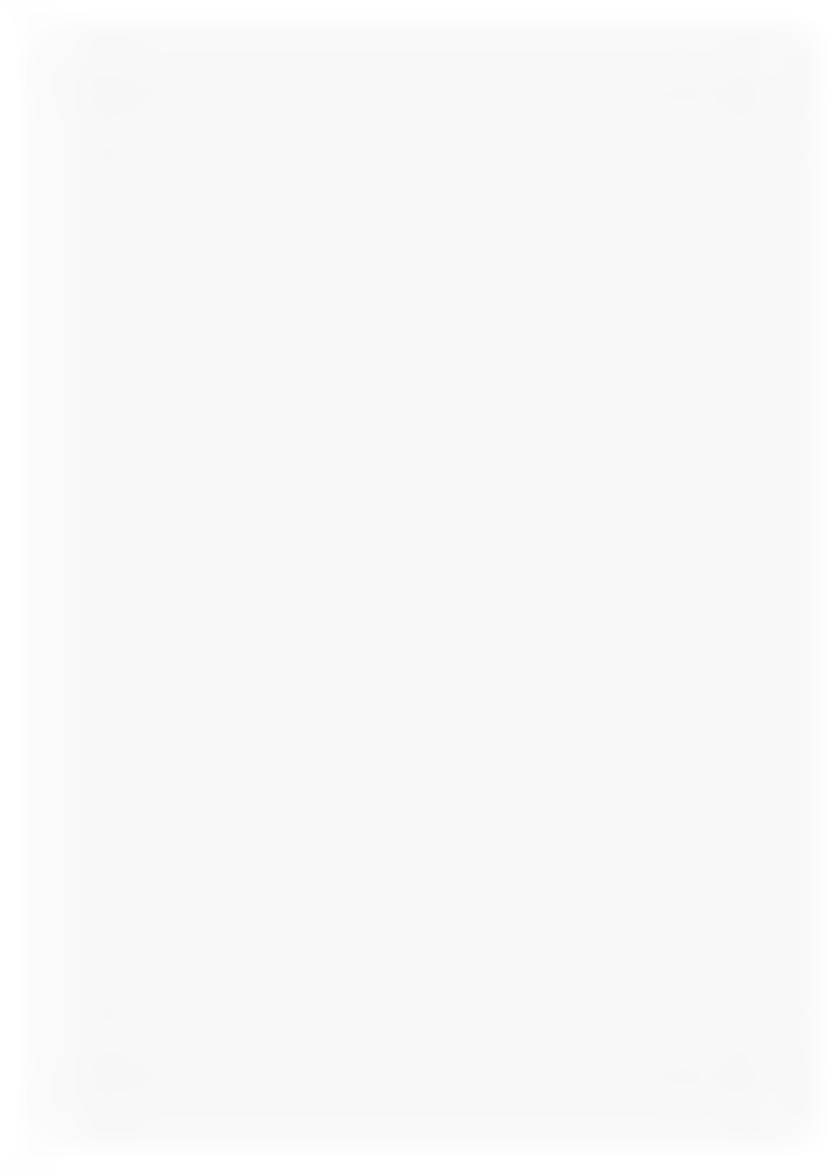
وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ويرَوْنَ النَّجاةَ حَظًّا جَزِيلا
أوْ بأنْ يسكنُوا الجِنَانَ فيحظَوْا بقُصُورٍ ويشْربُوا سَلْسَبِيلا
ليسَ لِى بالجِنَانِ والنَّارِ حظٌّ أنَا لا أبتَغِى بحُبِّى بَدِيلا

وهذا يشرح لنا الحديث القدسى : « لوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهْلاً لأنْ أُعْبَد ؟ » .

فلا ينبغى للعبد أن يكون نفعياً حتى فى العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْل بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها .





سورة مريم[1]



﴿ كهيعص ۝١ ﴾

هذه خمسة حروف مقطعة ، تُنطق باسم الحرف لا بمُسمَّاه ، لأن الحرف له اسم وله مُسمًّى ، فمثلاً كلمة (كتب) مسماها (كتب) ، أما بالاسم فهي كاف ، تاء ، باء . فالاسم هو العَلَم الذي وُضِع للدلالة على هذا اللفظ .

وفي القرآن الكريم سور كثيرة ابتُدئتْ بحروف مُقطعة تُنطق باسم الحرف لا مُسمَّاه ، وهذه الحروف قد تكون حَرفاً واحداً مثل : ن ، ص ، ق . وقد تكون حرفين مثل : طه ، طس . وقد تكون ثلاثة أحرف مثل : الم ، طسم . وقد تأتي أربعة أحرف مثل : المر . وقد تأتي بخمسة أحرف مثل : كهيعص ، حمعسق .

---

(١) سورة مريم هي السورة (١٩) في ترتيب المصحف الشريف ، وهي سورة مكية ، عدد آياتها ٩٨ آية . وهي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب النزول ، وقد نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه . قاله ابن الضريس في فضائل القرآن . نقله السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (١/٢٧) . وسورة مريم تقع كلها في الجزء السادس عشر من القرآن .

لذلك نقول : لا بُدَّ في تعلُّم القرآن من السماع ، وإلاَّ فكيف تُفرِّق بين الم في أول البقرة فتنطقها مُقطَّعة وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] فتنطقها موصولة ؟ وصدق الله تعالى حين قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة]

ونلاحظ في هذه الحروف أنه يَنطِق بالمسمَّى المتعلم وغير المتعلم ، أما الاسم فلا ينطق به ولا يعرفه إلا المتعلِّم الذي عرف حروف الهجاء . فإذا كان الرسول ﷺ أمياً لم يجلس إلى معلم ، وهذا بشهادة أعدائه ، فمن الذي علمه هذه الحروف ؟

إذن : فإذا رأيت هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمَّيات الحروف لا بأسمائها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢﴾

الذِّكْر : له معانٍ متعددة ، فالذكْر هو الإخبار بشيء ابتداءً ، والحديث عن شيء لم يكُنْ لك به سابق معرفة ، ومنه التذكير بشيء عرفته أولاً ، ونريد أن نُذكِّرك به ، كما في قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات]

ويُطلَق الذكْر على القرآن : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] وفي القرآن أفضل الذكر ، وأصدق الأخبار والأحداث . كما يُطلق الذكر على كل كتاب سابق من عند الله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]

والذِّكْر هو الصِّيت والرِّفْعة والشرف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف] وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : فيه صِيتكم وشرفكم ، ومن ذلك قولنا : فلان له ذِكْر في قومه .

ومن الذِّكْر ذِكْر الإنسان لربه بالطاعة والعبادة ، وذِكْر الله لعبده بالمثوبة والجزاء والرحمة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [مريم] أي : هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به .

والرحمة : هي تجليّات الراحم على المرحوم بما يُديم له صلاحه لمهمته ، إذن : فكلُّ راحم ولو من البشر ، وكلُّ مرحوم ولو من البشر ، ماذا يصنع ؟ يعطي غيره شيئاً من النصائح تُعينه على أداء مهمته على أكمل وجه ، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذي خلق الخلق ؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خَلْقه محمد ؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة ؛ لأنه ﷺ أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم ، فلا وَحْيَ ولا رسالة من بعده ، ولا إكمال . إذن : فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق ، ورحمة كل نبي تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته ، ومهمة محمد أكرم المهمات . .

وكلمة (رَحْمَة) هنا مصدر يؤدي معنى فعله ، فالمصدر مثل الفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول ، كما نقول : آلمني ضَرْب الرجل ولدَه . فمعنى : ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾ [مريم] أي : رحم ربُّك عبده زكريا .

لذلك قال تعالى : ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ .. ۝٢ ﴾ [مريم] لأنها أعلى أنواع الرحمة ، وإنْ كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا ، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

فالمراد من ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ ﴾ [مريم] يعنى هذا الذى يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذِكْر وحديث وخبر رحمة ربك التى هى أجلُّ الرحمات بعبده زكريا . وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخَلْق مهانة ومذلّة ، وهى كلمة بشعة لا تُقبل ، أما العبودية لله تعالى فهى عِزٌّ وشرف ، بل مُنتَهى العِزّ والشرف والكرامة ، وعللنا لذلك بأن العبودية التى تسوء وتُحزن هى عبودية العبد لسيد يأخذ خيره ، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده .

لكن ، ما نوع الرحمة التى تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله ﷺ بخبر عبده زكريا ؟

قالوا : لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة فى الكون ، وطلاقة القدرة فى أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبِّبات أسباباً ، ثم قال للأسباب : أنت لست فاعلة بذاتك ، ولكن بإرادتى وقدرتى ، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلى أبطلْتُ عملك ، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به .

ومن ذلك ما حدث فى قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار فى النار ، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم ، أو بجَعْل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم أن يُنجى إبراهيم ؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكِّن خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه ، أو أن يُنزل مطراً

يُطفيء ما أوقدوه من نار ، لكن ليست نكاية القوم في هذا ، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم ، أو نـزل المطر فأطفأ النار لقالوا : لو كُنَّا تمكنَّا منه لفعلنا به كذا وكذا ، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا .

إذن : شاءت إرادة الله أنْ تكيد هؤلاء ، وأن تُظهر لهم طلاقة القدرة الإلهية فتُمكِّنهم من إبراهيم حتى يلقوه في النار فعلاً ، ثم يأتي الأمر الأعلى من الخالق سبحانه للنار أن تتعطل فيها خاصية الإحراق : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء]

وكذلك في قصة رحمة الله لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة في مسألة الخَلْق ، وليلفتنا إلى أن الخالق سبحانه جعل للكون أسباباً ، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبَّب ، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا في الأسباب ؛ لأن الخالق سبحانه قد يعطيكم بالأسباب ، وقد يُلغيها نهائياً ويأتي بالمسبَّبات دون أسباب .

وقد تجلَّتْ طلاقة القدرة في قصة بَدْء الخَلْق ، فنحن نعلم أن جمهرة الناس وتكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة ، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسباب ، والخالق سبحانه يُدير خلقه على كُلِّ أوجه الخَلْق ، فيأتي آدم دون ذكر أو أنثى ، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر .

فالقدرة الإلهية ـ إذن ـ غير مُقيَّدة بالأسباب ، وتظلّ طلاقة القدرة هذه في الخَلْق إلى أنْ تقومَ الساعة ، فنرى الرجل والمرأة زوجين ، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه ، فهو القائل :

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا

وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى]

وطلاقة القدرة فى قصة زكريا عليه السلام تتجلى فى أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا فى أنْ يرزقه الولد . قال تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)﴾ [مريم]

أى : رحمه الله ، لكن متى كانت هذه الرحمة ؟

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾

أى : فى الوقت الذى نادى فيه ربه نداءً خفياً .

والنداء لَوْنٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى : خبر ، وهو أن تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب . وإنشاء ، وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قَوْلٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ؛ لأنك تريد أن تنشيء شيئاً من عندك ، فلو قُلْت : يا محمد فأنت تريد أن تنشيء إقبالاً عليك ، فالنداء - إذن - طلَبُ الإقبال عليك ، لكن هل يصح أن يكون النداء مع الله تعالى بهذا المعنى ؟ إنك لا تنادى إلا البعيد عنك الذى تريد أن تستدنيه منك .

فكيف تنادى ربك - تبارك وتعالى - وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم ؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً فى كل وقت ، فما الغرض من النداء هنا ؟ نقول : الغرض من النداء : الدعاء .

ووصف النداء هنا بأنه : ﴿نداء خفيا (٣)﴾ [مريم] لأنه ليس كنداء الخلْق للخلْق ، يحتاج إلى رفْع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء لله ـ تبارك وتعالى ـ الذي يستوي عنده السر والجهر ، وهو القائل ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور (١٣)﴾ [الملك]

ومن أدب الدعاء أنْ ندعوه سبحانه كما أمرنا : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية .. (٥٥)﴾ [الأعراف]

وهو سبحانه ﴿يعلم السر وأخفى (٧)﴾ [طه] أي : وما هو أخفى من السر ؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سراً ، علم أنه سيكون سراً

لذلك ، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفي ؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشيء ، إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضح أمره عند الناس .

أما الحق سبحانه فهو ستَّار يحب الستر حتى على العاصين ، وكذلك ليدعو العبد ربَّه بما يستحي أنْ يذكره أمام الناس ، وليكون طليقاً في الدعاء فيدعو ربه بما شاء ؛ لأنه ربُّه ووليه الذي يفزع إليه . وإنْ كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شيء ، فإن الله تعالى يفرح بك إن سألته .

لكن لماذا أخفى زكريا دعاءه ؟

دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده ؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء : يا رب لا ملجأ لي إلا أنت ، فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون ، وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته .

---

(١) أي : بما يخطر في القلوب . قاله ابن كثير في تفسيره (٢٩٧/٤)

اخفاه أيضاً ؛ لأنه طلب الولد في وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلاّ أنه لم يأتمنهم على منهج الله ؛ لأن ظاهر حركتهم في الحياة غير متسقة مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟ فإذا دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ؛ لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسِرُّه بينه وبين ربه تعالى .

سؤال آخر تنبغي الإجابة عليه هنا : لماذا يطلب زكريا الولد في هذه السن المتأخرة ، وبعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وأصبحت امرأته عاقراً ؟

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة في ذلك في الآيات القادمة فقال : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [مريم]

إذن : فالعلّة في طلب الولد دينية مَحْضة ، لا يطلبه لمغْنَم دنيوي ، إنما شَغفه بالولد لأنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد .

لذلك قوله : (يرثني) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، كما قال النبي ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] وبذلك يخرج النبي من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم .

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [مريم] أي : النبوة التي

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٥٨) ، والبخاري في صحيحه (٣٠٩٢) بنحوه عن عائشة رضي الله عنها . ولفظ مسلم : إن أزواج النبي ﷺ حين توفي ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا فهو صدقة ».

تناقلوها . فلا يستقيم هنا أبداً أن نفهم الميراث على أنه ميراث المال أو متاع الدنيا الفانى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. (١٦) ﴾ [النمل] ففى أىِّ شىء ورثه ؟ أورثه فى تركته ؟ إذن : فما موقف إخوته الباقين ؟ لابد أنه ورثه فى النبوة والملك ، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾

هذا هو النداء ، أو الدعاء الذى دعا به زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى .. (٤) ﴾ [مريم] ويرد فى الدعاء أن نقول : يارب ، أو نقول : يا الله ، فقال زكريا (رب) أى : يا رب ؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمن والكافر ، إنه يطلب الولد ، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب ، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى ، وإن كانت العلة فى طلب الولد إلهية ، وهى أنْ يحمل المنهج من بعد أبيه .

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه : يا ربِّ يا مَنْ تعطى مَنْ آمن بك ، وتعطى مَنْ كفر ، يا مَنْ تعطى مَنْ أطاع ، وتعطى مَنْ عصى ، حاشاك أن تمنع عطاءك عمَّن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٥٢/٦) : « للعلماء فيه ثلاثة أجوبة : قيل . هى وراثة نبوة . وقيل : هى وراثة حكمة . وقيل : هى وراثة مال . أما قولهم وراثة نبوة فمحال ، لأن النبوة لا تورث . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن » . وقال ابن كثير فى تفسيره (١١١/٣) : « اختار ابن جرير فى تفسيره قول أبى صالح : يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة » بتصرف .

أما الدعاء بالله ففي أمور العبادة والتكليف .

ثم يُقدِّم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] والوَهَن هو الضعف ، وقال : ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ.. ④﴾ [مريم] لأن لكل شيء قواماً في الصلابة والقوة ، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُّهْن له قوام ، واللحم له قوام ، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان ، والعَظْم هو أقوى هذه الأشياء ، والعَظْم في بناء الجسم البشرى مثل (الشاسيه) في لغة العصر الحديث ، وعلى العظم يبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب ، فإذا أصاب العظام - وهى أقوى العناصر - ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أَوْلَى .

لذلك ، فإن الرجل العربي حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال ؟ قال : مرتْ بنا سنون صعبة : فَسنة أذابتْ الشحم - أى : بعد الجوع وعدم الطعام - وسنة أذهبت اللحم - أى : بعد أن أنهت الشحم - وسنة محَّت العظم .

فكأن العَظْم هو آخر مخزن من مخازن القوت في جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب . والعظم في هذه الحالة يُوجِّه غذاءه للمخ خاصة ؛ لأنه ما دام في المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته ، إذن : فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ .

لذلك نجد الأطباء في الحالات الحرجة يُركِّزون اهتمامهم على سلامة المخ ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته ، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية ، أما إنْ توقف المخ فهذا يعنى الموت .

فكان نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ يقول : يارب ضعف عظمي ، ولم يَعُدْ لديَّ إلا المصدر الأخير لاستبقاء الحياة .

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد ، فهو حيثية باطنة ، فأراد زكريا عليه السلام أنْ يأتيَ بحيثية أخرى ظاهرة بينة ، فأتى بأمر واضح : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً .. ④﴾ [مريم] فشبَّه انتشار الشيب في رأسه باشتعال النار ، فالشعر الأبيض الذي يعلوه واضح كالنار .

والمتأمل في هذا التشبيه يجد أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما في الحطب الحيوية النباتية التي تمد النار ، فإذا ما انتهتْ هذه الحيوية النباتية في الحطب أخذت النار في التضاؤل ، حتى تصير جَذْوة لا لَهبَ لها ثم تنطفيء .

واشتعال الرأس بالشيب أيضاً دليل على ضعف الجسم ووَهَن قُوته ؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلوّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد في بُصَيْلة الشعرة ، وتُمد الشعرة بهذا اللون ، وضعْفُ الجسم يُضعف هذه المادة تدريجياً ، حتى تختفي ، وبالتالي تخرج الشعرة بيضاء ، والبياض ليس لوناً ، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعْف الجسم وضَعْف الغُدَد التي تفرز هذا اللون .

لذلك ، نجد المترفين الذين يعتنون كثيراً بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم ؛ لأن السوالف عادة بعد أنْ يُهذِّبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التي تؤثر على بُصَيْلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة ، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة .

ثم يقول : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ ﴾ [مريم] أى : لم أكُنْ فيما مضى بسبب دعائى لك شقياً ؛ لأنى مُستجَابُ الدعوة عندك ، فكما أكرمتنى سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك ، بل كنتُ سعيداً بالإجابة ، فلا تُخلف عادتك معى هذه المرة ، واجعلنى سعيداً بأنْ تُجيبنى ، خاصة وأن طلبى منك طاعة لك ، فأنا لا أريد أنْ أخرج من الدنيا إلاَّ وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج ، ويقوم بهذه المهمة من بعدى .

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه ، فإذا لم يأتِ ما تحبه ولم تجب حزنت وكأنك شقيت بدعائك ، وقد يكون شقاءً كذب ؛ لأنك لا تدرى الحكمة من المنع وعدم الإجابة ، لا تدرى أن الله تعالى يتحكم فى تصرفاتك .

وربما دعوْت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفى علم الله أنه لا خَيْرَ لك فيه ، فمنعه عنك وعدَل لك ما أخطأتَ فيه من تقدير الخير ، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك ، وأحسن إليك من حيث ترى أنه حرمك ، لأنك طلبتَ الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس فى ذلك .

ثم يذكر زكريا عليه السلام عِلّة أخرى هى علة العِلَل ولُبّ هذه المسألة ، فيقول :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ ﴾

(الموالى) من الولاء ، وهم أقاربه من أبناء عمومته ، فهم الجيل الثانى الذى سيأتى بعده ، ويخاف أنْ يحملوا المنهج ودين الله من

بعده ؛ لأنه رأى من سلوكياتهم فى الحياة عدم أهليتهم لحمل هذه المهمة .

﴿مِن وَرَائِي .. ۝٥﴾ [مريم] سبق أن أوضحنا فى سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتى بمعنى : خلف ، أو أمام ، أو بعد ، أو غير . وهنا جاءت بمعنى : من بعدى .

ثم يقول : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] والعاقر هى التى لا تلد بطبيعتها بداية ، أو صارت عاقراً بسبب بلوغها سنَّ اليأس مثلاً . ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، وقد سبق أنْ وصفَ زكريا حاله من الضعف والكبر ، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقرٌ لا تلد ، إذن : فأسباب الإنجاب جميعها مُعطَّلة .

وقوله : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] أى : هى بطبيعتها عاقر ، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئاً عليها ؛ فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك .

ثم يقول : ﴿فَهَبْ لِي .. ۝٥﴾ [مريم] والهِبَة هى العطاء بلا مقابل ، فالأسباب هنا مُعطَّلة ، والمقدمات تقول : لا يوجد إنجاب ؛ لذلك لم يقُلْ مثلاً : أعطنى ؛ لأن العطاء قد يكون عن مقابل ، أما فى هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات ، فكأنه قال : يارب إنْ كنتَ ستعطينى الولد فهو هبَة منك لا أملك أسبابها ؛ لذلك قال فى آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ[1] إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ۝٣٩﴾ [إبراهيم]

---

(١) كان عُمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين بُشِّر بإسماعيل وإسحاق (١١٧) عاماً . قاله سعيد ابن جبير فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٩) .

ولذا رقّة، ولاحظ في قوله تعالى ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] حيث قال المفسرون: (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل؟ لا بد أن وراء هذا اللفظ إضافة جديدة، وهي أن (مع) تفيد المعية فقط، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء، فكأنه قال: إن الكِبَر يا رب يقتضي ألاّ يوجد الولد، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكِبَر.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] كأن الظلم يقتضي أن يعاقبوا، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم علتْ على استحقاق العقاب.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ .. (٥)﴾ [مريم] أي: من عندك أنت لا بالأسباب (وليا) أي: ولداً صالحاً يليق في حَمْل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لتسلَم لهم حركة الحياة.

ثم يقول:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والملْك، وحمْل منهج الله إلى الناس. ونلحظ أنه لم يكتف بقوله (يرثُني) بل قال ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. (٦)﴾ [مريم] فلستُ أنا القمة في الطاعة في آل يعقوب، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم.

وقوله : ﴿ واجعله رب رضيا (٦) ﴾ [مريم] أى : مرضياً عنه منك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ ﴾

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقة فى نباهة السامع ، وأنه قادر على إكمال المعنى ، فكأن معنى الآية : سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه ، فأجابه بقوله : ﴿ يٰزكريا .. (٧) ﴾ [مريم]

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه ، فجاءت الإجابة مباشرة دون مُقدِّمات .

ومثال ذلك : ما حكاه القرآن من قصة سليمان ـ عليه السلام ـ وبلقيس ، قال سليمان : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتونى مُسلمين (٣٨) قال عفريتٌ من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوىٌّ أمين (٣٩) قال الذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفُك[1] فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفرُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

فبيِّن قوله : ﴿ قبل أن يرتدَّ إليك طرفك .. (٤٠) ﴾ [النمل] وقوله : ﴿ رآه مُستقراً عنده .. (٤٠) ﴾ [النمل] كلام يقتضيه سياق القصة ، كأن تقول : فأذن له فذهب وأتى بالعرش ، لكن جاء الأسلوب سريعاً

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك .. (٤٠) ﴾ [النمل] . أى : بسرعة ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/ ٤٠٠]

ليتناسب مع سرعة الحدث في إحضار عرش بلقيس من مكانه .

وقوله : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ .. ۝ ﴾ [مريم] البشارة : هي الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجيء ليستطيل أمدَ الفرح بالشيء السَّار ، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب في البُشْرى ، وقد تأتي الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه ، فكيف بك إذا بشَّرك الله تعالى ؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حَقٌّ وواقعٌ لا شكَّ فيه .

وقوله : ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. ۝ ﴾ [مريم] أي : وسماه أيضاً . ونحن نعلم أن للبشر اختيارات في وَضْع الأسماء للمسميات ، ولهم الحرية في ذلك ، فواحدة تُسمي ولدها (حرنكش) هي حرة ، والأخرى تسمي ابنتها الزنجية (قمر) هي أيضاً حرة .

إلا أن الناس حين يُسمُّون يتمنون في المسمَّى مواصفات تَسرُّ النفس وتقرُّ العين ، فحين نُسمِّي سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً ، والاسم وُضِع للدلالة على المسمى ، لكن ، أيملك هذا المتفائل أن يأتي المسمى على وَفْق ما يحب ويتمنى ؟ لا ، لا يملك ذلك ولا يضمنه ؛ لأن هناك قوة أعلى منه تتحكم في هذه المسألة ، وقد يأتي المسمَّى على غير مُراده .

أما إذا كان الذي سمَّى هو الله تعالى فلابد أن يتحقق الاسم في المسمَّى ، وينطبق عليه ، ولابُدَّ أنْ يتحقَّق مراده تعالى في مَنْ سمَّاه ، وقد سمَّى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحي فلا بُدَّ أن تنطبق عليه هذه الصفة ، ويحيى فعل ضده يموت ، إذن : فهو سبحانه القادر على أن يُحييه ، لكن يحييه إلى متى ؟ وكم عاماً ؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً ، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة .

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حياً كما سماه الله وقد كان .

وقوله : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞﴾ [مريم] السميُّ : اختلف العلماء في معناها فقالوا : تأتي بمعنى : نظير أو مثيل أو شبيه وإما سمياً يعني : اسمه كاسمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۞﴾ [مريم] فقالوا : سمياً هنا تحمل المعنيين : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً : لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ۞﴾ [الشورى] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞﴾ [الإخلاص]

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضاً في قصة يحيى عليه السلام ، إلا أنه يقع فيه شيء وهو : أن الله تعالى حينما قال في مسألة يحيى : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞﴾ [مريم] واعتبرناها بمعنى المثل أو النظير والشبيه ، فهذا يعني أنه لم يسبق يحيى واحد مثله في الصلاح والتقوى ، فأين - إذن - أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ وأين إسماعيل وإسحق ؟

فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله في غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى جعل من قَبْل يحيى مَنْ هو أفضل من يحيى ، أو مثله على الأقل .

أما المعنى الآخر فيكون : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۞﴾ [مريم] أي : هل هناك مَنْ تسمى باسمه تعالى ؟ وهذا هو المعنى الذي يستقيم في قصة يحيى عليه السلام ؛ لأنه أول اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا ، ولم يكن أحدٌ تسمى به من قبل ، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم ، حتى قال الشاعر :

وسَمّيتُه يَحْيى ليحيى فلم يكُنْ لِــردِّ قضـاءِ الله فيــه سبيلُ

ونقف هنا على آية من آيات الله في التسمية ، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه ، لم يجرؤ أحدهم أن يسمي ولده (الله) ، وحرية اختيار الأسماء مكفولة ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على أن كفرهم عناد ولَجَجٌ ، وأنهم غير صادقين في كُفْرهم ، ويعلمون أن الله موجود ؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أنْ يُسمّوا بهذا الاسم

إذن : كلمة (سميا) في مسألة الألوهية تُؤخَذ على المعنيين أما في مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثاني .

وَهبْ أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد في الماضي من سُمِّي (الله) فأعلنها تحديًا . ﴿ هل تعلمُ لهُ سميًا ۝٦٥ ﴾ [مريم] ؟ فلم يحدث بعد هذا التحدي أنْ يُسمَّى أحد بهذا الاسم .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه ، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك في أنْ يُوغل في معرفة الوسيلة . وكيف سيتم ذلك ، وتتحقق هذه البشارة حالَ كوْنه قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته عاقر ؟

لكنْ ماذا يقصد زكريا من سؤاله ، وهو يعلم تمامًا أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه ؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى ، ولا يستدرك على الله ، وحاشاه أنْ يقصد ذلك ،

وإنما أطمعته البُشْرى فى أنْ يعرف الكيفية ، كما حدث فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ حينما كلَّمه ربه واختاره ، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام فى أنْ يطلب الرؤيا ، فقال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

وكما حدث فى قصة ـ إبراهيم عليه السلام ـ لما قال لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] وأبو الأنبياء لا يشكّ فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة ، فالكلام ليس فى الحقيقة وجوداً وعدماً ، إنما فى كيفية وجود الحقيقة ، والكلام فى الكيفية لا دخْلَ له بالوجود

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشَر عملياً ، فأمره بما نعلم من هذه القصة : وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه ، ثم يضمهنّ إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها ، ثم أمره أنْ يُقطّعهن أجزاء ، ثم يُفرِّق هذه الأجزاء على قمم الجبال ، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أنْ يدْعُوَهُن بنفسه ، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد ، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل ، بل جعل مَنْ لا يستطيع ذلك يفعله ، ويقدر عليه[1] .

فإنْ كان البشر يُعدُّون أثر قدرتهم إلى الضعفاء ، فمَنْ لا يقدر على حَمْل شيء يأتي بمَنْ يحمله له ، ومَنْ يعجز عن عمل شيء يأتى بمَنْ يقوم به ، ويظل هو ضعيفاً لا يقدر على شيء ، أما الحق سبحانه وتعالى فيُعدِّى قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قوياً قادراً على الفعل

---

(١) يقول تعالى فى هذا لإبراهيم : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة] .

فقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ۝﴾ [مريم] ؟ سؤال عن الكيفية ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن .. ۝﴾ [البقرة] ؟ أي : بقدرتي على إحياء الموتى ، قال (بلى) أي : نعم أومن ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ۝﴾ [البقرة] أي : إلى الكيفية التي يتم بها الإحياء .

أو : أن زكريا عليه السلام بقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ۝﴾ [مريم] يريد أن يُوثِّق هذه البشرى ويُسجِّلها ، كما تَعِد ولدك بأنْ تشتري له هدية فيُلِحّ عليك في هذه المسألة ليؤكد وَعْدك له ، ويستلذ بأنه وَعْد مُحقَّق لا شكَّ فيه ، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُّبه من هذا الأمر فيقول :

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝﴾ [مريم]

عتياً : من عَتَا يعني طغى وتجبر وأفسد كثيراً ، والعُتُو : الكفر ، والعَتِيّ : هو القوي الذي لا يُغالب ؛ لذلك وصف الكِبَر الذي هو رمز الضعف بأنه عتِيّ ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته ، أو دفعه أبداً ، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات) .

ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام ، وتُلِح عليه ؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد ، ففي موضع آخر يقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝﴾ [الأنبياء] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذي يَرِثه وهو موروث ؛ لأن الله تعالى خير الوارثين .

لكن يأتي الرد : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ .. ⁽٩٠⁾ ﴾ [الأنبياء]. ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. ⁽٩٠⁾ ﴾ [الأنبياء] التي ستنجب هذا الولد ، قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ .. ⁽٩٠⁾ ﴾ [الأنبياء] فصلاح الزوجة ليس شرطاً في تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة .

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التي لا يُعجزها شيء ، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر ، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حَدٍّ ، كما لو تعطَّل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبتَ به إلى الكهربائي لإصلاحه فوجد التلفَ به كبيراً ، فينصحك بتركه وشراء آخر جديد ، فلا حيلةَ في إصلاحه .

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظنَّ أن يحيى جاء بطريقة أخرى ، والزوجة ما تزال على حالها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⁽٩⁾ ﴾

(قَالَ) أي : الحق تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. ⁽٩⁾ ﴾ [مريم] أي : أنه تعالى قال ذلك وقضى به ، فلا تناقش في هذه المسألة ، فنحن أعلم بك وما أنتَ فيه من كِبَر ، وأن زوجتك عاقر ، ومع ذلك سأهبك الولد .

---

(١) قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجُعلت ولوداً . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قال القرطبي . ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً . (تفسير القرطبي ٤٥١٦/٦) . وقال ابن كثير في تفسيره (١٦٢/٣) « والأظهر من السياق الأول » .

وقوله تعالى : ﴿هو علي هين .. (٩)﴾ [مريم] وفي آية أخرى يقول في آية البعث : ﴿وهو أهون عليه .. (٢٧)﴾ [الروم] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شيء هين وشيء أهون ، وشيء شاق ، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا .

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا ، فالخلق من موجود أهون في نظرنا من الخلق من غير موجود ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس[1] من خلق جديد (١٥)﴾ [ق]

إذن : فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سهل وأسهل أو صعب وأصعب ، لأن هذه تقال لمن يعمل الأعمال علاجاً ، ويزاولها مزاولة ، وهذا في أعمالنا نحن البشر ، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال ، بل يقول للشيء كن فيكون : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢)﴾ [يس]

ثم يدلل الحق سبحانه وتعالى بالأقوى ، فيقول : ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٩)﴾ [مريم] فلأن يوجد يحيى من شيء أقل غرابة من أن أوجد من لا شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠﴾

---

(١) في لبس : أي : في شك ، ولبس الشيء : خلطه وعماه وأبهمه وجعله مشكلاً عسيراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨]

(آية) أى : علامة على أن امرأته قد حملتْ فى يحيى ، وكان زكريا عليه السلام يتعجل الأمور ولا صبر له طوال تسعة أشهر . بل يريد أن يعيش فى ظلِّ هذه النعمة ، وكأنها واقع لا ينفكّ لسانه حامداً شاكراً عليها . وتظل النعمة فى باله رغم أن ولده ما يزال جنيناً فى بطن أمه .

فيجيبه ربه : ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)﴾ [مريم] علامتك ألاَّ تُكلِّم الناس ثلاث ليال و (ألاَّ) ليست للنهى عن الكلام ، بل هى إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته ، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون عِلَّة تمنعه من الكلام ، كخرس أو غيره .

لذلك قال : ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)﴾ [مريم] أى : سليماً مُعافَىً ، سوىّ التكوين ، لا نقص فيك ، ولا قصور فى جارحة من جوارحك ، وهكذا لا يكون عدم الكلام عَيْباً ، بل آية من آيات الله .

وهناك فَرْق بين أمر كونىٍّ وأمر شرعى ، الأمر الكونيُّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار فى ألاَّ يكون ، والأمر الشرعىّ ما لك فيه اختيار من الممكن أن تطيعه فتكون طائعاً ، أو تعصيه فتكون عاصياً .

وهذا الذى حدث لزكريا أمر كونى ، وآية من الله لا اختيار له فيها ، وكأن الحق سبحانه يعطينا الدليل على أنه يوجد منْ لا مظنَّة أسباب ، وقد يبقى الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبَّب ، فاللسان هنا موجود ، وآلات النطق سليمة ، ولكنه لا يقدر على الكلام .

فتأمل طلاقة القدرة ، فقد شاء سبحانه لزكريا الولد بغير أسباب ، وهنا منع مع وجود الأسباب ، فكلا الآيتين سواء فى قدرته تعالى ومشيئته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

إذن : حدثتْ هذه المسألة لزكريا وهو فى (المحرَابِ) أى : مكان العبادة والصلاة ، وعادةً ما يكون مرتفعاً على شرف عما حوله ، وكان مصلى الأنبياء والصالحين ، وسُمى محراباً لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته . وقد ذُكر المحراب أيضاً فى قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ص]

وقد وردتْ هذه اللقطة من قصة زكريا عليه السلام فى آية أخرى دلَّتْ أيضاً على أن البشارة بيحيى كانت وهو فى محرابه ، حيث قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [مريم] قلنا : إن الوَحْى له معنى لُغَوىّ ومعنى شرعى ، الوحى لُغةً : الإخبار بطريق خفىٍّ . وعلى هذا المعنى يأتى الوحى بطرق متعددة ، فالله تعالى يُوحى للرسل والأنبياء ، ويُوحى لغير الرسل من المصطفين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] أى : أخبرها بطريق خفىٍّ ، هو طريق الإلهام .

ويُوحِي إلى الملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحِي للصالحين من أتباع الرسل : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

ويتعدَّى الإعلام بخفاء إلى الحشرات : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

بل يتعدَّى الوحي إلى الجماد في قوله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يُوحي الشياطين بعضهم إلى بعض : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

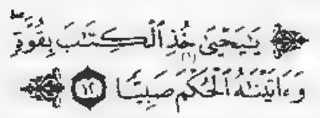
ويُوحون إلى أوليائهم : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام] لأن الشيطان لا يأتي الإنسان إلا بطريق خفيٍّ ، ووسوسة في خواطره .

أما الوحي الشرعي فهو إعلام من الله وحده إلى نبي يدَّعي النبوة ومعه معجزة . إذن فالوحي : إعلام خفيٌّ من الله للرسول .

فقوله تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. (١١)﴾ [مريم] أي : قال لهم بطريق الإشارة ؛ لأنه لا يتكلم ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾ [مريم] بُكرة : أول النهار ، وعَشياً : آخره ، يعني : طوِّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية . وكان زكريا عليه السلام قد بدتْ عليه علامات الفرح

والانبساط بالبُشْرى ، ورأى أن شُكْره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة ، فأمر قومه أنْ يُسبِّحوا الله معه ، ويشكروه معه على هذه النعمة ؛ لأنها لا تخصُّه وحده ، بل هى عامة لكل القوم .

ثم يقول تعالى :



نلحظ أن الآية الكريمة انتقلتْ بنا نَقْلة واسعة ، وطَوَتْ فترة طويلة من حياة يحيى - عليه السلام - فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده ، وهو ما يزال فى بطن أمه جنيناً ، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] فقد بلغ مبلغ النُّضْج ، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة ، إذن : المسألة مأخوذة مأخَذ الجدّ ، وهى حقيقة واقعة .

وقوله ﴿ خُذِ الْكِتَابَ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى التوراة ، وفيها منهج الله الذى يُنظِّم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به ؛ لأن العلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط بل وتعمل به .

وإلا فقد قال تعالى فى بنى إسرائيل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ

(١) الحكم : الأحكام والمعرفة بها . قال مجاهد : الفهم . وقال معمر بن راشد : بلغنى أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . قال : ما للعب خلقت . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥]

ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. (٥)﴾ [الجمعة] فقد حمّلهم الله التوراة ، فلم يحملوها ولم يعملوا بها .

والقوة : هي الطاقة الفاعلة التي تدير دولاب الحياة حركةً وسكوناً ، وخُذْ مثلاً سفينة الفضاء التي تنطلق إلى الفضاء الخارجي ، وتظل تدور فيه عدة سنوات وتتساءل : من أين لها بالوقود الذي يُحرّكها طوال هذه المدة ؟ والحقيقة أنها لا تحتاج إلى وقود إلا بمقدار ما يُخرجها من مدار الجاذبية الأرضية ، فإذا ما خرجت من نطاق الجاذبية وهي متحركة تظل متحركة ولا تتوقف إلا بقوة توقفها ، وكذلك الساكن يظل ساكناً إلى أنْ تأتي قوة تحركه .

إذن : القوة إمّا أنْ تُحرّك الساكن أو تُسكّن المتحرك وتصده ، ومن ذلك ما نراه في السكك الحديدية من مصدّات تُوقف القطارات ؛ لأنك إنْ أردتَ أن توقف القطار تمنع عنه الوقود ، لكن يظل به قوة دفع تحركه تحتاج إلى قوة معاكسة توقفه ، وهذا ما يسمونه قانون العطالة . يعني : إن كان الشيء متحركاً فيحتاج إلى قوة توقفه ، وإن كان ساكناً يحتاج إلى قوة تحركه .

ومن ذلك قانون القصور الذاتي الذي تعلمناه في المدارس ، وتلاحظه إذا تحركتْ بك السيارة تجد أن جسمك يندفع للخلف ؛ لأنها تحركتْ للأمام وأنت ساكن ، فإنْ توقفتْ السيارة تحرك جسمك للأمام لأنها توقفت وأنت متحرك . إذن : هذه الأشياء التي تتحرك في الكون أو الساكنة نتيجة قوة .

فقوله تعالى : ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢)﴾ [مريم] لأن الكتاب فيه

أوامر وفيه نَوَاهٍ ، يأمر بالخير وينهاك عن الشر ، فإنْ أمركَ بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوة دَفْع تدفعك إلى الخير ، وكأنك كنتَ ساكناً تحتاج إلى قوة بحركك ، وإنْ نهاك عن الشر وأنت تفعله فأنت في حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك في الشر . والمنهج هو هذه القوة التي تُحرِّكك إلى الخير وأنت ساكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] الحكم : العلم والفهم للتوراة ، أو الطاعة والعبادة ، ﴿ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] في سِنٍّ مبكرة[1] ؛ لأن المسألة عطاء من الله لا يخضع للأسباب ، فجاء يحيى عليه السلام مُبكِّر النضج والذكاء ، يفوق أقرانه ، ويسبق زمانه ، وقد أُثِر عنه وهو صغير أنْ دعاه أقرانه للعب فقال لهم : « ما للعب خُلِقْنا »[2] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) ﴾

ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حال كِبَر وضعف والديه ، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشمله بالعطف والحنان ، ويُعوِّضه حنان الوالدين ، ويحتاج إلى مَنْ يُعلِّمه ويُربِّيه ؛ لذلك تولَّى الحق سبحانه وتعالى هذه المهمة ، فهو سبحانه خالقه ومُسمِّيه ومُتولِّيه فوهبه حناناً منه

(١) قال قتادة ومقاتل : وهو ابن ثلاث سنين . [الدر المنثور ٥/٤٨٤] وعزاه لعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد وابن أبي حاتم . وأورد حديثاً عن ابن عباس عزاه لأبي نعيم وابن مردويه والديلمي أن رسول الله ﷺ قال : « أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » .

(٢) أخرجه الحاكم في تاريخه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال يحيى : ما للعب خلقنا . اذهبوا نصلي » . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

سبحانه ﴿مِن لَّدُنَّا .. (١٣)﴾ [مريم] من عندنا ؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ.

وقوله : ﴿وَزَكَاةً .. (١٣)﴾ [مريم] أى : طهارة من الذنوب وصفاءَ نفْسٍ وبركة ، وهذه كلها نتيجة التربية الإلهية بمنهج الله الذى يرسم له حركته فى الحياة : افعل كذا ولا تفعل كذا .

﴿وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)﴾ [مريم] أى : استجاب لهذا الحنان ، وأثمرت فيه هذه التربية فكان تقياً ، أى : مُنفذاً لأوامر الله مُجتنباً لنواهيه ، وبذلك وقَى نفسه من صفات الجلال من الله تعالى .

وقلنا : إن التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما تتقيه مانعاً يحميك ويبعدك عن إيذائه ، فنقول : اتقِ الله واتقِ النار ، كيف ذلك ونحن نريد أن نصل إلى معيته سبحانه ؟

نقول : اتق الله أى : اجعل بينك وبين صفات جلاله وجبروته وقايةً تحميك من جبروته وجباريته وقهره ، فلستَ مطيقاً لأدنى شىء من العذاب ، والنار من جنود الله ومظهر من مظاهر قهره ، فاتقاء النار جزء من اتقاء الله ، والوقاية التى تحميك من صفات الجبروت والجلال هى الطاعة بامتثال الأوامر والنواهى .

ثم يقول تعالى :

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾

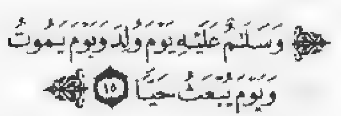
فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه فى حال كِبَرهما وضعفهما ، ولم يجد منهما الحنان الكافى والتربية المناسبة ، ولم

يشعر معهما بالأبوة الكاملة ، فكان دورهما في حياته ثانويا ، وصاينهم عليه باهتة متواضعة ، مع هذا كله كان باراً بهما حانياً عليهما . وقال عنه أيضاً : ﴿ولَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾ [مريم]

وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه ، إلا حين يرى من أبيه شروداً عنه وانصرافاً عن رعايته ، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته ، فهي تاركة له غير مُراعية لحقه .

لذلك نرى صوراً من هذا الجبروت ومن هذا العصيان ، ونسمع منْ يقسو على أمه وعلى أبيه ؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية ، فتقطعتْ بينهما أواصر الأبوة . ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث ، وقصَّ عليه قصّته ، فتفهّم الولد دور والديه ونفى عنهما أيّ تقصير ، فكان بهما باراً رحيماً ، ولهما طائعاً متواضعاً .

ثم يقول الحق سبحانه



هذه مسائل ثلاث تُعدُّ أعلام حياة للإنسان : الميلاد ، والموت ، والبعث . وقد خصَّه الله بالسلام يوم مولده ؛ لأنه وُلد على غير العادة في الميلاد فأُمّه عاقر قد أسنتْ ، ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها ، وهي على هذا الوصف ، فلم يتجرأ أحد عليها ؛ لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله وقد بشَّر الله بها

زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .

وخَصَّه بالسلام يوم يموت ؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة موصولة بالحياة الأبدية الخالدة ، وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حياً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ[1] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى ؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأت به ، وهو كافلها ومُتولّى أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رزْقاً لم يحمله إليها ، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها ، فقال لها : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكان هذه أول بداية قانون : من أين لك هذا ؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .

وشاءتْ إرادة الله أن تنطقَ مريم بهذه المقولة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء ،

(١) انتبذ : اعتزل ورمى نفسه بعيداً عن الناس . أي : أن مريم اعتزلت أهلها في مكان شرقي . [القاموس القويم ٢/٢٥١] .

وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .

وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا ـ عليه السلام ـ إلى فَضْل الله وسعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبى الله ، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها ؛ لذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدى ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنّ أو العُقْم أو خلافه .

إذن : فمريم هى التى أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى ؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شيء حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها فى طعام لم يَأْتِ به أحد إليها ، وفى حَمْل زوجة زكريا وهى عاقر لا تلد .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ .. (١٦)﴾ [مريم]

الكتاب هو القرآن الكريم ، أى : اذكُر يا محمد فى كتاب الله الذى

أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة في سورة (آل عمران) لما تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن نَذْر أمها لما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشقة هذا العمل ، فلما وضعتْها أنثى لم يوافق ظنَّها إرادة الله ، ولم تستطع مريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسها لخدمته قيماً ، ودينا حملتْ نفسها عليه حَمْلاً ، حتى إنها هجرتْ أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذى اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُن الناس .

ومريم هي ابنة عمران ، وقد قال القرآن في خطابها : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس ، فظنوها أخت نبي الله موسى بن عمران وأخت هارون أخي موسى عليهما السلام .

والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء ؛ لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها : إنكم تقولون : إن مريم هي أخت موسى وهارون ، مع أن بين مريم وعمران أبي موسى أحد عشر جيلاً !!

فقال رسول الله ﷺ : « أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذكر الأسماء خاصة الأنبياء فيُسمّون على أسمائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون »[1] .

حتى ذكروا أنهم في جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٣٥) ، والترمذي في سننه (٣١٥٥) من حديث المغيرة ابن شعبة . قال الترمذي : هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس .

رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة . فهي ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص في قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفْردة بين نساء العالم بشيء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصي لن يتكرر في واحدة أخرى من بنات حواء

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرّر فتأتي القصة دون تشخيص ، كما في حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذي قام في بيت الكفر وفي عُقْر داره . فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها في الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة في عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبي أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم]

﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا .. (١٦)﴾ [مريم] أي : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشيء عنه أي أبعده . فكان أُنْسها لا بالأهل ، ولكن أُنْسها كان برب الأهل . والقرآن يقول . ﴿مِنْ أَهْلِهَا .. (١٦)﴾ [مريم] ولم يقُلْ من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبّهم عندها وذهبت . إلى هذا المكان .

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم] لكن شرقي أيّ شيء ؟ فكل مكان

يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهي - إذن - كلمة دائرة في كل مكان . لكن هناك علَم بارز في هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقي بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات ؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس[1] ، لأنها سِمَة النور الماديّ الذي يسير الناس على هُداه فلا يتعثرون ، وللإنسان في سَيْره نوران : نور ماديّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذي يظهر له الأشياء من حوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه في مسائل القيم ، حتى لا يتخبّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] ثم يقول بعدها : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

أي : نور السماء الذي ينزل بالوحي لهداية الناس .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٢٦١/٥) : « إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار . وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها . حكاه الطبري . وحُكي عن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ [مريم] . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة » .

الحجاب : هو الساتر الذى يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فما فائدة أنْ تتخذ بينها وبين أهلها ستْرا بعد أن ابتعدتْ عنهم ؟ نقول : انتبذتْ من أهلها مكاناً بعيداً ، هذا في المكان ، إنما لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

والحجاب قد يكون حجاباً مُفْرداً فهو ساتر فقط ، وقد يكون حجاباً مستوراً بحجاب غيره ، فهو حجاب مُركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن الستائر من طبقتين ، إحداهما تستر الأخرى ، فيكون الحجاب نفسه مَسْتوراً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. (١٧) ﴾ [مريم]

كلمة الروح في القرآن الكريم لها إطلاقات مُتعدّدة ، أولها الروح التى بها قِوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح فى المادة دبّتْ فيها الحياة والحسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

لكن ، هل هذه الحياة التى تسرى فى المادة بروح من الله هى الحياة المقصودة من خَلْق الله للخَلْق ؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحياة هى المقصودة فما أهونها ؛ لأن الإنسان قد يمرُّ بها ويموت بعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هى حياة قصيرة حقيرة هيِّنة ، هى أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذى كرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن

تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

﴿ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهى مُهدَّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها موت فهى فى الآخرة .

فإذا كان الخالق - تبارك وتعالى - جعل لك روحاً فى الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك فى الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فكيف يدعوهم لما يُحييهم ، ويُخاطبهم وهم أحياء ؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التى لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السرَّ الذى ينفخه فى المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة « روحاً » ، كذلك سمَّى القيم التى تحيا بها النفوس حياة سعيدة « روحاً » ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] أى : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملَك الذى ينزل بالروح رُوحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] وهو جبريل عليه السلام .

إذن - فقوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا .. (١٧) ﴾ [مريم] أى : جبريل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشرا سويا (١٧) ﴾ [مريم] معنى تمثل : أى : ليست هذه حقيقته ، إنه تمثّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى ، وذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع . فلماذا - إذن - جاء الملك مريم فى صورة بشرية ؟

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء حقيقة ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقىَ الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته . فلكل منهما قانونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولابُدّ فى لقائهما أنْ يتصوّر الملك فى صورة بشر ، أو يُرقّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقّى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج . ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملكاً ردّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ﴾ [الأنعام] إذن . لا يمكن أن يلتقى الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب

جاء جبريل - عليه السلام - إلى مريم فى صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأته على صورته الملائكية ﴿ فتمثل لها بشرا .. (١٧) ﴾ [مريم] أى : من جنسها ﴿ سويا (١٧) ﴾ [مريم]

أى : سوىّ الخِلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر . فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى فى بعض الناس .

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة ؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه في الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن :

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾

فلم تُظهِر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .

وقولها : ﴿ أَعُوذُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ أي : ألجأ وأعتصم بالله منك ؛ لأنني أخاف أنْ تفتك بي ، أو تعتدي عليّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لي ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذي يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .

ولما خطب النبي ﷺ امرأة[1] ، وكانت على شيء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها - وكانت غِرَّة ساذجة - أن رسول الله ﷺ يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : « لقد استعذت بمعيذ ، الحقي بأهلك »[2] .

فقول مريم : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم] لأن المؤمن التقيّ هو الذي يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها

---

(١) جاء في تاريخ الطبري أنها مليكة بنت داود الليثية (١٢٢/٢) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبي أسيد رضي الله عنه .

قالتْ : إنْ كنت تقياً فابتعد عني ، واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تقياً مؤمناً أن يبتعد عنها رحمةً بها وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذي يحميها ويحرسها منه .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾

قال : ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] ولم يقلْ رسول الله ؛ لأن الربَّ هو المتولّي للتربية الذي يُحسنها ويصونها من الفساد ، فعطاء الربوبية عطاء مادىّ ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوى قِيَمى هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذي يتولاّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافي .

وقوله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية ، فالهبة في هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا في قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن في حالة مريم فهي أنثى بلا ذكر ، فهنا الهِبَة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : ﴿ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ أي مُنَقًّى مُطهّر صافي الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم :

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(أنَّى) استفهام عن الكيفيات التي يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : ﴿يَمْسَسْنِي .. (٢٠)﴾ [مريم] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هي الزواج الشرعي الذي شرعه الله لعباده للتكاثر وحفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذا اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْبًا عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٢٠)﴾ [مريم] لا في الحلال ، ولا في الحرام ، وأنا بذاتي ﴿لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] إذن : فمن أين لي بالغلام ؟

وكلمة : مسّ جاءتْ في القرآن للدلالة على الجماع ، كما في قوله تعالى : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ .. (٢٣٦)﴾ [البقرة] فالمراد بالمسّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : ﴿لامَسْتُمُ النِّسَاءَ .. (٤٣)﴾ [النساء] بأنه الجماع ؛ لأن القرآن أطلق المسّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهي مُفَاعلة بين اثنين ، فهي من باب أَوْلَى تعني : جامعتم .

وقولها : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] البغيُّ : هي المرأة التي تبغي الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغِيّ : التي تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : ﴿بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] مبالغة فى البَغْى وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِىّ ولم تقُلْ باغية ؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة فى هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩)﴾ [مريم] أى : أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذى يملك التنفيذ ، فلِمَ التعجب إذن ؟

وهنا نجد بعض المتوركين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ) بالفتح فى قصة زكريا وبالكسر فى قصة مريم (كذلك) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة ؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التى تُفتح فى خطاب المذكر ، وتُكسر فى خطاب المؤنث .

وهنا أيضاً قال : (ربك) أى : الذى يتولى تربيتك ورعايتك ، والذى يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربَّى .

وقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١) ﴾ [مريم] كما قال في مسألة البعث بعد الموت : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] فكلمة هيّن وأهْوَن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - لا تُؤخَذ على حقيقتها ؛ لأن هيّن وأهوَنَ تقتضي صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فِعْلَ الإنسان في معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هيّن وأهون منه ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجةً ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١) ﴾ [مريم] أي : بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خلقتكم من غير شيء ، فإعادتكم من شيء موجود أمر هيّن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١) ﴾ [مريم]

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهِر الحق سبحانه قدرته في الخلق وطلاقة قدرته فقط ؟ لا ، بل هناك هدف آخر ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢١) ﴾ [مريم] أي : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية في الحُسْن ، آية في الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشيء الذي يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق - تبارك وتعالى - كما خلق آدم - عليه السلام - من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى - عليه السلام - من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

إذن : فهذا أمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس فى أنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى فى الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية . بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية فى خَلْق عيسى عليه السلام أمْ فى أمه ؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من أب وأم ، فالآية - إذن - فى أمه ، ما هو السبب الأصيل فى هذه الآية ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليسا آيتين ؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١)﴾ [مريم] ووجْه الرحمة فى خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا فى أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتى فى الخَلْق من شىء ، ومن بعض شىء ، ومن لا شىء .

وقوله : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾ [مريم] أى : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش فى كيفيتها ؛ لأن الكلام عن شىء فى المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأىِّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتى غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذى يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾ [مريم]

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضى الذى حدث قبل الكلام ، والمضارع الذى يحدث فى الحال ، أو فى الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً فى الماضى ، وليس كذلك فى الحاضر والمستقبل ؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضى ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخَلْق وبصفة الخَلْق خَلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة ؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة - إذن - أزلية فى الحق سبحانه ، فإذا قلت : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة فى استهلال سورة النحل : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه

الآية ، كيف يقول سبحانه (أتى) بصيغة الماضى ، ثم يقول : ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل] أي : في المستقبل ؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أتى) فهذه قضية منتهية لا شكَّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضى وهى فى الواقع أمر مستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ㉒ ﴾

(فَحَمَلَتْهُ) أى : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضى حاملاً ومحمولاً . ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ㉒ ﴾ [مريم] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهذا ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ .. ㉒ ﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عن القوم لما أحستْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ㉓ ﴾

﴿ فَأَجَاءَهَا .. ㉓ ﴾ [مريم] الفعل جاء فلان ، أى : باختياره ورضاه ، إنما أجاءه فلان أى جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذى ألجأها إلى جِذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها ﴿ فَأَجَاءَهَا .. ㉓ ﴾ [مريم] أى : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخاض : هو الألم الذى ينتاب المرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذى يسبق نزول الجنين .

وقوله : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [مريم] أوضح لنا علَّة مجيئها إلى جِذْع النخلة ؛ لأن المرأة حينما يأتى وقت ولادتها تحتاج إلى ما تستند إليه ، وتتشبث به ليخفف عنها ألم الوضع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض ـ إذن ـ إلى جذع (النخلة) ، وجاءت النخلة مُعرَّفة لأنها نخلة معلومة معروفة .

وجذع النخلة : ساقها الذى يبدأ من الجذر إلى بداية الجريد ، فهل ستتشبث مريم عند وضعها بكل هذه الساق ؟ بالطبع ستأخذ الجزء القريب منها فقط ، وأطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. ﴿١٩﴾﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبالغةً فى كَتْم الصوت المزعج والصواعق التى تنزل بهم .

إذن : فالسيدة مريم أصبحت أمام أمر واقع وحمل ظاهر لا تستطيع إخفاءه ، ولا تقدر على ستره ، فقد قبلتْ قبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زكيٍّ ، وقبلتْ أنْ تحمل به ، فكيف بها الآن وقد تحوَّل الأمر من الكلام إلى الواقع الفعلى ، وها هو الوليد فى أحشائها ، وقد حان موعد ولادته ؟

لابُدَّ أن ينتابها نزوع انفعالى فالأمر قد خرج عن نطاق السَّتْر

والتكتّم ، فإذا بها تقول : ﴿ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم] أي : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زكياً تعجبتْ قائلة : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم]

مجرد تعجُّب وانفعال هادئ ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعي شديد يُعبِّر عما هي فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموت ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمني الموت ، كما ورد في الحديث الشريف الذي يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمني الموت ، بل نقول : « اللهم أحْيِني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفَّني ما كانت الوفاة خيراً لي »[1] .

وقلنا : إن تمني الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد في القرآن مسألة تمني الموت هذه في الكلام عن بني إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه[2] ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة[3] ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا ردّ عليهم القرآن الكريم ؟

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٠) ، وكذا البخاري في صحيحه (٦٣٥١) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة] .

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥)﴾ [البقرة]

وقال عنهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. (٩٦)﴾ [البقرة]

وما داموا لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التي يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن ـ إذن ـ لا يجوز أن يتمنى الموت هَرَباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممَّا هو فيه .

وقولها : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] النسيّ : هو الشيء التافه الذي لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَى لعدم أهميته ، كالرجل الذي نسي عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفي الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم أن تكون نسياً منسياً حتى لا يذكرها أحد .

ولم تكتفِ بهذا ، بل قالت : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] لأن النسيّ : الشيء التافه الذي يُنْسَى في ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسيّ بقولها (منسياً) أي : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿مِن تَحْتِهَا .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] فيها قراءتان (مِنْ ، مَنْ) صحيح أن جبريل عليه السلام ما زال موجوداً معها لكنه ليس تحتها ، فدلّ ذلك على أن الذى ناداها هو الوليد ﴿أَلَّا تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس ، وأنها فى حالة ولادة ، وليس معها مَنْ يسندها ويساعدها ، وليس معها مَنْ يُحضِر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه .

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب ، فقال : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] والسرىّ : هو النهر الذى يجرى بالماء العَذْب الزُّلال ، ثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها ، فيقول تعالى :

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾

وهكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها ، وهى مُرتَّبة على حَسْب أهميتها للإنسان : الهواء والشراب والطعام ، والإنسان يصبر على الطعام شهراً دون أنْ يأكلَ ، ويمكنه أنْ يقتاتَ على ما هو مخزون فى جسمه من غذاء ، لكنه لا يصبر على الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام حسب ما في جسمه من

مائية ، فى حين لا يصبر على الهواء لحظة واحدة ، ويمكن أنْ يموتَ من كَتْم نفَسٍ واحد .

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يُملِّك الطعام كثيراً ، ويُملك الماء قليلاً ، ولا يُملِّك الهواء لأحد أبداً ، لأنك لو غضبتَ على أحد فمنعتَ عنه الهواء لمات قبل أنْ ترضى عنه ، إذن : فعناصر استبقاء الحياة مرتبة حَسْب أهميتها فى حياة الإنسان ، وقد ضمنها الحق سبحانه لمريم وجعلها فى متناول يدها وأغناها عن أنْ يخدمها أحد .

فالهواء موجود وهى فى الخلاء ، ثم الماء فأجرى تحتها نهراً عذباً زلالاً ، ثم الطعام فقال : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) ﴾ [مريم] وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُظهر لمريم آية أخرى من آياته ، فأمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذى لا يستطيع هَزَّه الرجل القوىّ ، فما بالها وهى الضعيفة التى تعانى ألم الولادة ومشاقها ؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها ، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين : طلب الأسباب والاعتماد على المسبب ، الأخذ بالأسباب فى هَزِّ النخلة ، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة ، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها فى وحدتها لنعلم أن الإنسان فى سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً .

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها ، ثم

تعتمد على المسبِّب سبحانه الذى أنزل لها الرُّطَب مُسْتوياً ناضجاً ، وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ هذا الجذع الكبير اليابس ؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر ، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ، وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لمريَم ... وَهُزِّى إليكِ الجِذْعَ يَسَّاقطِ الرُّطَبْ
وَإنْ شَاءَ أعطَاهَا ومِنْ غيرِ هَزَّةٍ ... ولكن كُلّ شَيءٍ لَهُ سَبَبْ

وقوله : ﴿تُسَاقِطْ .. (٢٥)﴾ [مريم] أى : تتساقط عليك ﴿رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] أى : استوى واستحق أن يُجنى ، وليس مُتَيَسراً قبل موعده ، ومن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحاً للأكل .

وقوله : ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ .. (٢٥)﴾ [مريم] فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله ، وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوْع أمها ، إذن : فقد ألقتْها طواعية واستجابة حين تَمَّ نضجها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾

ونلحظ هنا أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً ، فقال : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)﴾ [مريم] ، ثم أتى بالطعام فقال : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] لأن الماء أَوْلَى من الطعام فى احتياج الإنسان ، أما عند

الأمر بالانتفاع قال : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي .. (٢٦) ﴾ [مريم] فبدأ بالطعام قبل الشراب ، لماذا ؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً ، ثم يشرب ، فالماء مع أهميته ، إلا أنه يأتي في العادة بعد الطعام ، فسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا .. (٢٦) ﴾ [مريم] بعد أن وفَّر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذى هو قِوَام المادة ، وبه يتم استبقاء الحياة ، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حُزْن عميق وألم وحَيْرة ممَّا هي فيه ؛ لذلك يعطيها ربها تبارك وتعالى بعد القوت الذى هو قِوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة ويُخفِّف عنها ألم النفس وحَيْرة الفؤاد .

﴿ وَقَرِّي عَيْنًا .. (٢٦) ﴾ [مريم] قَرِّى : أى : اسكني . وهذا التعبير عند العرب كناية عن السرور ، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

والعرب تعبر بقُرَّة العين وسكونها عن السرور ؛ لأن سكون العين على مَرأىً واحد لا تتحول عنه دليلٌ على أن العين صادفت مرأى جميلاً تسعد به وتُسَرُّ فلا يُغني عنه مَرأىً آخر ، فتظل ساكنة عليه لا تتحرك عنه .

وقد يستعمل هذا التعبير في المقابل أى : في الشر والدعاء على إنسان وتمني الشر له ، كالمرأة التي دخلتْ على أحد الخلفاء فنهرَها فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته وأقرَّ عينك . فظنَّ الحضور أنها تدعو له ، لكنه فَطِن لمرادها ، فقال لجلسائه : ما فهمتم ما تقول ، إنها

تقصد أتمَّ الله عليك نعمته أي : أزالها ، أما سمعتم قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

ذلك لأن الإنسان بطبيعته ابنُ أغيار ، لا يثبت على حال ، فإذا ما وصل إلى القمة وتمتْ له النعمة ، وهو ابن أغيار فلا بُدَّ أنْ يتحوَّل عنها .

وقولها : أقرَّ الله عينك ، أي : أسكنَها بالعمى .

فقوله تعالى لمريم : ﴿وَقَرِّي عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] أي : كوني سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك ، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التي ليستْ لأحد غيرك من نساء العالمين .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم]

وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذي لا تجد له هي مبرراً في أعراف الناس ، فَمنْ يلتمس عُذْراً لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج ؟ ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسْلَم من ألسنة القوم وتجريحهم .

إذن : فجواب ما يكره السكوت ، فأمرها سبحانه أنْ تلزم الصمت ولا تجادل أحداً في أمرها : ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم] والصوم هنا أي : عن الكلام ، كما حدث مثل هذا في قصة زكريا ؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها ، فقد أعطى الله

زكريا مع عَطَب الآلات ، وأعطى مريم بنقص الآلات ، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى .

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أنْ ينتقدوا على القرآن ، فقالوا : كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفي نفس الوقت يأمرها أن تقول : نذرت للرحمن صوما[1] ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رآته ليتم بذلك إعلان صومها ، ثم انقطعت عن الكلام ، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تُومىء برأسك هكذا تعني نعم في كل اللغات ، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعني لا ، إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامّة .

وقد تعرّض القرآن الكريم في موضع آخر لهذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف]

أي : لا يقربون من الفهم ، فَهُمْ يفهمون من باب أَوْلى ، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة ، وفَهم كل منهم عن الآخر : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف]

(١) قال أبو يحي زكريا الأنصاري في « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ٣٥٥: « قوله تعالى : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم] . مرتب على مقدّر بينه وبين الشرط تقديره : فإما ترين من البشر أحداً ، فيسألك الكلام ، فقولي إني نذرت .. الآية ، وبهذا سقط ما قيل من أن قولها « فلن أكلم اليوم إنسيا » كلام بعد النذر ، إذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده » .

ونلحظ في قولها : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم] أن النهى عن الكلام مع البشر خاصة فلم تَقُل : لن أتكلم ، وإلاَّ فمعها جبريل - عليه السلام - يُكلِّمها وبينهما تفاهم ، لعلَّه يرى لها مَخْرجاً ، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج ، فإذا كان ربها - تبارك وتعالى - أمرها بالصوم عن الكلام ، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم .

ولما تكلمنا في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم] استبعدنا أنْ يكون هذا النداء من جبريل ، وقلنا : إنه نداء الوليد : لذلك اطمأنتْ مريم وعَلِمتْ أنها أمام معجزة عُظْمَى ، ووثقتْ تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرج مع قومها ؛ لأن الكلام ممَّنْ يقدر على الكلام لا يأتي بحجة تُقنع الناس عن خلاف العادة ، أما حين يتكلم وهو في المهد ، فهذا يعني أنه معجزة خارقة للعادة ، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة في أُمِّه من باب أَوْلَى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾

ونعجب للسيدة مريم ، فبدلاً أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس ، أو تنتقل به إلى مكان آخر في فيافي الأرض إذا بها تحمله ، وتذهب به ، وتبادر به قومها ، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها ، والتي ستوافيها على يد وليدها .

لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام محمد عبده رحمه الله فى باريس : بأىِّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حديث الإفْك ؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل ، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون .

فأجاب الشيخ رحمه الله ببساطة : بالوجه الذى قابلتْ به مريم قومها وهى تحمل وليدها . أى : بوجه الواثق من البراءة ، المطمئن إلى تأييد الله ، وأنه سبحانه لن يُسْلِمها أبداً ؛ لذلك لما نزلتْ براءة عائشة فى كتاب الله قالوا لها : اشكرى النبى ، فقالت : بل أشكر الله الذى برأنى من فوق سبع سموات[1] .

فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولاً غليظاً : ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) ﴾ [مريم] فرياً : الفَرْىُ للجلد : تقطيعه ، والأمر الفرى : الذى يقطع معتاداً عند الناس فليس له مثيل ، أو من الفِرْية وهى تعمد الكذب .

ثم قالوا لها :

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) ﴾

قولهم لمريم : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَارُونَ .. (٢٨) ﴾ [مريم] هذا كلام جارح وتقريع ومبالغة منهم فى تعييرها ، فنسبوها إلى هارون الذى سُمِّى

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها أن الوحى نزل على رسول الله ﷺ فسكتنا عنه ، وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » قالت : وكنت أشد ما كنت غضباً ، فقال لى أبواى : قومى إليه . فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه . أخرجه البخارى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٧٦/٣) فى حديث طويل .

على اسم النبى ، فأنت من بيت صلاح ونشأت فى طاعة الله ، فكيف يصدر منك هذا الفعل ؟ كما ترى أنت سيدة محجبة يصدر منها فى الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها فتلومها على هذا السلوك الذى لا يُتصوَّر من مثلها .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ .. (٢٨) ﴾ [مريم] الرجل السوء هو الذى إنْ صحبْتَه أصابك منه سوء ، ونالك بالأذى ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) ﴾ [مريم] قلنا : إن البَغِيَّ : هى المرأة التى تبغى الرجال وتدعوهم إليها ، فالمراد : من أين لك هذه الصفة ، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة ؟

وفى هذا دليل على أن نَضْح الأُسَر يؤثر فى الأبناء ، فحين تُكوِّن الأسرة المؤمنة والبيت الملتزم بشرع الله ، وحين نحتضن الأبناء ونحوطهم بالعناية والرعاية ، فسوف تستقبل جيلاً مؤمناً واعياً نافعاً لنفسه ولمجتمعه .

إذن : فقولهم : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) ﴾ [مريم] اتهام صريح لمريم ، وتأكيد على أنها وقعتْ فى محظور ، وكأنهم مصرون على رَمْيها بالفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) ﴾

أى : حين قال القوم ما قالوا أشارتْ إلى الوليد وهى واثقة أنه سيتكلم ، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة ، بل دليل البراءة .

فلما أشارتْ إليه تقول لقومها : اسألوه ، تعجَّبُوا : ﴿ قَالُوا كَيْفَ

نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ [مريم] ونلاحظ فى قولهم أنهم لم يستبعدوا أنْ يتكلّمَ الوليد ، فلم يقولوا : كيف يتكلم مَنْ كان فى المهد صبياً ؟ بل قالوا : ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ .. ﴿٢٩﴾ [مريم] أى : نحن ، فاستبعدوا أنْ يكلموه ، فكأنهم يطعنون فى أنفسهم وفى قدرتهم على فَهْم الوليد إنْ كلّمهم .

والمهد : هو المكان الممهد المعَدّ لنوم الطفل ، لأن الوليد لا يقدر أن يبعد الأذى عن نفسه ، فالكبير مثلاً يستطيع أنْ يُمهد لنفسه مكان نومه ، وأن يُخرج منه ما يُؤرِّق نومه وراحته ، وعنده وَعْى ، فإذا آلمه شىء فى نومه يستطيع أنْ يتحلّل من الحالة التى هو عليها ، وينظر ماذا يؤلمه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

وكأنه قال للقوم : لا تتكلموا أنتم ، أنا الذى سأتكلم . ثم بادرهم بالكلام : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ [مريم] وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى ، وفى هذا دليل على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبداً ، وأنه إله أو شريك للإله .

لذلك كانت أول كلمة نطق بها ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ [مريم] فالمعجزة التى جاءتْ بى لا تمنع كَوْنِى عبداً لله ؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون فى عيسى عليه السلام أنه إله أو شريك للإله : إنكم تقولون أنه تكلّم فى المهد ، فماذا قال ؟ فلا يعترفون بقوله أبداً ؛ لأن قوله ونُطْقه : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ [مريم] ينفى معتقدهم من أساسه .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ .. ﴿٣٠﴾ [مريم] لكن كيف

آتاه الله الكتاب وهو ما يزال وليداً في مَهْده ؟ قالوا : على اعتبار أنه أمرٌ مفروغ منه ، وحادث لا شكَّ فيه ، كأنه يقول : أنا أهْل لأنْ أتحملَ أمانةَ السماء إلى أهل الأرض ، مع أن الكتاب لم يأت بعد ، إلا أنه مُلقَّن لقَّنه ربه الكتاب بالفعل ، وإنْ لم يأت الوقت الذي يُبلِّغ فيه هذا الكتاب .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) ﴾ [مريم] فسلوكي سلوك قويم ، ولا يمكن أن يكون فيَّ مطعَنٌ بعد ذلك ، وإنْ كان هناك مطعن فهو بعيد عني ، ولا ذنبَ لي فيه .

ثم يقول :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾

أي : وشرَّع لي أيضاً ما دُمْت حياً .. وقد قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرِّىء أمه الصِّدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها في أعزِّ شيء لديْها ؛ ولذلك لم يكُنْ ليُجدي أيّ كلام منها ، وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾ [مريم]

ثم يقول :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾

فلِمَ ذكر والدته هنا ؟ ولِمَ حرص على تقرير بِرِّه بها ؟ قالوا : لأن البعض قد يظن أن عيسى ـ عليه السلام ـ حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه ، وأن أمه أتتْ به من غير أب ، ودون أنْ يمسسها بشر

قد تترك هذه المسألة ظلالاً في نفسه وتُساوره الشكوك في أمه ، فأراد أنْ يقطع كل هذه الظنون .

ذلك لأنه هو نفسه الدليل ، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه ، والدليل لا يُشكّك في المدلول ، فكأنه يقول للقوم : إياكم أنْ تظنوا أنى سأتجرأ على أمي ، أو يخطر ببالى خاطر سوء نحوها .

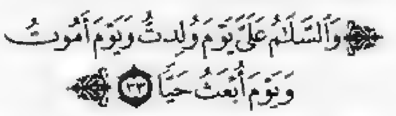
ثم يقول : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم] فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم ؛ لأن الرسول لابُدَّ أنْ يكون ليِّنَ الجانب رفيقاً بقومه ؛ لأنه أتى ليُخرِج الناس مِمَّا ألِفُوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة .

والإنسان بطبعه حين يألَف الفساد يكره مَنْ يُخرجه عن فساده ، فمن الطبيعي أن يتعرَّض النبي لاستفزاز القوم وعنادهم ومكابرتهم ، فلو لم يكُنْ ليِّن الجانب ، رقيق الكلمة ، يستميل الأذن لتسمع والقلوب لتعي ما صلح لهذه المهمة .

لذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿ شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم] أى : عاصياً ، وما أبعدَ مَنْ هذه صفاته عن معصية الله التى يشقى بسببها الإنسان .

ثم يقول تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال :



سبق أن قلنا فى قصة يحيى عليه السلام : إن هذه الأحداث أعلام

ثلاثة في حياة الإنسان : يوم مولده ، ويوم موته ، ويوم أنْ يُبعث يوم القيامة . فما وجه السلامة في هذه الأحداث بالنسبة لعيسى عليه السلام ؟

قوله : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ .. (٣٣) ﴾ [مريم] لأن يوم مولده مَرَّ بسلام ، رغم ما فيه من عجائب ، فلم يتعرَّض له أحد بسوء ، وهو الوليد الذي جاء من دون أب ، وكان من الممكن أنْ يتعرَّض له ولأمه بعض المتحمسين الغيورين بالإيذاء ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ومرَّ الميلاد بسلام عليه وعلى أمه .

﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ .. (٣٣) ﴾ [مريم] لأنهم أخذوه ليصلبوه ، فنجّاه الله من أيديهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، ورفعه الله تعالى إلى السماء .

﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم] فليس هناك من الرسل مَنْ سيسأل هذه الأسئلة ، ويناقش هذه المناقشة التي نُوقشها عيسى في الدنيا :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ .. (١١٧) ﴾ [المائدة]

وليس هذا قَدْحاً في مكانة عيسى عليه السلام ؛ لأن ربَّه تبارك وتعالى يعلم أنه ما قال لقومه إلا ما أُمِرَ به ، ولكن أراد سبحانه توبيخ القوم الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، فوجْه السلام في يوم ﴿ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم] أنه نُوقِش في الدنيا وبُرِّئَتْ ساحته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] أي : ما تقدّم من قصة عيسى عليه السلام ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] أي : يقولها الله تعالى قَوْلَة حَقٍّ ، والحق هو الله ، فالذى قَصَّ عليك هذا القَصَص هو الله ، وقوله الحق الذى لا باطلَ فيه ، فيكون الحق الذى هو ضد الباطل ، فالمعنيان ملتقيان .

أو : يكون المراد بقول الحق كلمة (كُنْ) التى بها يتمّ الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] من المراء : وهو الاختلاف والجدال بالباطل ، فالحق سبحانه يعلم أنهم سيشكُّون فيه ، ويتجادلون بالباطل ، وأنهم سيقولون فيه الأقاويل ، وكأن الله تعالى يقول لهم : اتركوا هذه الأقاويل والأباطيل فى شأن عيسى وخُذُوا بما أخبرتكُم به من خبره ، فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لماذا تكلم الحق سبحانه هنا عن نفى الولد بالذات ؟

قالوا : لأن مسألة الشريك لله تعالى تُنفَى بأولية العقل ، فإنْ كان

كُلُّ إله صالحاً للفعل المشترك ، فهذه صورة مُكرَّرة لا تناسب الإله ، وإنْ كان هذا إلهاً لكذا وهذا إله لكذا ، فما عند أحدهما نقص في الآخر ، وهذا محال في الإله ، ولو أن هناك إلهاً آخر لذهب كل منهما بجزء ، كما قال سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

لذلك نفى مسألة الولد ؛ لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لقصة عيسى عليه السلام ؛ لأن الولد من الممكن أنْ يُستبعَد فيه الدليل ، لماذا ؟ لأن دليله اتخاذُ الولد أو حُبُّ الولد ، والإنسان يحب الولد ويسعى إليه ، لماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحبّ أن يكون له امتداد في الدنيا وذِكْر من بعده ، فالإنسان يتمسَّح في الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدرى أن ذِكْر الإنسان لا يأتى بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح .

إذن : فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة ، وهذا مُحَال في حَقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لأنه الباقي الذي لا يزول .

وقد يتخذ الولد ليكون عِزْوة لأبيه وسَنَداً ومُعِيناً ، وهذا دليل الضّعْف ، والحق سبحانه هو القويّ الذي لا يحتاج إلى معونة أحد . إذن : فاتخاذ الولد أمر منفيّ عنه تبارك وتعالى ، فهو أمر لا يليق بمقام الألوهية ، ويجب أنْ نُنزِّه الله تعالى أن يكون له ولد ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿سُبْحَانَهُ .. ﴿٣٥﴾﴾ [مريم]

وسبحان تدل على التنزيه المطلق لله تعالى تنزيهاً له في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فهو سبحانه ليس كمثله شيء ، وإنْ

وجدتَ صفة مشتركة بينك وبين الله كأنْ يكونَ لله تعالى وجه ويد ، ولكَ وجه ويد ، فإياك أنْ تنزل بالمستوى الأعلى فتقول : وجهه كوجهى ، أو يده كيدى ، لأن لك وجوداً ولله تعالى وجود ، فهل وجودك كوجود الله ؟

وجودك مسبوق بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده تعالى لم يُسبَق بعدم ولا يلحقه العدم ، فعليك ـ إذن ـ أن تقول فى مثل هذه المسائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

والمتتبع لمادة (سَبَّح) فى القرآن الكريم يجد أنها جاءت بكل الصِّيَغ :

الماضى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحديد]

والمضارع : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

والأمر فى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى]

فما دام الكون كله سبَّح لله ، ولم ينقطع عن تسبيحه ، بل ما زال مُسبِّحاً ، فلما خلق الخلق أمرهم بالتسبيح ؛ لأنهم جزء من منظومة الكون المسبِّح ، وعليهم أنْ ينتظموا معه ، ولا يكونوا نشازاً فى كون الله .

أما المصدر (سبحان) فقد جاء ليدل على التنزيه المطلق لله تعالى ، حتى قبل أن يخلق الخَلْق ،. والتنزيه ثابت له تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزِّهه كما فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن المسألة عجيبة وفوق إدراك العقل ، فقد جاء بالمصدر (سبحان) الدالّ على التنزيه المطلَق لله ، كأنه تعالى يُحذِّر الذين

يُحكِّمون عقولهم ، ولا يُحكِّمون قدرة الله الذى خلقهم بقانون الزمان والمكان والبُعْد والمسافة ، فكُلُّ فعل يتناسب قوةً وقدرةً مع فاعله .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم] ذلك لأن الآية فى خَلْق عيسى عليه السلام مخالفة للنواميس كلها ، وخارقة للعادة التى ألفها الناس ، فإياك أنْ تتعجب من فعل الله تعالى فى يحيى ، حيث جاء به مع عطب الآلات ، أو تتعجب من خَلْق عيسى حيث جاء به مع نقص الآلات .

وإياك أنْ تتعَجَّب من كلام عيسى وهو فى المهد صَبِياً ، فهى أمور نعم خارقة للعادة وللنواميس ، فخُذْها فى إطار (سبحانه) وتنزيهاً له ؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعمل ومُزاولة ، وإنما يعالجه (بكُنْ) فيكون .

ولا تظن أن خَلْق الأشياء متوقف على هذا الأمر (كُنْ) ، فإن كان الفعل مُكوّناً من (كاف) و (نون) فقبل أن تنطق النون يكون الشيء موجوداً ، لكن (كُنْ) هو أقصر ما يمكن تصوُّره لنا ، والحق سبحانه يخاطبنا بما يُقرِّب هذه المسألة إلى عقولنا ، وإلا فإرادته سبحانه ليستْ فى حاجة إلى قول (كُنْ) فما يريده الله يكون بمجرد إرادته .

كما أنك لو أمعنتَ النظر فى قوله تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ.. ﴿٣٥﴾﴾ [مريم] تجد (يقُولُ لَهُ) أى : للشيء ، فكان الشيء موجود بالفعل ، موجود أزلاً ، فالأمر بكُنْ ليس لإيجاده من العدم ، بل لمجرد إظهاره فى عالم الواقع .

ثم يقول :

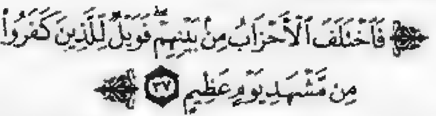
﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الرب : هو المتولِّى للتربية والرعاية . والتربية تعنى أن يأخذ المربِّى المربَّى بالرياضة إلى ما يصلحه لأداء مهمته والقيام بها ، كما لو أردتَ مهندساً تُربِّيه تربية مهندس ، وإن أردت طبيباً تربيه تربية طبيب . ونحن هنا أمام قوم أشركوا بالله ، ونحتاج لداعية يُخرجهم من الشرك إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة .

فالمعنى : ما دام أن الله تعالى ربى وربكم ، والمتولِّى لتربيتنا جميعاً ، فلا بُدَّ أن يُربِّى لكم مَنْ يصلحكم ؛ لأنه تعالى لا يخاطبكم مباشرة ، بل سيبعثنى إليكم أبلغكم رسالته ، وأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له ، وما دام الله ربى وربكم فمن الواجب أنْ تُطيعوه ﴿ فَٱعْبُدُوهُ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم] والعبادة أنْ يطيعَ العابدُ معبوده فى أوامره وفى نواهيه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البينة]

ثم يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم] أى : الذى لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ ، وهو الطريق الذى يُوصِّلك لمقصودك من أقرب طريق ، وبأقلِّ مجهود ، ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

الأحزاب : أى الذين اختلفوا فى عيسى عليه السلام من قومه ، فمنهم مَنْ قال : هو إله ، ومنهم مَن قال : ابن إله . وآخر قال : هو

ثالث ثلاثة . ومنهم مَنْ رماه بالسحر وقال عنه بعضهم : ابن زنى - نستغفر الله مما يقوله الظالمون والكافرون - .

والأحزاب : جمع حِزْب ، وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادىء ، ورأى من الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه ، ويسيرون فى حياتهم على وفقه ، ويُخضِعون حركة حياتهم لخدمته .

ومعنى : ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ .. (٣٧)﴾ [مريم] يعنى من داخل المؤمنين به ومن أتباع عيسى أنفسهم ، فالذين قالوا عنه هذه الأباطيل ليسوا من أعدائه ، بل من المؤمنين به .

وهكذا اختلف القوم فى أمر عيسى ، وكان لكل منهم رأى ، وجميعها مُنَافية للصواب بعيدة عن الحقيقة ؛ لذلك توعَّدهم الخالق سبحانه بقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم]

فقد قلتم فى عيسى ما قلتم فى الدنيا ، وخُضتُم فيه بما أحببتُمْ من القول ؛ لأن الله تعالى جعل إرادتكم نافذة على جوارحكم ، وأعطاكم حرية الفعل والاختيار ، فوجَّهتم جوارحكم واخترتم ما يُغضب الله ، فكأن عقوبة الدنيا لا تناسب ما فعلوه ، ولابُدَّ لهم من عقوبة آجلة فى الآخرة تناسب ما حدث منهم فى حَقِّ نبيهم وفى حَقِّ ربهم تبارك وتعالى .

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم] ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم : لأنه يوم مشهود يشهده الجميع ؛ لأن العذاب فى الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده

السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كل الخَلْق .

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب ، فربما تحمَّل هو العذاب فى نفسه أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً ، ويرونه فى هذه المهانة وهذه الذلة وقد كان فى الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له فى هذه الحالة تكون أنكى له وأبلغ .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الأنعام] هذا منهم مجرد كلام : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] أى : ظهر لهم ما كانوا يخفون ولم يقُلْ يخفَى عنهم ، كأنهم كانوا يعلمون عنه شيئاً ولكنهم أخفوْه .

وقال عنهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

فلماذا أبصروا وسمعوا الآن ؟ لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا عن غير وَعْى ، فينكرون ويُبصرون آيات الله فى الكون ولا يؤمنون ، أما فى الآخرة فقد انكشفتْ لهم الحقائق التى طالما أنكروها ، ولم يَعُدْ هناك مجال للمكابرة أو الإنكار ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾

---

(١) نكس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم ٢/٢٨٦] .

قوله : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ.. (٣٨)﴾ [مريم] أى : اسمع بهم وأبصر بهم ، وهذه من صيغ التعجب على وزن (أفعل به) يعنى ما أشدّ سمعهم ، وما أشدّ بصرهم ، فهم الآن يُرهفُون السمع ويُدقّقون النظر حتى إن الإنسان ليتعجب من سمعهم الدقيق ، وبصرهم المحيط بعد أن كانوا فى الدنيا يضعون أصابعهم فى آذانهم فلا يسمعون ، ويستغشون ثيابهم فلا يبصرون ، كانوا فى عَمىً عن آيات الله الواضحات التى تثبت صدْق الرسل ، وعن الآيات التى تحمل الأحكام ، وعن الآيات الكونية التى تدلُّ على قدرة الصانع الحكيم .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا .. (٣٨)﴾ [مريم] أى : اسمع بهم وأبصر بهم فى هذا اليوم يوم القيامة ، والإنسان بحكم خلْق الله تعالى له ، واستخلافه فى الأرض جعل له السيطرة على جوارحه فهو يأمرها فتطيعه ، فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تنطقَ بـ لا إله إلا الله . كما تستطيع أن تقول : لا إله أو تقول : الله ثالث ثلاثة . واللسان مطْواع لك لا يعصاك فى هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفَل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أأردتَ الخير الذى وجّهك إليه أم أردتَ الشر الذى نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الإرادة ، ويبطل سلطانها على الجوارح فى يوم يُنادى فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] يومها ستشهد الجوارح على صاحبها ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ويقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

لم لا ؟ وقد تحررتْ الجوارح من قَيْد الإرادة ، وجاء الوقت لتشتكى

إلى الله ، وتنطق بكلمة الحق التى كتمتْها تحت وطأة الإرادة وقهْرها .

وسبق أن ضربنا مثالاً لذلك بمجموعة من الجنود يسيرون تحت إمْرة قائدهم المباشر ، ويأتمرون بأمره ، ويطيعونه طاعة عمياء ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى انطلقتْ ألسنتهُم بالشكوى من تعسُّف قائدهم وغَطْرسته .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [مريم] فيا ليتهم فهموا هذه المسألة ، لكنهم ظلموا ، وما ظلموا إلا أنفسهم ، فالله تبارك وتعالى لا يضره كفر الكافرين ، ولا ينقص من مُلْكه تعالى وسلطانه ، لكن كيف يظلم الإنسان نفسه ؟

يظلم الإنسان نفسه ؛ لأنه صاحب عَقْل واعٍ يستقبل الأشياء ويميزها ، وصاحب نفس شهوانية تصادم بشهواتها العاجلة هذا العقل الواعى ، وتصادم المنهج الربّانى الذى يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ، هذه النفس بشهواتها تدعو الإنسان إلى مرادها وتوقِعه فى المتعة الوقتية واللذة الفانية التى تستوجب العذاب وتُفوِّت عليه الخير الباقى والنعيم الدائم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [مريم] الإنذار : هو التحذير من شر قادم .

والحسرة : هى الندم البالغ الذى يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه ، وحينما تلقى شيئاً لا تستطيع دفعه . أما الندم فيكون حزناً على خير فاتكَ ، لكن يمكن تداركه ، كالتلميذ الذى يخفق فى امتحان شهر من الشهور فيندم ، لكنه يمكنه تدارك هذا الإخفاق فى الشهر التالى ، أما إذا أخفق فى امتحان آخر العام فإنه يندم ندماً شديداً ، ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه .

لذلك سيقول الكفار يوم القيامة : ﴿يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام]

والمعنى : يا حسرتنا تعالَىْ فهذا أوانك ، واحضرى فقد فاتتْ الفرصة إلى غير رجعة . إذن : فيوم الحسرة هو يوم القيامة ، حيث لن يعود أحدٌ ليتدارك ما فاته من الخير فى الدنيا ، وليتَ العقول تعى هذه الحقيقة ، وتعمل لها وهى ما تزال فى سَعَة الدنيا .

ومعنى : ﴿إِذْ قُضِىَ الأَمْرُ .. ﴿٣٩﴾﴾ [مريم] أى : وقع وحدث ، ولا يمكن تلافيه ، ولم يَعُدْ هناك مجال لتدارُك ما فات ؛ لأن الذى قضى هذا الأمر وحكم به هو الله تبارك وتعالى الذى لا يملك أحدٌ ردَّ أمره أو تأخيره عن موعده أو مناقشته فيه ، فسبحانه ، الأمر أمره ، والقضاء قضاؤه ، ولا إله إلا هو .

وروى عن رسول الله ﷺ : « أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النار النار يأتى بالموت على هيئة كبش ، فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه ، ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه ، فيميت

الله الموت ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت »[1] .

وهكذا قضى اللهُ الأمرَ ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنُّون أن الموت سيأتي ليُخرجهم مما هُمْ فيه من العذاب ويريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخَصاً وذبحه أمامهم ، فلا موتَ بعد الآن فقد مات الموت .

لذلك يخبر عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم]

الغفلة : أن يصرف الإنسان ذهْنه عن الفكر في شيء واضح الدليل على صحته ؛ لأن الحق ـ تباركَ وتعالى ـ ما كان ليُعذِّب خَلْقه إلا وقد أظهر لهم الأدلة التي يستقبلها العقل الطبيعي فيؤمن بها .

فالذي لا يؤمن ـ إذن ـ إما غافل عن هذه الأدلة أو متغافل عنها أو جاحد لها ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

ومن الغفلة غفلتهم عن الموت ، وقد قالوا : من مات قامت قيامته[2] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وقد وصف الكبش في الحديث بأنه كبش أملح . قال القرطبي : « الحكمة في ذلك أن يجمع بين صفتي أهل الجنة والنار السواد والبياض » نقله ابن حجر في الفتح (٤٢٨/٨) .

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غِنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه في ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

وأبهمه مكاناً ، فكان إبهام الموت هو عيْن البيان للموت ؛ لأن إبهامه يجعل الإنسان على استعداد للقائه فى أىِّ وقت ، وبأىِّ سبب ، وفى أىِّ مكان ، فالموت يأتى غفلةً ؛ لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو فى بطن أمه ، ويموت بعد يوم ، أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟ السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أى أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ نَرِثُ الأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] وهى والكون كله مِلْك له تعالى ؟ قالوا : لأنه تبارك وتعالى هو المالك الأعلى ، وقد مَلَّك من خَلْقه من مَلَّك ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فليس لأحد ملك على شىء ، ليس للإنسان سيطرة حتى على جوارحه وأعضائه ، فالأمر كله يومئذ لله تعالى ، فيُردّ المُلْك إلى صاحبه الأعلى ، ولا أحدَ يرث هذا المُلْكَ إلا الله تعالى .

لذلك ، فالذين اغترُّوا بنعم الله فى الدنيا فظنوا أن لهم مثلها فى الآخرة ، فقال أحدهم : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] نقول له : لا ، صحيح ستُردُّ إلى ربك ، لكن لن يكون لك عنده شىء ؛ لأن الذى ملَّكك فى الدنيا ملَّكك من باطن مِلْكيته تعالى ، فإذا ما جاءت الآخرة كان هو الوارث الوحيد .

وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] أى : أن الأمر لا يتوقف على أنْ نرث مُلْكهم ، ويذهبوا هم لحال سبيلهم ، بل سنرث مُلْكهم ، ثم يرجعون إلينا لنحاسبهم فلن يخرجوا هم أيضاً من قبضة الملكية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى استهلال سورة مريم عن ميلاد سيدنا يحيى لزكريا ، وعن ميلاد سيدنا المسيح من مريم ، أراد أنْ يعرض لنا موكباً من مواكب الرسالات التى أرسلها الله نوراً من السماء لهداية الأرض ، فقال :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم]

فهو أبو الأنبياء وقمتهم ؛ لأن الله تعالى مدحه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

فليس هناك فرد يحتوى على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها ، لكن المجموع يحتويها فهذا شجاع قوى البنية ، وهذا ذكى ، وهذا حادّ البصر ، وهذا نابغ فى الطب ، وهذا فى الزراعة ، مواهب متفرقة بين البشر ، لا يجمعها واحد منهم ، فلا طاقته ولا حياته ولا مجهوده يستطيع أن يكون موهوباً فى كل شىء ، فالكمال كله مُوزّع فى الخَلْق ، إلا إبراهيم ، فقد كان عليه السلام يساوى فى مواهبه أمةً بأكملها .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم] صدِّيق : من مادة صدق ، ومعناها : تكلّم بواقع ؛ لأن الكذب أنْ تتكلّم بغير واقع . وهذا يُسمَّى : صادق فى ذاته ، أما قولنا : صدِّيق أى : مبالغة فى الصدق ،

فقد بلغ الغاية فى تصديق ما يأتى من الحق تبارك وتعالى ، فهو يطيع ويذعن ولا يناقش ، كما رأينا من أم موسى - عليه السلام - لما قال لها الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص]

بالله ، أى أم يمكن أن تُصدِّق هذا الكلام ، وتنصاع لهذا الأمر ؟ وكيف تُنجِّى ولدها من شر أو موت مظنون بموت مُحقَّق ؟

إذن : فهذا كلام لا يُصدَّق ، وفوق نطاق العقل عند عامة الناس ، أما فى موكب الرسالات فالأمر مختلف ، فساعة أنْ سمعتْ أم موسى هذا النداء لم يساورها خاطر مخالف لأمر الله ، ولم يراودها شكٌّ فيه ؛ لأن وارد الله عند هؤلاء القوم لا يُعارض بوارد الشيطان أبداً ، وهذه قضية مُسلَّمة عند الرسل .

إذن : الصِّدِّيق هو الذى بلغ الغاية فى تصديق الحق ، فيورثه الله شفافية وإشراقاً بحيث يهتدى إلى الحق ويُميِّزه عن الباطل من أول نظرة فى الأمر ودون بحث وتدقيق فى المسألة ؛ لأن الله تعالى يهبكَ النور الذى يُبدِّد عندك غيامات الشك ، ويهبك الميزان الدقيق الذى تزنُ به الأشياء ، كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ㉙﴾ [الأنفال]

ومن هنا سُمِّى أبو بكر رضى الله عنه صِدِّيقاً ، ليس لأنه صادق فى ذاته ، بل لأنه يُصدِّق كل ما جاءه من رسول الله ﷺ ؛ لذلك لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج الذى كذَّب به كثيرون ، ماذا قال ؟ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] .

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له ، اتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

فالأمر عنده متوقف على مجرد قول رسول الله ، فهذا هو الميزان عنده ، وطالما أن رسول الله قد قال فهو صادق ، هكذا دون جدال ، ودون مناقشة ، ودون بَحْث في ملابسات هذه المسألة ؛ لذلك من يومها وهو صِدِّيق عن جدارة .

والسيدة مريم قال عنها الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة] فسماها صديقة ؛ لأنها صدَّقتْ ساعة أنْ قال لها الملك : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم]

فوثقتْ بهذه البشارة ، وأخذتْها على أنها حقيقة واقعة ، فلما جاء الوليد أشارت إليه وهى على ثقة كاملة ويقين تام أنه سينطق ويتكلم .

إذن : فالصِّدِّيق ليس هو الذى يَصْدُق ، بل الذى يُصدِّق . وهكذا كان خليل الله إبراهيم (صديقاً) وكان أيضاً (نبياً) لأن الإنسان قد يكون صديقاً يعطيه الله شفافية خاصة ، وليس من الضرورى أن يكون نبياً ، كما كانت مريم صدِّيقة وأبو بكر صدِّيقاً ، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله ، أما النبوة فهى عطاء وتشريع يأتى من أعلى ، وهُدى يأتى من السماء يحمل النبى مسئوليته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا الحديث من إبراهيم عليه السلام لأبيه على اعتبار أنه نبى جاء ليُعدِّل سلوك الناس على وَفْق منهج الله ، وأولهم أبوه ، وقد ذكره القرآن هكذا بأبوته لإبراهيم دون أن يذكر اسمه ، إلا فى آية واحدة قال فيها : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وهذه الآية أحدثت إشكالاً فظنَّ البعض أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقي الصُّلبي ، وهذا القول يتعارض مع الحديث النبوي الشريف الذي يُوضِّح طهارة أصل النبي محمد ﷺ حيث قال : « أنا خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[1] .

إذن : فأصول النبي إلى آدم « طاهر متزوج طاهرة » ، فلو قلنا : إن آزر الذي قال الله في حقه : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة] هو أبو إبراهيم ، لكان في ذلك تعارض مع الحديث النبوي ، فكيف يكون في آباء محمد ﷺ مثل هذا الكافر ؟

ولو تأملنا إطلاقات الأبوة في القرآن الكريم لخرجنا من هذا الإشكال ، فالقرآن تكلم عن الأبوة الصُّلبية المباشرة ، وتكلم عن الأبوة غير المباشرة في الجد وفي العم ، فسمَّى الجد أباً ، والعم أباً ؛ لأنه يشترك مع أبي في جدي ، فله واسطة استحق بها أن يُسمَّى أباً ، وفي القرآن نصَّان : أحدهما : يُطلق على الجد أباً ، والآخر يُطلق على العم أباً .

فالأول في قوله تعالى من قصة يوسف عليه السلام :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

فاختاروا يوسف لتأويل رؤياهم ؛ لأنهم رأوه من المحسنين ،

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (١/١٦٦) من حديث واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » . وعند ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق الكبير (١/٢٧٨) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] بفتح الفاء ، وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح » .

فكأن الإحسان له مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن ، فلما تعرضوا لأمر يهمهم لم يلجئوا إلا لهذا الرجل الطيب ، فمقاييس الكمال محترمة ومعتبرة حتى عند فاقد الكمال .

فلما قالوا له ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف] علم أنهم متتبعون حركاته وتصرفاته ، وكيف سلوكه بينهم ، فأراد أنْ يزيدهم مما عنده من إشراقات ، فأمْره ليس مجرد سلوك طيب وسيرة حسنة بينهم ، بل عنده أشياء أخرى ، فقال : ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا .. ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]

ثم ترك الإجابة عن سؤالهم ، وأخذ في الحديث فيما يخصه كنبيّ وداعية إلى الله ، فأخبرهم أن ما عنده من مواهب هو عطاء من الله ، وليس هو بإذكى منهم ، فقال : ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف]

ثم يلفت نظر رفاقه إلى بطلان ما هم عليه من عبادة أرباب متفرقين لم ينفعوهم بشيء ، فهاهم يتركونهم ويلجئون إلى يوسف الذي له ربٌّ واحد : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]

وهكذا كان يوسف النبي الداعية حريصاً على نَشْر دعوته وهداية مَنْ حوله ، حتى وهو في سجنه ما نسيَ مهمته ، وما قصَّر في دعوته ، فلما فرغ من موعظته واستطاع بلباقة أنْ يُسمعهم ما يريد ، وإلاَّ لو أجابهم عن سؤالهم من بداية الأمر لانصرفوا عن هذه الموعظة ، وما أعاروها اهتماماً .

والآن يعود إلى سؤالهم وتفسير رؤياهم : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي

ربه[1] خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان (٤١) ﴾ [يوسف]

شاهدنا في هذه القصة هو قوله تعالى : ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب .. (٣٨) ﴾ [يوسف] ويوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فسمى الأجداد آباءً .

وقد يُسمى العمُّ أباً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] فعدَّ إسماعيل في آباء يعقوب ، وهو عمُّه .

إذن : لو أن القرآن الكريم حينما تحدث عن أبي إبراهيم فقال (لأبيه) في كل الآيات لانصرف المعنى إلى الأبوة الصُّلبية الحقيقية ، أما أنْ يقول ولو مرة واحدة ﴿ لأبيه آزر .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] فهذا يعني أن المراد عمه ؛ لأنه لا يُؤتى بالعَلَم بعد الأبوة إلا إذا أردنا العم ، كما نقول نحن الآن حين نريد الأبوة الحقيقية : جاء أبوك هكذا مبهمة دون تسمية ، وفي الأبوة غير الحقيقية نقول : جاء أبوك فلان .

وبناءً عليه فقد ورد قوله تعالى : ﴿ لأبيه آزر .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] مرة واحدة ، ليثبت لنا أن آزر ليس هو الأب الصُّلبي لإبراهيم ، وإنما هو عمُّه[2] ، وبذلك يسلم لرسول الله ﷺ طهارة نسبه ونقاء سلسلته إلى آدم عليه السلام .

---

(١) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى راعي الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١/ ٢٥١].

(٢) آزر : اسم أعجمي . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذي كانوا يعبدونه . انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص١٠٤) ، ولسان العرب (مادة آزر) . وقصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار (ص ٩٣-٩٦) .

وقوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] وكان التركيب العربى يقتضى أن يقول : يا أبى ، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويُعوِّضون عنها بالتاء ، فلماذا ؟ قالوا : لأن (أبت) لها مَلْحظ دقيق ، فهو يريد أنْ يُثبت أنه وإنْ كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين : الأب والأم ، فجاء بالتاء التى تشير إلى الجانب الآخر ؛ لذلك تجدها لا تُقال إلا فى الحنانية المطلقة (يَا أَبَتِ) كما لو ماتتْ الأم مثلاً ، فقام الأب بالمهمتين معاً ، وعوض الأبناء حنان الأم المفقود .

وقوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] يبدو من أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدبُ الدعوة ، حيث قدَّم الموعظة على سبيل الاستفهام حتى لا يُشعِر أباه بالنقص ، أو يُظهِر له أنه أعلم منه .

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] نلحظ أنه لم يقُلْ من البداية : لِمَ تعبد الشيطان ، بل أخَّر هذه الحقيقة إلى نهاية المناقشة ، وبدل أنْ يقولَ الشيطان حلّل شخصيته ، وأبان عناصره ، وكشف عن حقيقته : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يُغنى عنك شيئاً . فهذه الصفات لا تكون فى المعبود ، وهى العلَّة فى أنْ نتجنبَ عبادة ما دون الله من شجر أو حجر أو شيطان ، وخصوصاً فى بيئة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت مليئة بالأوثان والأصنام .

لأن العبادة ماذا تعنى ؟ تعنى طاعة عابد لمعبود فى أمْره ونَهْيه ، فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وَثَنٍ أو شمس أو قمر ، بماذا أمرتْهم هذه المعبودات ؟ وعن أيِّ شيء نَهتْهم ؟ وماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى جاءتْ به حتى تستحقَّ العبادة ؟ لا يوجد شيء من هذا كله ، إذن : فعبادتهم باطلة .

ثم يقول :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾

يُكرِّر نبى الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى ، وكأنه يريد أنْ يثير فى أبيه غريزة الحنان ، ويُوقظ عنده أواصر الرحم ، كأنه يقول له : إن كلامى معك كلام الابن لأبيه ، كما نفعل نحن الآن إنْ أراد أحدنا أنْ يُحنِّن إليه قلب أبيه يقول : يا والدى كذا وكذا .. يا أبى اسمع لى . وكذلك حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث نادى أباه هذا النداء فى هذه الآيات أربع مرات متتاليات ، وما ذلك إلا لحرصه على هدايته ، والأخْذ بيده إلى الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم] أى : لا تظن يا أبى أنِّى متعالم عليك ، أو أنِّى أفضل ، أو أذكى منك ، فهذا الكلام ليس من عندى ، بل من أعلى منى ومنك ، فلا غضاضة فى سماعه والانصياع له ، وهو رسالة كُلِّفْتُ بإبلاغك إياها ، وهذا الذى جاءنى من العلم لم يأتكَ أنت ، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله ، فالمسألة ليستْ ذاتية بين ولد وعمه ، أو ولد وأبيه ، إنها مسألة عامة تعدَّتْ حدود الأُبوة والعمومة .

ولذلك لما تحدَّثْنا فى سورة الكهف عن قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ ، قلنا : إن العبد الصالح التمس لموسى عُذْراً ؛ لأنه تصرَّف بناءً على علم عنده ، ليس عند موسى مثله ، فقال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف] وكذلك قال إبراهيم لأبيه حتى لا تأخذه العِزَّة ، ويأنف من الاستماع لولده .

ثم يقول : ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم] لأن هذا المنهج الذى أدعوك إليه ليس من عندى ، بل من أعلى منى ومنك ، والصراط السَّوِىّ : هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول :

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾

نلحظ أن إبراهيم فى بداية محاورته لأبيه قال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] وهنا يقول : ﴿ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم] مع أن الشيطان يمكن أن يسمع ويبصر ، فكيف يكون ذلك ؟

قالوا : لأن الشيطان هو الذى يُسوِّل عبادة الصنم أو الشجر أو الشمس أو القمر ، فالأمر مردود إليه وهو سببه ، إلا أن إبراهيم عليه السلام حلَّل المسألة المباشرة ؛ لأن أباه يعبد صنماً لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يُغنى عنه شيئاً ، وهذا بشهادتهم أنفسهم ، كما جاء فى قوله تبارك تعالى : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فهذا استفهام ، ولا يستفهم مُستفهِم مجادل ممَّن يجادله عن شىء ، إلا وقد علم أن الجواب لا بُدَّ أن يكون فى صالحه ؛ لأنه ائتمنه على الجواب . إذن : فعبادة ما دون الله مردُّها إلى إغواء الشيطان .

ثم يستطرد إبراهيم قائلاً : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤) ﴾ [مريم] عصياً : مبالغة في العصيان ، فالشيطان ليس عاصياً ، بل عَصِيّاً يعصى أوامر الله بِلَدَدٍ وعناد .

ثم يقول :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾

مازال خليل الله يتلطف في دعوة أبيه فيقول : ﴿ يَمَسَّكَ عَذَابٌ .. (٤٥) ﴾ [مريم] ولم يقُلْ مثلاً : يصيبك . فهو لا يريد أنْ يصدمه بهذه الحقيقة ، والمسُّ : هو الالتصاق الخفيف ، وكأنه يقول له : إن أمرك يُهمني ، وأخاف عليك مجرد هبو التراب أن ينالك . وهذا منتهى الشفقة عليه والحرص على نجاته .

ثم يقول : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم] أي : قريباً منه ، وتابعاً له يصيبك من العذاب ما يصيبه ، وتُعذَّب كما يُعذَّب .

وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التي احتوتْ أربعة نداءات حانية ، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعوه ولده ويُقدِّم له النُّصْح ، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً ، وسلْسلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق - تبارك وتعالى - جوانب النفس البشرية فأمر أنْ تكونَ الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا تجمع على المدعو قسوة الدعوة ، وقسوة أنْ يترك ما ألِف ، ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله فإنما تُخرجه عن الفساد الذى ألفه ، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً ، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب لَيِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك .

وما أشبه الداعية فى هذا الموقف بالذى يحتال ليخلص الثوب الحرير من الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوْتَ عليه فسوف يُعرض عنك ، وينصرف عن دعوتك ، ويظلّ على ما هو عليه من الفساد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

ويقولون : النصح ثقيل فلا تُرسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان .

وبعد أنْ أنهى إبراهيم مقالته يرد الأب قائلاً :

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾

الفعل (رغب) يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر بعده ، تقول : رغب فى كذا . أى : أحبه وذهب إليه ، ورَغب عن كذا أى : كرهه واعتزله ، فمعنى ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ .. (٤٦)﴾ [مريم] أى : تاركها إلى غيرها ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠)﴾ [البقرة] أى : تركها إلى مِلّة أخرى .

وتلاحظ أن الفعل رَغب لم يأتِ مقترناً بعده بفى إلا مرة واحدة ،

وإنْ كانت (في) مُقدَّرة بعد الفعل ، وهذا في قوله تعالى عن نكاح يتامى النساء : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ .. (١٢٧) ﴾ [النساء]

والرغبة في الشيء تعني حُبه وعشقه ، والرغبة في الطريق الموصِّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التي تُوصِّلك إلى ما ترغب فيه ، وهذا المعنى واضح في قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) حيث يقول تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قَطْف ثمار بستانهم في الصباح ، ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمَّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حَرَمُوا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

أي : راغبون في الطريق الموصِّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب في الله ، قل : أنا راغب إلى الله ، فالمسألة ليست حُبًا فقط بل

---

(١) الصرم : القطع ماديا ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنويا بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . فيصرمنها : أي يقطعون ثمارها . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم] أي : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسود أو صارت كالأرض التي قطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

حُباً بثمن وسَعْى وعَمل يُوصلُك إلى ما تحب . إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين في ربكم ارغبوا إليه أولاً .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨)﴾ [التوبة] أي : يعيبك في توزيعها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة] فهم - إذن - لا يحبون الله ، وإنما يحبون العطاء والعَرَض الزائل ، بدليل أنهم لما مُنِعُوا سخطوا وصرفوا نظرهم عن دين الله كمَنْ قال الله فيهم :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج]

لذلك يُعدِّل لهم الحق سبحانه سلوكهم ، ويرشدهم إلى المنهج القويم : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)﴾ [التوبة] أي : آخذين الوسيلة الموصِّلة إليه ، فالذي يرغب في حب الله عليه أنْ يرغبَ في الطريق الموصِّل إليه .

ثم يقول أبو إبراهيم : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. (٤٦)﴾ [مريم] أي : تترك هذه المسألة التي تدعو إليها . والرجْم : هو الرمي بالحجارة ، ويبدو أن عملية الرجم كانت طريقة للتعذيب الشديد ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. (٢٠)﴾ [الكهف]

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم] أي : ابتعد عني وفارقني ﴿مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم] المليّ : البُرْهة الطويلة من الزمن . ومنها الملاوة : الفترة الطويلة من الزمن ، والملوان : الليل والنهار .

فماذا قال نبى الله إبراهيم لعمه بعد هذه القسوة ؟ لم يخرج إبراهيم عن سَمْته العادل ، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . قال :

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ ﴾

وكأن إبراهيم - عليه السلام - يريد أنْ يلفتَ نظر عمه ، ويؤكد له أنه في خطر عظيم يستوجب العذاب من الله ، وهذا أمر يُحزنه ولا يُرضيه ، وكيف يترك عمه دون أنْ يأخذ بيده ؟ فقال له أولاً : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ .. ٤٧ ﴾ [مريم] أى : سلام منى أنا ، سلام أقابل به ما بدر منك فأمْرى معك سلام ، فلن أقابلك بمثل ما قُلْت ، ولن أُغلظ لك ، ولن ينالك منى أذىً ، ولن أقول لك : أفٍّ .

لكن السلام منِّى أنا لا يكفى ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لك سلام أيضاً من الله تعالى ؛ لأنك وقعت فى أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب ، وأخشى ألاَّ يكونَ لك سلام من الله .

لذلك قال بعدها : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. ٤٧ ﴾ [مريم] كأنه يعتذر عن قوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ .. ٤٧ ﴾ [مريم] فأنا ما قُلْتُ لك : سلام عليك إلا وأنا أنوى أن أستغفرَ لك ربى ، حتى يتمّ لك السلام إنْ رجعتَ عن عقيدتك فى عبادة الأصنام ، وهو بذلك يريد أنْ يُحنِّنه ويستميل قلبه .

ثم أخبر عن الاستغفار فى المستقبل فلم يقُلْ استغفرتُ ، بل ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ .. ٤٧ ﴾ [مريم] يريد أنْ يُبرىء استغفاره لعمه من المجاملة والنفاق والخداع ، وربما لو استغفرتُ لك الآن لظننتَ أنّى

أجاملك ، أما ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ .. (٤٧)﴾ [مريم] أى : بعيداً عنك ليكون دعاءً عن ظَهْرِ غيب ، وهو أرْجَى للقبول عند الله .

ثم يقول : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم] يريد أنْ يُطمئِن عمه إلى أن له منزلة عند الله ، فإذا استغفر له ربه فإنه تعالى سيقبل منه .

وحَفياً : مَن الفعل حَفِيَ يَحْفَىَ كرَضِي يرضى ، ويأتى بعده حرف جر يُحدِّد معناها ، تقول : حفيٌّ به : أى بالغ فى إكرامه إكراماً يستوعب متطلبات سعادته ، وقابله بالحفاوة : أى بالإكرام الذى يتناسب مع ما يُحقِّق له السعادة .

وهذا أمر نسبيٌّ يختلف باختلاف الناس ، فمنهم مَنْ تكون الحفاوة به مجرد أنْ تستقبله ولو على حصيرة ، وتُقدِّم له ولو كوباً من الشاى ، ومن الناس مَنْ يحتاج إلى الزينات والفُرُش الفاخرة والموائد الفخمة ليشعر بالحفاوة به .

ونقول : حَفِيٌّ عنه : أى بالغ فى البحث عنه ليعرف أخباره ، وبلغ من ذلك مبلغاً شَقَّ عليه وأضناه ، وبالعامية يقولون : وصلتُ له بعدما حفيتُ ، ومن ذلك قوله تعالى عن الساعة : ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف] أى : كأنك معنيٌّ بالساعة ، مُغْرم بالبحث عنها ، دائم الكلام فى شأنها .

إذن : فمعنى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم] أى : أن ربى يبالغ فى إكرامى إكراماً يُحقِّق سعادتى ، ومن سعادتى أن الله يغفر لك الذنب الكبير الذى تُصرّ عليه ، وكأنه عليه السلام يُضخِّم أمرين : يُضخِّم الذنب الذى وقع فيه عمه ، وهو الكفر بالله ، ويُعظِّم الرب الذى سيستغفر لعمه عنده ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم]

وما دام ربي حَفِيّاً بي فلن يخذلني ، كيف وقد جعلني نبياً واحتفى بي ، فكُنْ مطمئناً إنْ أنت تُبْتَ مما أنت عليه من المعتقدات الباطلة ، إنه سيغفر لك . وكان إبراهيم عليه السلام يؤكد لعمه على منزلته عند ربه ، وما على عمه إلا أنْ يسمع كلامه ، ويستجيب لدعوته .

وظلَّ إبراهيم - عليه السلام - يستغفر لعمه كما وعده ، إلى أنْ تبيَّن له أنه عدو لله فانصرف عند ذلك ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى :
﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قال لقومه :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨) ﴾

اعتزل : ترك صحبة إلى خير منها ولو في اعتقاده ، وهنا يلفتنا الحق سبحانه إلى أن الإنسان حين يجادل في قضية ، ويرى عند خَصْمه لدداً وعناداً في الباطل ، لا يطيل معه الكلام حتى لا يُوصِّل فيه العناد ، ويدعوه إلى كبرياء الغَلَبة ولو بالباطل .

لذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - يُعلِّم المعاصرين لرسول الله ﷺ إنْ أرادوا البحث في أمره صدقاً أو كذباً والعياذ بالله ، أنْ يبحثوه مثْنى أو فُرادى ، ولا يبحثوه بَحْثاً جماهيرياً غوغائياً ؛ لأن العمل الغوغائي بعيد عن الموضوعية يستتر فيه الواحد في الجماعة ، وقد يحدث ما لا تُحمد عُقباه ولا يعرفه أحد .

والغوغائية لا يحكمها عقل ولا منطق ، والجمهور كما يقولون : عقله في أذنيه . وسبق أن قلنا : إن كليوباترا حين هُزِمت وحليفها صَوَّروا هذه الهزيمة على أنها نصر ، كما حدث كثيراً على مَرِّ التاريخ ، وفيها يقول الشاعر :

أَسْمَعُ الشَّعْبَ دُيُونُ ... كَيْفَ يُوحُونَ إِلَيْه
مَلأَ الجوَّ هتافاً ... بِحَيَاتَيْ قَاتِلَيْه
أَثَّر البُهتانُ فِيهِ ... وَانْطَلَى الزُّورُ عَلَيْه
يَالَهُ مِنْ بَبَّغَاءِ ... عقلُه في أُذُنَيْه

إذن : فالجمهرة لا تُبدى رأياً ، ولا تصل إلى صواب .

يقول الحق سبحانه للمعاصرين لرسول الله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

فبَحْث مثل هذا الأمر يحتاج إلى فردين يتبادلان النظر والفكْر والدليل ويتقصَّيان المسألة ، فإنْ تغلَّب أحدهما على الآخر كان الأمر بينهما دون ثالث يمكن أنْ يشمتَ في المغلوب ، أو يبحثه فرد واحد بينه وبين نفسه فينظر في شخص رسول الله ، وما هو عليه من أدب وخُلق ، وكيف يكون مع هذا مجنوناً ؟ وهل رأينا عليه أمارات الجنون ؟ والذين قالوا عنه : ساحر لماذا لم يسحرهم كما سحر التابعين له ؟

إذن : لو أثار الشخص الواحد هذه الحقائق على ذهنه ، واستعرض الآراء المختلفة لاهتدى وحده إلى الصواب . فالاعتزال أمر مطلوب إنْ وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل مع الحق حتى لا تُوصِّل الجدل والعناد في نفس الخَصْم .

لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ[1] الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

أى : كانت الفرصة أمامكم لتتركوا هذه البُقْعة إلى غيرها من أرض الله الواسعة ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُلفت نظرنا إلى أن الأرض كلها أرض الله ، فأرض الله الواسعة ليست هي مصر أو سوريا أو ألمانيا ، بل الأرض كلها بلا حواجز هي أرض الله ، فمَنْ ضاق به مكانٌ ذهب إلى غيره لا يمنعه مانع ، وهل يوجد هذا الآن ؟ هل تستطيع أن تخترق هذه الحواجز ودونها نظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن]

أى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[2] وهذا من المبادىء التي جعلها الخالق سبحانه للإنسانية ، فلما استحدثَ الإنسانُ الحواجز والحدود ، وأقام الأسوار والأسلاك ومنع الأنام من الحركة فى أرض الله نشأ في الكون فساد كبير ، فإنْ ضاق بك موضع لا تجد بديلاً عنه في غيره ، وإنْ عِشْتَ في بيئة غير مستقيمة التكوين كتب عليك أنْ تشقى بها طوال حياتك .

---

(١) توفاهم . أى : تتوفاهم بحذف إحدى التاءين تخفيفاً . أى : تميتهم وتقبض أرواحهم . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] . قال ابن كثير في تفسيره (١/٥٤٢) : « نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع » .

(٢) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [نقله ابن منظور في لسان العرب . مادة : أنم] .

وقلنا : إن هذه الحدود وتلك الحواجز أفرزتْ أرضاً بلا رجال ، ورجالاً بلا أرض ، ولو تكاملتْ هذه الطاقات لاستقامتْ الدنيا .

ومسألة الاعتزال هذه ، أو الهجرة من أرض الباطل ، أو من بيئة لا ينتصر فيها الحق وردتْ في نصوص عدَّة بالنسبة لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ منها قوله تعالى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء]

فترك إبراهيم الأرض التي استعصتْ على منهج الله إلى أرض أخرى ، وهاجر بدعوته إلى بيئة صالحة لها من أرض الشام .

نعود إلى اعتزال إبراهيم عليه السلام للقوم ، لا لطلب الرزق وسَعة العيش ، بل الاعتزال من أجل الله وفي سبيل مبدأ إيماني يدعو إليه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤٨) ﴾ [مريم] وأول ما نلحظ أن في هذا النص عدولاً ، حيث كان الكلام عن العبادة : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ .. (٤٢) ﴾ [مريم] ، ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. (٤٤) ﴾ [مريم]

والقياس يقتضي أن يقول : وأعتزلكم وما تعبدون .. وأدعو ربي ، أي : أعبده ، إلا أنه عدل عن العبادة هنا وقال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ .. (٤٨) ﴾ [مريم] فلماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان لا ينصرف عن ربه وعن وحدانيته تعالى إلا حين يستغني ، فإنْ ألجأتْهُ الأحداث واضطرته الظروف لا يجد ملجأ

إلا إلى الله فيدعو . إذن : فالعبادة ستصل قطْعاً إلى الدعاء ، وما دُمْتَ ستضطر إلى الدعاء فليكُنْ من بداية الأمر :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم]

إذن : استخدم الدعاء بدل العبادة ؛ لأنني أعبد الله في الرخاء ، فإنْ حدثتْ لي شدةٌ لا أجد إلا هو ادعوه .

وقوله : ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم] أي : عسى الأ أكون شقياً بسبب دعائي لربي ؛ لأنه تبارك وتعالى لا يُشقي مَنْ عبده ودعاه ، فإنْ أردتَ المقابل فقُلْ : الشقيُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم] لم يذكر هنا إسماعيل ؛ لأن إسحق جاء جزاءً من الله لإبراهيم على صبره في مسألة ذَبْح إسماعيل ، وما حدث من تفويضهما الأمر لله تعالى ، والتسليم لقضائه وقدره ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] أي : إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) تله : أي ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

ولم يقتصر الأمر على الفداء ، بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢) ﴾ [الصافات] فلما امتثل لأمر الله في الولد الأول وهبنا له الثاني .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ [الأنبياء]

كأن الحفيد نافلة وزيادة في عطاء الذرية ، ومبالغة في الإكرام .

ثم يمتنُّ الله على الجميع بأن يجعلهم أنبياء ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم] فليس الامتنان بأنْ وهب له إسحاق ومن بعده يعقوب ، بل بأنْ جعلهم أنبياء ، وهذه جاءت بشرى لإبراهيم ، وكان حظّه أنْ يرعى دعوة الله حياً ، ويطمع أنْ تكونَ في ذريته من بعده ، وكانت هذه هي فكرة زكريا ـ عليه السلام ـ فكلهم يحرصون على الذرية لا للعزوة والتكاثر وميراث عَرَضِ الدنيا ، بل لحمل منهج الله وامتداد الدعوة فيهم والقيام بواجبها .

انظر إلى قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أي : حمَّله تشريعات فقام بها على أتمِّ وجه وأدّاها على وجهها الصحيح ، فلما علم الله منه

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/١٦٥) : « اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم ، قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك .

وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وعن ابن عباس أيضاً قول ثالث : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته النمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم .. إلخ .

عشقه للتكليف أتمهما عليه : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤)﴾ [البقرة] فتثور مسألة الإمامة في نفس إبراهيم ، ويطمع أنْ تكونَ في ذريته من بعده فيقول : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤)﴾ [البقرة] لذلك يُعدِّل الحق سبحانه فكرة إبراهيم عن الإمامة ، ويضع المبدأ العام لها ، فهي ليستْ ميراثاً ، إنها تكليف له شروط :

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]

فالظالمون لا يصلحون لهذه المهمة . فوعى إبراهيم عليه السلام هذا الدرس ، وأخذ هذا المبدأ ، وأراد أنْ يحتاط به في سؤاله لربه بعد ذلك ، فلما دعا ربه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٢٦)﴾ [البقرة] فاحتاط لأنْ يكونَ في بلده ظالمون ، فقال : ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

لكن جاء قياس إبراهيم هنا في غير محله ، فعدَّل الله له المسألة ؛ لأنه يتكلم في أمر خاص بعطاء الربوبية الذي يشمل المؤمنَ والكافر ، والطائعَ والعاصي ، فقد ضمن الله الرزق للجميع فلا داعي للاحتياط في عطاء الربوبية ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة]

إذن : فهناك فارق بين العطاءين : عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والإمامية في منهج الله ، فعطاء الربوبية رزق يُساق للجميع وخاضع للأسباب ، فمَنْ أخذ بأسبابه نال منه ما يريد ، أما عطاء الألوهية فتكليف وطاعة وعبادة .

يقول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن رَّحْمَتِنَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] المراد بالرحمة النبوة ؛ لذلك لما قال أهل العظمة والجاه المعاصرون لرسول الله ﷺ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] وكأنهم استقلُّوا رسول الله أن يكون في هذه المنزلة ، ردّ عليهم القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : فعطاؤه تعالى في النبوات رحمةٌ أشاعها الله في ذرية إبراهيم .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] أي : كلمة صدق وحق ثابت مطابق للواقع ، ولسان الصِّدْق يعنى مَدْحاً في موضعه ، وثناءً بحق لا مجاملة فيه ، والثناء يكون باللسان ، وها نحن نذكر هذا الركْب من الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب بالثناء الحسن والسيرة الطيبة ، ونأخذهم قدوة ، وهذا كله من لسان الصدق ، ويبدو أنها دعوةُ إبراهيم حين قال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾

وهذا أيضاً ركْبٌ من ركْبِ النبوات ، وقد أخذت قصة موسى عليه السلام حيِّزاً كبيراً من كتاب الله لم تأخذه قصة نبي آخر ، مما دعا الناس إلى التساؤل عن سبب ذلك ، حتى بنو إسرائيل يُفضِّلون أنفسهم على الناس بأنهم أكثر الأمم أنبياءً ، وهذا من غبائهم ؛ لأن هذه تُحسبَ عليهم لا لهم ، فكثرة الأنبياء فيهم دليل على عنادهم وغطرستهم مع أنبيائهم .

فما من أمة حيَّرتْ الأنبياء ، وآذتْهم كبني إسرائيل ؛ لذلك كَثُرَ أنبياؤهم ، والأنبياء أطباء القيَم وأُساة أمراضها ، فكثرتهم دليل تفشِّي المرض ، وأنه أصبح مرضاً عُضَالاً يحتاج في علاجه لا لطبيب واحد ، بل لفريق من الأطباء .

والبعض يظن أن قصة موسى في القرآن مجرد حكاية تاريخ ، كما نقول نحن ونقصُّ : كان يا ما كان حدث كذا وكذا ، ولو كانت قصة موسى في القرآن مجرد حكاية تاريخ لجاءتْ مرة واحدة . لكنها ليست كذلك ؛ لأن الحكمة من قَصِّها على رسول الله كما قال تعالى :

﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

إذن : فالهدف من هذا القَصَص تثبيت النبي ﷺ في دعوته لقومه ؛ لأنه سيتعرض لمواقف وشدائد كثيرة يحتاج فيها إلى تثبيت ومواساة وتسلية ، فكلما جدَّ بينه وبين قومه أمر قال له ربه : اذكر موسى حين فعل كذا وكذا ، وأنت خاتم الرسل ، وأنت التاج بينهم ، فلا بُدَّ لك أنْ تتحمَّل وتصبر .

أما لو نزلت مثل هذه القصة مرة واحدة لكان التثبيت بها مرة واحدة ، وما أكثر الأحداث التي تحتاج إلى تثبيت في حياة الدعوة .

لذلك تجد خصوم الإسلام يتهمون القرآن الكريم بالتكرار في قصة موسى عليه السلام ، وهذا دليلٌ على قصورهم في فَهْم القرآن ، فهذه المواضع التي يروْنَ فيها تكراراً ما هي إلا لقطات مختلفة لموضوع واحد ، لكن لكل لقطة منها موقع وميلاد ، فإذا جاء موقعها وحان ميلادها نزلتْ .

ومما رأوا فيه تكراراً ، وليس كذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام طفلاً : ﴿عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه] ونتساءل : متى تستعر العداوة بين عدوين ؟ إنْ كانت العداوة من طرف واحد فإن الطرف الآخر يقابلها بموضوعية ودون لَدَد في الخصومة إلى أنْ تهدأ العداوة بينهما ، فهو عدو دون عداوة ، فحينما يراه صاحب العداوة على هذا الخُلق يصرف ما في نفسه من عداوة له ، كما قال تعالى :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ[1] حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

أمَا إنْ كانت العداوة بين عدوَّيْن حقيقيين : هذا عدو وهذا عدو ، هنا تستعر العداوة ، وتزكو نارها ، ويحتدم بينهما صراع ، ولا بُدَّ أنْ يصرَع أحدهما الآخر .

والحق تبارك وتعالى حينما تكلّم عن موسى وفرعون ، جعل العداوة مرة من موسى في قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

---

(١) الولي : هو القريب بالنسب أي بالمحبة أو بالطاعة . أو الولي : الصديق وهو ضد العدو . [القاموس القويم ٢/٣٥٨] قال ابن الأعرابي : الولي التابع المحب . وقال ابن منظور في اللسان [مادة : ولي] : الولي : الصديق والنصير .

فالعداوة هنا من موسى ليفضح الله أمر فرعون ، فها هو يأخذ موسى ويُربِّيه ، وهو لا يعلم أنه عدو له ، وعلى يديْه ستكون نهايته غريقاً ، فالمقاييس عنده خاطئة ، وهو يدَّعِى الألوهية .

ومرة أخرى يُثْبت العداوة من فرعون فى قوله تعالى :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

فالعداوة هنا من فرعون . إذن : فالعداوة من الطرفين ، لذلك فالمعركة بينهما كانت حامية .

كذلك من المواضع التى ظنوا بها تكراراً قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

وفى آية أخرى يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

والمستشرقون أحدثوا ضجة حول هذه الآيات : لأنهم لا يفهمون أسلوب القرآن ، وليست لديهم الملَكَة العربية للتلقِّى عن الله ، فهناك فَرْق بين السياقين ، فالكلام الأول : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص] هذه أحداث لم تقع بعد ، إنها ستحدث فى المستقبل ، والكلام مجرد إعداد أم موسى للأحداث قبل أنْ تقعَ .

أمّا المعنى الثانى فهو مباشر للأحداث وقت وقوعها ؛ لذلك جاء فى عبارات مختصرة كأنها برقيات حاسمة لتناسب واقع الأحداث : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه]

كما أن الآية الأولى ذكرت : ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦ ﴾ [القصص] ولم تذكر التابوت كما في الآية الأخرى : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. ㊴ ﴾ [طه]

إذن : ليس في المسألة تكرار كما يدَّعي المعترضون ؛ فكل منهما تتحدث عن حال معين ومرحلة من مراحل القصة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا .. ㊿ ﴾ [مريم] من خَلَّصَ شيئا من أشياء ، أي : استخرج شيئاً من أشياء كانت مختلطة به ، كما نستخلص مثلاً العطور من الزهور ، فقد أخذت الجيد وتركت الرديء ، وبالنسبة للإنسان نقول : فلان مُخلص لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة لتخدم كل حركة في الحياة ، وكل ملكة من ملكاته ، أو جهاز من أجهزته له مهمة يؤديها ، إلا أنها قد تدخل عليها أشياء ليست من مهمته ، أو تخرج عن غاياتها فتحدث فيه بعض الشوائب ، فيحتاج الإنسان لأنْ يُخلِّص نفسه من هذه الشوائب .

فمثلاً ، الحق - تبارك وتعالى - جعل التقاء الرجل والمرأة لهدف محدد ، وهو بقاء النوع ؛ لذلك تجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا بالعقل والاختيار إذا أدى كُلٌّ من الذكر والأنثى هذه المهمة لا يمكن أنْ تُمكِّن الأنثى الذكر منها ، وكذلك الذكر لا يأتي الأنثى إذا علم من رائحتها أنها حامل .

إذن : وقف الحيوان بهذه الغريزة عند مهمتها ، وهي حفظ النوع ، لكن الإنسان لم يقف بهذه الغريزة عند حدودها ، بل جعلها مُتعة شخصية يأتي حفْظ النوع تابعاً لها .

وكذلك الحال فى غريزة الطعام ، فالإنسان إذا جاع يحتاج بغريزته إلى أنْ يأكلَ ، والحكمة من ذلك استبقاء الحياة ، لا الامتلاء باللحم والشحم . فالحيوان يقف بهذه الغريزة عند حَدِّها ، فإذا شبع فلا يمكن أنْ تُجبره على عود برسيم واحد فوق ما أكل .

أما فى الإنسان فالأمر مختلف تماماً ، فيأكل الإنسان حتى الشِّبَع ، ثم حتى التُّخْمة ، ولا مانع بعد ذلك من الحلو والمشروبات وخلافه ؛ لذلك وضع لنا الخالق سبحانه وتعالى المنهج الذى يُنظِّم لنا هذه الغريزة ، فقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]

وفى الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثُلث لطعامه ، وثُلث لشرابه ، وثُلث لنفَسه »[1]

ومن الغرائز أيضاً غريزة حب الاستطلاع ، فالإنسان يحب أن يعرف ما عند الآخر ليحدث بين الناس الترقى اللازم لحركة الحياة ، ومعرفة أسرار الله فى الكون ، وهذا هو الحد المقبول أما أن يتحول حب الاستطلاع إلى التجسس وتتبّع عورات الآخرين ، فهذا لا يُقبل ويُعَدُّ من شوائب النفوس ، يحتاج إلى أنْ نُخلِّص أنفسنا منه .

إذن : لكل غريزة حكمة ومهمة يجب ألاَّ نخرج عنها ، والمُخلَص هو الذى يقف بغرائزه عند حَدِّها لا يتعدَّاها ويخلصها من الشوائب التى تحوط بها . وهذه الصفة إمّا أنْ يكرم الله بها العبد فيُخلِّصه من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث لمقدام ابن معد يكرب ، ولفظه « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن » الحديث قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

البداية من هذه الشوائب ، أو يجتهد هو ليُخلِّص نفسه من شوائبها باتباعه لمنهج الله . هذا هو المُخْلَص : أى الذى خلص نفسه .

لذلك ، يقولون : من الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله . وقد جعل الله تعالى الأنبياء مخْلَصين من بدايتهم ، ليكونوا جاهزين لهداية الناس ، ولا يُضيِّعون أوقاتهم فى تخليص أنفسهم من شوائب الحياة وتجاربها .

ألم يستمر رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يُعلِّم الناس كيف يُخلصون أنفسهم ؟ فكيف إنْ كان النبى نفسه فى حاجة لأنْ يُخلص نفسه ؟

ولمكانة هؤلاء المخْلَصين ومنزلتهم تأدَّب إبليس وراعى هذه المنزلة حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]

لأن هؤلاء لا يقدر إبليس على غوايتهم .

ثم يقول تعالى . ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ۝٥١﴾ [مريم] لأن من عباد الله مَنْ يكون مخْلَصاً دون أن يكون نبياً أو رسولاً كالعبد الصالح مثلاً ؛ لذلك أخبر تعالى عن موسى - عليه السلام - أنه جمع له كل هذه الصفات .

والرسول . مَنْ أُوحِى إليه بشرع يعمل به ويُؤْمَر بتبليغه لقومه . أما النبى ، فهو مَنْ أُوحِى إليه بشرع يعمل به لكن لم يُؤْمَر بتبليغه . إذن : فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً ؛ لأن النبى يعيش على منهج الرسول الذى يعاصره أو يسبقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم] أيمن الطور ، أمْ أيمن موسى ؟ أىّ مكان لا يُقال له أيمن ولا أيسر ، إنما الأيمن والأيسر بالنسبة لك أو لغيرك ، فالذى تعتبره أنت يميناً يعتبره غيرُك يساراً ، ولا يُقال للمكان أيمن ولا أيسر إلا إذا قسْته إلى شيء ثابت كالقبْلة مثلاً فتقول : أيمن القبلة ، وأيسر القبلة ، وخلف القبْلة ، وأمام القبْلة .

إذن : فقوله : ﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم] أى : أيمن موسى ، وهو مُقبل على الجبل ، وهذه لقطة مختصرة من القصة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم] أى : قرَّبْناه لنُناجيه بكلام . والنجىّ : هو المنَاجِى الذى يُسِرُّ القول إلى صاحبه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر ، فإن ذلك يُحزنه »[1] .

وقد قرَّب الله تعالى موسى ليناجيه ؛ لأن هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، فإنْ قلتَ : فكيف يكلّمه الله بكلام ، ويسمى مناجاة ؟ قالوا : لأنه

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) كتاب السلام . وكذا أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣٧٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . وعند مسلم زيادة « حتى تختلطوا بالناس » .

تعالى أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك .

وبعض المفسرين يرى أن (الأيمن) ليس من اليمين ، ولكن من اليُمْن والبركة . و ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ .. (٥٢) ﴾ [مريم] أى : من حضرة الحق تبارك وتعالى . لكن هل حضرة الحق قُرْب منه ، أم موسى هو الذى قُرِّب من حضرة الحق سبحانه ؟ كيف نقول إن الله قريب منه وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد ، فالتقريب إذن لموسى عليه السلام .

وهكذا جمع الحق ـ تبارك وتعالى ـ لموسى عدة خصال ، حيث جعله مخلَصاً ورسولاً ونبياً ، وخصّه بالكلام والمناجاة ، ثم يزيده هبة أخرى فى قوله :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾

وهب الله لموسى أخاه هارون رحمة بموسى ؛ لأن هارون كان مُعيناً لأخيه ومسانداً له فى مسألة الدعوة ، وهذه لم تحدث مع نبى آخر ، أن يجعل الله له معيناً فى حمل هذه المهمة ؛ لذلك قال موسى عليه السلام : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) ﴾ [القصص]

والرِّدْء : هو المعين . وهكذا أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ لقطة سريعة من موكب النبوة فى قصة موسى ، ولمحة مُوجَزة هنا أتى تفصيلها فى موضع آخر .

---

(١) ردأه : قوّاه وأعانه . والردء بكسر الراء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ .. (٥٤) ﴾ [مريم] ما الميزة هنا وكل الرسل كانوا صادقي الوعد ؟ قالوا : لأن هناك صفة تبرز في شخص ويتميز بها ، وإن كانت موجودة في غيره ، فالذي يصدُق في وعد أعطاه ، أو كلمة قالها صدق في أمر يملكه ويتعلق به .

أما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فكان صادق الوعد في أمر حياة أو موت ، أمر يتعلق بنفسه ، حين قال لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وليت الأمر جاء مباشرة ، إنما رآه غيره ، وربما كانت المسألة أيسر لو أن الولد هو الذي رأى أباه يذبحه ، لكنها رُؤْيا رآها الأب ، والرؤيا لا يثبت بها حكم إلا عند الأنبياء . فكان إسماعيل دقيقاً في إجابته حينما أخبره أبوه كأنه يأخذ رأيه في هذا الأمر : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فخاف إبراهيم عليه السلام أن يُقبل على ذَبْح ولده دون أن يخبره حتى لا تأتي عليه فترة يمتلىء غيظاً من أبيه إذا كان لا يعرف السبب ، فأحبَّ إبراهيم أن يكون استسلامُ ولده للذبح قُرْبَى منه لله ، له أجْرُها وثوابها .

قال إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

والوعد الذى صدق فيه قوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] وصدق إسماعيل في وعده ، واستسلم للذبح ، ولم يتردد ولم يتراجع ؛ لذلك استحق أنْ يميزه ربه بهذه الصفة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ .. (٥٤) ﴾ [مريم]

فلما رأى الحق - تبارك وتعالى - استسلام إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لقضاء الله رفع عنه قضاءه وناداه : ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] فكانت نتيجة الصبر على هذا الابتلاء أنْ فدى الله الذبيح ، وخلَّصه من الذبح ، ثم أكرم إبراهيم فوق الولد بولد آخر : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ .. (٨٤) ﴾ [الأنعام]

وهذه لقطة قرآنية تُعلِّمنا أن المسلم إذا استسلم لقضاء الله ، ورَضي بقدره فسوف يجنى ثمار هذا الاستسلام ، والذى يطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضون به ، والحق تبارك وتعالى لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم ترْضَ .

وحين تسلم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيِّن لك وجه الخير فيه ، إذن : عليك أن تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاء الله عن الخلق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أىّ شباب ؟ وأيَّة متعة هذه ؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية

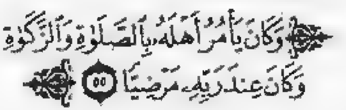
ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه في نعيم لو عرفتَه لتمنيتَ أن تكون مكانه ، ويكفي أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص في الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها يمرحون كما يشاؤون ؛ لذلك يسمونهم (دعاميص الجنة)[1] .

وآخر يعترض لأن زميله في العمل رُقِّي حتى صار رئيساً له ، به يحقد عليه ويحقره ، وتشتعل نفسه عليه غضباً ، وكان عليه أن يتساءل قبل هذا كله : أأخذ زميله شيئاً من مُلْك الله دون قضائه وقدره ، إذن : فعليك إذا لم تحترم هذا الزميل أن تحترم قدر الله فيه، فما أخذ شيئاً غصباً عن الله .

لذلك فالنبي ﷺ يقول : « اسمعوا وأطيعوا ، ولو وُلِّي عليكم عبد حبشيٌ ، كأنَّ رأسه زبيبة »[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :



---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/٤٧٧ ، ٥١٠) ، ومسلم في صحيحه (٢٦٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا حسان قال لأبي هريرة : إنه قد مات لي ابنان . فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وإياه الجنة » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١١٤) ، والبخاري في صحيحه (٧١٤٢) وابن ماجة في سننه (٢٨٦٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفي لفظ لأحمد (٣/١٧١) : أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « اسمع وأطع ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة » .

أى : من خصال إسماعيل العظيمة التى ذكرها الله تعالى له : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ .. (٥٥) ﴾ [مريم] أى : زوجته . والحق تبارك وتعالى لا يهتم بخصلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده ، تساوى كونه صادقَ الوعد وكونه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصفَ بصفة من صفات النبوة ، فعليه أنْ يأمرَ أهله بالصلاة والزكاة .

لكن ، لماذا اختص أهله بالذات ؟ اختص أهله لأنهم البيئة المباشرة التى إنْ صلُحتْ للرجل صَلُحَ له بيته ، وصلُحَتْ له ذريته ، إذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس له مجال فى بيت يصلى أهله الخمس صلوات .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « رحم الله امرأ استيقظ من الليل ، فصلَّى ركعتين ثم أيقظ أهله فإن امتنعتْ نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّتْ ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها ، فإن امتنع نضحتْ في وجهه الماء »[1] .

إذن : فكل رجل وكل امرأة يستطيع فى كل ليلة أن يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول ؛ لأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل ، فليس بعد تشريعه تشريع ، وليس بعد كتابه كتاب ؛ لأن أمته ستحمل رسالته من بعده ، وكل مؤمن منهم يعلم من الإسلام حُكْماً ، فهو خليفة لرسول الله فى تبليغه .

كما قال تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وعليكم أنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٥٠ ، ٤٣٦) ، والنسائى فى سننه (٣/ ٢٠٥) وأبو داود فى سننه (١٣٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تشهدوا أنكم بلغتم الناس ، وما دمتم بلغتم الناس منطقاً ولفظاً فلا بُدَّ أنْ يكون سلوكاً أيضاً ، لأن لكم في رسول الله أسوة حسنة .

ودائماً ما يقرن الحق - تبارك وتعالى - بين الصلاة والزكاة ، والصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ المال الذي هو فرع العمل الذي هو فرع الوقت ، فإنْ كانت الزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، فالصلاة تأخذ الوقت نفسه . إذن : ففي الصلاة زكاة أبلغ من الزكاة .

وإنْ كان في الزكاة نماء المال وبركته - وإنْ كانت في ظاهرها نقصاً - ففي الصلاة نماء الوقت وبركته ، فإياك أنْ تقول : أنا مشغول ، ولا أجد وقتاً للصلاة ؛ لأن الدقائق التي ستصلي فيها فَرْض ربك هي التي ستُشيع البركة في وقتك كله .

كما أنك حين تقف بين يَدَيْ ربك في الصلاة تأخذ شحنة إيمانية نورانية تُعينك على أداء مهمتك في الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك وصانعك ، ولن تُعدم خيراً ينالك من هذا اللقاء .

ولك أنْ تتصوَّر صنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، هل يصيبها عُطْل أو عَطَب ؟! وإنْ كان المهندس الصانع يعالج بأشياء مادية فلأنه حِسّيٌّ مشهود ، أما الخالق سبحانه فهو غَيْب يصلحك من حيث لا تدري .

وإنْ كان إسماعيل - عليه السلام - يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليها من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم] أي : رضي الله عنه ، ليس لخصال الخير التي وصفه بها ، بل من بدايته ، فقد رضي عنه فاختاره رسولاً ونبياً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾

مازال القرآن يعطينا لقطات من موكب الرسالات والنبوات . وإدريس عليه السلام أول نبي بعد آدم عليه السلام ، فهو إدريس بن شيث بن آدم . وبعد إدريس جاء نوح ثم إبراهيم ، ومنه جاءت سلسلة النبوات المختلفة .

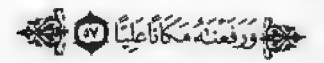
وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم]

تحدثنا عن معنى الصِّدِّيق في الكلام عن إبراهيم عليه السلام ، والصِّدِّيق هو الذي يبالغ في تصديق ما جاءه من الحق ، فيجعل الله له بذلك فُرْقاناً وإشراقاً يُميِّز به الحق فلا يتصادم معه شيطان ؛ لأن الشيطان قد ينفذ إلى عقلي وعقلك .

أما الوارد من الحق سبحانه وتعالى فلا يستطيع الشيطان أن يعارضه أو يدخل فيه ، لذلك فالصِّدِّيق وإنْ لم يكُنْ نبياً فهو مُلْحق بالأنبياء والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء]

وكذلك كان إدريس عليه السلام (نبياً) ولم يقُلْ : رسولاً نبياً ، لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة .

ثم يقول الحق سبحانه :



مكاناً عالياً فى السماء ، رفْعة معنوية ، أو رفْعة حسّية ، خُذْها كما شئتَ ، لكن إياك أنْ تجادل : كيف رفعه ؟ لأن الرِّفْعة من الله تعالى ، والذى خلقه هو الذى رفعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآ(١) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : الذين تقدَّموا وسبق الحديث عنهم من الأنبياء والرسل ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : مباشرة مثل إدريس عليه السلام ﴿ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] الذين جاءوا بعد إدريس مباشرة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : الذين جاءوا بعد نوح .

وقد انقسموا إلى فرعين من ذرية إبراهيم .

الأول : فرع إسحق الذى جاء منه جمهرة النبوة ، بداية من يعقوب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم زكريا ويحيى ، ثم ذو الكفل ، ثم أيوب ، ثم ذو النون .

والفرع الآخر : فرع إسماعيل عليه السلام الذى جاء منه جماع جواهر النبوة ، وهو محمد ﷺ .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

﴿ وَإِسْرَائِيلَ .. (٥٨) ﴾ [مريم] هو نبيّ الله يعقوب ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا .. (٥٨) ﴾ [مريم] الذين هديناهم واجتبيناهم . أى : اخترناهم واصطفيناهم للنبوة ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾ [مريم]

لماذا قال ﴿ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ (٥٨) ﴾ [مريم] ولم يقُلْ : آيات الله ؟ قالوا : لأن آيات الله تحمل منهجاً وتكليفاً ، وهذا يشقُّ على الناس ، فكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تفهموا أن الله يُكلِّفكم بالمشقة ، وإنما يُكلِّفكم بما يُسعد حركة حياتكم وتتساندون ، ثم يسعدكم به فى الآخرة ؛ لذلك اختار هنا صفة الرحمانية .

وقوله : ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾ [مريم] لم يقُل : سجدوا ، بل سقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض . وهذا انفعال قَسْرى طبيعى ، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير ، فالساجد يستطيع أنْ يسجدَ بهدوء ونظام ، أما الذى يخرُّ فلا يفكر فى ذلك ، وهذا أشبه بقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل] أى: سقط عليهم فجأة .

وهذا الانفعال يُسمُّونه « انفعال نزوعى » ناتج عن الوجدان ، والوجدان ناتج عن الإدراك ، وهذه مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع . والإنسان له حواس يُدرِك بها : العين والأذن والأنف واللسان .. الخ .

فهذه وسائل إدراك المحسَّات ، فإذا أدركتَ شيئاً بحواسِّك تجد له تأثيراً فى نفسك ، إما حُباً وإما بُغْضاً ، إما إعجاباً وإما انصرافاً ، وهذا الأثر فى نفسك هو الوجدان ، ثم يصدر عن هذا الوجدان حركة هى « النزوع » .

فمثلاً ، لو رأيتَ وردة جميلة فهذه الرؤيا « إدراك » ، فإنْ أعجبتَ

بها وسُرِرْتَ فهذا « وجدان » ، فإنْ مددْتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » . والشرع لا يحاسبك على الإدراك ولا على الوجدان ، لكن حين تمد يدك لقطف هذه الوردة تقول لك : قفْ فهذه ليست لك ، ولا يمنعك الشارع ويتركك ، إنما يمنعك ويوحي لك بالحلِّ المناسب لنزوعك ، فعليك أنْ تزرع مثلها ، فتكون مِلْكاً لك أو على الأقل تستأذن صاحبها .

كذلك الحال فيمن يتسمّع لكلام الله وقرآنه يدرك القرآن بسمعه فينشأ عنه حلاوة ومواجيد في نفسه ، وهذا هو الوجدان الذي ينشأ عنه انفعال نُزوعي ، فلا يجد إلا أنْ يخر ساجداً لله تعالى . والنزوع هنا لم يكُنْ نزوعاً ظاهرياً بل وأيضاً داخلياً ، ففاضت أعينهم بالدمع ﴿ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨ ﴾ [مريم]

وقد عُولِج هذا المعنى في عدّة مواضع أُخَر ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ ﴾ [الإسراء]

ومعنى : للأذقان : مبالغة في الخضوع والخشوع واستيفاء السجود ؛ لأن السجود يكون أولاً على الجبهة ثم الأنف لكن على الأذقان ، فهذا سجود على حَقٍّ ، وليس كنقْر الديكة كما يقولون .

إذن : فأهل الكتاب كانوا على علم ببعثة محمد ﷺ ، وأنه سيأتي بالقرآن على فَتْرة من الرسل ، وها هم الآن يسمعون القرآن ؛ لذلك يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ ﴾ [الإسراء]

ومن النزوع الانفعالي أيضاً قوله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. ۝٨٣ ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٣)﴾ [الزمر]

فلماذا يُؤثِّر الانفعال بالقرآن في كُلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان ؟ قالوا : لأن الذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم ، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعي ، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط ، بل يخاطب كل ذرة من ذَرَّات تكوينك ؛ لذلك تخِرُّ الأعضاء ساجدة ، وتدمع العيون ، وتقشعر الجلود ، وتلين القلوب ، كيف لا والمتكلم هو الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)﴾

قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. (٥٩)﴾ [مريم] أي : أن المسائل لم تستمر على ما هي عليه من الكلام السابق ذِكْره ، بل خَلَفَ هؤلاء القوم (خَلْفٌ) والخَلْف : هم القوم الذين يخلُفون الإنسان . أي : يأتون بعده أو من ورائهم .

وهناك فَرْق بين خَلْف وخَلَف : الأولى : بسكون اللام ويُراد بها الأشرار من عَقِب الإنسان وأولاده ، والأخرى : بفتح اللام ويُراد بها الأخيار . لذلك ، فالشاعر[1] حينما أراد أنْ يتحسَّر على أهل الخير الذين مَضَوْا قال :

---

(١) هو : لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري ، أحد شعراء الجاهلية ، من أهل عالية نجد ، أدرك الإسلام ، يُعد من الصحابة ، سكن الكوفة ، عاش عمراً طويلاً ، توفي عام (٤١ هـ) . (الأعلام للزركلي ٥/٢٤٠) .

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكنَافِهِمْ وبَقِيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْرَبِ[1]

فماذا تنتظر من هؤلاء الأشرار ؟ لا بُدَّ أنْ يأتي بعدهم صفات سوء ﴿أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ۝﴾ [مريم] إذن : هم خَلْف فاسد ، فأول ما أضاعوا أضاعوا الصلاة التي هي عماد الدين ، وأَوْلَى أركانه بالأداء .

صحيح أن الإسلام بُنِي على عِدَّة أركان ، لكن بعض هذه الأركان قد يسقط عن المسلم ، ولا يُطلَب منه كالزكاة والحج والصيام ، فيبقى ركنان أساسيان لا يسقطان عن المسلم بحال من الأحوال ، هما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة .

وسُئِلْنا مرة من بعض إخواننا في الجزائر : لماذا نقول لمن يؤدي فريضة الحج : الحاج فلان ، ولا نقول للمصلي : المصلي فلان ، أو المزكِّي فلان ، أو الصائم فلان ؟

فقلت للسائل : لأن بالحج تتم نعمة الله على العبد ، وحين نقول : الحاج فلان ، فهذا إشعار وإعلام أن الله أتمَّ له النعمة ، واستوفى كل أركان الإسلام ، فمعنى أنه أدَّى فريضة الحج أنه مستطيع مالاً وصحة ، وما دام عنده مال فهو يُزكِّي ، وما دام عنده صحة فهو يصوم ، وهو بالطبع يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤدي الصلاة ، وهكذا تمَّتْ له بالحج جميع أركان الإسلام .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝﴾ [مريم] هذه العبارة أخذها المتمحكون الذين يريدون أنْ يدخلوا على القرآن بنقد ، فقالوا : الغَيُّ هو الشر والضلال والعقائد الفاسدة ، وهذه حدثتْ منهم بالفعل

---

(١) أورده أبو علي القالي في الأمالي (١/١٩٧) ، وهو من بحر (الكامل) .

فى الدنيا فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فكيف يقول : فسوف يلقوْنه فى المستقبل ؟

لكن المراد بالغيّ هنا أى : جزاء الغى وعاقبته . كما لو قُلْت : أمْطرتْ السماء نباتاً ، فالسماء لم تُمطر النبات ، وإنما الماء الذى يُخرِج النبات ، كذلك غيّهم وفسادهم فى الدنيا هو الذى جَرّ عليهم العذاب فى الآخرة .

إذن : المعنى : فسوفَ يلقوْنَ عذاباً وهلاكاً فى الآخرة .

ومع ذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لرحمته بخَلْقه شرع لهم التوبة ، وفتح لهم بابها ، ويفرح بهم إنْ تابوا ؛ لذلك فالذين اتصفُوا بهذه الصفات السيئة فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات لا ييأسون من رحمة الله ، ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

وفَتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم الله بها المجتمع كله من أصحاب الشهوات والانحرافات ، وإلاَّ لو أغلقنا الباب فى وجوههم لَشقِيَ بهم المجتمع ، حيث سيتمادَوْن فى باطلهم وغَيّهم ، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله .

والتوبة تكون من العبد ، وتكون من الرب تبارك وتعالى ، فتشريع التوبة وقبولها من الله وإحداث التوبة من العبد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرعها لهم ليتوبوا فيقبل توبتهم ، فهى من الله أولاً وأخيراً ؛ لذلك يأتى هذا الاستثناء .

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

وللتوبة شروط يجب مراعاتها ، وهي : أن تُقلِع عن الذنب الذى تقع فيه ، وأن تندم على ما بدر منك ، وأنْ تنوى وتعزم عدم العودة إليه مرة أخرى . وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدْتَ فلن تُقْبلَ منك التوبة ، فقد تتعرض لظروف تُوقعك فى الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العَوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قَصْد ودون إصرار . وإلاَّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقلْتَ : أذنب ثم أتوب ، فمن يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوبَ ؟ إذن : فبادر بها قبل فَوات أوانها .

هذه - إذن - شروط التوبة إنْ كانت فى أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفّر لها شرط آخر وهو رَدُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت ترد ، أو التبرع بها فى وجوه الخير على أنْ ينويَ ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] معنى : وآمن بعد أنْ تاب ، تعني أن ما أحدثه من معصية خدش إيمانه ، فيحتاج إلى تجديده . وهذا واضح فى الحديث الشريف :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

فساعةَ مباشرة هذه المعاصى تنتفى عن الإنسان صفة الإيمان ؛

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لأن إيمانه غاب في هذه اللحظة ؛ لأنه لو استحضر الإيمان وما يلزمه من عقوبات الدنيا والآخرة ما وقع في هذه المعاصي .

لذلك قال : (وَآمَنَ) أي : جدَّد إيمانه ، وأعاده بعد توبته ، ثم ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ۝٦٠ ﴾ [مريم] ليصلح به ما أفسده بفعل المعاصي .

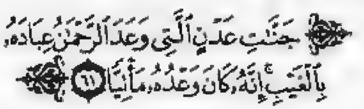
والنتيجة : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ ﴾ [مريم]

وفي موضع آخر ، كان جزاء مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ۝٧٠ ﴾ [الفرقان]

فلماذا كُلُّ هذا الكرم من الله تعالى لأهل المعاصي الذين تابوا ؟ قالوا : لأن الذي ألِفَ الشهوة واعتاد المعصية ، وأدرك لذَّته فيها يحتاج إلى مجهود كبير في مجاهدة نفسه وكَبْحها ، على خلاف مَنْ لم يتعوَّد عليها ، لذلك احتاج العاصون إلى حافز يدفعهم ليعودوا إلى ساحة ربهم .

لذلك قال سبحانه : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ۝٦٠ ﴾ [مريم] دون أنْ يُعيَّروا بما فعلوه ؛ لأنهم صَدَقُوا التوبة إلى الله ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ ﴾ [مريم] وبقدر ما تكون التوبة صادقة ، والندم عليها عظيماً ، وبقدر ما تلوم نفسك ، وتسكب الدمع على معصيتك بقدر ما يكون لك من الأجر والثواب ، وبقدر ما تُبدَّل سيئاتك حسنات . وكُلُّ هذا بفضل الله وبرحمته .

ثم يقول الحق سبحانه :



قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٦١) ﴾ [مريم] أى : إقامة دائمة ؛ لأنك قد تجد فى الدنيا جنات ، وتجد أسباب النعيم ، لكنه نعيم زائل ، إمّا أنْ تتركه أو يتركك . إذن : فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له .

وجنات عَدْن ليست هى مساكنَ أهل الجنة ، بل هى بساتين عمومية يتمتع بها الجميع ، بدليل أن الله تعالى عطف عليها فى آية أخرى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) فى قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢) ﴾ [التوبة]

وقوله : ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١) ﴾ [مريم] والوعْد : إخبار بخير قبل أوانه ؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير ، وضدّه الوعيد : إخبار بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المتوعد ، ويتفادى الوقوع فى أسبابه .

واختار هنا اسم الرحمن ليُطمئِنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وَعْداً وَفَى . وقد وعدنا الله تعالى فى قرآنه فآمنا بوعده غيبيا ﴿ وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١) ﴾ [مريم]

وحجة الإيمانَ بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذى نراه الآن ، فالكون الذى نشاهده قد خُلِق على هيئة مُهندسة هندسةً لا يوجد أبدعُ منها ، فالذى خلق لنا هذا الكون العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم فى الآخرة ، فلا بُدَّ أن نُصدِّق ، ونأخذ من المشاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً ثقةً منَّا فى قدرته تعالى التى رأينا طَرَفاً منها فى الدنيا .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) ﴾ [مريم] فما دام الرحمن - تبارك وتعالى - هو الذى وعد ، فلا بُدَّ أن يكون وعده (مَأْتِيًا) أى : مُحققاً وواقعاً لا شكَّ فيه ، ووعْده تعالى لا يتخلّف و (مَأْتِيًا) أى : نأتيه نحن ، فهى اسم مفعول .

وبعض العلماء[1] يرى أن (مَأْتِياً) بمعنى آتياً ، فجاء باسم المفعول ، وأراد اسم الفاعل ، لكن المعنى هنا واضح لا يحتاج إلى هذا التأويل ؛ لأن وعد الله تعالى مُحقّق ، والموعود به ثابت فى مكانه ، والماهر هو الذى يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه .

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة فى الجنة :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾

اللغو : هو الكلام الفُضولى الذى لا فائدة منه ، فهو يضيع الوقت ويُهْدر طاقة المتكلم وطاقة المستمع ، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له .

والكلام هنا عن الآخرة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. (٦٢) ﴾ [مريم] فإن كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً فى الدنيا فلا مجالَ للغو فى الآخرة . ثم يستثنى من عدم السماع ﴿ إِلَّا سَلَامًا .. (٦٢) ﴾ [مريم] والسلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ .. (١٠) ﴾ [يونس]

(١) قاله القتبى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٩٧) : [« مأتيا » بمعنى آت ، فهو مفعول بمعنى فاعل] .

وقد يُرَادُ بالسلام السلامة من الآفات التى عاينوها فى الدنيا ، وهم فى الآخرة سالمون منها ، فلا عاهة ولا مرضَ ولا كَدَّ ولا نصبَ . لكن نرجح هنا المعنى الأول أى : التحية ، لأن السلام فى الآية مما يُسْمَع[1] .

فإنْ قُلْتَ : فكيف يستثنى السلام من اللَّغْو ؟ نقول : من أساليب اللغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كأن نقول : لا عيبَ فى فلان إلا أنه شجاع ، وكنت تنتظر أنْ نستثنى من العيب عَيْباً ، لكن المعنى هنا : إنْ عددتَ الشجاعة عيباً ، ففى هذا الشخص عَيْب ، فقد نظرنا فى هذا الشخص فلم نجد به عَيْباً ، إلا إذا ارتكبنا مُحَالاً وعددنا الشجاعة عيباً . وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول الشاعر :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ[2] الكَتَائِبِ[3]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [مريم] لم يقُل الحق سبحانه وتعالى : وعلينا رزقهم ، بل : ولهم رزقهم : أى أنه أمر قد تقرَّر لهم وخُصِّص لهم ، فهو أمر مفروغ منه . والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وهو فى الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير فى الدنيا .

ومن رحمة الله تعالى بعباده من أهل الجنة أنْ نزعَ ما فى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٩٨/٦) : « السلام اسم جامع للخير ، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون » وقال مقاتل وغيره : « يعنى سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملك عليهم » .

(٢) القراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف . [لسان العرب ـ مادة : قرع] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان قال : « فى حديث عبد الملك ، وذكر سيف الزبير : بهن فلول من قراع الكتائب . أى : قتال الجيوش ومحاربتها » .

صدورهم من غلٍّ ومن حسد ومن حقد ، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه ، ولا يشتهي من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته ، فإنْ رأى مَنْ هو أفضل منه درجةً لا يجد في نفسه غلاً منه ، أو حقْداً عليه ؛ لأن موجب الغلّ في الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضل منك .

أما في الآخرة فسوف ترى هذه المسألة بمنظار آخر ، منظار النفس الصافية التي لا تعرف الغلّ ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر]

فإنْ رأيت مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول : إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم ، فقد كان يجاهد نفسه وهواه في الدنيا . ويكفي في وَصْف ما في الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى : ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ .. (٧١)﴾ [الزخرف]

وقول النبي ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر»[1] .

إذن : ففي الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا ؛ لذلك ليس في لغتنا ألفاظ تُعبِّر عن هذا النعيم ؛ لأنك تضع في اللغة اللفظ الذي أدركتَ معناه ، وفي الجنة أشياء لا تدركها ولا عِلْمَ لك بها ؛ لذلك حينما يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يصفَ لنا نعيم الجنة يصفه بما نعرفه من نعيم الدنيا : نخل وفاكهة ورمان ولحم طير وريحان .

ويقول : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. ﴿١٥﴾ [محمد]

مع الفارق بين هذه الأشياء فى الدنيا والآخرة . ويكفى أن تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سوء فى طعمها ورائحتها واغتيالها للعقل ، وبين خمر الآخرة التى نفى الله عنها السوء ، فقال : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[1] ﴿٤٧﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ [مريم] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرة وعشياً ، وليس فى الجنة وقت لا بُكْرة ولا عَشيا ، لا لَيْل ولا نهار ؟ نقول : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، وما نعرف نحن من مقاييس فى الدنيا ، وإلاَّ فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت ، كما قال سبحانه : ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ..﴿٣٥﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

قوله : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ .. ﴿٦٣﴾ [مريم] أى : التى يعطينا صورة لها هى : ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ [مريم] أى : يرثونها ، فهل كان فى الجنة أحد قبل هؤلاء ، فَهُم يرثونه ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ قبل أن يخلق الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره ، ومَنْ سيكفر باختياره ، علم مَنْ سيطيع ومَنْ

---

(١) لا فيها غول : أى لا تغتال العقل مثل خمر الدنيا . [القاموس القويم ٢/٦٣] . ولا هم عنها ينزفون : أى لا يُصرفون عنها وقد غابت عقولهم . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

سيعصى ، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شىء ، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى ، إلا أنه تعالى أعدَّ الجنة لتسع جميع الخَلْق إنْ أطاعوا ، وأعدَّ النار لتسع جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا ، فلن يكون هناك إذن زحام ولا أزمة إسكان ، إنْ دخل الناس جميعاً الجنة ، أو دخلوا جميعاً النار .

إذن : حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ ، أين تذهب أماكنهم التى أُعدَّتْ لهم فى الجنة ؟ تذهب إلى أهل الجنة ، فيرثونها بعد أنْ حُرِم منها هؤلاء .

ثم يقول رب العزة سبحانه[1] :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق إلى موضوع آخر ، فبعد أنْ تحدَّث عن الجنة وأهلها عرض لأمر حدث لرسول الله ﷺ ، وهو ما يحدث له حين ينزل عليه الوحى ، وقلنا : إن الوحى ينزل بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو ملَكٌ ، على محمد ﷺ وهو بشر .

ولقاء جبريل بقانون ملكيته بمحمد ﷺ بقانون بشريته لا يمكن أن يتم إلاَّ بتقارب هذيْن الجنسين وعملية تغيير لابُدَّ أنْ تطرأ على أحدهما ، إما أن ينزل الملَكُ على صورة بشرية ، وإما أنْ يرتفع

(١) سبب نزول الآية : أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢١٨ ، ٤٧٣١ ، ٧٤٥٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت الآية : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] . وكذلك أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٥٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

ببشرية الرسول إلى درجة تقرب من الملك ليأخذ عنه ، وذلك ما كان يحدث لرسول الله حين يأتيه الوحي .

وقد وصف النبي ﷺ هذا التغيير فقال : « ... فغطَّني حتى بلغ مني الجهْد ... »[1] وكان ﷺ يتفصَّد[2] جبينه عرقاً لما يحدث في جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يُسرَّى عنه تذهب هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة ، وكان يجلس بجوار رسول الله ، والرسول ﷺ يضع رُكْبته على رُكْبته ، فلما نزل على رسول الله الوحي قال الصحابي : شعرتُ برُكْبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحي وهو على دابة كانت الدابة تئط أي : تئن من ثقل الوحي[3] ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل]

إذن : كان النبي ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ويشقُّ عليه ، حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها يقول : « زَمِّلوني زَمِّلوني » أو « دَثِّروني دَثِّروني »[4] كان به حمى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحي أولاً .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣) كتاب بدء الوحي من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث طويل . والغطّ : حبس النفس . وفي رواية الطبري « فغتني » كأنه أراد ضمني وعصرني . قال ابن حجر في فتح الباري (١/٢٤) .

(٢) قالت عائشة رضي الله عنه : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه . وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي . قال ابن حجر في الفتح (١/٢١) « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٥٥) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣) كتاب بدء الوحي من حديث عائشة في حديث نزول جبريل عليه السلام على محمد ﷺ في الغار .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الوحي يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحي ، فيتشوق إليه من جديد ، كما يشتاق الإنسان لمكانٍ يحبه دونه الأشواك ومصاعب الطريق ، فالحب للشيء يحدث عملية كالتخدير ، فلا تشعر في سبيله بالتعب .

وقلنا : لما فتر الوحي عن رسول الله شمت فيه الكفار وقالوا : إن رَبَّ محمد قد قلاه يعني : أبغضه وتركه .

وهذا القول دليل على غبائهم وحماقتهم ، كيف وقد كانوا بالأمس يقولون عنه : ساحر وكذاب ؟ ففي البغض يتذكرون أن له رباً منع عنه الوحي ، وحين دعاهم إلى الإيمان بهذا الرب قالوا : من أين جاء بهذا الكلام ؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يخاطب رسوله ﷺ قائلاً : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح] إذن : كانت مسألة الوحي شاقة على رسول الله .

فأراد الحق سبحانه أن يعطي هؤلاء درساً من خلال درس كونيّ مشاهد يشهد به المؤمن والكافر ، هذا الأمر الكونيّ هو الزمن ، وهو ينقسم إلى ليل ونهار ، ولكل منهما مهمته التي خلقه الله من أجلها ، كما قال سبحانه : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل]

فإياك أنْ تُغيِّر مهمة الليل إلى النهار ، أو مهمة النهار إلى الليل .

ثم يرد عليهم قائلاً : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[1] ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى]

(١) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شيء فيه [القاموس القويم ٣٠٤/١] .

والمعنى : إنْ كان النهار لحركة الحياة واستبقائها ، والليل للراحة والسكون ، فهما آيتان متكاملتان لا مُتضادتان ، وليس معنى أن يأتى الليل بسكونه أن النهار لن يأتى من بعده ، بل سيأتى نهار آخر ، وستستمر حركة الحياة .

وكذلك الأمر إنْ فترَ الوحي عن رسول الله ، فلا تظنوا أنه انقطع إلى غير رَجْعة ، بل هى فترة ليرتاح فيها رسول الله ، كالليل الذى ترتاحون فيه من عناء العمل فى النهار ، ومن هنا كانت الحكمة فى إنْ يُقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى على ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ [الضحى]

ونلحظ فى هذا التعبير دقّة الإعجاز فى أداء القرآن ، حيث قال : ﴿مَا وَدَّعَكَ .. ۝﴾ [الضحى] بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع يكون لمَنْ تحب ولمَنْ تكره ، أما فى القِلَى فلم يقُلْ : قلاك ، لأن القِلَى لا يكون إلا لمَنْ تكره .

ومعنى : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝﴾ [الضحى] الآخرة أى : الفترة الأخيرة من نزول الوحى خَيْرٌ لك من الفترة الأولى ؛ لأنها ستكون أوسع ، وستأتيك بلا تَعَب ولا مشقة ، وفعلاً نزلت جمهرة القرآن بعد ذلك فى يُسْر على رسول الله ﷺ[1] .

وهكذا كان الأمر فى الآية التى نحن بصددها : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ۝﴾ [مريم] فيقال : إنها نزلت حينما قال الكفار : إن ربَّ محمد قد قلاه ، أو أنها نزلت بعد أن سأل كفار مكة الأسئلة

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧٤٣٢/١٠) : « روى سلمة عن ابن إسحاق ، أى ما عندى فى مرجعك إلىَّ يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا ، وقال ابن عباس : أرى النبى ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده فسُرَّ بذلك ، فنزل جبريل بقوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝﴾ [الضحى] .

الثلاثة التي تحدثنا عنها في سورة الكهف[1] ، وأن رسول الله ﷺ قال لهم : « سأخبركم غداً » لكن الوحي لم يأته مدة خمسة عشر يوماً ، فشقَّ ذلك عليه وحزنَ له فنزلت : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. (٦٤)﴾ [مريم] أي : الملائكة لا تنزل إلا بأمر ، ولا تغيب إلا بأمر .

ثم يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ .. (٦٤)﴾ [مريم]

قوله تعالى : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا .. (٦٤)﴾ [مريم] أي : الذي أمامنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا .. (٦٤)﴾ [مريم] أي : في الخلف ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ .. (٦٤)﴾ [مريم] أي : ما بين الأمام والخلف ، فماذا بين الأمام والخلف ؟ ليس بين الأمام والخلف إلا أنت . فسبحانه وتعالى المالك ، الذي له الملك والمملوك ، وله المكان والمكين ، وله الزمان والزمين .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ [مريم] وهل يرسل الحق - تبارك وتعالى - رسولاً ، ثم ينساه هكذا دون إمداد وتأييد ؟ فسبحانه تنزَّه عن الغفلة وعن النسيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا (٦٥)﴾

أولاً : ما علاقة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ [مريم] بقوله تعالى في هذه الآية : ﴿رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٦٥)﴾ [مريم] ؟

---

(١) قاله مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي فيما نقله عنهم القرطبي في تفسيره (٦/٤٣٠٠) وفيه أن النبي ﷺ قال لجبريل « أبطأت عليَّ حتى ساء ظني واشتقت إليك » فقال جبريل : إني كنت أشوق ، ولكني عبد مأمور إذا بُعثت نزلت ، وإذا حُبست احتبست .

قالوا : لأن هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه ، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائم بقيومية الله تعالى عليه ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا .. (٤١)﴾ [فاطر]

فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون ، والحق - تبارك وتعالى - لا تأخذه سنة ولا نوم . فما دام الأمر كذلك ، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل وبه يقوم الكون . فهو - إذن - يستحق العبادة والطاعة فيما أمر ، وقد أعطاك قبل أن يُكلِّفك عطاء لا تستطيع أنت أن تفعله لنفسك ، ثم تركك تربع في هذا النعيم خمس عشرة سنة دون أنْ يُكلِّفك بشيء من العبادات .

لذلك هنا يقول تعالى : ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥)﴾ [مريم] وقد أكَّد القرآن الكريم في آيات كثيرة مسألة الوحدانية ، وأنه ربٌّ واحد فقال : ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٦٥)﴾ [مريم]

وقال : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة]

وقال : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦)﴾ [الشعراء]

لأن القدماء ، ومنهم - مثلاً - قدماء المصريين كانوا يجعلون رباً للسماء ، ورباً للأرض ، ورباً للجو ، ورباً للأموات ، ورباً للزرع .. الخ وما دام هو سبحانه رب كل شيء فقد رتب العبادة على الربوبية ، والعبادة : طاعة معبود فيما أمر وفيما نهى ، وكيف لا نطيع الله ونحن خَلْقه وصَنْعته ، ونأكل رزقه ، ونتقلب في نعمه ؟ وفي ريفنا يقول الرجل لولده المتمرد عليه : (مَنْ يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ولا بُدَّ أن نعلم أن الله تعالى له الكمال المطلق قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية . فإنْ قلتَ : فلماذا - إذن - يُكلِّف الخَلْق بالأمر والنهي ؟ نقول : كلَّف الله الخَلْق لتستمر حركة الحياة وتتساند الجهود ولا تتصادم ، فيحدث في حياتهم الارتقاء ويسعدوا بها ، إنما لو تركهم وأهواءهم لفسدت الحياة ، فأنت تبني وغيرك يهدم .

لذلك يقول النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

إذن : التشريعات جُعلَتْ لصالحنا نحن : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم] لأن العبادة فيها مشقة ، فلا بُدَّ لها من صبر ؛ لأنها تأمرك بأشياء يشقُّ عليك أنْ تفعلها ، وينهاك عَنْ أشياء يشقُّ عليك أنْ تتركها لأنك ألِفْتها .

والصبر يكون منا جميعاً ، يصبر كُلٌّ مِنَّا على الآخر ؛ لأننا أبناء أغيار ، فإن صبرتَ على الأذى صبر الناس عليك إنْ حدث منك إيذاء لهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

والحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّمنا : إن أذنب أحد في حقِّك ، أو أساء إليك فاغفر له كما تحب أن أغفر لك ذنبك ، وأعفو عن سيئتك .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

يقول تعالى : ﴿وَلا يَأْتَلِ[1] أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ[2] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور]

ولا تظن أن صبرك على أذى الآخرين أو غفرانك لهم تطوُّع من عندك ؛ لأنه لن يضيع عليك عند الله ، وستُرَدُّ لك في سيئة تُغفَر لك . حتى مَنْ فُضِح مثلاً أو ادُّعى عليه ظُلْماً لا يضيعها الله ، بل يدّخرها له في فضيحة سترها عليه ؛ فمَنْ فُضِح بما لم يفعل ، سُتر عليه ما فعل .

وقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم] ؟ سبق أن تكلمنا في معنى (السَّميّ) وقد اختلف العلماء في معناها ، قالوا : السَّميُّ : الذي يُسَاميك[3] ، أي : أنت تسمو وهو يسمو عليك ، أو السَّميّ : النظير والمثيل .

والحق سبحانه وتعالى ليس له سميٌّ يُساميه في صفات الكمال ، وليس له نظير أو مثيل أو شبيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

---

(١) قال أبو عبيد . لا يأتل هو من ألَوْتُ أي قصرت . وقال الفراء : الائتلاء الحلف . [لسان العرب ـ مادة : آلا] .

(٢) نزلت هذه الآية في قصة أبي بكر الصديق ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان مسطح من المهاجرين البدريين المساكين . وكان أبو بكر ينفق عليه لمسكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الإفك وقال مسطح في عائشة ابنة أبي بكر وزوجة رسول الله ﷺ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً ، فجاء مسطح فاعتذر . وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول فقال له أبو بكر : لقد ضحكتَ وشاركتَ فيما قيل . ومر على يمينه . فنزلت الآية فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . من تفسير القرطبي (٦/٤٧٤٢) بتصرف .

(٣) قاله مجاهد . وقال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولداً أي : نظيراً أو مثلاً ، أو شبيهاً . [القرطبي (٦/٤٣٠١)] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وللسميِّ معنى آخر أوضحناه في قصة يحيى ، حيث قال تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) ﴾ [مريم] أي : لم يسبق أنْ تسمَّى أحد بهذا الاسم . وكذلك الحق - تبارك وتعالى - لم يتسمَّ أحدٌ باسمه ، لا قبل هذه الآية ، ولا بعد أنْ أطلقها رسول الله تحدِّياً بين الكفار والملاحدة الذين يتجرؤون على الله . فلماذا لم يجرؤ أحد من هؤلاء أنْ يُسمي ولده الله ؟

الحقيقة أن هؤلاء وإنْ كانوا كفاراً وملاحدة إلا أنهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله ، ويعترفون بوجوده ، ويخافون من عاقبة هذه التسمية ، ولا يأمنون أنْ يصيبهم السوء بسببها .

إذن : لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد عليها ؛ لأن الله تعالى قالها وأعلنها تحدياً ، وإذا قال الله تعالى ، ملكَ اختيار الخَلْق ، وعلم أنهم لن يجرؤوا على هذه الفعلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) ﴾

ما المراد بالإنسان ؟ الإنسان تُطلق ويُراد بها عموم أي إنسان مثل : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) ﴾ [المعارج] ويُراد بها خصوصية لبعض الناس ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء] فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ[1] .

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/٥١٣) : « يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل » . وقال عكرمة : الناس في هذا الموضع النبي ﷺ خاصة . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٥٦٦) .

أو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] فالمراد : ناسٌ مخصوصون .

والمعنى هنا : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم] أي : الكافر الذي لا يؤمن بالآخرة ، ويستبعد الحياة بعد الموت : ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم] والاستفهام هنا للإنكار ، لكن هذه مسألة الردُّ عليها سَهْل مَيْسور ، فيقول تعالى :

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ ﴾

فلأنْ يُعادَ الإنسانُ من شيء أهونُ من أنْ يعاد من لا شيء ؛ لذلك قال تعالى في توضيح هذه المسألة : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] مع أن الخالق سبحانه وتعالى لا يُقال في حقه تعالى هَيِّن وأهون ، أو صعب وأصعب ، ولكنه يحدثنا بما نفهم وبما نعلم في أعرافنا .

ففي عُرْفنا نحن أن ننشىء من موجود أسهل من أنْ ننشىء من عدم ، وإنْ كان فعل العبد يقوم على المعالجة ومزاولة الأسباب ، ففعلُ الخالق سبحانه إنما يكون بقوله للشيء « كُنْ فيكون » .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان]

ولما سُئِل الإمام علي ـ كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب اللهُ الناسَ جميعاً في وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

فقوله : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ .. (٦٧) ﴾ [مريم] أى : لو تذكَّر هذه الحقيقة ما كذَّب بالبعث ، وقد عولجت هذه المسألة أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾ [يس]

فلو تذكَّر خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . ثم يأتى الجواب منطقياً : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾[يس]

وهنا أيضاً يكون الدليل : ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ .. (٦٨) ﴾ [مريم] الحشر : أن يبعثهم الله من قبورهم ، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغْرونهم بالمعصية ويُزيِّنونها لهم .

﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم] يقال : جثا يجثو فهو جاثٍ . أى : ينزل على ركبتيه ، وهى دلالة على الذِّلَّة والانكسار والمهانة التى لا يقْوى معها على القيام .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ﴾

النزع : خَلْع الشيء من أصله بشدة ، ولا يقال : نزع إلا إذا كان المنزوع متماسكاً مع المنزوع منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] كأنهم كانوا مُتمسِّكين به حريصين عليه .

وقوله : ﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] أى : جماعة متشايعون على رأى باطل ، ويقتنعون به ، ويسايرون أصحابه : ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] العتى : هو الذى بلغ القمة فى الجبروت والطغيان ، بحيث لا يقف أحد فى وجهه ، كما قلنا كذلك فى صفة الكبَر ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم] لأنه إذا جاء الكبر لا حيلة فيه ، ولا يقدر عليه أحد .

ومعلوم أن رسالات السماء لما نزلتْ على أهل الأرض كان هناك أناس يُضارون من هذه الرسالات فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، وفى مكانتهم وسيادتهم ، فرسالات الله جاءتْ لتؤكد حقاً ، وتثبت وحدانية الله ، وسواسية الخَلْق بالنسبة لمنهج الله .

وهناك طغاة وجبّارون وسادة لهم عبيد ، وفى الدنيا القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والسليم والمريض ، فجاءت رسالات السماء لتُحدث استطراقاً للعبودية .

فَمنْ الذى يُضَار ويَغْضَب ويعادى رسالات السماء ؟ إنهم هؤلاء الطغاة الجبارون ، أصحاب السلطة والمال والنفوذ ، ولا بُدَّ أن لهؤلاء أتباعاً يتبعونهم ويشايعونهم على باطلهم .

فإذا كان يوم القيامة ويوم الحساب ، فبمَنْ نبدأ ؟ الأنكَى أن نبدأ بهؤلاء الطغاة الجبابرة ، ونقدم هؤلاء السادة أمام تابعيهم حتى يروهم أذلاء صاغرين ، وقد كانوا في الدنيا طغاةً متكبرين ، كذلك لنقطع أمل التابعين في النجاة .

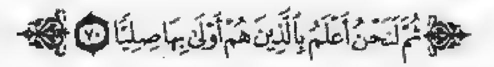
فربما ظنُّوا أن هؤلاء الطغاة الجبابرة سيتدخلون ويدافعون عنهم ، فقد كانوا في الدنيا خدمهم ، وكانوا تابعين لهم ومناصرين ، فإذا ما أخذناهم أولاً وبدأنا بهم ، فقد قطعنا أمل التابعين في النجاة .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] (٨٣) ﴾ [النمل] أي : من كبارهم وطُغَاتهم ، ليرى التابعون مصارع المتبوعين ، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء ، فينقطع أملهم في النجاة .

وفي حديث القرآن عن فرعون ، وقد بلغ قمة الطغيان والجبروت حيث ادَّعى الألوهية ، فقال عنه : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود] فهو قائدهم ومقدمتهم إلى جهنم ، كما كان قائدهم إلى الضلال في الدنيا ، فهو المعلم وهم المقلِّدون .

فعليه - إذن - وِزْران : وزر ضلاله في نفسه ، ووِزْر إضلاله لقومه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :



---

(١) أي : يكفُّون عن التفرق ويُجمعون في مكان واحد . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٤] .

صلياً : اصطلاء واحتراقاً فى النار من صَلِىَ يصلَى : أى دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أى : طلب هو النار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ ﴾ [النمل]

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أولى بدخول النار أولاً ؛ وكأن لهم فى ذلك أولويات معروفة ؛ لأنهم سيتجادلون فى الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلقى باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨ ﴾ [الأحزاب]

وفى آية أخرى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝١٦٦ ﴾ [البقرة]

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝٦٧ ﴾ [الزخرف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ﴾

وهذا خطاب عام لجميع الخلْق دون استثناء ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا .. ۝٧٢ ﴾ [مريم] إذن : فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا ؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أى : أخْذ الماء دون أنْ تشرب منه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. (٢٣)﴾ [القصص] أي : وصل إلى الماء .

إذن : معنى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم] أي : أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون ، ستردُون النار وترونْها ؛ لأن الصراط الذي يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن جهنم .

وقد ورد في ذلك حديث أبي سعيد الخدري قال قال ﷺ : « يوضع الصراط بين ظهراني جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان[1] ، ثم يستجيز الناس ، فناجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس[2] ومكدوس فيها »[3] .

فإذا ما رأى المؤمن النار التي نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أي : أتى الماء وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨)﴾ [هود] أي : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربي الذي نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر[4] :

وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه ... وَضَعْنَا عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ[5]

---

(١) حسك السعدان : قال أبو حنيفة : هي عشبة تضرب إلى الصفرة ، ولها شوك يسمى الحسك أيضاً مُحرج ، لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلا من في رجليه خف أو نعل . [لسان العرب - مادة : حسك] .

(٢) مكدوس في النار : مدفوع فيها . وتكدّس الإنسان : إذا دُفع من ورائه فسقط . [اللسان - مادة : كدس] والمنكوس : المطأطيء رأسه من الذل والهوان .

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه (٤٢٨٠) ، والحاكم في مستدركه (٤/ ٥٨٥) والديلمي في الفردوس [حديث رقم ٨٨٣٦] .

(٤) هو : زهير بن أبي سلمى من مضر ، حكيم الشعراء في الجاهلية ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء ، وُلد في بلاد « مُزَيْنة » بنواحي المدينة ، توفي عام ١٢ ق . هـ [الأعلام للزركلي ٣/٥٢] .

(٥) هذا بيت من معلقة زهير بن أبي سلمى ، قال الزوزني في شرحه . للمعلقات السبع - ص ١٠٥ - طبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م : « يقول : فلما وردت هذه الظعائن الماء وقد اشتد صفاء ما جُمع منه في الآبار والحياض عزمن على الإقامة كالحاضر المبتني الخيمة » والجمام هو ما اجتمع من الماء في البئر والحوض أو غيرهما .

أى : حينما وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خيامهم ، فساعة أنْ وصلوا إليه وضربوا عنده خيامهم لم يكونوا شربوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أى : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .

وأصحاب هذا الرأى الذين يقولون ﴿ وَارِدُهَا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] أى : داخلها يستدلون كذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى موضع الماء دون الشرب منه أو الدخول فيه ما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم] ولقال : ثم يُنجِّى الله الذين اتقوا ويدخل الظالمين .. لكن ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .

فعلى الرأى الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتنُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وتسعيرها ؛ ليعلموا فضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شيء طبيعةً تحكمه ، وهو سبحانه وحده القادر على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها .

كما رأينا في قصة إبراهيم عليه السلام ، فيكون دخول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلُها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنهم الله منه ، فألقوه في النار ، وهيَ على طبيعتها بقانون الإحراق فيها ، ولم يُنزل مثلاً على النار مطراً يُطفئها ليوفر لهم كل أسباب الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء في قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتى صار كل فِرْق كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذن : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

ثم يُنجِّي الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] الحتْم : هو الشيء الذي يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أيِّ شيء ؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورني غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد ؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق ؟

إذن : أنت لا تحتم على شيء ، إنما الذي يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شيء عن مراده .

فإنْ قلتَ : فمَن الذي حتَّم على الله ؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : ﴿مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أي : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله ﷺ : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه[1] :

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾ [الكافرون]

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذي نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ؛ لذلك تكرَّر النفي في هذه السورة ، حتى ظنَّ البعض أنه تكرار ؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك في المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة (الكافرون) سورة الحكم[2] : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] فلا ثانيَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه

---

(١) قال الواحدي في « أسباب النزول » (ص ٢٦١) : « نزلت في رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم ، اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره » .

(٢) هي : سورة الإخلاص . قال السيوطي في « الإتقان في علوم القرآن » (١٥٩/١) . « تسمى الأساس ، لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين » .

نهائي وحتماً مقضياً لا رجعة فيه ولا تعديل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

جِثِياً : من جَثا يجثُو أي : قعد على رُكَبِه دلالة على المهانة والتنكيل . ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى لقطة أخرى ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾

هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم ، وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها ، وجاء منهج الله في صالحهم يُسوِّي بين الناس جميعاً : السادة والعبيد ، والقوي والضعيف .

فطبيعي أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة ، أهل الجاه والسيادة ، وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم ، أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله في وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم ، فعندما نزل قَوْل الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

قال عمر - رضي الله عنه - وما أدراك مَنْ هو عمر ؟ قال[1] : أيّ جمع هذا ؟ وأيُّ هزيمة ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبي حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أي جمع يُهزم ؟ أي جمع يُغلب ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

وفى هذه الآونة ، يأمر رسول الله ﷺ المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة . فلما جاء نصر الله للمؤمنين ، وتأييده لهم فى بدر ، قال عمر : صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

وفى هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله : ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلَّة وضيق العيش ؟ أيرضى رَبٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحال ، وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعة الرزق ؟

وهكذا فتن الله بعضهم ببعض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام]

فالمؤمن والكافر ، والغنى والفقير ، والصحيح والمريض ، كُلٌّ منهم فتنة للآخر ليُمحِّص الله الإيمان ، ويختبر اليقين فى قلوب المؤمنين ؛ لأن الله تعالى يعدهم لحمل رسالته ﷺ إلى الدنيا كلها فى جميع أزمنتها وأماكنها ، فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون الإسلام ، ليس لمغنم دنيوى ، بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه ، فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله .

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل فى الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه ، أمَّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه .

فكيف يكون الغنى فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ؟ الغنى مفتون بالفقير حيث هو فى سَعَة من العيش والفقير فى ضيق ، الغنى يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع ، ويرتدى الغنى الفاخر من الثياب والفقير عريان . فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدى حقها ؟

والفقير مفتون بالغنى حين يراه على هذه الحال ، فهل سيصبر

على هذه الشدة ؟ أم سيعترض على ما قدّره الله له ، ويحقد على الغنيّ ؟

ولو علم الفقير أن الفقر درس تدريبي أجْرِي لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله في كل زمان ومكان ، وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَماَ اعترض على قسمة الله ، ولَمَا حقد على صاحب الغنى .

وكذلك يُفتَن الصحيح بالمريض والمريض بالصحيح ، فالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية ، أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه ، كما جاء في الحديث القدسي : « يا ابْنَ آدم ، مرضْتُ فلم تعُدْني . فيقول : وكيف أعودك وأنت ربّ العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمت أنك لو عُدْته لوجدتني عنده »[1]

لذلك ترى أهل الأمراض من المؤمنين يتألم زُوّارهم من أمراضهم ، في حين أنهم في أُنْس بالله يشغلهم عن أمراضهم وعن آلامهم ، ومَن الذي يزهد في معية الله ؟ إذن : لو حقد المريض على السليم فهو مفتون به ، وكان يجب عليه أن يعلم : إنْ كان الصحيح في معية النعمة فهو في معية المنعم سبحانه وتعالى .

وسيدنا نوح - عليه السلام - بعد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب قومه : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[2] بَادِيَ الرَّأْيِ.. (٢٧) ﴾ [هود] فكان أتباع نوح في نظرهم حثالة القوم ، ثم حاولوا أنْ يُغروه بهم ليطردهم ، فهم ضعاف لا جاهَ لهم ولا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٠) ، والبخاري في الأدب المفرد (٥١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أي : أفقرنا وأحقر الناس في نظرنا [القاموس القويم ١/٢٦٢] . قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٤٢) « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك » .

سلطان ، فما كان منه إلا أنْ قال : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ (٢٩) ﴾ [هود]

وقال فى آية أخرى : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾ [هود]

فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدرى أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين ، ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم ، ألم يقل الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ [الأنعام]

وهكذا جاءت اللقطة التى معنا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم]

قوله : ﴿ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ (٧٣) ﴾ [مريم] الآيات : جمع آية وهى الشىء العجيب الذى يتحدث به ، وتُطلق ـ كما قلنا ـ على الآيات الكونية التى تثبت قدرة الله تعالى ، وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر ، وتُطلق على المعجزات التى تُثبت صدْق الرسول ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء]

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التي تحمل الأحكام ، وهذه هي المرادة هنا : لأن آيات القرآن تنطوي فيها كل الآيات .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ .. (٧٣) ﴾ [مريم] أي : لقد ارتضينا حكمكم في هذه المسألة : نحن الكفار في سَعَة ، وأنتم يا أهلَ الإيمان في ضيق ، فأيُّ الفريقين خير مقاماً ؟ والله بمقاييسكم أنتم ، فأنتم خير ، أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن .

والمقام ـ بفتح الميم : اسم لمكان قيامك من الفعل : قام .

أما « مُقام » بضم الميم ، فمنْ أقام . والمراد هنا ﴿خَيْرٌ مُقَامًا(٧٣)﴾ [مريم] أي : مكاناً يقوم فيه على الآخر أي : بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره.

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا(٧٣) ﴾ [مريم] الإنسان عادةً له بيت يأويه ، وله مجلس يأوي إليه ، ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه « حجرة الجلوس » أو « المندرة » ، وفيها يجلس كبير القوم ومن حوله أهله وأتباعه ، كما نقول في العامية : (عامل قعر مجلس) ؛ لذلك إذا قام انفضَّ المجلس كله ؛ لأنهم تابعون له ، كما قال الشاعر :

وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلِسُ[1]

وهناك النادي ، وهو المكان الذي يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان ، بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص ، كما ترى الآن : نادي الرياضيين ونادي القضاة .. إلخ إذن : فالنادي دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق .

---

(١) أورده أبو علي القالي البغدادي في كتابه « الأمالي » (١٢٧/١) من شعر مُهَلْهِل ، أنه قال : نُبِّئْتُ أن النارَ بعدكَ أُوقِدَتْ واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ
وهو من بحر الكامل .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [العلق]

ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام « دار الندوة » ، وكانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله ﷺ .

ومن النادى ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله ، فيجتمعون فيه لكُلِّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش ، كما فى قَوْل الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ .. وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت]

وفى هذا دليل على شيوع الفاحشة والقحة بين القادرين والمجاهرة بها ، فلم يكونوا يقترفونها سراً ، بل فى جَمْع من رُوَّاد هذه الأماكن .

والنادى أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أى : الكرم ، ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت :رَفيع العماد ، كثير الرماد ، قريب البيت من النادِ[1] .

والمعنى : أن بيته أقرب البيوت إلى النادى ، فهو مَقْصد الناس فى قضاء حاجياتهم .

إذن : كان قول الكفار للمؤمنين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ [مريم] موضع فتنة للفريقين ، فقال المؤمنون : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف] وقال الكفار : ما دام أن الله حبانا فى

---

(١) هذا حديث أم زرع أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨) كتاب فضائل الصحابة أن عائشة قالت : « جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً » حديث طويل . قال ابن حجر فى الفتح (٩/٢٦٥) : « وصفته بالشرف فى قومه ، فهم إذا تفاوضوا واشتوروا فى أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوا على رأيه وامتثلوا أمره . أو : أنه وضع بيته فى وسط الناس ليسهل لقاؤه ، ويكون أقرب إلى الوارد وطالب القِرَى » .

الدنيا وهو الرزاق ، فلابد أنْ يَحْبُونَا في الآخرة ، لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين ، إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر ، فقال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا[1] وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

كم : خبرية تدل على الكثرة التي لا تُحصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معي معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التي أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجماعة المتعايشون زماناً ، بحيث تتداخل بينهم الأجيال ، فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً ، وقد قدَّروا القرن بمائة عام . كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مَلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هو فراش البيت ، وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه .

والرِّئْي : على وزن فِعْل ، ويراد به المفعول أي : المرئي ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] فذِبْح بمعنى : مذبوح .

---

(١) الأثاث : المال الكثير أو متاع البيت لا واحد له من لفظه ، وقيل : واحدته أثاثة [القاموس القويم ١/٦] .

وورد فى قراءة أخرى[1] : (أحْسَنُ أثاثاً وزِيًا) وهى غير بعيدة عن المعنى الأول ؛ لأن الزِىَ أيضاً من المرئى ، إلا أنه يتكوّن من الزى والذى يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، فى حين كان المؤمنون شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقّع والبالى من الثياب .

وقد جاء الاختلاف في بعض ألفاظ القرآن من قراءة لأخرى ؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على ملَكَة العربى وفصاحته التى تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْبَ المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف فى العصر الأموى . فمثلاً النَّبْرة فى كلمة دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تُقرأ : باء أو ياء .

والعربى لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة (رِئْيًا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة ﴿ فَتَبَيَّنُوا(٩٤) ﴾ [النساء] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة ﴿صِبْغَةَ(١٣٨)﴾ [البقرة] قرأها بعضهم (صنعة) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف فى مثل هذه الحروف لا يؤدى إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربى قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب ؛ لأن العربى فى هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهي بالنسبة له

---

(١) هى قراءة ابن عباس وأبىّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٦٥) : « هو الهيئة والحسن ، ويجوز أن يكون من زويت أى : جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء » .

مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤)﴾ [مريم] لأنهم قالوا : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾ [مريم] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هى عطاء من الله وفتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عزَّة وجاه ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذلَّة وهَوَان لَمْ يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملِى لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حدِّ قول الشاعر[1] :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ ... فَلَمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ[2]

فأطمعهم فى البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم فى النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذى بلغ به العطش مبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فِيه ، واستشرف الرِّيَّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمه أعظم ، ولو لم يأتِه بالماء لكان أهونَ عليه .

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبى صخر الخزاعى ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً ، فى نفسه شمم وترفع ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها . توفى عام (١٠٥هـ) . الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ١٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (ص ١٢١) . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بـينكم وبين المؤمنين وتُعيِّرونهم بما معكم من زينة الدنـيا ، فقد قـارنتم الوسائل وطرحـتُم الغايات ، ومن الغبـاء أنْ تهـتم بالوسـائل وتنسى الغـايات ، فلكى تكون المـقارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد فى زراعـته يعتنى بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضـه كل يوم ، وآخـر ينعَم بالثـيـاب النظيـفـة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحـبه الذى أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا مـا جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده ، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلا بُدَّ أن تأخذ فى الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .

لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :

ألاَ مَنْ يُريِنِى غَايتِى قَبْل مذْهَبِى ... ومِنْ أيْنَ والغَايَاتُ بَعْد المذَاهِبِ ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة فى الدنيا عن الغاية فى الآخرة ، فتباهوا وعيَّروا المؤمنين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم]

وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ (٢٤) ﴾ [العنكبوت]

وهكذا اتفقـوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيـه وخيَّب سعْـيهم ، ثم كانت الغاية فى الآخرة :﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ [العنكبوت]

فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلة عن غايتها .

وهنا يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم] وكما قال فى آيات أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر]

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تهبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .

فدعاهم إلى النظر فى التاريخ ، والتأمل فى عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغنى عنهم من المقام والندىّ الذى يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التى تنتظرهم فى الآخرة ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يردّ عليهم بكلام نظرى يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] أى : من القهر والهزيمة والانكسار ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر فى عاقبة من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم] فإنما يحثُّهم على أخْذ العِبْرة والعظة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شىء حاضر على صِدْق غَيْبٍ آت ، فالحضارات التى سبقتهم والتى لم يوجد مثلها فى البلاد ، وكان من

(١) جابه يجوبه : قطعه ، أى : أن ثمود قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

صفاتها كذا وكذا ، ماذا حدث لهم ؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة ؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذِّبين ؟

هذا من ناحية الواقع ، أما الغيب فيعرض له القرآن في مشهد آخر ، حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين]

هذا المشهد في الدنيا ، فما بالهم في الآخرة ؟ : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين]

ثم يخاطب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين فيقول : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

يعني : بعد ما رأيتموه من عذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عَمَّا فعلوه بكم من استهزاء في الدنيا ؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم في الدنيا موقوت الأجل ، أما ضحككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ له ، فأيُّ الفريقين خَيْر إذن ؟

فإياكم أنْ تغرّكم ظواهر الأشياء ، أو تخدعكم برقات النعيم وانظروا إلى الغايات والنهايات ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ[1] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف]

---

(١) اختلفت أقوال العلماء في ماهية الباقيات الصالحات على أقوال ، ذكرها ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٥ - ٨٧) :

– قال ابن عباس : هي الصلوات الخمس ، وفي قول له : هي الكلام الطيب .

– قال مجاهد : هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

– وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها .

وفي سورة الأعراف لقطة أخرى من مواقف القيامة ، حيث يقول أصحاب الأعراف لأهل النار : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأعراف] ثم يلتفتون إلى المؤمنين في الجنة : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأعراف] فأين أنتم منهم الآن ؟

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾

قوله : (قل) أمر لرسوله ﷺ : ﴿ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم] أي : يُمهله ويستدرجه ؛ لأنه رَبٌّ للجميع ، وبحكم ربوبيته يعطي المؤمن والكافر ، وكما يعين المؤمن بالنصر ، كذلك يعين الكافر بمراده ، كما في قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

لأنهم ارتاحوا إليه ، ورَضُوا به ، وطلبوا منه المزيد .

﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم] أي : في الدنيا وزينتها ، كما قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وفي موضع آخر يقول : إياك أنْ تعجبك أموالهم وأولادهم ؛ لأنها فتنة لهم ، يُعذِّبهم بها في الدنيا بالسَّعْي في جمع الأموال وتربية الأولاد ، ثم الحسرة على فقدهما ، ثم يُعذِّبهم بسببها في الآخرة : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة]

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ.. ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم]

العذاب : عذاب الدنيا ، أي : بنصر المؤمنين على الكافرين وإهانتهم وإذلالهم ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم] أي : ما ينتظرهم من عذابها ، وعند ذلك: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم] لكنه علْم لا يُجدي ، فقد فات أوانه ، فالموقف في الآخرة حيث لا استئناف للإيمان ، فالنكاية هنا أعظم والحسرة أشدّ .

لكن ، ما مناسبة ذكر الجند هنا والكلام عن الآخرة ؟ وماذا يُغني الجند في مثل هذا اليوم ؟ قالوا : هذا تهكُّم بهم كما في قوله تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] ، فهل أخْذهم إلى النار هداية ؟

ثم يلتفت إليهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات]

أي : لم نُجبركم على شيء ، مجرد أنْ أشرْنا لكم أطعتمونا .

لذلك ، سيقولون في موضع آخر : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت]

(١) قال عمر بن الخطاب في تأويل هذه الآية : احشروا أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج في الجنة ، وأزواج في النار . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/٨٣) وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث .

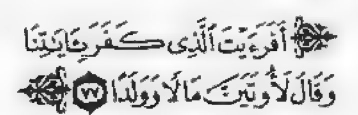
﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

قلنا : إن للهداية معنيين : هداية بمعنى الدلالة على الخير وبيان طريقه ، وهداية المعونة والتوفيق للإيمان ، فمَنْ صدّق في الأولى أعانه الله على الأخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] الباقيات الصالحات : هي الأعمال الصالحة التي كانت منك خالصةً لوجه الله : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] هذه هي الغاية التي ننتظرها ونسعى إليها ، فساعةَ أنْ تقارن السُّبل الشاقة فاقْرِنها بالغاية المسعدة ، فيهون عليك عناء العبادة ومشقّة التكليف .

وقوله : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] أي : مرجعاً تُرَدُّ إليه .

ثم يقول الحق سبحانه(١) :



نلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا هذا الشخص الذي قال هذه

---

(١) سبب نزول الآية : عن خباب بن الأرت قال : كان لي دين على العاص بن وائل فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد ، قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : إني إذا متُّ ثم بُعثت جئتني وسيكون لي ثَمَّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . أخرجه الواحدي النيسابوري في أسباب النزول (ص ١٧٢) ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٩٥) كتاب صفات المنافقين .

المقولة ولم يُعيِّنه ، وإنْ كان معلوماً لرسول الله الذى خُوطب بهذا الكلام ؛ وذلك لأن هذه المقولة يمكن أنْ تُقال فى زماننا وفى كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الشخص بل القول نفسه . وقد أخبر عنه أنه أمية بن خلف ، أو العاصى بن وائل السَّهْمى .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ (٧٧) ﴾ [مريم] يعنى : ألم تَرَ هذا ، كأنه يستدلّ بالذى رآه على هذه القضية ﴿ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) ﴾ [مريم] ويروى أنه قال : إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون فى الآخرة كما كنت فى الدنيا ، صاحبَ مال وولد .

كما قال صاحب الجنة لأخيه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والإنسان لا يعتزّ إلا بما هو ذاتىّ فيه ، وليس له فى ذاتيته شيء ، وكذلك لا يعتز بنعمة لا يقدر على صيانتها ، ولا يصون النعمة إلا المنعم الوهاب سبحانه إذن : فلِمَ الاغترار بها ؟

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ[2] مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

ويقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) ﴾ [الملك]

ثم يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هذه المقولة الكاذبة :

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) ﴾

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . فهو الذهاب والضياع النهائى فلا أمل فى عودته للحديقة . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

(٢) المعين : الماء المعيون أى . المنظور بالعين الذى تراه العين ظاهراً يجرى على وجه الأرض . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

يعنى : أقُلْتَ هذا القول مُتطوِّعاً به من عند نفسك ، أم اطلعتَ على الغيب ، فعرفتَ منه ما سيكون لك فى الآخرة : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم] أى : أعطاه الله تعالى عهداً بأن يكون له فى الآخرة كما له فى الدنيا ، فإمَّا هذه وإمَّا هذه ، فأيُّهما توافرتْ لك حتى تجزم بهذا القول ؟

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القلم]

والمراد : مَنْ يضمن لهم هذا الذى يدَّعونه ؟

وقد أخبر النبى ﷺ : « مَنْ أدخل على مؤمن سروراً فقد أخذ العهد من الله »[1] ، « ومَنْ صلى الصلوات بفرائضها وفى وقتها فقد أخذ العهد من الله »[2]

فمَنْ هؤلاء الذين لهم عَهْد من الله تعالى ألاَّ يدخلهم النار ؟

والعَهْد : الشىء الموثَّق بين اثنين ، والعهد إنْ كان بين الناس فهو عَهْد غير موثوق به ، فقد ينفذ أو لا ينفذ ؛ لأن الإنسانَ ابنُ أغيار ، ويمكن أنْ تحوَّل الظروف بينه وبين ما وعد به ، أما إنْ كان

---

(١) أورد ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/٥٩٤) . طبعة دار الكتب العلمية ببيروت من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرني ، ومن سرني فقد اتخذ عند الله عهداً ، ومن اتخذ عند الله عهداً فلن تمسه النار » وهو من طريق الدارقطنى . قال الذهبى فى ميزان الاعتدال (٢/٢٩٣) « خبر باطل متنه » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/٢٤٤) عن كعب بن عجرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل يقول : من صلى الصلاة لوقتها وحافظ عليها ولم يضيعها استخفافاً بحقها فله علىَّ عهد أن أدخله الجنة . ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافاً بحقها فلا عهد له إن شئت عذبته وإن شئت غفرت له » .

العهد من الله تعالى المالك لكل شيء ، وليست هناك قوة تبطل إرادته تعالى ، فهو العَهْد الحقّ الموثوق به ، والذى لا يتخلف أبداً .

فحين تعاهد ربك على الإيمان فإنك لا تضمن ما يطرأ عليك من الأغيار ، أما حين يعاهدك ربك على الجزاء ، فثِقْ أنه نافذ لا يُخلَف .

لذلك ، فالنبى ﷺ لما أراد أن يمدحَ الإمام علياً رضى الله عنه قال : « ادعو الله أن يجعل لك عهداً فى قلوب المؤمنين »[1]

أى : حُباً ومودة فى قلوبهم ، وما دام أن الله أعطاه هذا العهد ، فهو نافذ مُحقَّق .

واختار هنا اسم الرحمن لما فيه من صفة الرحمانية التى تناسب المعونة على الوفاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾

كلا : أداة لنفى ما قبلها وإبطاله ، أى : قوله : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم] ثم يأتى ما بعد كلا حُجة ، ودليلاً على النفى .

وقد ورد هذا الحرف (كَلاَّ) فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا

---

(١) عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ لعلىّ « قل . اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى عندك وداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] قال : فنزلت فى على . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٤٥) وقال ابن عباس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٢٢)

مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا .. (١٧) ﴾ [الفجر]

فالحق تبارك وتعالى ينفي الكلام السابق ؛ لأن النعمة وسَعَة الرزق ليست دليلَ إكرام ، كما أن الفقر وضيق الرزق ليس دليلَ إهانة ، فكلاهما ابتلاء واختبار كما أوضحتْ الآيات ، فإتيان النعمة في حَدِّ ذاته ليس هو النعمة إنما النعمة هي النجاح في الابتلاء في الحالتين .

فقد يعطيك الله المال فلا تصرفه فيما أحلَّ الله ، فيكون لك فتنة وتخفق في الاختبار ، إذن : لم يكرمك بالمال ، بل جعله لك وسيلة إغواء وإغراء ، فبيدك يتحوّل المال إلى نعمة أو نقمة ، ويكون إكراماً أو إهانة .

وقوله تعالى[1] :

﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم]

لقد جاءت كلمة (سَنَكْتُبُ) حتى لا يؤاخذه سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنه فعله ، ولكن بما كتب عليه وليقرأه بنفسه ، وليكون حجة عليه ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

يقول تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٢١٩/٦) : قوله تعالى ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ .. (٧٩) ﴾ [مريم] أي . سنحفظ عليه قوله فنجازيه به في الآخرة ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أي : سنزيده عذاباً فوق عذاب » .

الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم ، أنستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لايستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أي : يزيده في العذاب ، لأن المد هو أن تزيد الشيء ، ولكن مرة تزيد في الشيء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتي بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيده في العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

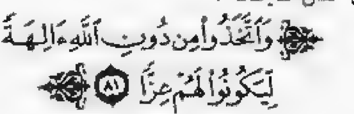
﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾

أي : في حين ينتظر أنْ نزيدَه ونعطيه سنأخذ منه ﴿وَنَرِثُهُ(٨٠)﴾ [مريم] أي : نأخذ منه كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم]

وقوله : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص]

فكأن قوله تعالى : ﴿وَنَرِثُهُ(٨٠)﴾ [مريم] تقابل قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً (٧٧)﴾[مريم] وقوله تعالى : ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا(٨٠)﴾ [مريم] تقابل ﴿وَوَلَدًا(٧٧)﴾[مريم] ، فسيأتينا في القيامة فَرْداً ، ليس معه من أولاده أحد يدفع عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾

آلهة : جمع إله ، وهو المعبود والرب الذى أوجدك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، وتولاك بالتربية ، فعطاء الألوهية تكليف وعبادة ، وعطاء الربوبية نِعَم وهِبَات . إذن : فمَنْ أوْلى بعبادتك ومَنْ أحقّ بطاعتك ؟

هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة من شمس ، أو قمر ، أو حجر ، أو شجر ، بماذا تعبَّدتكم هذه الآلهة ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شىء نهتْكُم ؟ وبماذا أنعمتْ عليك ؟ وأين كانت وأنت جنين فى بطن أمك ؟

إن أباك الذى رباك وأنت صغير وتكفَّل بكل حاجياتك ، وأمك التى حملتْك فى بطنها وسهرتْ على راحتك ، هما أوْلَى الناس بطاعتك ، ولا ينبغى أنْ تُقدِّم على أمرهما أمراً . أما أنْ يستحوذَ عليك آخرون ، ويكون لهم طاعتك وولاؤك دون أبويْك فهذا لا يجوز وأنت فى رَيْعان شبابك وأَوْج قوتك .

لذلك ، من أصول التربية أنْ يُربِّى الآباء أبناءهم على السمع والطاعة لهم ، ونُحذِّرهم من طاعة الآخرين خاصة غير المؤتمنين على التربية ، من العامة فى الشارع ، أو أصدقاء السُّوء الذين يجرُّون الأبناء إلى مَا لا تُحمد عُقْباه .

والآن نُحذِّر أبناءنا من السَّيْر مع شخص مجهول ، أو قبول طعام ، أو شراب منه . وما نراه فى عصرنا الحاضر يُغنى عن الإطالة فى هذه المسألة . هذه - إذن - مناعة يجب أنْ تُعطَى للأبناء ، كالمناعة ضد الأمراض تماماً .

وهكذا الحالُ فيمَنْ اتخذوا من دون الله آلهة وارتاحوا إلى إله لا تكليفَ له ولا مشقةَ فى عبادته ، إله يتركهم يعبدونه كما يحلو

لهم ، إنهم أخذوا عطاء الربوبية فتمتَّعوا بنعمة الله ، وتركوا عطاء الألوهية فلم يعبدوه سبحانه وتعالى .

ولما كان الإنسان متديناً بطبعه فقد اختار هؤلاء ديناً على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، واتخذوا آلهة لا أمرَ لها ولا تكليفَ . ومن ذلك ما نراه من كثير من المثقفين الذين يأخذون دين الله على هواهم ، ويطبقون أعداء الله فى قضايا بعيدة كل البُعْد عن دين الله ، وهم أصحاب ثقافة وعقول ناضجة ، ومع ذلك يُقنعون أنفسهم أنهم على دين وأنهم على الحق .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾ [مريم] العز : هو الغَلَبة والامتناع من الغير ، بحيث لا ينال أحد منه شيئاً ، يقولون : فلان عزيز أى : لا يُغلب .

ولنا أن نسأل : ما العزة في عبادة هذه الآلهة ؟ وما الذى سيعود عليكم من عبادتها ؟ لذلك يردُّ عليهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾

كلا : تنفى أن يكون لهؤلاء عِزٌّ فى عبادة ما دون الله ، بل ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ (٨٢) ﴾ [مريم]

هذه الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم ، وتنكر أن تكون هى آلهة من دون الله ، وأكثر من ذلك ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾ [مريم] أى : فى حين اتخذها الكفار آلهة من دون الله وطلبوا العزة فى عبادتها تنقلب عليهم ، وتكون ضِداً لهم وخَصْماً .

والضد : هو العدو المخالف لك ، والذي يحاول أنْ ينكّل بك . وفي القرآن الكريم حوارات كثيرة بين هذه المعبودات ومَنْ عبدوها ، فمثلاً الذين عبدوا الملائكة واتخذوها آلهةً من دون الله : يسأل الله الملائكة : ﴿ أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؟ [سبأ] فيُجيبون : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا.. ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

إذن : ما ظنَّه الكفار عزّاً ومَنَعة صار عليهم ضداً وعداوة ، كالفتاة التي قالتْ لأبيها : يا أبتِ ما حملك على أنْ تقبلني مخطوبة لابن فلان ؟ أي : ماذا أعجبك فيه ؟ قال : يا بُنيّتي إنهم أهل عزٍّ وأهل جاه وشرف وأهل قوة ومنعة ، فقالت : يا أبت لقد قدَّرْتَ أنْ يكون بيني وبين ابنهم ودٌّ ، ولم تُقدِّر أن يكون بيني وبينه كراهية ، فإن حدثتْ الكراهية سيكون ما قلته ضدك ، وستشقى أنت بهذا العزّ وبهذا الجاه .

ومن الناس من اتخذ مِن المال إلهاً ، على حدِّ قَوْل الشاعر :

وَلِلمالِ قَوْمٌ إنْ بَدا المالُ قَائلاً ... أنَا المالُ قالَ القومُ إيَّاكَ نَعبُدُ

وهؤلاء الذين يعبدون المال ، ويروْن فيه القوة ، ويعتزُّون به لا يدرون أنه سيكون وَبَالاً ونكالاً عليهم يوم القيامة . ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة]

وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ في الآية الترتيب الطبيعي لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغني اللئيم ، فأوَّل ما يطالع السائل يتغيَّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرِضاً عنه ، وبنفس هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكيُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذي ظَنَّ العزة فيه إلى نكالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ⦗٦⦘ ﴾ [الأحقاف]

حتى الجوارح التي تمتعتْ بمعصيتك في الدنيا ستشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⦗٢٤⦘ ﴾ [النور]

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذي غفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذي اتخذته يتخلى عنك ويُسلمك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ⦗٨٣⦘ ﴾

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أي : تُزعجهم وتُهيجهم ، ومثْله النزغ في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ⦗٢٠٠⦘ ﴾ [الأعراف]

والأزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتي هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما في قوله

تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف]

وهذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه ؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هى الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التى خُلقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أبَى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا فى حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١/ ١٠] .

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتي منها الشيطان إلا فوق وتحت ؛ لأنهما مرتبطتان بعزِّ الألوهية من أعلى ، وذُلِّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخِرُّ لله ساجداً ؛ لذلك أُغلقَتْ دونه هاتان الجهتان ؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا في الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل في مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان ؛ لأنه حين قال لربه تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة مني ، ولكن أغويهم بعزتك عن خَلْقك ، وتركك لهم الخيار ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هي النافذة التي أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لي على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم لِيُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر ؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل في كَوْن الله إلى الإيمان بالله ؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسلك مسلك الفكر والتأمل ليحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو ليُنسيك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ .. (٦٣) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨ ﴾ [الأنعام]

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا في الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا ؟

نقول : هذه ظاهرة صحية في الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قول ربنا تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ۝٣٦ ﴾ [فصلت]

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطِّ العبادة والإقامة بين يدي الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك وييأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص ؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبَّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص في نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك في باب ، أتاك من باب آخر ؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ

لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُميِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان ؛ لأنه يحارب فى الإنسان فطرته الإيمانية التى تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهى دليل فطرى لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربى قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .. سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعى الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المتناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

فكيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ في هذه المسألة بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٨٣)﴾ [مريم] وهي مسألة لا يراها الإنسان ؟

نقول : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٨٣)﴾ [مريم] بمعنى ألم تعلم ؟ فعدل عن العلم إلى الرؤيا ، كما في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] والنبي ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (١)﴾ [الفيل] ؟

ذلك ، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحُّ من إخبار عينك لك ؛ لأن رؤية العين ربما تخدعك ، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً . فعلمك من إخبار الله لك أَوْلَى وأوثق من علمك بحواسك .

والشياطين : جمع شيطان ، وهو العاصي من الجنّ ، والجن خَلْق مقابل للإنسان قال الله عنهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ[1] قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] فَمنْ هم دون الصالحين ، هم الشياطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾

تمنّى النبي ﷺ لو أن الله أراحه من رؤوس الكفر وأعداء الدعوة ، فقال تعالى : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] فالله يريد أنْ تطول أعمارهم ، وتسوء فعالهم ، وتكثر ذنوبهم ، فالكتبة يعدُّون عليهم ويُحْصُون ذنوبهم .

ومعنى : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] أنها مسألة ستنتهي ؛

---

(١) طرائق قدداً : أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد . أي : منا المؤمن ومنا الكافر . (تفسير ابن كثير ٤/٤٣٠) .

لأن كل ما يُعَدّ ينتهى ، إنما الشيء الذى لا يُحصَى ولا يُعَدُّ فلا ينتهى ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

لأن نعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ولا تنتهى ؛ لذلك سُبِقَتْ بإنِ التى تفيد الشكَّ ، فهى مسألة لا يجرؤ أحد عليها ؛ لأن : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

وها نحن نرى علم الإحصاء وما وصل إليه من تقدّم حتى أصبح له جامعات وعلماء متخصصون أدخلوا الإحصاء فى كل شيء ، لكن لم يفكر أحد منهم أنْ يُحصِي نِعَم الله فى كَوْنه ، لماذا ؟ لأن الإقبال على العَدّ معناه ظن أنك تستطيع أنْ تنتهى ، وهم يعلمون تماماً أنهم مهما عَدُّوا ومهما أحْصَوا فلن يصلُوا إلى نهاية .

إذن : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾ [مريم] نُحصى سيئاتهم ونَعدُّ ذنوبهم قبل أن تنتهى أعمارهم ، وكلما طالت الأعمار كثُرتْ الذنوب ، وكل ما ينتهى بالعدد ينتهى بالمُدد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا صوراً متعددة ومشاهد مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمن تعاونوا على الشر ، ولمَنْ تعاونوا على الخير . وهذه صورة أخرى تعرض للمتقين فى ناحية ، والمجرمين فى ناحية ، فما هى صورة المتقين ؟

تحشر : أي : تجمع ، والوفد هم الجماعة تردُ على الملك لأخْذ عطاياه ، جمعها وفود ، والواحد وافد . وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله يوم القيامة وَفْداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى . ولا تظن أنهم يُحشَرون ماشين مثلاً ، لا ، بل كل مؤمن تقي يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد[1] .

وفي المقابل يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾

تسوق : والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور] ولم يقل مثلاً : نقودهم ؛ لأن القائد يكون من الأمام ، وربما غافله أحدهم وشرد منه .

وقوله تعالى : ﴿ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] الوِرْد : هو الذَّهاب للماء لطلب الريِّ ، أما النار فمحلُّ اللظى والشُّواظ واللَّهب والحميم . فلماذا سُمِّي إتيان النار بحرِّها وِرْداً ؟

هذا تهكُّم بهم ، كما جاء في آيات أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

وأنت ساعة تسمع (يغاثوا) تنتظر الخير وتأمل الرحمة ، لكن هؤلاء يُغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه .

---

(١) قال ابن عباس : ركباناً يؤتون بنوق من الجنة ، عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها . وقال علي : ما يُحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها من ذهب ، ونجب سروجها يواقيت ، إن هموا بها سارت ، وإن حركوها طارت . أورد القرطبي هذه الآثار في تفسيره (٦/٤٣٢٤) .

(٢) يدعون ، أي : يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون] أي : يدفعه ويقهره وينهره . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] في توبيخ عُتَاة الكفر والإجرام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان] والبشرى لا تكون إلا بشيء سار .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾ [مريم] تهكُّم ، كما تقول للولد المهمل الذي أخفق في الامتحان : مبروك عليك السقوط .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾

الكافر حين يباشر العذاب يطمع أول ما يطمع في أن يشفعَ له معبوده ، ويُخرجه ممَّا هو فيه لكنْ هيهات ، ألم تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) ﴾ [الأحقاف]

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء يوم القيامة : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ .. (٨٧) ﴾ [مريم] لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أخذ الإذن بها ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾ [مريم]

والعهد الذي تأخذه على الله بالشفاعة أنْ تُقدِّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت ، ثم تزيد عليها ما يؤهلك لأنْ تشفع للآخرين ، والخير لا يضيع عند الله ، فما زاد عن التكليف فهو في رصيدك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا يهمل مثقال ذرة .

وعلى المؤمن ـ مهما كان مُسْرفاً على نفسه ـ ساعةَ يرى إنساناً مُقبلاً على الله مُستزيداً من الطاعات أنْ يدعوَ له بالمزيد ، وأن يفرح به ؛ لأن فائض طاعاته لعله يعود عليك ، ولعلك تحتاج شفاعته في يوم من الأيام . أما مَنْ يحلو لهم الاستهزاء والسخرية من أهل الطاعات ، كما أخبر الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾ [المطففين]

فكيف ستقابل أهل الطاعات ، وتطمع في شفاعتهم بعدما كان منك ؟ فإنْ لم تكُنْ طائعاً فلا أقلَّ من أنْ تحب الطائعين وتتمسح بهم . فهذه في حَدِّ ذاتها حسنةٌ لك ترجو نفعها يوم القيامة .

وما أشبه الشفاعة في الآخرة بما حدث بيننا من شفاعة في الدنيا . فحين يستعصي عليك قضاءُ مصلحة يقولون لك : اذهب إلى فلان وسوف يقضيها لك . وفعلاً يذهب معك فلان هذا ، ويقضي لك حاجتك . فلماذا قُضِيتْ على يديه هو ؟ لا بُدَّ أن له عند صاحب الحاجة هذه أياديَ لا يستطيع معها أنْ يرد له طلباً .

إذن : لابُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة ، وإذا تأملت لوجدت رسول الله ﷺ أول مَنْ قدَّم رصيداً إيمانياً وسع تكليفه وتكليف أمته ، ألم يخبر عنه ربه بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ[1] لِلْمُؤْمِنِينَ .. (٦١) ﴾ [التوبة] لذلك وجبت له الشفاعة ، وأُذِن له فيها .

---

(١) قال ابن عباس : يعني يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وقال الضحاك : يصدق الله بما أنزل إليه ، ويصدق المؤمنين فيما بينهم في شهاداتهم وأيمانهم على حقوقهم وفروجهم وأموالهم . أورد هذه الآثار السيوطي في تفسيره « الدر المنثور » (٤/٢٢٧) .

والحق - تبارك وتعالى - لا يغفل الرصيد فى خلقه أبداً ، فكل ما قدَّمت من طاعات فوق ما كلَّفك الله به مُدَّخَر لك ، حتى إن الإنسان إذا اتُّهم ظلماً ، وعُوقب على عمل لم يرتكبه فإن الله يدَّخرها له ويستر عليه ما ارتكبه فعلاً فلا يُعاقب عليه .

فالعهد - إذن - فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾ [مريم] أن تدخل مع ربك فى مقام الإحسان ، ولا يدخل هذا المقام إلا مَنْ أدَّى ما عليه من تكليف ، وإلا فكيف تكون مُحسِناً وأنت مُقصِّر فى مقام الإيمان ؟

واقرأ إنْ شئت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦) ﴾ [الذاريات] ما العلة ؟ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالمحسن مَنْ يُؤدِّى من الطاعات فوق ما فرض الله عليه ، ومن جنس ما فرض ، فالله تعالى لم يُكلِّفنا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار ، ولم يفرض علينا صدقة للسائل والمحروم ، ولا بُدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين (حق) و (حق معلوم) هنا قال (حق) فقط ؛ لأن الكلام عن الصدقة أما الحق المعلوم ففى الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾

هذا الكلام منهم عبث وافتراء ؛ لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد ؟

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . [لسان العرب - مادة : هجع] .

فى أىّ قَرْنٍ من القرون من ميلاد المسيح عليه السلام ؟ إن هذه المقولة لم تَأْتِ إلا بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح ، فما الموقف قبلها ؟ وما الذى زاد فى مُلْك الله بعد أنْ جاء هذا الولد ؟

الشمس هى الشمس ، والنجوم هى النجوم ، والهواء هو الهواء ، إذن : موضوعية اتخاذ الولد هذه عبث ؛ لأنه لم يَزِدْ شىء فى المُلْك على يد هذا الولد ، ولم تكن عند الله تعالى صفة مُعطلة اكتملتْ بمجىء الولد ؛ لأن الصفات الكمالية لله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق أىّ شىء .

فهو سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخْلق ، ورازق قبل أنْ يرزُق ، ومُحْيٍ قبل أنْ يحيى ، ومميت قبل أن يميت . فبالصفات أوجد هذه الأشياء ، فصفات الكمال فيه سبحانه موجودة قبل متعلقاتها .

وضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بالشاعر الذى قال قصيدة . وقلنا : إنه قال القصيدة لأنه شاعر بدايةً ، ولولا أنه شاعر ما قالها .

لذلك يرد الحق سبحانه على هذا الافتراء بقوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

وهنا يرد عليهم بقوله :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾

والإدّ : المتناهى فى النكْر والفظاعة ، وهو الأمر المستبشع ، من : آده الأمر . أى : أثقله ولم يَقْو عليه ، ومنه قوله تعالى فى آية الكرسى : ﴿ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : لا يثقل عليه .

لكن ، لماذا جعل هذا الأمر إدّاً ومنكراً فظيعاً ؟

قالوا : لأن اتخاذ الولد له مقاصد ، فالولد يُتخذ ليكون لك عِزْوة وقوة ؛ أو ليكون امتداداً لك بعد موتك ، والحق سبحانه وتعالى هو العزيز ، الذي لا يحتاج إلى أحد ، وهو الباقي الدائم الذي لا يحتاج إلى امتداد .

إذن : فاتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا علة له ، كما أن اتخاذ الولد لله تعالى ينفي سواسية العبودية له سبحانه .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[1] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾

أي : فلسنا نحن فحسْب الذين ننكر هذا الأمر ، بل الجماد غير المكلف أيضاً ينكره ، فالسموات بقوتها وعظمها تتفطر أي : تتشقق ، وتكاد تكون مِزَعاً لهوْل ما قيل ، تقرب أن تتفطر لكن لماذا لم تتفطر بالفعل ؟ لم تتفطر ؛ لأن الله يمسكها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

وفي الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يارب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يارب ائذن لي أن أخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِّ ائذن لي أن أُغرق ابن

(١) يتفطر : يتشقق ، أي أن السماوات تكاد أن يتشققن من هول قولهم إن لله ولداً . [القاموس القويم ٢/٨٥] .

آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

فما العلّة فى أن السماء تقرب أن تنفطر ، والأرض تقرب أن تنشق ، والجبال تقرب أن تخرّ ؟

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾

هذه هي العلة والحيثية التى من أجلها يكاد الكونُ كلُّه أن يتزلزل ، ويثور غاضباً لهذه المقولة الشنيعة .

ثم يعقب الحق سبحانه فيقول :

﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

وعلينا هنا أنْ نُفرق بين نَفْى الحدث ونفى انبغاء الحدث ، فمثلاً فى قول الحق - تبارك وتعالى - فى شأن نبيه ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] فنفى عنه قَوْل الشعر ، ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانٌّ أن النبى لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ ، لكن رسول الله قادر على قَوْل الشعر إنْ أراد ، فهو قادر على الحدث ، إلا أنه لا ينبغى له .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] فإنْ أراد سبحانه وتعالى أن يكون له ولد لكانَ ذلك ، كما جاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : إن كان له سبحانه ولد فعلى العَيْن والرأس ، إنما هذه مسألة ما أرادها الحق سبحانه ، وما تنبغى له ، فكيف أدَّعى أنا أن لله ولداً هكذا من عندى ؟

وما حاجته تعالى للولد ، وقد قال فى الآية بعدها :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾

ذلك لأن الخالق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان ، وجعل له منطقة اختيار يفعل أو لا يفعل ، يؤمن أو لا يؤمن ، وكذلك جعل فيه منطقة قَهْر ، فالكافر الذى ألف الكفر ، وتعوَّد عليه ، وتمرد على الطاعة والإيمان ، هل يستطيع أنْ يتمرَّد مثلاً على المرض أو يتمرَّد على الموت ، أو على الفقر ؟

إذن : فأنت مُختار فى شىء وعَبْد فى أشياء ، كما أن منطقة الاختيار هذه لك فى الدنيا ، وليست لك فى الآخرة . وسبق أنْ فرَّقنا بين العباد والعبيد ، فالجميع : المؤمن والكافر عبيد لله تعالى ، أما العباد فهم الذين تنازلوا عن اختيارهم ومرادهم لمراد ربهم ، فجاءت كُلُّ تصرفاتهم وفقاً لما يريده الله .

وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

ومعنى : ﴿ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] أى : فى الآخرة ، حيث تُلْغَى منطقة الاختيار ، ولا يستطيع أحد الخروج عن مراد الله تعالى ، ويسلب الملك من الجميع ، فيقول تعالى : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وهو سبحانه القادر على العطاء ، القادر على السلب : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

الإحصاء : هو العدُّ ، وكانوا قديماً يستخدمون الحصَى أو النوى في العَدِّ ، لكن النوى فرع ملكية النخل ، فقد لا يتوفر للجميع؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصَى ، ومنه كلمة الإحصاء .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

أي . وحده ، ليس معه أهل أو أولاد أو عِزْوة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس]

فكل مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]

وتأمَّل قوله : ﴿ آتِيهِ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم] فالعبد هو الذي يأتي بنفسه مُخْتاراً لا يُؤْتَى به ، فكأن الجميع منضبط على وقت معلوم ، إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عز وجل .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

وُدّاً : مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلّق ، وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقبلاً عليك تقوم له وتبشُّ فى وجهه ، وتُفسِح له فى المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعوده إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح وتواسيه فى الأحزان وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة .

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة فى الدنيا بين الخَلْق جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، أمّا هنا : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم]

أى : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأنْ ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له : إنى أحبك لله .

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فضلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة .

لذلك قال هرم بن حَيَّان[١] ـ رحمه الله ـ : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه إلا فتح له قلوب المؤمنين جميعاً[٢] .

---

(١) هو : هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٢٣) : « كان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ».

كما جاء في الحديث القدسي :

« ما أقبل عليَّ عبد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً »[1] أي : بالمودة والرحمة دون أسباب .

وفي الحديث القدسي : « إن الله إذا أحب عبداً نادى في السماء : إنني أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادي جبريل في الأرض : إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه . ويوضع له القبول في الأرض »[2] .

فيحبه كل مَنْ رآه عطية من الله وفضلاً ، دون سبب من أسباب المودة ، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهب لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهي في يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء .

وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في قوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء] أن نرد الجميل بأحسن منه ، فإنْ لم نقدر على الأحسن فلا أقلَّ من الرد بالمثل ، فإنْ كان هذا عطاء العبد ، فما بالك بعطاء الرب ؟

ومن ذلك ما جاء في الحديث الشريف « من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[3] .

---

(١) أورد الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٤٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه .. وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٧) ، وأحمد في مسنده (٢/٤١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء ، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٢ ، ٢٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والعَوْن يقتضي مُعيناً ومُعَاناً ، ولا بُدَّ أن يكون المعين أقوى من المعان ، فيفيض عليه من فضل ما عنده : صحة ، أو قدرة ، أو غنىً ، أو علماً . وإعانةُ العبد لأخيه محدودة بقدراته وإمكاناته ، أمّا معونة الله لعبده فغير محدودة ؛ لأنها تناسب قدرة وإمكانات الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عوَّدنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حين نُضحِّي بالقليل أنْ يعطينا الكثير وبلا حدود ، فضلاً من الله وكرماً . ألم تَرَ أن الحسنة عنده تعالى بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعف ؟ أليست هذه تجارة مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف]

وقال عنها : ﴿ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر]

وكان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا المحبة المتبادلة التي تربط بين قلوبنا وتُؤلِّف بيننا ، ثم يمتحنا سبحانه الثمن .

إذن : العملية الإيمانية لا تظن أنها إيثار ، بل الإيمان أثرة ، وأنت حين تتصدق بكذا إنما تأمل ما عند الله من مضاعفة الأجر ، فالإيمان ـ إذن ـ أنانية عالية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منا أنْ نعودَ على غيرنا بفضل ما تملك ، كما جاء في الحديث : « مَنْ كان عنده فضل مال فليعُدْ به على مَنْ لا مالَ له ... »[1] .

واعلم أن الله سيُعوِّضك خيراً مما أعطيْتَ . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ : هَبْ أن عندك ولدين ، أعطيتَ لكل منهما مصروفه ،

(١) عن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ جاء رجل على ناقة له ، فجعل يصرفها يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في الفضل . أخرجه أبو داود في سننه (١٦٦٣) وأحمد في مسنده (٣٤/٣) .

فالأول اشترى به حلوى أكل منها ، وأعطى رفاقه ، والآخر بدّد مصروفه فيما لا يُجدى من ألعاب أو خلافه ، فأيهما تعطى بعد ذلك ؟ كذلك الحق سبحانه يعاملنا هذه المعاملة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

الفاء هنا تفيد : ترتيب شيء على شيء فابحث في الجملة بعدها عن هذا الترتيب ، فالمعنى : بشّر المتقين ، وأنذر القوم اللُّد[1] لأننا يسرنا لك القرآن .

ويسَّرنا القرآن : أي : طوعناه لك حِفْظاً وأداءً وإلقاء معانٍ ، فأنت تُوظِّفه في المهمة التي نزل من أجلها .

وتيسير القرآن ورد في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]

والمتأمل في تيسير القرآن يجد العجائب في أسلوبه ، فترى الآية تأتي في سورة بنص ، وتأتي في نفس السياق في سورة أخرى بنص آخر ، فالمسألة - إذن - ليست (أكلاشيه) ثابت ، وليست عملية ميكانيكية صماء ، إنه كلام رب .

خُذْ مثلاً قوله تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المدثر]

---

(١) لدَّ يلَدُّ : اشتد في الجدل والخصومة فهو لدٌّ ، واللُّدُّ : أشداء الخصومة . [القاموس القويم ١٩١/٢] .

وفي آية أخرى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان]

مرة يقول : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان] ومرة يقول : ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس]

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق في سورة (الرحمن) حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن] ثم يأتي الحديث عنهما : فيهما كذا ، فيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى قاصرات الطرف فيقول : ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن]

وكذلك في : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى الحور العين فيقول : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تتساءل : الحديث هنا عن الجنتين ، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن) في هذه النعمة بالذات ؟

قالوا : لأن نعيم الجنة مشترك ، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا في نعمة الحور العين ، فلها خصوصيتها ، فكان الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجل ، ففي هذه المسألة يكون لكل منا جنته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد .

لذلك لما رأى رسول الله ﷺ الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه ، فلما سُئل عن ذلك ﷺ قال : « إنه لعمر ، وأنا أعرف غَيْرة عمر »[1] .

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٤٢) من حديث أبي هريرة قال : « بينما نحن عند النبي ﷺ إذ قال : بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » . وكذا أخرجه ابن ماجة في سننه (١٠٧) .

فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن ، وإلى هذه الدرجة تكون دقَّة التعبير في القرآن الكريم .

ولولا أن الله تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد ، فالنبي ﷺ كان ينزل عليه الآيات ، وحين يسرى[1] عنه يمليها على الصحابة ، ويظل يقرؤها كما هي ، ولولا أن الله قال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ⟨٦⟩ ﴾ [الأعلى] ما تيسَّر له ذلك .

ونحن في حفظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً ، فالصبي في سنِّ السابعة يستطيع حفظ القرآن وتجويده ، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفَلَّتَ منه ، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص في هذه السن يظل عالقاً بذهنه .

إذن : مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة ، بل معونة حافظ ، فإن كنت على وُدٍّ وأُلْفة بكتاب الله ظلَّ معك ، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك ، كما جاء في الحديث الشريف :

« تعاهدوا القرآن ، فو الذي نفسي بيده لَهُو أشدُّ تفصِّيا[2] من الإبل في عُقُلها »[3] .

ذلك : لأن حروف القرآن ليست مجرد حرف له رسم ومنطوق ، إنما حروف القرآن ملائكة تُصفّ ، فتكون كلمة ، وتكون آية ، فإنْ وددتَ الحرف ، ووددتَ الكلمة والآية ، ودَّتْك الملائكة ، وتراصتْ عند قراءتك[4] .

---

(١) سُرِّي عنه : كُشف عنه . قال ابن منظور في لسان العرب ـ مادة سرا : « قد تكرر ذكر هذه اللفظة في الحديث ، وخاصة في ذكر نزول الوحي عليه ، وكلها بمعنى الكشف والإزالة » .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٩/٨١) : « تفصيا . أي : تفلتا وتخلصا . ووقع في حديث عقبة بن عامر بلفظ « تفلتا » فمن شأن الإبل أنها تطلب التفلت ما أمكنها ، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت ، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت بل هو أشد في ذلك » .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٣٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٧٩١) كتاب « صلاة المسافرين » من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٤) عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكنت الفرس .. فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها ، قال ﷺ : « وتدري ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » .

ومن العجائب في تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعملتَ عقلك في القراءة تتخبّط فيها وتخطيء ، فإنْ أعدتَ القراءة هكذا على السليقة كما حفظت تتابعت معك الآيات وطاوعتك .

وتلحظ هنا أن القرآن لم يأتِ باللفظ الصريح ، إنما جاء بضمير الغيبة في ﴿ يَسَّرْنَاهُ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم] لأن الهاء هنا لا يمكن أن تعود إلا على القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فضمير الغيبة هنا لا يعود إلا على الله تعالى .

وقوله : ﴿ بِلِسَانِكَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم] أي : بلغتك ، فجعلناه قرآناً عربياً في أمة عربية ؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله في البشارة والنذارة ، ولو جاءهم بلغة أخرى لقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم]

والإنذار : التحذير من شرٍّ سيقع في المستقبل ، واللُّدَد : عُنْف الخصومة ، وشراسة العداوة ، نقول : فلان عنده لَدَد أي : يبالغ في الخصومة ، ولا يخضع للحجة والإقناع ، ومهما حاولتَ معه يُصِرّ على خصومته .

ويُنهي الحق سبحانه سورة مريم بقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُسرِّى عن نبيه ﷺ ما يلاقى من عنت فى سبيل دعوته ، كأنه يقول له : إياك أنْ ينالَ منك بُغْض القوم لك وكُرههم لمنهج الله ، إياك أنْ تتضاءلَ أمام جبروتهم فى عنادك ، فهؤلاء ليسوا أعزَّ من سابقيهم من المكذبين ، الذين أهلكهم الله ، إنما استبقى هؤلاء لأن لهم مهمة معك .

وسبق أن أوضحنا أن الذين نجوْا من القتل من الكفار فى بعض الغزوات ، وحزن المسلمون لنجاتهم ، كان منهم فيما بَعْد سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ .. (٩٨) ﴾ [مريم]

كم : خبرية تفيد الكثرة ، من قرن : من أمة ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ .. (٩٨) ﴾ [مريم] لأننا أخذناهم فلم نُبق منهم أثراً يحس .

ووسائل الحسِّ أو الإدراك كما هو معروف : العين للرؤية ، والأذن للسمع ، والأنف للشمِّ ، واللسان للتذوق ، واليد للمس ، فبأىِّ أداة من أدوات الحسِّ لا تجد لهم أثراً .

وقوله : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم] الركْز : الصوت الخفىّ ، الذى لا تكاد تسمعه . وهذه سُنَّة الله فى المكذبين من الأمم السابقة كما قال سبحانه : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[1] وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾ [الدخان]

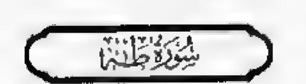
أين عاد وثمود وإرم ذات العماد التى لم يُخلَق مثلها فى البلاد ؟

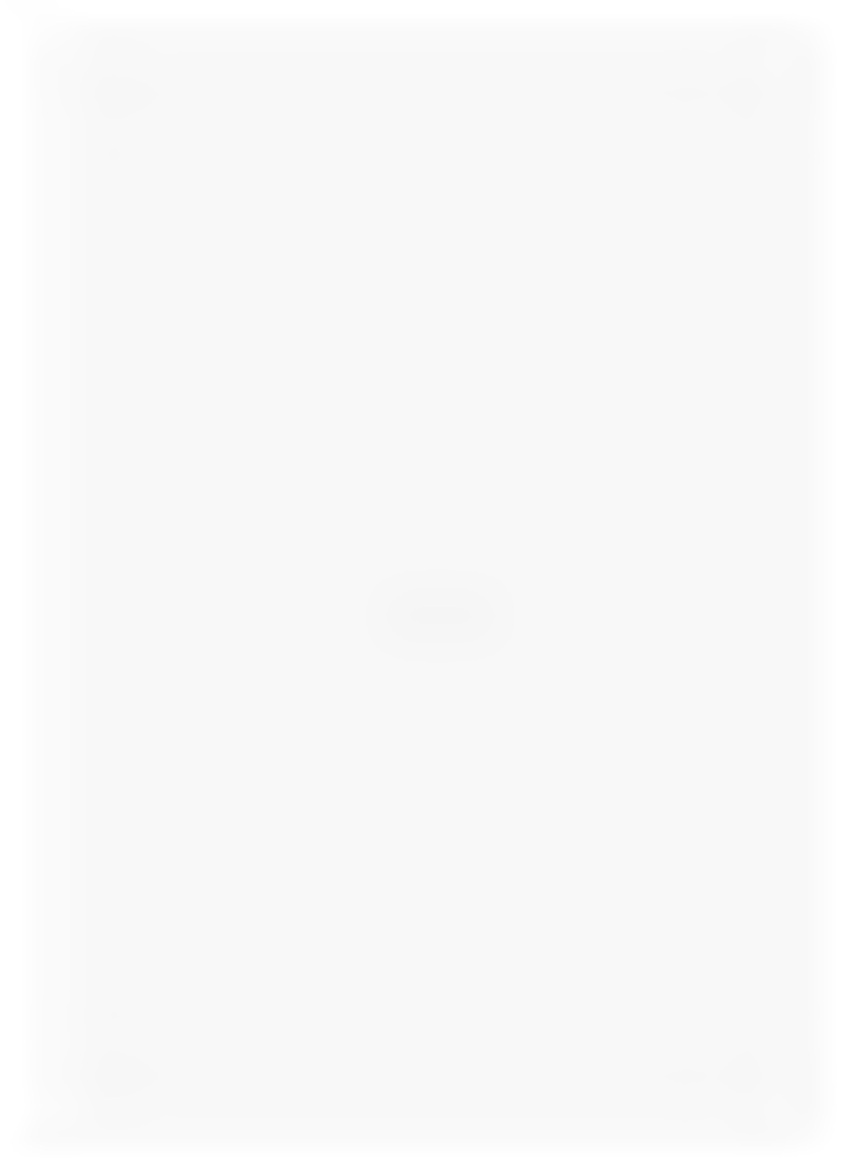
---

(١) تُبَّع : لقب ملوك اليمن العظام ، وهم أهل سبأ ، كانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً كما يقال كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر ، والنجاشى لمن ملك الحبشة . [تفسير ابن كثير ١٤٣/٤] .

وأين فرعون ذو الأوتاد ؟ فكل جبار مهما علَتْ حضارته ما استطاع أنْ يُبقي هذه الحضارة ؛ لأن الله تعالى أراد لها أنْ تزول ، وهل كفار مكة أشدّ من كل هؤلاء ؟

لذلك حين تسمع هذا السؤال : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾ [مريم] لا يسعك إلاَّ أنْ تُجيب : لا أحسُّ منهم من أحد ، ولا أسمع لهم ركزاً .


سورة طه



سورة طـه



يقول الحق سبحانه في بداية سورة طه[1] :

﴿ طه ﴿١﴾ ﴾

تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطّعة في بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد في (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهي اسم من أسماء الرسول ﷺ ، وآخرون يروْنَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهي حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما في (ن) حرف وهو اسم للحوت : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ،

---

(١) سورة (طه) هي السورة رقم ٢٠ في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (١٣٥) آية ، وهي سورة مكية في قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه ، وهي السورة رقم (٤٤) في ترتيب نزول القرآن ، وقد نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة ، وهي سورة مكية ، وقد استثنى منها آيتان هما ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] . فقد ذكر السيوطي في « الإتقان في علوم القرآن » (٤٢/١) أنهما مدنيتان .

فتكون (طه) اسماً[1] من أسماء الرسول ﷺ خاصة ، وأن بعدها :
﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [طه]

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنهما حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْزَ فيُخَفِّفونها ، كما في ذئب يقولون : ذيب وفي بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبي ﷺ .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطّعة تختلف عن باقي آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنيَتْ على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف ؛ لذلك فكل المصاحف تُبْنَى على الوَصْل في الآيات وفي السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم في السورة التي بعدها .

تقول : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى في آخر سور القرآن ونهايته تقول : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ [الناس] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة في القرآن ، وماذا سيقول بعدها ؟ لكنها جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصولٌ أوّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوهُ ، أو تظن أنك أنهيته ؛ لأن نهايته موصولة ببدايته ؛ فنقرأ ﴿ من الجِنَّة والناسِ ﴾ ﴿ بِسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمدُ لله رب العالمين ....

---

(١) قال ابن عباس : معنى (طه) أي : يا رجل . ذكره البيهقي . وقاله الحسن وقال عكرمة : هو بالسريانية كذلك . ذكره المهدي . وحكى الطبري : أنه بالنبطية يا رجل . وهذا قول السدي وسعيد بن جبير . [تفسير القرطبي ٦/٤٢٢٧] .

إذن : فالقرآن كله في كل جملة وكل آية وكل سورة مبنيٌّ على الوَصْل ، إلا في فواتح السور بالحروف المقطّعة تُبنَى على الوقف (ألف ـ لام ـ ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربِّ العالمين .

لذلك ، فالنبي ﷺ أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال « تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات »[1] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ . فالحق سبحانه ينفي عن رسوله ﷺ التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل ؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أهْلاً لنزول القرآن عليك ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفعْل الخير كل الخير .

فلماذا ـ إذن ـ جاءتْ كلمة ﴿ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [طه] ؟

هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل ، ومُطْعِم بن عدي ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا له :

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٤٢٩/٢) كتاب فضائل القرآن ـ باب : فضل من قرأ القرآن من حديث عبد الله بن مسعود .

لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثني رحمة للعالمين »[2] .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِي معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه ؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذى نزل به القرآن لوجده يتدخل في إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعِب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزِلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمَّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب في الدنيا على أمل الثواب في الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً ، كالتلميذ الذى يتحمل مشقَّة الدرس والتحصيل ؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار في منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها ؛ لذلك شعروا بالمشقة ، في حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هي التي جعلتهم

---

(١) قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبي ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝٢﴾ [طه] [ذكره الواحدي النيسابوري في أسباب النزول ص ١٧٦] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وتمامه : « إن الله بعثني رحمة وهدى للعالمين وأمرني أن أمحق المزامير والكفارات يعني البرابط والمعازف والأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية » .

يتخذون آلهة لا مطالبَ لها ، ولا منهج ، ولا تكليف ، آلهة يعبدونها على هواهم ، ويسيرون في ظلها على حلّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون في هذه المسألة ، فقال : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه]

أو يكون الشقاء :تعرُّضه لعُتاة قريش وصناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، يشتمونه ويرمونه بالحجارة ، وهو ﷺ يُشقِي نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

والحق تبارك وتعالى ينفي الشقاء بهذا المعنى أيضاً : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه] أي : لتُشقي نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبلغهم فحسب[1] ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً في مثل قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف] وقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء]

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - برجل عنده عبدان : ربط أحدهما إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره ؟

لا شكَّ أنه الحر الطليق ؛ لأنه جاء مختاراً ، في حين كان قادراً على العصيان . وكذلك ربك - تبارك وتعالى - يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

---

(١) أخرج الترمذي في سننه (٢٣١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بعثني الله مبلغاً ، ولم يبعثني مُعنتاً » قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول ﷺ ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم ؟ طالما أن ربه هو الذى يُصوِّب له ، هل أنتم الذين صوَّبتم لرسول الله !؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله ؟ أليس هو الذى أخبركم ؟ أليس هذا من قوة أمانته فى التبليغ ويجب أن تحمد له ؟

إذن : فرسول الله ﷺ لا يستنكف أنْ يُربِّيه ربه ؛ لذلك يقول : « إنما أنا بشر يَرِد علىَّ - يعنى من الحق - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل فى هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شىء ، فالكلام معه ميسور وأمر سهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد فى خصومتهم للإسلام ، والنبى ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهق نفسه فى جدالهم أملاً فى أنْ يهدى الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبى فى هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عتاب لصالحه ، له لا عليه[1] .

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ ﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾

أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أى تذكيراً (لمَنْ يَخْشَى) الخشية : خَوْف بمهابة ؛ لأن الخوفَ قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخَوْف ومهابة معاً .

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾

تنزيلاً : مصدر أى : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد فى نزول القرآن : أنزلناه ، ونزّلناه ونزل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا .. ۝٤ ﴾ [القدر]

لأن القرآن أخذ أدواراً عدَّة فى التنزول ، فقد كان فى اللوح المحفوظ ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته فى الوجود ، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، فأنزله ـ أى الله تعالى ـ ثم تَنزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ والذى نزل به جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه]

خَصَّ السموات والأرض ، لأنها من أعظم خَلْق الله ، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان ، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله ، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعَدّ لخدمته بأرضه وسمائه ، ولا قدرة له على تسيير شىء منها ، كان عليه أن يُعمِلَ عقله ،

ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية ، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء ؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته في الأرض استبقاءَ حياته ، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق ، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة :

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظة تستغرق عِدّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذي لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن في جسمك على شكل دُهْن يُغذِّي الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أى مادة أخرى يحتاجها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحول كيماوياً إلى الحديد ، وإن احتاج الزرنيخ تتحول كيماوياً إلى زرنيخ ، وهى فى الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى ؟

وبعد أنْ أعطاك ما يستبقى حياتك من الطعام والشراب والهواء أعطاك ما يستبقى نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : ﴿ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى ④ ﴾ [طه] العلا : جمع عُليا ، كما نقول فى جمع كبرى : كُبَر ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ㉟ ﴾ [المدثر]

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالى لخليفة الله فى الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حياته ونوعه بخَلْق السموات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القرآن الذى يحرس حركاتنا من شراسة الشهوات ، فالذى أنزل القرآن هو الذى خلق الأرض والسموات العلا .

والصفة البارزة فى هذا التكوين العالى للإنسان هى صفة الرحمانية ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ ﴾

فالآية السابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحمة ، وهذه تعطينا مظهراً من مظاهر القَهْر والغَلَبة ، واستواء الرحمن - تبارك وتعالى - على العرش يُؤخَذ فى إطار

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪ ﴾ [الشورى]

وسبق أن تكلمنا فى الصفات المشتركة بين الحق سبحانه وبين

خَلْقِه ، فلكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ؛ أو أن بصره كبصرك .

كذلك في مسألة الاستواء على العرش ، فللحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس كاستوائك أنت على الكرسي مثلاً[1] .

والعرش في عُرْف العرب هو سرير المُلْك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أنْ يستتبَّ له الأمر ؟

وكذلك الخالق - جَلَّ وعلا - خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينتظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه ؛ لأنهم في حاجة إلى قيوميته تعالى في خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا عبادي ، ناموا مِلْءَ جفونكم ، لأنِّي قَيُّوم لا أنام »[2] .

فكوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها ؛ لذلك كانت المعجزات التي تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٣٤١) : « الذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشه بغير حدٍّ ولا كَيْف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة » . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/١٤٣) : « المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف : إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل » .

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (١/٣٠٩) عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا : يا موسى هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ، فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين في يديك ، فقم الليلة . ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ بما يملكه سبحانه في السموات وفي الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشيء النفيس الذي يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما في الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ، ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات في السموات والأرض ، والناظر في حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما من حَفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى في عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن في الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا في العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةً تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة في أرض الله بالتساوي ، بحيث لو أخذتَ قطاعات متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهي أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قِطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر]

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عن نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : إنني سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندي مثل السر ، بل وأخفى من السر ؛ وهو ﷺ مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع في أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس في أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقي بسرك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك في حياة كل منا أمور تضيق النفس بها . فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرُوءَةٍ يُوَاسِيكَ أَوْ يُسَلِّيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت ـ إذن ـ في حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى ﴿ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه] أي : أخفى من السر ، فإنْ كان سِرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أخْفَى من السر ، أي : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ ﴾ [الملك] أي : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. ۝١٦ ﴾ [ق] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هي الأخْفَى من السر ، فلدينا - إذن - جَهْر ، وسِرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك في علم الله ما هو أخْفَى من الأخفى ، فما هو ؟ يقول: إنه تعالى يعلم ما سيكون في النفس قبل أن يكون .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التي بعث عليها الرسل جميعاً :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هي قمة العقيدة ، وقال عنها النبي ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتَمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقِّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .

وحينما دخل أعرابي على رسول الله ﷺ وهو يتكلم مع أبي بكر -

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ... » الحديث بتمامه . قال الترمذي : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

رضى الله عنه ـ لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة أبى بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال ﷺ : « حَوْلَها ندندن يا أخا العرب »[1]

فهى الأساس والمركز الذى يدور حوله الإسلام .

وكلمة (اللهُ) علَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحىّ ، الله المحيى ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ، لكن هذه الصفات لما بلغتْ حدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العلَم ، بحيث إذا أُطلِق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .

وقد يشترك الخَلْق مع الخالق فى بعض الصفات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم .. ⑧ ﴾ [النساء]

فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. ⑰ ﴾ [العنكبوت]

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٧٤) وابن ماجه فى سننه (٣٨٤٧) وأبو داود فى سننه (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال قال النبى ﷺ لرجل : كيف تقول فى الصلاة ؟ قال . أتشهد ، ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبى ﷺ : « حولها ندندن » .

الإيجاد من عدم ، فالذي جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجودِ الله قبل أنْ توجد أنتَ ، فهو - إذن - أحسن الخالقين في حين لم يضِنّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضِنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ؛ لأنك تُوجِد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق - سبحانه وتعالى - يُوجِد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يلتقي بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذي أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب ؟! وهل يكبر الكوب الصغير ؛ أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً ؟!.

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل « أحسن » للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هي أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى ؛ لأنها بلغتْ القمة في الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التي تنطبق عليها موجودة في الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول في أسماء الله تعالى (الرازق) فهي الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه في خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦)﴾ [يونس] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هي في الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلقت على الحق ـ تبارك وتعالى ـ أصبحتْ أسماء . ولَكَ أنْ تُسمِّي فتاة زنجية (قمر) وتسمي قِزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلق علَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلي ولزم العلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلي حتى بعد أنْ أصبحتْ علَماً على الله تعالى ، فهي ـ إذن ـ أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم ـ فليس بعده نبي وليس بعد منهجه منهج ـ أراد سبحانه أنْ يُسلِّيه تسلية تُبيِّن مركزه في موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها في سبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان ؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك في الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك في

الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفي المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

لذلك اختار الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ نبياً من أُولي العزم ؛ لأنه جاء لبني إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى - عليه السلام - ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا[1] مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف]

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذي يكتفي بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شكَّ أن كلاً منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) ﴾[2]

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُراد هنا طلب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه -

---

(١) أي : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٣٤٣) : « قال أهل المعاني : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه : أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه قد أتاك . قاله ابن عباس » .

عز وجل - فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتي كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس ؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أي الخبر عنه سواء أكان بالوحي ، أو بغير الوحي ، كان حكيت له قصة موسى عليه السلام .. فهل بلغتْك هذه القصة ؟ اسمعها الآن مني :

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا[1] فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ[2] أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب .. الخ ، وإنما قصد إلى مناط الأمر ، وهي الرسالة مباشرة .

وقوله : ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه] آنست : أي أبصرت ، وشعرت بشيء يستأنس به ويُفرَح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (توجست) للشر الذي يخاف منه كما في قوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

---

(١) قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق . وقال وهب بن منبه : استأذن موسى شعيباً في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه ، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئاً إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق . قاله القرطبي في تفسيره (٦/٤٣٤٣) .

(٢) القبس : الشعلة من النار [اللسان - مادة : قبس] .

(لَعلِّى) رجاء أنْ أجدَ فيهـا القبس ، وهو شعلة النار التى تُتَّخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لَهَب ، فتأخذ منها عوداً مشتعلاً مثل الشمعة .

وفى سياق آخر قال : (جذوة)[1] وهى النار حينما ينطفىء لهيبها ويبقى منها جمرات يمكن أن تشعل منها النار . وفى موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ .. ⦗٧⦘ ﴾ [النمل]

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبعض أن يقول ، فموسى عليه السلام حينما قال ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم .. ⦗١٠⦘ ﴾ [طه] يرجو أن يجد القبس ، لكن لا يدرى حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جَذْوة ؟

وقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ القَبَس لأهله ؛ لأنهم كانوا فى ليلة مطيرة شديدة البرد ، وهم غرباء لا يعلمون شيئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه ؟

إنهم فى أمسِّ الحاجة للنار ، إما للتدفئة فى هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الطريق ، لذلك قال : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⦗١٠⦘ ﴾ [طه] أى : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفى موضع آخر قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ⦗٢٩⦘ ﴾ [القصص]

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ⦗١٠⦘ ﴾ [طه]

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⦗٢٩⦘ ﴾ [القصص] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثارَ تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم .. ١٠﴾ [طه] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ٢٩﴾ [القصص]

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بشهاب قَبَسٍ) ومرة (بجَذْوَة) ومرة يقول : ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠﴾ [طه] ومرة يقول : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ٢٩﴾ [القصص]

والمتأمل في الموقف الذي يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه في هذا المكان المنقطع وقد اكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلٌّ منهم يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : ﴿سَآتِيكُم .. ٧﴾ [النمل] فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون : لا تتركنا في هذا المكان قال : ﴿امْكُثُوا .. ١٠﴾ [طه] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك في قوله : قَبَسٍ أو جَذْوة لأنه حين قال : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم .. ١٠﴾ [طه] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفي مرة أخرى يجزم فيقول : ﴿سَآتِيكُم .. ٧﴾ [النمل]

إذن : هي لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ للمراجعة ، ولا ينتهي بكلمة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ في شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر في النور فتبهته ، ولا النورُ يطغى على خضرة الشجرة فيمتع عنها الخضرة ، فهى - إذن - مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .

فكانت هذه النار هي أول الإيناس لموسى في هذا المكان الموحش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذى رآه إعداد إلهى لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعي .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] أى : في هذه الدهشة ﴿ نُودِيَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] فالذى يناديه يعرفه تماماً ؛ لذلك ناداه باسمه ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] وما دام الأمر كذلك فطَمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو ؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التى ينبعث منها النور .

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ[1] إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) اختلف العلماء في السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين :
- لأنها نجسة ، إذ هي من جلد حمار ميتٍ . قاله كعب وعكرمة وقتادة .
- لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى . قاله على بن أبى طالب والحسن وابن جريج .
- للخشوع والتواضع عند مناجاة الله .
- إعظاماً لذلك الموضع .
لتفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل ، وكذلك هو في تعبير الرؤى : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . [تفسير القرطبى ٦/٤٣٤٥] .

فساعة أنْ كلَّمه ربه : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] أزال ما في نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمير المفرد ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] وحينما يتحدث عن فعْله يتحدث بصيغة الجمع ، كما في قوله عزّ وجل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم]

فلماذا تكلَّم عن الفعل بصيغة الجمع ، في حين يدعونا إلى توحيده وعدم الإشراك به ؟ قالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فيه من التوحيد ، كما في : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]

لكن في الفعل يتكلم بصيغة الجمع ؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .

إذن : كل صفات الحق تتكاتف في الفعل ؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون في النون في قوله : ﴿ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر] ﴿ نَرِثُ الأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] أنها : نون التعظيم .

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ.. ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] لإيناس موسى ؛ لأن الربوبية عطاء ، فخطابه (بربك) أي الذي يتولَّى رعايتك وتربيتك ، وقد خلقك من عدَم ، وأمدك من عُدم ،

ولم يقلْ : إني أنا الله ؛ لأن الألوهية مطلوبها تكليف وعبادة وتقييد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ﴿١٢﴾﴾ [طه] أي : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق ؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْق جميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كما قال تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه] وقال : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ[1] لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه]

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّي الرسل تربيةً تناسب المهمة التي سيقومون بها .

وقوله تعالى : ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. ﴿١٢﴾﴾ [طه] هذا أول أمر ، وخَلْع النعل للتواضع وإظهار المهابة ؛ ولأن المكان مُقدَّس والعلة ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾[طه] فاخلع نعليك حتى لا تفصل جسمك عن تربة هذا المكان المقدس الطاهر ، ولا تجعل نَعْليك يحولان بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك ما نراه في مدينة رسول الله من أناس يمشون بها حافيي الأقدام ، يقول أحدهم : لَعلِّي أصادف بقدمي موضع قدم رسول الله ﷺ .

وقوله: ﴿طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه] اسم الوادي[2] وهذا كلام عام جاء تحديده في موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ

---

(١) أي : علَّمتك وربيتك وأنعمت عليك لتكون صنيعة لي تخدمني وتؤدي الرسالة التي أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/٣٨٤] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى . وقال الحسن : ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين . وذكر المهدوي عن ابن عباس : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل ، إذ مرَّ به فارتفع إلى أعلى الوادي . فكأنه قال : « إنك بالواد المقدس » الذي طويته طوى ، أي تجاوزته فطويته بسيرك . [ذكره القرطبي في تفسيره ٦/٤٣٤٧] . قال ابن كثير في تفسيره (٣/١٤٤) « الأول أصح كقوله ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات] » .

الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. (٣٠) ﴾ [القصص]

والبعض يرى في الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادي المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ: أين طوى ؟ يقول لك : في الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان ؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة[1] .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : اسكن في حي كذا ، وفي شارع كذا ، في رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) ﴾

أي : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ (١٣)﴾ أي : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثُل عليا ، ولم يجدوا فيه مأخذاً في أسلوبه ، وهم أمة ألفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشِقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٨٨) : « هذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربي عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها » .

(٢) المقصود بالقريتين مكة والطائف . وقد اختلفوا في تعيين الرجل المقصود من كل قرية لينزل عليه القرآن . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة ابن مسعود الثقفي . وعن مجاهد : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة . نقله ابن كثير في تفسيره (٤/١٢٧) ، ثم قال : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » .

فكلُّ اعتراضهم أنْ ينزلَ القرآن على محمد بالذات ؛ لذلك ردَّ عليهم القرآن بما يكشف غباءهم في هذه المسألة ، فقال : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝٣٢﴾ [الزخرف] كيف ونحن قد قسمنا بينهم معيشتهم الأدنى :﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ۝٣٢﴾ [الزخرف]

وهم يريدون أنْ يقسموا رحمة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣﴾ [طه] مادة : سمع ، منها : سمع ، واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أي مصادفة وأنت تسير في الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك وما لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفْن للعين ، مثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .

إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .

إنما : استمع ، أنْ تتكلَّف السماع ، والمتكلم حُر في أنْ يتكلم أو لا يتكلم .

وتسمَّع ، أيْ : تكلَّف أشدَّ تكلُّفاً لكي يسمع .

لذلك ؛ فالنبي ﷺ حين يخبر أنه ستعُم بلوى الغناء ، وستنتشر الأجهزة التي ستشيع هذه البلوى ، وتصبها في كل الآذان رَغْماً عنها يقول : « مَنْ تسمَّع إلى قَيْنة[1] صب الآنك في أذنيه » .

---

(١) القينة : الأمة المغنية ، تكون من التزيُّن لأنها كانت تزين . قال أبو منصور : إنما قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . [لسان العرب ـ مادة : قين] .

أى : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التليفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاَّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .

وهنا قال تعالى : (فَاسْتَمِعْ) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أى : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .

فعليك أنْ تُجنِّد كل الحواسّ لكي تسمع ، وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك ؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ ﴾ [طه] الوحى عموماً : إعلام بخفاء من أيٍّ لأيٍّ فى أىٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحى الشرعى فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحى من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحى الشرعى . وهكذا تحدَّثتْ من أيٍّ لأيٍّ فى أىٍّ .

لكن ، كيف ينزل الوحى من الله تعالى على الرسول ؟ كيف تلتقى الألوهية فى عُلُوِّها بالبشرية فى دُنُوها ؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. ۝٧٥ ﴾ [الحج]

---

(١) قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له فى قلبه نوراً . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٣٤٨/٦) .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطى للمصطفى من البشر ؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقى بالأدنى مباشرة :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تُؤهِّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق - سبحانه - للجبل جعله دكاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحسّه بأىّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأىِّ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق - تبارك وتعالى - ومن خَلْقه وصَنْعته مَا لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً ؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هى ، ولا نُحسّها بأىّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطعْ أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها ؟

الحق الذى يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعانى : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً ؟ فكيف - إذن - تطمع فى أنْ تدرك الخالق عز وجل ؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقى بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطى للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطى للخَلْق ، ومع ذلك كان ﷺ يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً فى أول الوحى .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحى عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلك له ، وبانقطاع الوحى تبقى لرسول الله

حلاوة ما أوحى إليه ويتشوّق إلى الوحى من جديد ، فيهون عليه ما يلاقى فى سبيله من مشقة ؛ لأن انشغال القلب بالشيء يُنسى متاعبه .

وقد رُوى أنه ﷺ حين ينزل عليه الوحى يُسمَع حوله دَوِىٌّ كدَوِىِّ النحل[1] . ولو صادف أن رسول الله وضع رجله على أحد أصحابه حين نزول الوحى عليه فكان الصحابى يشعر كأنها جبل ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ وتئن من ثِقَله[2] .

وقد مثّلنا للواسطة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالتيار الكهربائى حين نُوصِّله بمصباح صغير لا يتحمل قوة التيار ، فيضعون له جهازاً ينظم التيار ، ويعطى للمصباح على قَدْر حاجته وإلاَّ يحترق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

فى الآية قبل السابقة خاطبه ربه : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] ليُطمئنه ويُؤنسه بأنه المربِّى المعطوف ، يعطى حتى للكافر الذى يعصاه ، لكن هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أى : صاحب التكاليف ، والمعبود المطاع فى الأمر والنهى ، وأوّل هذه

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىٌّ كدوىِّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣٤/١) ، والحاكم فى مستدركه (٣٩٢/٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت . إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكانت من ثقلها تدق عضد الناقة . أورده ابن كثير فى تفسيره لسورة المائدة (٢/٢) وعزاه للإمام أحمد .

التكاليف وقمتها ، والينبوع الذي يصدر عنه كل السلوك الإيماني :
﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]

لذلك قال عنها النبي ﷺ : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إلـه إلا هو فلا يصح أنْ نتلقَّى الأمر والنهي إلاَّ منه ، ولا نعتمد إلا عليه ، ولا يشغل قلوبنا غيره ، وهو سبحانه يريد منا أنْ نكون وكلاء : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان]

فالناصح الفطن الذي لا يتوكل على أحد غير الله ، فربما توكلْت على أحد غيره ، فأصبحت فلم تجده ، وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بِربِّكَ كُلَّ عِزِّكَ ... يَسْتَقِرُّ وَيَثْبُتُ
فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ ... فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

فكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] يقول لموسى : لا تخفْ ، فلن تتلقى أوامر من غيري ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : لذهبَ هؤلاء الذين يدَّعُون الألوهية إلى الله يجادلونه أو يتودَّدون إليه ، ولم يحدث شيء من هذا .

ويشترط فيمن يُعطي الأوامر ويُشرِّع ويُقنِّن ألاَّ ينتفع بشيء من ذلك ، وأن تكون أوامره ونواهيه لمصلحة المأمورين ، ومن هنا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتمامه : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » قال الترمذي : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

يختلف قانون الله عن قانون البشر الذي يدخله الهوى وتخالطه المصالح والأغراض ، فمثلاً إنْ كان المشرِّع والمقنِّن من العمال انحاز لهم ورفعهم فوق الرأسماليين ، وإن كان من هؤلاء رفعهم فوق العمال .

وكذلك ألاَّ يغيب عنه شيء يمكن أنْ يُستدرك فيما بعد ، وهذه الشروط لا توجد إلا في التشريع الإلهي ، فله سبحانه صفات الكمال قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال بعدها : ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] بطاعة أوامري واجتناب نواهيَّ ، فليس لي هَوًى فيما آمرك به ، إنما هي مصلحتك وسلامتك .

ومعنى العبادة : الناس يظنون أنها الصلاة والزكاة والصوم والحج ، إنما للعبادة معنى أوسع من ذلك بكثير ، فكلُّ حركة في الحياة تؤدي إلى العبادة ، فهي عبادة كما نقول في القاعدة : كُلُّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب .

فالصلاة مثلاً لا تتم إلا بستْر العورة ، وعليك أنْ تتأمل قطعة القماش هذه التي تستر بها عورتك : كم يد ساهمتْ فيها منذ كانتْ بذرة في الأرض ، إلى أنْ أصبحتْ قماشاً رقيقاً يستر عورتك ؟ فكلُّ واحد من هؤلاء كان في عبادة وهو يُؤدِّي مهمته في هذه المسألة .

كذلك رغيف العيش الذي تأكله ، صنبور المياه الذي تتوضأ منه ، كم وراءها من أياد وعمال ومصانع وعلماء وإمكانات جُنِّدَتْ لخدمتك ، لتتمكن من أداء حركتك في الحياة ؟

لذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - حينما يُحدِّثنا عن الصلاة يوم الجمعة يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ

فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسعي والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ، فمخالفة الأمر في : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر في : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع هنا ؛ لأن البائع أحرص على بَيْعه من المشترى على شرائه ، وربما كان من مصلحة المشترى ألاَّ يشترى .

فالإسلام - إذن - لا يعرف التكاسل ، ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرِّك .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه . لماذا ؟ لأنه يسهم في حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكلُّ عمل نافع عبادة شريطة أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفي نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل ، نعم ليقوتَ نفسه ، وأيضاً ليُيسِّر لإخوانه قُوتَهم وحركة حياتهم . فسائق التاكسي مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته ، وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذي يحتاج مَنْ يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ، ثم أغلق دكانه مَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك ، وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة . تعمل على قَدْر طاقتك ، لا على قَدْر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقى يُرَدُّ على الناس إما فى صورة صدقة ، وإما بثمن ، وحَسْبك أنْ يسرت له السبيل .

إذن : نقول : العبادة كل حركة تؤدى خدمة فى الكون نيتك فيها لله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] فلماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات ؟

قالوا : لأن الصلاة هى العبادة الدائمة التى لا تنحلّ عن المؤمن ، ما دام فيه نَفَس ، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير ، والصيام يسقط عن المريض ، والحج يسقط عن غير المستطيع ، أمّا الصلاة فلا عذر أبداً يبيح تركها ، فتصلى قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، فإنْ لم تستطع تصلى ، ولو إيماءً برأسك أو بجفونك ، فإنْ لم تستطع فحَسْبك أن تخطرها على قلبك ، ما دام لك وَعْى ، فهى لا تسقط عنك بحال .

كذلك ، فالصلاة عبادة مُتكرِّرة : خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لتذكرك باستمرار إنْ أنستْك مشاغل الحياة رب هذه الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم . وما بالك بآلة تُعرَض على صانعها هكذا ، أيمكن أن يحدث بها عُطْل أو عَطَب ؟

أما الزكاة فهى كل عام ، أو كل محصول ، والصوم شهر فى العام ، والحج مرة واحدة فى العمر .

لذلك ، كان النبى ﷺ كلما حَزَبه[1] أمر قام إلى الصلاة[2] ليعرض نفسه على ربه وخالقه عز وجل ، ونحن نصنع هذا فى الصنعة المادية حين تعرض الآلة على صانعها ومهندسها الذى يعرف قانون صيانتها .

وفى الحديث الشريف : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[3]

وسبق أن ذكرنا أن للصلاة أهميتها ؛ لأنها تُذكِّرك بربك كل يوم خمس مرات ، وتُذكِّرك أيضاً بنفسك ، وبقدر الله فى الآخرين حين ترى الرئيس ومرؤوسه جَنْباً إلى جَنْب فى صفوف الصلاة ، فإنْ جئتَ قبل رئيسك جلستَ فى الصف الأول ، وجلس هو خلفك ، ثم تراه وهو مُنكسر ذليل لله تعالى ، وهو يعرف أنك تراه على هذه الهيئة فيكون ذلك أدْعى لتواضعه معك وعدم تعاليه عليك بعد ذلك .

وكم رأينا من أصحاب مناصب وقيادة يبكون عند الحرم ، ويتعلقون بأستار الكعبة وعند الملتزم ، وهو العظيم الذى يعمل له الناس ألف حساب . ففى الصلاة - إذن - استطراق للعبودية لله تعالى .

لذلك من أخطر ما مُنِي به المسلمون أنْ تجعلَ فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلَى لها المكَان ، ويصاحبها الحرس حتى فى

---

(١) حزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . وفى الحديث : كان إذا حزبه أمر صلَّى ، أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . [لسان العرب - مادة : حزب] .

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال . صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى من حديث أنس بن مالك ، وتمام الحديث : « حُبب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب .. » الحديث .

بيت الله ، ثم يأتي في آخر الوقت ويجلس في الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره ، فيجد المكان خالياً .

وينبغي على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أنْ تُنحِّي سجادته جانباً ، وتجلس أنت ؛ لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفها الله في المسجد إقبالاً عليه . وهذه العادة السيئة تُوقِع صاحبها في كثير من المحظورات ، حيث يتخطى رقاب الناس ، ويُميِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدث انتقاص عبودي في بيت الله .

ولأهمية الصلاة ومكانتها بين العبادات تميَّزت في فرضها بما يناسب أهميتها ، فكُلُّ العبادات فُرِضَتْ بالوحي إلا الصلاة ، فقد استدعى الحق رسوله الصدق ليبلغه بها مباشرة لأهميتها .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالرئيس إذا أراد أنْ يُبلِّغ مرؤوسه أمراً يكتب إليه ، فإنْ كان الأمر مهماً اتصل به تليفونياً ، فإنْ كان أهمَّ استدعاه إليه ليُبلِّغه بنفسه . ولما قرَّبه الله إليه بفرض الصلاة جعل الصلاة تقرُّباً لعباده إلى الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أقام الشيء : جعله قائماً على أسس محكمة ، فإقامة الصلاة أن تؤديها مُحكَمة كاملة الأركان غير ناقصة .

﴿ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أي : لتذكرني ؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) ، وترى الناس تُهرَع إلى بيوت الله لا يشغلهم عنها شاغل تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ[1] أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

أى : مع ما سبق وَطِّنْ نفسك على أن الساعة آتية لا محالة ، والساعة هنا هى عمر الكون كله ، أمّا أعمار الممكين فى الكون فمتفاوتة ، كل حسب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته وانتهت المسألة بالنسبة له .

إذن : نقول : الساعة نوعان : ساعة لكُلٍّ منا ، وهى عمره وأجله الذى لا يعلم متى سيكون ، وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] أى : اجعل ذلك فى بالك دائماً ، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين ؛ لأن الزمن مُلْغىً بعد الموت ، كيف ؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا فى النوم ، وهل تستطيع أنْ تُحدِّد الوقت الذى نمتَه ؟ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات]

---

(١) ذكرت هنا بدون لام التوكيد ، أما فى سورة غافر ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [غافر] بإثبات لام التوكيد . لأن المخاطبين فى سورة غافر هم الكفار ، فاحتاجوا إلى تأكيد الخبر . [فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن لأبى يحيى زكريا الأنصارى - ص ٣٦٠] بتصرف .

والعبد[1] الذى أماته الله مائة عام لما بعثه قال : يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع[2] ، لأن يوماً أو بعض يوم هى أقصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام ؛ لذلك نقول : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[3] .

ومن حكمته سبحانه أن أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت ؛ لذلك أخفاها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنكون على حذر أنْ نلقى الله على حال معصية .

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقتَ سترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْتَ سترجع إلى الله فاستقِمْ وعَدِّل من سلوكك ، كما يقول أهل الريف (ارع مساوى) .

وقوله تعالى : ﴿آتِيَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [طه] أى : ليس مأتياً بها ، فهى الآتية ، مع أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى سيأتى بها ، لكن المعنى (آتية) كأنها منضبطة (أوتوماتيكيا) ، فإنْ جاء وقتها حدثتْ .

وقوله تعالى :﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴿١٥﴾﴾ [طه] كاد : أى : قَرُب مثل : كاد زيد أن يجيء أى : قَرُب لكنه لم يأتِ بعد ، فالمراد : أقرب أن

---

(١) هو عزير عليه السلام ، قال تعالى فى حقه : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] .

(٢) وفى ذلك يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿١٩﴾﴾ [الكهف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة » .

أخفيها ، فلا يعلم أحد موعدها ، فإذا ما وقعتْ فقد عرفناها . كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف]

وقد تكون ﴿أُخْفِيهَا (١٥)﴾ [طه] بمعنى آخر ، فبعض الأفعال الثلاثية تُعطي عكس معناها عند تضعيف الحرف الثاني منها ، كما في : مرض أي : أصابه المرض ، ومرَّضه الطبيب ، أي : عالجه وأزال مرضه ، وقشَرتُ الشيء أي : جعلتُ له قشرة ، وقشَّرتُ البرتقالة أزلتُ قشرها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا (٨٥)﴾ [يوسف] والحَرَض : هو الهلاك ، مِن : حَرِض مثل : تَعِب .

وقوله تعالى:﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ (٦٥)﴾[الأنفال]

ومعنى (حَرِّض) حثَّهم على القتال ، الذي يُزيل عنهم الهلاك أمام الكفار ؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا هلكوا ، فحرِض : هلك ، وحرَّض : أزال الهلاك .

وقد يأتي مضاد الفعل بزيادة الهمزة على الفعل مثل : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] فالقاسط من قسط ، أي : الجائر بالكفر .

أما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] فالمقسط من أقسط : العادل الذي يُزيل الجور . وإنْ كانت المادة واحدة هي (قسَط) فالمصدر مختلف نقول : قسط قِسْطاً أي : عدل ، وقسط قَسْطاً وقسوطاً يعني : جار . فهذه الهمزة في أقسط تسمى « همزة الإزالة » .

ومن الفعل الثلاثي قسَطَ يستعمل منها : القسط والميزان والفرق

بين قَسَط وأقسط : قسط أي : عدل من أول الأمر وبادىء ذي بَدْء ، إنما أقسط : إذا وجد ظُلْماً فرفعه وأزاله ، فزاد على العدل أنْ أزال جَوْراً .

وأيضاً الفعل (عجم) عجم الأمر : أخفاه ، وأعجمه : أزال خفاءه . ومن ذلك كلمة المعجم الذي يزيل خفاء الكلمات ويُوضّحها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥) ﴾ [طه] خفى بمعنى: استتر وأخفاها : أزال خفاءها ، ولا يُزَال خفاء الشيء إلا بإعلانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) ﴾ [طه]

وإلا لو لم يكُنْ في الآخرة حساب وجزاء لكان الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا في الوجود أكثر حظاً من المؤمنين الملتزمين بمنهج الله ؛ لذلك في نقاشنا مع الشيوعيين قُلْنا لهم : لقد قتلتم مَنْ أدركتموه من أعدائكم من الرأسماليين ، فما بال مَنْ مات ولم تدركوه ؟ وكيف يفلت منكم هؤلاء ؟

لقد كان أَوْلَى بكم أن تؤمنوا بمكان آخر لا يفلت منه هؤلاء ، وينالون فيه جزاءهم ، إنها الآخرة التي تُجزَى فيها كُلُّ نفس بما تسعى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾

كأن الحق تبارك وتعالى يعطي لموسى ـ عليه السلام ـ مناعة لما سيقوله الكافرون الذين يُشكّكون في الآخرة ويخافون منها ، وغرضهم أنْ يكون هذا كذباً فليست الآخرة في صالحهم ، ومن حظهم إنكارها .

فإياك أنْ تصغي إليهم حين يصدونك عنها ، يقولون :﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

ولماذا يستبعدها هؤلاء ؟ أليس الذي خلقهم مِنْ لا شيء بقادر على أنْ يعيدهم بعد أن صاروا عظاماً ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧) ﴾ [الروم]

وهذا قياس على قَدْر أفهامكم وما تعارفتم عليه من هيِّن وأهْوَن ، أما بالنسبة للحق ـ تبارك وتعالى ـ فليس هناك هيِّن وأهون منه ؛ لأن أمره بين الكاف والنون .

لكن لماذا يصدُّ الكفار عن الآخرة ، والإيمان بها ؟ لأنهم يعلمون أنهم سيُجازون بما عملوا ، وهذه مسألة صعبة عليهم ، ومن مصلحتهم أن تكون الآخرة كذباً .

وصدق أبو العلاء المعري حين قال :

زَعَمَ المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُمَا لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليْكُمَا
إنْ صَحَّ قَولكُمَا فلسْتُ بخَاسِر أوْ صَحَّ قَوْلى فَالخسَارُ عليْكُمَا

أى أن المؤمن بالبعث إنْ لَم يكسب فلن يخسر ، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾[طه] أى : تهلك من الردَى ، وهو الهلاك.

وهكذا جاء الكلام من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ أولاً : البداية إيماناً بالله وحده لا شريك له ، وهذه القمة الأولى ، ثم جاء بالقمة الأخيرة ، وهي البعث فالأمر ـ إذن ـ منه بداية ، وإليه نهاية : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا .. (١٤) ﴾[طه] إلى أنْ قال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ... (١٥) ﴾ [طه]

وبعد ذلك شرح لنا الحق ـ سبحانه ـ بَدْء إيحائه لرسوله موسى عليه السلام [١]:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

ما : استفهامية . والتاء بعدها إشارة لشيء مؤنث ، هو الذي يمسكه موسى في يده ، والكاف للخطاب ، كأنه قال له : ما هذا الشيء الذي معك؟ والجواب عن هذا السؤال يتم بكلمة واحدة : عَصَا .

أمّا موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرف أن الله تعالى هو الذي يسأل ، ولا يَخْفَى عليه ما في يده ، ولكنه كلام الإيناس ؛ لأن الموقف صعب عليه ، ويريد ربه أنْ يُطمئنه ويُؤنسه .

وإذا كان الإيناس من الله ، فعلى العبد أنْ يستغلّ هذه الفرصة ويُطيل أمدَ الائتناس بالله عز وجل ، ولا يقطع مجال الكلام هكذا بكلمة واحدة ؛ لذلك رد موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

قال موسى : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴿١٨﴾ ﴾[طه] ، ثم يفتح لنفسه مجالاً آخر للكلام : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴿١٨﴾ ﴾ [طه] وهنا يرى موسى أنه تمادى وزاد ، فيحاول الاختصار : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه]

(١) قال أبو يحي زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن » (ص ٣٦٠) : « إن قلت : ما فائدة سؤاله تعالى لموسى ، مع أنه أعلم بما في يده ؟ قلت : فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه أو اعترافه بكونه عصا وازدياد علمة بذلك فلا يعترضه شك إذا قلبها الله ثعباناً أنها كانت عصاً ثم انقلبت ثعباناً بقدرة الله تعالى » .

وكان موسى ينتظر سؤالاً يقول : وما هذه المآرب ؟ ليُطيل أُنْسه بربه ، وإذا كان الخطاب مع الله فلا يُنهيه إلا زاهد في الله .

وللعصا تاريخ طويل مع الإنسـان ، فهي لازمة من لوازم التأديب والرياضة ، ولازمة من لوازم الأسفار ، ولها أهميتها في الرعي .. الخ وهنا يذكر موسى ـ عليه السلام ـ بعض هذه الفوائد ـ يقول :

﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا (١٨)﴾ [طه] أي : أعتمد عليهـا ، وأستند عندما أمشي ، والإنسان يحتاج إلى الاعتمـاد على عصا عند السير وعند التعب ؛ لأنه يحتاج إلى طاقتين : طاقة للحـركة والمـشي ، وطاقة لحمـل الجسم والعصا تساعده في حَمْل ثقل جسمه ، خاصة إنْ كان مُتْعباً لا تقوَى قدماه على حَمْله .

فقوله : ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا (١٨)﴾ [طه] أي : أعتـمد عليها حـين المشي وحين أقف لمرعى الغنم فأستند عليها ، والاتكاء يراوح الإنسان بين قدميْه فيُريح القدم التي تعبتْ ، وينتقل من جنب إلى جنب .

والإنسان إذا ما استقرّ جسمه على شيء لمدة طويلة تنسدّ مسامّ الجسم في هذا المكان ، ولا تسمح بإفراز العرق ، فيُسبِّب ذلك ضرراً بالغاً نـراه في المرضى الذين يلازمـون الفراش لمدة طويلـة ، ويظهر هذا الضـــرر في صورة قـرحة يسمـــونها « قـرحة الفـراش » ؛ لذلك ينصح الأطباء هؤلاء المـرضى بأن يُغيِّروا من وضْعِـهم ، فلا ينامون على جنب واحد .

لذلك شاءت قدرة الله عز وجل أنْ يُقلِّب أهل الكهف في نومهم من جَنْب إلى جَنْب ، كـما قـال سبحـانه : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .. (١٨)﴾ [الكهف]

لذلك إذا وقف الإنسان طويلاً ، أو جلس طويلاً ولم يجد له متكأ تراه قلقاً غير مستقر ، ومن هنا كان المتُكأ من مظاهر النعمة والترف في الدنيا وفي الآخرة ، كما قال تعالى في شأن امرأة العزيز : ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١)﴾ [يوسف]

وقال عن نعيم الآخرة : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ .. (٢٠)﴾ [الطور]

وقال : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] .. (٥٤)﴾ [الرحمن]

وقال الحق تبارك وتعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[3] حِسَانٍ (٧٦)﴾ [الرحمن]

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة ، وعلى الإنسان أنْ يُغيِّر مُتكأهُ من جنب إلى جنب حتى لا يتعرَّض لما يسمى بـ « قرحة الفراش » .

ومن فوائد العصا : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨)﴾ [طه] أي : أضرب بها أوراق الشجر فتتساقط فتأكلها الغنم والماشية ؛ لأن الراعي يمشي بها في الصحراء ، فتأكل من العذْي ، وهو النبات الطبيعي الذي لم يزرعه أحد ، ولا يسقيه إلا المطر ، فإن انتهى هذا العُشْب اتجه الراعي إلى الشجر العالي فيُسقط ورقه لتأكله الغنم ، فيحتاج إلى العصا ليؤدي بها هذه المهمة .

إذن : قوله : ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا .. (١٨)﴾ [طه] لراحته هو ، و ﴿وَأَهُشُّ

---

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعي ، ويصلح شتاء لأنه مدفىء ولملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] . قال عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية [الرحمن ٥٤] : « هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ » .

(٢) الرفرف : الثياب العريضة أو الرقيقة من الحرير ، وهي هنا كناية عن النعيم أي : على فرش حريرية جميلة خضر . [القاموس القويم ١/٢٧١] .

(٣) العبقري : هو هذه البُسط التي فيها الأصباغ والنقوش [لسان العرب ـ مادة : عبقر]

بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾ [طه] لخدمة الرعية ، وفيها سياسة إدارة الرزق كلها للماشية وللناس ، ورَعْى الغنم وسياستها تدريب على سياسة الأمة بأسْرها ؛ لذلك ما بعث الله من نبى إلا ورَعَى الغنم ليتعلم من سياسة الماشية سياسة الإنسان .

وفى الحديث الشريف : « ما بعث الله من نبى إلا ورعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[1] .

ولما أحسَّ موسى ـ عليه السلام ـ أنه أطال فى خطاب ربه عز وجل أجمل فقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] أى : منافع .

وقد حاول العلماء[2] جزاهم الله عنّا خيراً البحث فى هذه المآرب الأخرى التى لم يذكرها موسى عليه السلام ، فتأملوا حال الرعاة ، وما وظيفة العصا فى حياتهم فوجدوا لها منافع أخرى غير ما ذكر .

من هذه المنافع أن الراعى البدائى يضع عصاه على كتفه ويُعلّق عليها زاده من الطعام والشراب ، وبعض الرعاة يستغل وقته أيضاً فى الصيد ، فيحتاج إلى أدوات مثل : القوس ، والنبل ، والسهام والمخلاة التى يجمع فيها صَيْده ، فتراه يضع عصاه على كتفه هكذا بالعرض ، ويُعلّق عليها هذه الأدوات من الجانبين .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٦٢) ، وابن ماجه فى سننه (٢١٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (٤/٤٤١) : « قال سويد أحد رواته : يعنى كل شاة بقيراط . يعنى القيراط الذى هو جزء من الدينار أو الدرهم » .

(٢) منهم ابن عباس الذى قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر الرِّشا وصلته بالعصا ، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها فى الأرض وألقيت عليها ما يظلنى ، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقى وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة . وأقاتل بها السباع عن الغنم . [انظر : تفسير القرطبى ٦/٤٢٦٠ ، ٤٢٦١] .

فإذا ما اشتدت حرارة الشمس ولم يجد ظلالاً غرز عصاه فى الأرض ، وألقى بثوبه عليها فجعل منها مثل الخيمة أو المظلة تقيه حرارة الجو . فإن احتاج للماء ذهب للبئر ، وربما وجده غائر الماء لا يبلغه الدلو فيحتاج للعصا يربطها ويُطيل بها الحبل ، إلى غير ذلك من المنافع .

وبعض العلماء يقولون : لقد كان موسى عليه السلام ينتظر أن يسأله ربه عن هذه المآرب ليطيل الحديث معه ، لكن الحق سبحانه لم يسأله عن ذلك ؛ لأنه سينقله إلى شىء أهم من مسألة العصا ، فما ذكرْتَه يا موسى مهمة العصا معك ، أمّا أنا فأريد أنْ أخبرك بمهمتها معى :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

ارْم بها على الأرض ، وهو هنا إلقاء الدُّرْبة والتمرين على لقاء فرعون ، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام ، فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية ، قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذه نَقْلة كبيرة فى مسألة العصا ، فقد كان فى الإمكان لإثبات المعجزة أنْ تتحوّل العصا ، وهى عود جاف من الخشب إلى شجرة خضراء ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُجرِى لموسى هذه المعجزة ؛ لأنه

سيحتاج إليها فيما بعد ، ولو تحولتْ العصا إلى شجرة خضراء فسوف تستقر في مكانها ، أما حين تتحول إلى حيَّة فهي حيوان مُتحرِّك ، تجري هنا وهناك ، وهذا ما سيحتاجه موسى في معركته القادمة .

ألقى موسى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ.. (٢٠)﴾ [طه] إذا هنا فجائية كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب . وحينما ألقى موسى العصا سرعان ما تحولت وهي جافة يابسة إلى حيَّة ، وحيَّة تسعى ليستْ جامدة ميتة ، أليست هذه مفاجأة ؟

وطبيعي أن يخاف موسى ـ عليه السلام ـ مما رآه ، فطمأنه ربه فقال :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾

أي : امسكها بيدك ، وسوف نعيدها في الحال ﴿سِيرتها الأُولَى (٢١)﴾ [طه] أي : كما كانت عصا يابسة جافة في يدك ، وقال : ﴿لا تَخَفْ .. (٢١)﴾ [طه] لما ظهر عليه من أمارات الخوف . وقد أخبر عن خوفه في آية أخرى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ (٦٧)﴾ [طه]

وكانت هذه المسألة تدريباً لموسى ـ عليه السلام ـ وتجربة ، فللعصا مهمة في رسالته ، وسوف تكون هي معجزته في صراعه مع فرعون حين يضرب بها البحر[1] وفي دعوته لبني إسرائيل حين يضرب بها الحجر فيتفجَّر منه الماء[2] .

---

(١) قال تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (٦٠)﴾ [البقرة] .

وقد عالج القرآن هذه القصة في لقطات مختلفة ، فمرة يقول عن العصا كأنها ثعبان . ومرة يقول : حيَّة . وأخرى يقول : جان ؛ لذلك اعترض البعض على هذه الاختلافات ، فأيها كانت العصا ؟

الحقيقة أنها صور مختلفة للعصا حينما انقلبتْ ، فمن ناحية قِلَّتها المسية هي حية ، ومن ناحية ضخامتها ثعبان ، ومن ناحية خِفَّة حركتها جان ، وكل هذه الخصائص كانت في العصا ، وحين تجمع كل هذه اللقطات تعطيك الصورة الكاملة للعصا بعد أنْ صارت حية . فآيات القرآن - إذن - تتكامل لترسم الصورة المرادة للحق تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) ﴾

اليد معروفة ، والجناح للطائر ، ويقابله في الإنسان الذراع بداية من العَضُد ، والحق سبحانه حينما أوصانا بالوالدين قال : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤) ﴾ [الإسراء] يعني : تواضع لهما ، ولا تتعالَ عليهما .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

والجَيْب : طَوْق القميص ، سُمِّي جَيْبًا ؛ لأنهم كانوا في الماضي يجعلون الجيب الذي يضعون به النقود أو خلافه في داخل الثوب ،

ليكون بعيداً عن يد السارق ، فإذا ما احتاج الإنسان شيئاً فى جَيْبه يُدخِل يده من طَوْق القميص ليصل إلى الجيْب فسُمِّى الطوق جيباً . وهذا من مظاهر التكامل بين الآيات .

والمعنى هنا : اضمم كف يدك اليمنى ، وأدْخله من طَوْق قميصك إلى تحت عَضُدك الأيسر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٢٢)﴾ [طه] أى : ساعة أنْ تُخرج يدك تجدها بيضاء ، لها ضوء ولمعان وبريق وشعاع .

ومعلومٌ أن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون ، كما وصفه النبى ﷺ حينما طُلِب منه أنْ يَصف الرسل الذين لقيهم فى رحلة الإسراء والمعراج ، فقال : « أما موسى ، فرجل آدم[1] طُوَال ، كأنه من رجال أزدشنوءة.... »[2] .

أى : أسمر شديد الطول ؛ لأن طُوَال يعنى : أكثر طولاً من الطويل .

ومن هنا كان بياضُ اليد ونورها فى سُمْرة لونه آيةٌ من آيات الله ، ولو كان موسى أبيض اللون ما ظهر بياضُ يده .

وقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٢٢)﴾ [طه] أى : من غير مرض ، فقد

---

(١) الأدْمة : السمرة . والآدم من الناس : الأسمر . قال ابن الأثير : الأُدْمة فى الناس : السمرة الشديدة . وقيل : هو من أدمة الأرض وهى لونها . قال : وبه سمى آدم أبو البشر . [لسان العرب ـ مادة : أدم] .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٤) ، ومسلم فى صحيحه (١٦٥) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وشنوءة : حى من اليمن ينتسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب ، ولقب شنوءة لشنآن (بُغْض) كان بينه وبين أهله . [فتح البارى ٦/٤٢٩] .

يكون البياض فى السُّمرة مرضاً - والعياذ بالله - كالبرص مثلاً . فنفى عنه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه] أى : معجزة ، لكنه لم يقُلْ شيئاً عن الآية الأولى ، فدلَّ ذلك على أن العصا كانت الآية الأولى ، واليد الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

أى : نُريك الآيات العجيبة عندنا ؛ لتكون مقدمة لك ، فحين نأمرك بشىء من هذا القبيل فاعلم أن الذى يأمرك ربٌّ لن يغشّك ، ولن يتخلى عنك ، وسوف يُؤيدك وينصرك ، فلا ترتعْ ولا تخف أو تتراجع .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُعِدُّ نبيه موسى للقاء مرتقب مع عدوه فرعون الذى ادعى الألوهية .

ثم بعد هذه الشحنة والتجربة العملية يقول له :

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

فلماذا أرسله إلى فرعون أولاً ، ولم يرسله إلى قومه ؟ قالوا : لأن فرعون فعل فعلاً فظيعاً ، حيث ادعى الألوهية ، وهى القمة فى الاعتداء ، ثم استعبد بنى إسرائيل ، فلا بُدَّ أن نُصفِّى الموقف أولاً مع فرعون .

لذلك حدثت معجزة العصا في ثلاثة مواقف :

الأول : وكان لِدُرْبة موسى ورياضته على هذه العملية ، وكانت هذه المرة بين موسى وربه - عز وجل - تدريباً ، حتى إذا أتى وقت مزاولتها أمام فرعون لم يتهيَّب منها أو يتراجع ، بل باشرها بقلب ثابت واثق .

والثاني : كان مع فرعون بمفرده ترويعاً له .

والثالث : مع السَّحَرة تجميعاً .

فكُلُّ موقف من هذه المواقف كان لحكمة وله دور ، وليس في المسألة تكرار كما يدَّعي البعض .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه] الطغيان : مجاوزة الحدِّ ، ومجاوزة الحدِّ يكون بأخْذ ما ليس لك والمبالغة في ذلك ، وليْتَه أخذ من المساوي له من العباد ، إنما أخذ ما ليس له من صفات الله عز وجل .

ولما سمع موسى اسم فرعون ، تذكَّر ما كان من أمره في مصر ، وأنه تربَّى في بيت هذا الفرعون الذي ادَّعى الألوهية ، فكيف سيواجهه .

كما تذكَّر قصة الرجل الذي وكَزه فقتله[1] ، ثم خرج منها خائفاً يترقب ، فلما شعر موسى أن العبء ثقيل قال :

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾﴾ [القصص] .

كأنه قال : يا رب أنا سأنفِّذ أوامرك ؛ لكني لا أريد أنْ أُقبل على هذه المهمة وأنا منقبض الصدر من ناحيتها ؛ لأن انقباضَ الصدر من الشيء يُهدِر الطاقة ويُبدِّدها ، ويعين الأحداث على النفس .

لذلك دعا موسى بهذا الدعاء : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥)﴾ [طه] ليوفر قوته لأداء هذه المهمة الصعبة التي تحتاج إلى مجهود يناسبها ، ومعنى ذلك أنه انقبض صدره من لقاء فرعون للأسباب التي ذُكرت .

ثم قال :

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)﴾

لأن شَرْح الصدر في هذه المسألة لا يكفي ، فشَرْح الصدر من جهة الفاعل ، وقد يجد من القابل لَدَداً شديداً وعناداً ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)﴾ [طه] فلا أجد لَدَداً وطغياناً من فرعون ، فتيسير الأمر من جهة القابل للفعل بعد شرح الصدر عند الفاعل .

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧)﴾

لأن الكلام وتبليغ الرسالة يحتاج إلى منطق ولسان مُنطلق بالكلام ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ لديه رُتَّة[1] أو حُبْسَة في لسانه ، فلا ينطلق في الكلام .

---

(١) الرُّتة : بالضم : عجلة في الكلام وقلة أناة ، وقيل : هو أن يقلب اللام ياء . والأرتُّ : الذي في لسانه عُقْدة وحُبْسة ، ويعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه . [لسان العرب ـ مادة : رتت] .

وكانت هذه الرُّتَّة أيضاً فى لسان الحسين بن على - رضى الله عنهما - وكان النبى ﷺ إذا سمع الحسين يضحك ويقول : « ورثها عن عمه موسى » .

وتلحظ دقَّة التعبير فى قوله : ﴿مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه] ولم يقل : احلل عقدة لسانى . فقد يُفهم منها أنه مُتمرِّد على قَدَر الله من حُبسة لسانه ، إنما هو لا يعترض ويطلب مجرد جزء من لسانه ، يمكِّنه من القيام بمهمته فى التبليغ .

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾

هذه هى العلَّة فى طلبه ، ولولاها ما طلب انطلاقة اللسان . والفقه هو أن يفهموا الكلام والحديث عنه .

ويواصل موسى - عليه السلام - ما يراه مُعيناً له على أداء مهمته :

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾

وزيراً : أى معيناً وظهيراً . والحق - سبحانه وتعالى - لما أراد أنْ يُخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة]

أى : لا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله ، فالوزير من (وَزَر) ، ويطلب الوزير حين لا يستطيع صاحب الأمر القيام به بمفرده ، فيحتاج إلى مَنْ يعينه على أمره ، وهو وزير إنْ كان ناصحاً أميناً يُعين صاحبه بصدْق ، فإنْ كان غاشّاً لئيماً يعمل لصالح نفسه ، فليس بوزير ، بل هو (وِزْر) ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٨﴾﴾ [فاطر]

وفي الحديث النبوي الشريف : « خَيْرُ الملوك ملك جعل الله له وزيراً ، إنْ نسي ذكَّره ، وإنْ نوى على خير ـ مجرد نيَّة ـ أعانه ، وإن أراد شراً كفَّه ... »[1] .

تلك علامات الوزير الناصح للرعية كما بيَّنتها سياسة السماء ؛ لأن لكل حاكم بطانتين : واحدة تأمر بالمعروف ، وأخرى تأمر بالمنكر كما جاء في الحديث الشريف .[2] .

فإنْ كانت هذه هي سياسة السماء ، فماذا عن سياسة البشر ؟

يقول أنو شروان إياكم أنْ تفهموا أن أحداً منَّا يستغني عن أحد ، فلكُلٍّ واحد مهمته ، فإنْ زدت في شيء فقد نقصْت في أشياء ، جعلها الله في غيرك ليكمل بها نقصك ، فالمعايشة مشتركة ، لكن هذه المشاركة تفرضها الضرورة لا التفضّل ، وإلاَّ لو لم يتفضّل عليك غيرك فماذا تفعل ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لحاجة الناس بعضهم لبعض ، قلنا : ماذا يحدث لو امتنع رجال الصرف الصحي أو الكناسون عن العمل لعدة أيام ؟ أما لو غاب الوزراء لعدة أيام فلن يحدث شيء .

إذن . لا تظن أنك أفضل من الآخرين ؛ لأن لكل منهم مهمة يؤديها ، فإنْ كنتَ خيراً منه في هذه فهو خير منك في هذه ؛ لأن مجموع مواهب كل إنسان يساوي مجموع مواهب الآخر ، فإنْ قلتَ : فلماذا وُجِد التفاوت بين الناس ؟

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه » أخرجه النسائي في سننه (١٥٩/٧) .

(٢) لفظ الحديث : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصمه الله » أخرجه البخاري في صحيحه (٧١٩٨) ، وكذا أحمد في مسنده (٣٩/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

قالوا : لتكون هناك ضرورة فى حاجة بعضنا لبعض ، فلو تساوى الجميع لقلنا لجماعة منا : تفضلوا بكنس الشوارع يوم كذا فلن يتفضلوا ، أما إنْ ألجأتهم الحاجة إلى مثل هذا العمل فسوف يسارعون إليه ، كما ترى الآن فى أشقّ المهن وأصعب المهام التى ينفر منها الناس بل ويحتقرونها ترى صاحبها مُقبلاً عليها حريصاً على القيام بها ، رغم ما فيها من مشقة ، بل ويغضب إنْ لم يجد فرصة العمل ، لماذا ؟ لأنه مصدر قُوته وقُوت عياله .

وبهذه النظرة لا يتعالى أحد أو يستكبر ليحدث فى المجتمع توازن استطراقى .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ ﴾ [طه] أى : ليكون مأموناً علىَّ .

وهذا المطلب من موسى ـ عليه السلام ـ يشير لأدب عال من آداب النبوة ، وقد اختار الله موسى للرسالة ، فلماذا يشرك معه أخاه فى هذه المهمة ؟ إذن : موسى لا يريد أنْ يفخر بالرسالة ، أو يتعالى بها ، أو يطغى ، إنما يريد أن يقوم بها على أكمل وجه ؛ لذلك يحاول أنْ يُكمل ما فيه من نقص بأخيه ليُعينه على تبليغ رسالته ، ولو أراد الاستئثار بالرسالة ما طلب هذا الطلب .

وهذا نموذج يجب أنْ يُحتذَى ، فإنْ كُلِّفت بأمر فوق طاقتك فلا غبارَ عليك أن تستعين عليه بغيرك ، فهذا دليل على إخلاصك للمهمة التى كُلِّفت بها .

﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴾

فاختار أخاه هارون ليعينه فى مهمة الرسالة .

ثم أوضح العلة فى ذلك ، فقال فى آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

وهكذا يتكامل موسى وهارون ويُعوِّض كل منهم النقص في أخيه . ويُقال : إن هارون ـ عليه السلام ـ كان يمتاز على موسى في أمور أخرى ، فكان به لينٌ وحلْم ، وكان موسى حاداً سريع الغضب ، فكان هارون للّين ، وموسى للشدة .

ويتضح هذا حينما عاد موسى إلى قومه ، وقد تركهم في صُحْبة أخيه هارون فعبدوا العجل فاشتد غضبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف]

ثم احتدّ على أخيه ، وجذبه من ذَقْنه ، وظهرتْ حدَّته ، وقَسْوته ، فماذا قال هارون ؟ ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] ليستعطفه ويُذكّره برأفة الأم وحنانها ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي .. (٩٤) ﴾ [طه] ، كأنه يقول لأخيه : اضربني كما تريد ، لكن لا تروعني في لحيتي ، وفي رأسي .

إذن : فالفصاحة في هارون تجبر العُقْدة في لسان موسى ، واللين يجبر الشدة والحدة . وأيضاً فإن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى[1] الأنف ، أما هارون فكان أبيض اللون ، مُرْسَل الشعر ، وسيم التقاطيع والملامح ، ترتاح له الأبصار ، فمَنْ لم يرتَحْ لموسى ارتاح لهارون .

ولقد كان النبي ﷺ يحب أن ينزل الوحي عليه في صورة دحْية[2] الكلبي ، وكان ـ رضي الله عنه ـ وسيماً ، ترتاح العين لرؤيته ، فكان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل عليه في هذه الصورة ليُؤنسه .

---

(١) قَنِي الأنف قنَا : ارتفع وسط قصبة الأنف وضاق منخراه ، فهو أقنى ، وهي قنواء . [المعجم الوجيز ـ مادة : قنا] .

(٢) صحابي مشهور ، أول مشاهده الخندق وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبريل ينزل على صورته وشهد اليرموك ، وقد نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية . [الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٢/١٦٢] .

وموسى - عليه السلام - مع ما تميَّز به أخوه هارون عليه من هذه الصفات لم يحقد على أخيه ، ولم ينظر إليه على أنه أفضل منه ، إنما جعل صفات أخيه مكملة لصفاته ، والجميع من أجل أداء الرسالة وتبليغها على وجهها الأكمل ، فلم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو ، وإنما إلى نجاح المهمة التى كلَّفه الله بها .

ويجب أنْ يشيعَ هذا الخُلق بين الناس ، فإنْ رأيت خَصْلةَ خَيْر فى غيرك ، أو وجهاً من وجوه الكمال فى غيرك ، فاحمد الله عليها ، واعلم أنها سيعود عليك نفعها ، وستجبر ما عندك من نقص فلا تحقد عليه ؛ لأنه سيتحمل ما فيك من قصور ، وتنتفع أنت بخيره .

ثم يقول الحق سبحانه أن موسى - عليه السلام - قال :

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾

الأزْر : القوة . وكان موسى - عليه السلام - عرف أن حَمْل الرسالة إلى فرعون وإلى قومه من بعده عملية شاقة ، فقال لله : اعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله : (وَأَشْرِكْهُ) أى : أنت يا ربّ ، ليس أنا الذى أشركه تفضُّلاً منى عليه ، فأراد موسى - عليه السلام - أن يكون الفضل من الله ، وأن يكون التكليف أيضاً من الله حتى لا يعترض هارون أو يتضجر عند مباشرة أمر الدعوة .

لذلك لما ذهبا إلى فرعون قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] ولم يقُلْ موسى : إن هارون تابع له بل هو مثله تماماً مُرْسَل من الله ، وإذا تكلَّم موسى تكلَّم عنه وعن هارون .

فلما دعا موسى على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

جاءت الإجابة من الله : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس] ؛ لأن الدعاء كان من موسى ، وهارون يُؤمِّن عليه ، والمؤمِّن أحد الداعيَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه عن هارون وموسى أنهما قالا :

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) ﴾

فهذه هي العلّة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته ، لا طلباً لراحة نفسه ، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله ، وتسبيحه وذكْره .

والتسبيح : تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً . فلا ذات مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] لا في الذات ، ولا في الصفات ولا في الأفعال ، فلا تقل : إن سَمْع الله كسَمْعك ، أو أن بصره تعالى كبصرك ، أو أن فِعْله كفعْلك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يرفعك إلى مستوى الألوهية الثابتة لك ، فلا نزيد شيئاً من عندنا .

وقوله : ﴿ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) ﴾ [طه] أي : دائماً ، فكأن التسبيح يُورِث المسبِّح لذة في نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذة في نفسه ، كما قال النبي ﷺ : « ... وجُعلتْ قرّة عيني في الصلاة »[2] .

---

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . ومعنى الآية : أي : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائي في سننه (٧/٦١) والحاكم في مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي من حديث أنس بن مالك . وتمام الحديث : « حبب إليّ من الدنيا . النساء والطيب ... » الحديث

وكان ﷺ « إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة »[1] .

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

فأنت قيُّوم علينا ، مُطلع على أفعالنا ، أنؤدّيها على الوجه الأكمل ، أم نُقصِّر فيها ؟

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

سُؤْل : أي : الشيء المسئول مثل (خُبز) أي : مخبوز ، فالمراد : أعطيناك ما سألتَ ، بل وأعطيناك قبل أن تسأل ، بل وقبل أن تعرف كيف تسأل :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

(منَنّا) من المنة ، وهي العطاء بلا مقابل على خلاف الجزاء ، وهو العطاء مقابل عمل ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه] إذن . هناك مرة أولى ، لكن المراد بالمنّة هنا ما حدث من الوحي إلى أم موسى وهو صغير ، فهي في الحقيقة المنّة الأولى إنما قال هنا ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه] هذا ترتيب ذكرى حَسْب ذِكْر الأحداث .

فمتى كانت هذه المنّة ؟

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾

إذ : يعني وقت أنْ أوحينا إلى أمك ما يُوحَى ، فكانت هذه هي المنة الأولى عليك حين وُلدت في عام ، يقتل فيه فرعون الذكور ، فمنَنّا عليك لما قلنا لأمك : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي

---

(١) عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

ومعنى ﴿مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [طه] أى : أمراً عظيماً لك أن تقدره أنت فتذهب فيها نفسك كل مذهب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه] ويُفصِّل الحق سبحانه هذا الوحى لأم موسى ، فيقول تعالى :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ[2] عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾

هذا ما أوحينا به إلى أم موسى .

واليمُّ : البحر الكبير ، سواء أكان مالحاً أم عَذْباً ، فلما تكلّم الحق سبحانه عن فرعون قال : ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف] والمراد : البحر الأحمر ، أما موسى فقد وُلِد فى مصر وأُلْقِى تابوته فى النيل ، وكان على النيل قصر فرعون .

وبالله .. أى أم هذه التى تُصدِّق هذا الكلام : إنْ خفْتِ على ولدك فألقيه فى اليم ؟ وكيف يمكن لها أن تنقذه من هلاك مظنون وترمى به فى هلاك مُتيقّن ؟

---

(١) التابوت : الصندوق الذى يُحرز فيه المتاع . [لسان العرب - مادة : تبت] قال القرطبى فى تفسيره (٤٣٦٨/٦) : « قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع التابوت ونجره ، وكان اسمه حزقيل ، وكان التابوت من جُمّيز » .

(٢) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، وقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه] . أى : تُربّى محروساً بعنايتى ، وقوله تعالى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه] . أى : علمتك وربيتك وأنعمت عليك لتكون صنيعة لى تخدمنى وتؤدى الرسالة التى أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ٣٨٤/١] .

ومع ذلك لم تتردد أم موسى لحظة فى تنفيذ أمر الله ، ولم تتراجع ، وهذا هو الفرق بين وارد الرحمن ووارد الشيطان ، وارد الرحمن لا تجد النفس له رداً ، بل تتلقاه على أنه قضية مُسلَّمة ، فوارد الشيطان لا يجرؤ أن يزاحم وارد الرحمن ، فأخذتْ الأم الوليد وألْقَتْه كما أوحى إليها ربها .

وتلحظ فى هذه الآيات أن آية القصص لم تذكر شيئاً عن مسألة التابوت : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] هكذا مباشرة .

قالوا : لأن الحق سبحانه تكلم عن الغاية التى تخيف ، وهى الرَّمْى فى اليم ، وطبيعى فى حنان الأم أنْ تحتال لولدها وتعمل على نجاته ، فتصنع له مثل هذا التابوت ، وتُعِدّه إعداداً مناسباً للطفْو على صفحة الماء .

فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة ، وفَرْق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة والخطاب حين الحادثة ، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة ، فصنعتْ له صندوقاً جعلت فيه مَهْداً ليِّناً واحتاطتْ للأمر ، ثم يطمئنها الحق سبحانه على ولدها : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] فسوف نُنجيه ؛ لأن له مهمة عندى ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر فى عبارات سريعة متلاحقة : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

لذلك ، تجد السياق فى الآية الأولى هادئاً رتيباً يناسب مرحلة الإعداد ، أما فى التنفيذ فقد جاء السياق سريعاً متلاحقاً يناسب سرعة التنفيذ ، فكأن الحق سبحانه أوحى إليها : أسرعى إلى الأمر

الذي سبق أنْ أوحيتُه إليك ، هذا الكلام في الحبْكة الأخيرة لهذه المسألة .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] أي : تحمله الأمواج وتسير به ، وكأن لديها أوامر أن تُدخله في المجرى الموصّل لقصر فرعون .

فعندنا - إذن - لموسى ثلاثة إلقاءات : إلقاء الرحمة والحنان في التابوت ، وإلقاء التابوت في اليم تنفيذاً لأمر الله ، وإلقاء اليَمّ للتابوت عند قصر فرعون .

وقوله تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه] (عَدُو لي) أي : لله تعالى ؛ لأن فرعون ادعى الألوهية ، (وَعَدُوٌّ لَّهُ) أي : لموسى ؛ لأنه سيقف في وجهه ويُوقفه عند حدِّه .

وفي الآية إشارة إلى إنفاذ إرادته سبحانه ، فإذا أراد شيئاً قضاه ، ولو حتى على يد أعدائه وهم غافلون ، فمَنْ يتصور أو يصدق أن فرعون في جبروته وعُتوه وتقتيله للذكور من أولاد بني إسرائيل هو الذي يضم إليه موسى ويرعاه في بيته ، بل ويُحبه ويجد له قبولاً في نفسه .

وهل التقطه فرعون بداية ليكون له عَدواً ؟ أم التقطه ليكون ابناً ؟ كما قالت زوجته آسية : ﴿قُرَّتُ[1] عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [القصص]

إذن : كانت محبة ، إلا أنها آلتْ إلى العداوة فيما بعد ، آلتْ إلى

---

(١) أي : مبعث سرور لي ولك . [القاموس القويم ٢/١١٢] . وقيل : أقر الله عينك أي : بلّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب - مادة : قرر] .

أن يكون موسى هو العدو الذى ستربيه بنفسك وتحافظ عليه ليكون تقويضُ ملكك على يديه ؛ لذلك سيقول فرعون : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء]

ومسألة العداوة هذه استغلها المشككون فى القرآن واتهموه بالتكرار فى قوله تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. ٣٩﴾ [طه] ثم قال فى آية أخرى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ٨﴾ [القصص]

والمتأمل فى الآيتين يجد أن العداوة فى الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى ، أما العداوة فى الآية الثانية فمن جانب موسى لفرعون ، وهكذا تكون العداوة متبادلة ، وهذا يضمن شراستها واستمرارها ، وهذا مُرَاد فى هذه القصة .

أمَّا إنْ كانت العداوة من جانب واحد ، فلربما تسامح غير العدو وخَجِل العدو فتكون المصالحة . والعداوة بين موسى وفرعون ينبغى أن تكونَ شرسة ؛ لأنها عداوة فى قضية القِمَّة ، وهى التوحيد .

ولكن ، لماذا لم يُلفِت مجيء موسى على هذه الحالة انتباه فرعون فيسأل عن حكايته ويبحث فى أمره ؟ إنها إرادة الله التى لا يُعجزها شيء ، فتحبه زوجة فرعون ، وتقول : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ٩﴾ [القصص] ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعدها : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. ٣٩﴾ [طه]

فأحبته آسية امرأة فرعون لما رأته ، وأحبَّه فرعون لما رآه ، وهذه محبة من الله بلا سبب للمحبة ؛ لأن المحبة لها أسباب بين الناس ، فتحب شخصاً لأنك تودُّه ، أو لأنه قريب لك أو صديق ، أو

أسدى لله معروفاً ، وقد يكون الحب من الله دون سبب من هذه الأسباب ، فلا سببَ له إلاّ إرادة الله .

فمعنى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي.. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] وليس فيك ما يُوجب المحبة ، وليس لديك أسبابها ، خاصة وقد كان موسى عليه السلام أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أكتف[1] ، وكأن هذه الخِلْقة جاءت تمهيداً لهذه المحبة ، وإثباتاً لإرادة الله التى طوَّعَتْ فرعون لمحبة موسى ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[2] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]

وهكذا ، حوَّل الله قلب فرعون ، وأدخل فيه محبة موسى ليُمرِّر هذه المسألة على هذا المغفل الكبير ، فجعله يأخذ عدوه ويُربِّيه فى بيته ، ولم يكن فى موسى الوسامة والجمال الذى يجذب إليه القلوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه] أى : تُربَّى على عَيْن الله وفى رعايته ، وإنْ كان الواقع أنه يُربَّى فى بيت فرعون ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يرعاه ، فإنْ تعرَّض لشىء فى التربية تدخَّل ربُّه عز وجل ليعلمه ويُربِّيه .

ومن هذه المواقف أن فرعون كان يجلس وزوجته آسية ، ومعهما موسى صغير يلعب ، فإذا به يمسك بلحية فرعون ويجذبها بشدة أغاظته ، فأمر بقتله ، فتدخَّلت امرأته قائلة : إنه ما يزال صغيراً لا يفقه شيئاً ، إنه لا يعرف التمرة من الجمرة .

---

(١) الكتَف : عيب يكون فى الكتف ، وهو انفراج فى أعالى كتف الإنسان والأكتف هو الذى انضمت كتفاه على وسط كاهله خلقة قبيحة . [لسان العرب ـ مادة : كتف] .

(٢) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان . رواه الحاكم فى مستدركه موقوفاً ، وقال : صحيح ولم يخرجاه . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٩٨) : « وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية وغيرهم » .

فأتوا له بتمرة وجمرة ليمتحنوه ، فأزاح الله يده عن التمرة إلى الجمرة ليُفوِّت المسألة على هذا المغفل الكبير ، بل وأكثر من هذا ، فأخذها موسى رغم حرارتها حتى وضعها في فمه ، فلدغتْ لسانه ، وسبَّبت له هذه العُقْدة في لسانه التي اشتكى منها فيما بعد .

وكان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئن نبيه موسى ـ عليه السلام ـ : لا تخف ، فأنت تحت عيني وفي رعايتي ، وإنْ فعلوا بك شيئاً سأتدخل ، وفي آية أخرى قال : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه] فأنا أرعاك وأحافظ عليك ؛ لأن لك مهمة عندي .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

إذن : كان لأخت موسى دور في قصته ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[1] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص]

والمراد : تتبعيه بعد أنْ علمت نجاته من اليمّ ، فتتبعته ، وعرفتْ أنه في بيت فرعون ، ثم حرَّم الله عليه المراضع ، فكان يعافُ المرضعات ، وهنا تدخلت أخته لتقول : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن

(١) القصُّ : اتباع الأثر . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٨١) : « أي : اتبعي أثره وخذي خبره وتطلبي شأنه من نواحي البلد » .

يكفله.. ﴿٤٠﴾ [طه] وهذا الترتيب لا يقدر عليه إلا الله .

ويقول تعالى : ﴿فرجعناك إلىٰ أمك.. ﴿٤٠﴾﴾ [طه] حين نستقرىء مادة (رجع) في القرآن تجدها تأتي مرة لازمة كما في : ﴿ولما رجع موسىٰ إلىٰ قومه .. ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف]

وتأتي متعدية كما في : ﴿فرجعناك إلىٰ أمك.. ﴿٤٠﴾﴾ [طه] وفي : ﴿فإن رجعك الله إلىٰ طائفة منهم .. ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة]

والفرق بين اللازم والمتعدي أن اللازم رجع بذاته ، أما المتعدي فقد أرجعه غيره ، فالرجوع أن تصير إلى حال كنتَ عليها وتركتها ، فإنْ رجعت بنفسك دون دوافع حملتْك على الرجوع فالفعل لازم ، فإنْ كانت هناك أمور دفعتْك للرجوع فالفعل متعدٍّ .

ومثل رجعك : أرجعك ، إلا أن رجعك : الرجوع - في ظاهر الأمر منك من دون دوافع منك . وأرجعك : أي رغْماً عن إرادتك .

وقوله ﴿كي تقرَّ عينُها.. ﴿٤٠﴾﴾ [طه] تقرُّ العين أي : تثبت : لأن التطلعات إما أن تكون معنوية أو حسِّية ، فالإنسان لديه أمانٍ يتطلع إلى تحقيقها ، فإذا ما تحققت نقول : لم يعُدْ يتطلع إلى شيء .

وكذلك في الشيء الحسيِّ ، فالعرب يقولون للشيء الجميل : قيد النواظر . أي : يقيد العين فلا تتحول عنه ؛ لأن الإنسان لا يتحول عن الجميل إلا إذا رأى ما هو أجمل ، وهذا ما يسمونه قُرَّة العين . يعني الشيء الحسن الذي تستقر عنده العين ، ولا تطلب عليه مزيداً في الحُسْن .

ثم يقول تعالى : ﴿وقتلت نفْساً فنجيناك من الْغمِّ وفتناك فُتُونا.. ﴿٤٠﴾﴾ [طه] وهذه منَّة أخرى من منن الله تعالى على موسى عليه السلام ، فمننُ الله عليه كثيرة كما قال : ﴿ولقدْ مننَّا عليْك مرَّة أخْرىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه] فهي مرة ، لكن هناك مرات .

ومسألة القتل هذه وردتْ في قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ[1] غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ..(١٥)﴾ [القصص]

وخرج من المدينة[2] خائفاً يترقب الناس لئلا يلحقوا به فيقتلوه ، وهذا معنى ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ .. (٤٠)﴾ [طه] أي : من القتل ، أو من الإمساك بك ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا .. (٤٠)﴾ [طه] أي : عرّضناك لمحن كثيرة ، ثم نجيناك منها ، أولها : أنك وُلدْت في عام يُقتل فيه الأطفال ، ثم رمتْكَ أمك في اليم ، ثم ما حدث منه مع فرعون لما جذبه من ذقنه .

ثم يقول تعالى : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ[3] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾ [طه] ذكر الله تعالى مدة مُكْثه في أهل مدين على أنها من منته على موسى مع أنه كان فيها أجيراً ، وقال عن نفسه : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أن فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له : إن فرعون قد ركب ، فركب في أثره فأدركه المقيل (وقت الظهيرة) بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد تغلقت أسواقها ، وليس في طرقها أحد ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥)﴾ [القصص] . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٣٩٧/٦] .

(٢) هي مدينة منف ، وهي تقع الآن على مسافة ٢٨ كم جنوب القاهرة قرب ميت رهينة بالبدرشين بالجيزة وبها أهرامات سقارة ، وكانت منف المدينة الأولى في مصر حتى بنيت مدينة الإسكندرية ، وكانت منف حصناً قوياً ، وكانت تصنع بها أسلحة القتال وتُبنى فيها سفن الأسطول . [معجم الحضارة المصرية القديمة - تأليف جورج بوزنر وآخرون - ترجمة أمين سلامة - الهيئة المصرية العامة للكتاب]

(٣) قال قتادة : مكث عشر سنين . أورده السيوطي في الدر المنثور (٥٧٩/٥) وعزاه لعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم . وقال وهب : لبث عند شعيب ثماني وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته صفورا ابنة شعيب وثماني عشرة أقامها عنده حتى وُلد له عنده

وفى مدين تعرَّف على شعيب عليه السلام ، وتزوج من ابنته وأنجب منها ولداً ، وموسى فى هذا كله غريب عن وطنه ، بعيد عن أمه ، فلما أراد الله له الرسالة شوَّقه إلى وطنه ورؤية أمه ، وقدَّر له العودة ؛ فقال تعالى : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ[1] يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه]

أى : على قَدَر من اصطفائك ، فقَدَر الله هو الذى حرَّك فى قلبك الشوق للعودة ، وحملك على أنْ تمشى فى الطريق غير المأهول ، وتتحمل مشقة البرد وعناء السفر ، قَدَر الله هو الذى حرَّك فيك خاطر الشوق لأمك ، ففى طريق العودة وفى طُوىً أنت على موعد مع الاصطفاء والرسالة .

لذلك ، فإن الشاعر الذى مدح الخليفة قال له :

جاء الخِلاَفَةَ أوْ كانتْ لَهُ قَدَراً كَما أتَى ربَّه مُوسَى علَى قَدَرِ

ثم يقول الحق سبحانه لموسى :

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾

أى : نجَّيْتك وحافظت عليك ؛ لأننى أُعدُّك لمهمة عندى ، هى إرسالك رسولاً بمنهجى إلى فرعون وإلى قومك .

وقد حاول العلماء إحصاء المطالب التى طلبها موسى عليه السلام من ربه فوجدوها ثمانية : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه]

---

(١) قال مجاهد : أى على موعد . وقال قتادة : على قدر الرسالة والنبوة أوردهما ابن كثير فى تفسيره (١٥٢/٣)

ثم وجدوا أن الله تعالى أعطاه ثمانية أخرى دون سؤال منه : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه]

فإنْ كان موسى عليه السلام قد طلب من ربه ثمانية مطالب فقد أعطاه ربه عز وجل ثمانية أخرى دون أن يسألها موسى ؛ ليجمع له بين العطاء بالسؤال ، والعطاء تكرُّماً من غير سؤال ؛ لأنك إنْ سألت الله فأعطاك دلَّ ذلك على قدرته تعالى في إجابة طلبك ، لكن إنْ أعطاك بدون سؤال منك دلَّ ذلك على محبته لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي[1] ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ بِآيَاتِي.. ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه] الآيات هنا هي المعجزات الباهرات التي تبهر فرعون ، فلن تذهبا مُجرَّديْن ، بل معكما دليل على صدْق الرسالة التي تحملونها إليه : ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه] من التَّواني أي : الفتور أو التقصير ؛ لأنني أعددتكما الإعداد المناسب لهذه المهمة الشاقة ، فإياكم والتهاون فيها ، فإنْ حدث منكما تقصير فهو تقصير في الأداء ، لا في الإعداد .

ومعنى : ﴿ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه] أي : لأكُنْ دائماً على بالكما ،

(١) في قراءة ابن مسعود « ولا تهنا في ذكري » وتحميدي وتمجيدي وتبليغ رسالتي . [القرطبي في تفسيره ٤٣٧١/٦] .

فأنا الذي أرسلتُ ، وأنا الذي أيدتُ بالمعجزات ، وأنا الذي أرعاكما وأرقبكما ، وأنا الذي سأجازيكما فلا يَغِبْ ذلك عنكما .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

وهل هناك طغيان فوق ادعاء أنه رَبٌّ ؟ وقد قال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس] والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود ، وهو قد تجاوز في إسرافه وادَّعى الألوهية ، فعَلاَ في الأرض علوٌّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذا لفرعون بعد أنْ طغى ، ومن الذي حكم عليه بالطغيان ؟ حين تحكم أنت عليه بالطغيان فهو طغيان يناسب قدرات وإمكانات البشر ، أمّا أن يقول عنه الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنه تجاوز كل الحدود ، وبلغ قمة الطغيان ، فربُّنا هو الذي يقول .

فقوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ تعطيه فُسْحة كي يرى حُجَجك وآياتك ، ولا تبادره بعنف وغِلْظة ، وقالوا : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، ولا تجمع على المنصوح شدتين : أنْ تُخرجه مما ألف بما يكره ، بل تُخرجه مما ألِف بما يحب .

وهذا منهج في الدعوة واضح وثابت ، كما في قوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لأنك تخلعه مما اعتاد وألف ، وتُخرجه عَمَّا أحبَّ من حرية واستهتار فى الشهوات والملذات ، ثم تُقيِّده بالمنهج ، فليكُنْ ذلك برفق ولُطْف .

وهذه سياسة يستخدمها البشر الآن فى مجال الدواء ، فبعد أن كان الدواء مُرّاً يعافُه المرضى ، توصلوا الآن إلى برشمة الدواء المر وتغليفه بطبقة حلوة المذاق حتى تتم عملية البَلْع ، ويتجاوز الدواء منطقة المذاق .

وكذلك الحال فى مرارة الحق والنصيحة ، عليك أنْ تُغلِّفها بالقول اللين اللطيف .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه] لعل : رجاء ، فكيف يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه] وفى علْمه تعالى أنه لن يتذكَّر ولن يخشى ، وسيموت كافراً غريقاً ؟

قالوا : لأن الحق سبحانه يريد لموسى أن يدخل على فرعون دخول الواثق من أنه سيهتدى ، لا دخولَ اليائس من هدايته ، لتكون لديه الطاقة الكافية لمناقشته وعَرْض الحجج عليه ، أمّا لو دخل وهو يعلم هذه النتيجة لكان محبطاً لا يرى من كلامه فائدة ، كما يقولون (ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة) .

فالحق سبحانه يعلم ما سيكون من أمر فرعون ، لكنْ يريد أنْ يقيمَ الحجة عليه ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .. (١٦٥) ﴾ [النساء]

وقوله : ﴿ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه] كأن الإنسان إذا ما ترك شراسة تفكيره ، وغُمة شهواته فى نفسه ، لا بُدَّ أنْ يهتدى بفطرته

إلى وجود الله أو (يتذكر) عالم الذَّر ، والعهد الذى أخذه الله عليه يوم أنْ قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

والذى قال عنه النبى ﷺ : « كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبوه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه[1] »[2] .

فلو تذكَّر الإنسان ، وجرَّد نفسه من هواها لا بُدَّ له أنْ يهتدى إلى وجود الله ، لكن الحق - سبحانه وتعالى - جعل للغفلة مجالاً ، وأرسل الرسل للتذكير ؛ لذلك قال : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. (١٦٥) ﴾ [النساء] ولم يقل : بادئين .

أمَّا مسألة الإيمان بالله فكان ينبغى أن تكون واضحة معروفة للناس أن هناك إيماناً بإله خالق قادر فقط ينتظرون ما يطلبه منهم وما يتعبَّدهم به . ماذا تفعل ؟ وماذا تترك ؟ وهذه هى مهمة الرسل .

وسبق أن ضربنا مثلاً برجل انقطعت به السُّبل فى صحراء دَوِيَّة[3] ، لا يجد ماءً ولا طعاماً ، حتى أشرف على الهلاك ، ثم غلبه النوم فنام ، فلما استيقظ إذا بمائدة عليها ألوان الطعام والشراب ، بالله قبل أنْ يمد يده للطعام ، ألاَ يسأل : مَنْ أتى إليه به ؟

وهكذا الإنسان ، طرأ على كون مُعَدٍّ لاستقباله : أرض ، وسماء ، وشمس ، وقمر ، وزرع ، ومياه ، وهواء . أليس جديراً به أن يسأل :

---

(١) المجوسية نحلة تقول بالأصلين النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، وأن الشر من فعل الظلمة . ويقال : تمجس الرجل وتمجَّسوا : صاروا مجوساً . ومجَّسوا أولادهم : صيروهم كذلك . [لسان العرب - مادة : مجس] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) الصحراء الدويَّة : إذا كانت بعيدة الأطراف مستوية واسعة . [لسان العرب - مادة : دوى] .

من الذى خلق هذا الكون البديع ؟ فلو تذكرتَ ما طرأتَ عليه من الخير فى الدنيا لانتهيتَ إلى الإيمان .

فمعنى : ﴿ يَتَذَكَّرُ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] أى : النعم السابقة فيؤمن بالمنعم ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يخاف العقوبة اللاحقة ، فيؤمن بالله الذى تصير إليه الأمور فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى عنهما :

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾

الخوف : شعور فى النفس يُحرِّك فيك المهابة من شىء ، وممَّ يخافان ؟ ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه] يفرط : أى : يتجاوز الحد .. ومضادها : فرَّط يعنى : قصَّر فى الأمر ؛ لذلك يقولون : الوسط فضيلة بين إفراط وتفريط .

ومَنْ أفرط يقولون : فَرَس فارط عندما يسبق فى المضمار . ويقولون : حاز قَصَبَ السبق ، وكانوا يضعون فى نهاية المضمار قصبة يركزونها فى الأرض ، والفارس الذى يلتقطها أولاً هو الفائز ، والفرس فارط يعنى : سبق الحدَّ المعمول له ، لا مجرد أن يسبق غيره .

لذلك عندما يُحدِّثنا القرآن عن الحدود ، يقول مرة : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : إياك أن تسبق الحد الذى وُضِع لك ومرة أخرى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

ففي المحلّلات قال ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا .. ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة] قفُوا على الحدّ لا تسبقوه ، وفي المحرمات قال ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة] لأنك لو اقتربتَ منها وقعتَ فيها .

فالمعنى إذن ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَا .. ﴿٤٥﴾﴾ [طه] يتجاوز الحدّ ، وربما عاجلنا بالقتل قبل أن نقول شيئاً فيسبق قتلُه لنا كلامنا له .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه] فلا يكتفي بقتلنا ، بل ويخوض في حَقِّ ربنا ، أو يقول كلاماً لا يليق ، كما سبق له أن ادّعى الألوهية .

ومن واجب الدعاة ألاَّ يَصِلوا مع المدعوين إلى درجة أن يخوضوا في حقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لذلك فالحق سبحانه يُؤدِّب المؤمنين به بأدب الدعوة في مجابهة هؤلاء فيقول : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا[1] بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

أي : لن أسلمكما ولن أترككما ، وأنا معكما أسمع وأرى ؛ لأن الحركة إما قول يُسمع ، أو فعل يُرى ، فاطمئنّا ؛ لأننا سنحفظكما ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ

---

(١) عدا عليه يعدو عَدْواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه مثل اعتدى عليه . [القاموس القويم ١١/٢] . قال ابن عباس في هذه الآية : « قالوا (أي : المشركين) : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم » [ذكره ابن كثير في تفسيره ١٦٤/٢] .

﴿ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وهذه سُنَّة من سُنَن الله تعالى ، فإنْ رأيتَ جنداً من الجنود منسوبين لله تعالى وهُزِمُوا ، فاعلم أنهم انحلوا عن الجندية لله ، وإلا فوعْد الله لجنوده لا يمكن أن يتخلف أبداً .

والدليل على ذلك ما حدث للمسلمين في أُحُد ، صحيح أن المسلمين هُزِموا في هذه الغزوة ؛ لأنهم انحرفوا عن أوامر رسول الله ﷺ وخالفوه عندما قال للرماة : « لا تتركوا أماكنكم على أيّ حال من الأحوال »[1] ، لكن بمجرد أنْ رأوا بوادر النصر تركوا أماكنهم ، ونزلوا لجَمْع الغنائم ، فالتف من خلفهم خالد بن الوليد وألحق بهم الهزيمة ، وإن انهزم المسلمون فقد انتصر الإسلام ؛ لأنهم لما خالفوا أوامر رسولهم انهزموا ، وبالله لو انتصروا مع المخالفة أكان يستقيم لرسول الله أمر بعد ذلك ؟

ففي الآية التي معنا يطمئنهم الحق - تبارك وتعالى - حتى لا يخافا ، فقدرة الله ستحفظهما ، وسوف تتدخل إنْ لزمَ الأمر كما تدخلتْ في مسألة التمرة والجمرة ، وهو صغير في بيت فرعون .

ثم يقول لهما الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٠٩) ضمن حديث طويل عن غزوة أحد من حديث موسى بن عقبة ، وفيه « أمر رسول الله ﷺ خمسين رجلاً من الرماة فجعلهم نحو خيل العدو ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوّات بن جبير ، وقال لهم : أيها الرماة إنا أخذنا منازلنا من القتال فإن رأيتم خيل المشركين تحركت وانهزم أعداء الله فلا تتركوا منازلكم ، إني أتقدم إليكم أن لا يفارقن رجل منكم مكانه واكفوني الخيل ، فوعز إليه فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذي نزل بالنبي ﷺ يومئذ والذي أصابه » .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ هنا أنهما لم يواجهاه بما ادعاه من الألوهية مرة واحدة ، إنما أشارا إلى مقام الربوبية ﴿ رَسُولَا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] وهذه هزّة قوية تزلزل فرعون ، ثم تحولا إلى مسألة أخرى ، وهى قضية بنى إسرائيل ، وكان فرعون يُسخِّرهم فى خدمته ويُعذِّبهم ويشقّ عليهم .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فقد جئنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] أى : معجزة ﴿ مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فأعادوا عليه هذه الكلمة مرة أخرى .

وقد علّمهما الحق سبحانه كيف يدخلون على فرعون ؟ وكيف يتحدثون معه فى أمر لا يمسّ كبرياءه وألوهيته .

وبنو إسرائيل هم البقية الباقية من يوسف عليه السلام وإخوته ، لما جاءوا إلى مصر فى أيام العزيز[1] الذى قرَّب يوسف وجعله على خزائن الأرض ، كما قال تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ[2] أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) العزيز : عزيز مصر فى زمن يوسف ، وهو وزيرها ، قال محمد بن إسحاق : اسمه أطفير ابن روحيب ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق (أى : الهكسوس) . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٧٢] .

(٢) أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٢] .

وقوله : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] وهذه ليست تحية ؛ لأنك تُحيي مَنْ كان مُتبعاً للهدى ، وتدعو له بالسلام ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهي نهاية الكلام .

لذلك كان يكتبها رسول الله ﷺ في كتبه إلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى هرقل عظيم الروم ، يقول : « اسلم تسلم ، يؤتكَ الله أجرك مرتين ، فإنْ توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] والسلامَ على مَنِ اتبع الهدى »[2] .

قال موسى وهارون لفرعون :

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

فأعطاه هنا القضية النهائية : جاءنا في الوحي أن مَنْ كذَّب وتولَّى فله العذاب ، ومعنى ﴿ أُوحِيَ إِلَيْنَا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه] أي : من ربك .

فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أنْ يدخل معهما في متاهات يشغلهم بها ، ويطيل الجدل ليُرتِّب أفكاره ، وينظر ما يقول :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) اختلفوا في المراد بالأريسيين على أقوال ، أصحها وأشهرها أنهم الأكارون أي الفلاحون والزراعون ، ومعناه : إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ، وهذا هو القول الصحيح . شرح النووي لصحيح مسلم .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (حديث ٧) كتاب بدء الوحي ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير في حديث طويل من حديث ابن عباس في ذكر كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم .

ووجَّه الخطاب إلى الرئيس الأصلي في هذه المهمة ، وهو موسى عليه السلام[1] .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

معنى ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه] أي : كل ما في الوجود ، خلقه الله لمهمة ، فجاء خَلْقه مناسباً للمهمة التي خُلق لها ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه] أي : دلَّ كل شيء على القيام بمهمته ويسَّره لها .

والحق سبحانه أعطى كل شيء (خَلْقَهُ) الخلق يُطلَق ، ويُراد به المخلوق ، فالمخلوق شيء لا بُدَّ له من مادة ، لا بُدَّ أن يكون له صورة وشكل ، له لون ورائحة ، له عناصر ليؤدي مهمته .

فإذا أراد الله سبحانه خَلْق شيء يقْدر له كل هذه الأشياء فأمدَّ العين كي تبصر ، والأنف كي يشم ، واللسان كي يتذوق ، ثم هدى كل شيء إلى الأمر المراد به لتمام مهمته ، بدون أي تدخُّل فيه من أحد .

وإذا كان الإنسان ، وهو المقدور للقادر الأعلى يستطيع أن يصنع مثلاً القنبلة الزمنية ، ويضبطها على وقت ، فتؤدي مهمتها بعد ذلك تلقائياً دون اتصال الصانع بها .

فالحق سبحانه خلق كل شيء وأقدره على أنْ يُؤدِّي مهمته على الوجه الأكمل تأدية تلقائية غريزية ، فالحيوانات التي نتهمها بالغباء ،

---

(١) وقد يكون فرعون قد طلب الكلام من موسى لأنه يعلم أن موسى ليس فصيح اللسان ولا يكاد يُفهم منه كلام بسبب العقدة التي في لسانه ، ولذلك قال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف] .

ونقول عنها « بهائم » هى فى الحقيقة ليست كذلك ، وقد أعطانا الحق - سبحانه وتعالى - صورة لها فى مسألة الغراب الذى بعثه الله ليُعلِّم ولد آدم كيف يوارى سوءة أخيه كما قال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

فكيف صنع الغراب هذا الصنيع ؟ صنعه بالغريزة التى جعلها الله فيه ، ولو تأملتَ الحمار الذى يضربون به المثل فى الغباء حين تريده أنْ يتخطى (قناة) مثلاً ، تراه ينظر إليها ويُقدِّر مسافتها ، فإن استطاع أنْ يتخطاها قفز دون تردد ، وإنْ كانت فوق إمكانياته تراجع ، ولم يُقْدِم مهما ضربته أو أجبرته على تخطيها ، هذه هى الغريزة الفطْرية .

لذلك تجد المخلوقات غير المختارة لا تخطىء ؛ لأنها محكومة بالغريزة ، وليس لها عقل يدعو إلى هوىً ، وليس لها اختيار بين البدائل مثل العقل الإلكترونى الذى يعطيك ما أودعته فيه لا يزيد عليه ولا ينقص ، أما الإنسان فيمكن أنْ يُغيِّر الحقيقة ، ويُخفى ما تريده منه ، لأن له عقلاً يفاضل : قُلْ هذه ، ولا تقُلْ هذه ، وهذا ما ميَّز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات .

كذلك ، ترى الحيوان إذا شبع يمتنع عن الطعام ولا يمكن أن تؤكله عود برسيم واحد مهما حاولتَ ، إنما الإنسان صاحب العقل والهوى يقول لك : (أدما الألوان تريك الأركان) ، فلا مانع - بعد أن أكل حتى التخمة - من تذوُّق أصناف شتَّى من الحلوى والفاكهة وخلافه .

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى أنه : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

خذ مثلاً الأذن ، وكيف هي محكمة التركيب مناسبة لتلقي الأصوات ، ففي الأذن من الخارج تجاعيد وتعاريج تتلقى الأصوات العالية ، فتُخفف من حدّتها حتى تصل إلى الطبلة الرقيقة هادئة ، وإلاّ خرقتها الأصوات وأصمّتها ، وكذلك جعلها الله لصدِّ الرياح حتى إذا هبت لم تجد الأذن هكذا عارية فتؤذيها .

وكذلك العَيْن ، كم بها من آيات لله ، فقد خلقها الله بقدر ، من هذه الآيات أن حرارتها إنْ زادت عن ١٢ درجة تفسد ، وأرنبة الأنف إنْ زادت عن ٩ درجات لا تؤدي مهمتها ، مع أن في الجسم عضواً حرارته ٤٠ درجة هو الكبد ، والحرارة الكلية للإنسان ٣٧ درجة ، تكون ثابتة في المناطق الباردة حيث الجليد كما هي في المناطق الحارة ، لا ترتفع ولا تنخفض إلا لعلّة أو آفة في الجسم .

إذن : كل شيء في الوجود خلقه الله بقدر وحكمة وكيفية لأداء مهمته ، كما قال في آية أخرى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

اللسان مثلاً جعل الله به حلَمات متعددة ، كل واحدة منها تتذوّق طَعْماً معيناً ، فواحدة للحلو ، وواحدة للمُرِّ ، وواحدة للحريف ، وهكذا ، وجميعها في هذه المساحة الضيقة متجاورة ومتلاصقة بقَدْر دقيق ومُعْجز .

الأنف وما فيه من مادة مُخاطية عالقة لا تسيل منك ، وشعيرات دقيقة ، ذلك لكي يحدث لهواء الشهيق عملية تصفية وتكييف قبل أن يصل إلى الرئتين ؛ لذلك لا ينبغي أنْ نقصَّ الشعيرات التي بداخل الأنف ؛ لأن لها مهمة .

عضلة القلب وما تحتويه من أُذَين وبُطَين ، ومداخل للدم ،

ومخارج محكمة دقيقة تعمل ميكانيكياً ، ولا تتوقف ولا تتعطل لمدة ١٤٠ أو ١٢٠ سنة ، تعمل تلقائياً حتى وأنت نائم ، فأىّ آلة يمكن أنْ تُؤدِّى هذه المهمة ؟

والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بآية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أَخْذ بنى إسرائيل ، وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه]

والحق سبحانه حين يعرض قضية الإيمان يعرضها مبدوءة بالدليل دليل البدء الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه] لأن فرعون الذى ادعى الألوهية لابُدَّ أن يكون له مألوهون ، وهم خَلْق مثله ، وهو يعتزّ بملكه وماله من أرض مصر ونيلها وخيراتها حتى قال :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف]

فأراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يرد عليه : أَلَكَ شيء فى خَلْق هؤلاء المألوهين لك ؟

وما أشبهَ موقف فرعون أمام هذه الحجة بموقف النمروذ أمام نبى الله إبراهيم عليه السلام عندما قال له : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

فلم يجد النمروذ إلا الجدل والسفسطة ، فلجأ إلى حيلة المفلسين ، وجاء برجلين فقال : أنا أحكم على هذا بالموت وأعفو عن هذا ؛ لذلك لما أحسَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ منه المراوغة والجدال نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً .

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

إذن : فالردُّ إلى قضية الخلق الأول دليل لا يمكن لأحد ردُّه ، حتى فرعون ذاته لم يدَّعِ أنه خلق شيئاً ، إنما تجبَّر وتكبَّر وادَّعى الألوهية فقط على مألوه لم يخلقه ، ولم يخلق نفسه ، ولم يخلق المُلْك الذي يعتز به .

ولما كان دليل الخلق الابتدائي هو الدليل المقنع ، لم يكن لفرعون ردٌّ عليه ؛ لذلك لما سمع هذه المسألة ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه] لم يستطع أنْ ينقضَ هذا الدليل ، فأراد أنْ يُخرِج الحوار من دليل الجد إلى مسألة أخرى يهرب إليها ، مسألة فرعية لا قيمة لها :

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)﴾

أي : ما شأن الأمم السابقة ؟ لكن ما دَخْل القرون الأولى بما نتكلَّم فيه ؟ كلمة البال : هو الفكر ، نقول : خطر ببالي ، أي : بفكري ، ولا يأتي في الفكر وبُؤْرة الشعور إلا الأمر المهم .

لكن ، سرعان ما أحسَّ موسى بمراوغة فرعون ، ومحاولة الهرب من الموضوع الأساسي فسدَّ عليه الباب .

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾

---

(١) بهت : دهش وتحيَّر . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة : بهت] : « انقطع وسكت متحيراً عنها » .

فهذه المسألة ليست من اختصاصي ؛ لأن الذي يُسأل عن القرون الأولى هو الذي يُجازيها ، وينبغي أنْ يعلم حالها ، وما هي عليه من الإيمان أو الكفر ؛ ليُجازيها على ذلك ، إذن : هذا سؤال لا موضعَ له ، إنه مجرد هَزْل ومهاترة وهروب ، فلا يعلم حال القرون الأولى إلا الله ؛ لأنه سبحانه هو الذي سيُجازيها .

ومعنى ﴿ فِي كِتَابٍ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه] أي : سجلها في كتاب ، يطلع عليه الملائكة المدبرات أمراً ؛ ليمارسوا مهمتهم التي جعلهم الله لها ، وليس المقصود من الكتاب أن الله يطّلع عليه ويعلم ما فيه ؛ لأنه سبحانه ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه]

ثم ارجعه موسى إلى القضية الأولى قضية الخلق ، ولكن بصورة تفصيلية :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾

مَهْداً : من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته ، كما تفعل في فراشك قبل أن تنام ، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْداً ؛ لأنك تُمهِّده له وتُسوّيه ، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر في مَهْده ويستريح .

ولا بُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة ؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت ، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور ، فيقوم بها بنفسه ؛ لذلك لزمك في هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به .

فمعنى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] أي : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها .

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية ، إنما سوّاها لمهمتها ؛ وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها ، فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض .

فمثلاً فى الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة ، أما فى المناطق الجبلية فهى مُتعرّجة مُلتوية ؛ لأنها لا تكون إلا كذلك ، ولها ميزة فى التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة ، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذى نصنعه من الحديد ، فلو جعلناه مستقيماً ما أدّى مهمته ، إذن : فاستقامته فى كَوْنه مُعْوجاً فتقول : سويته ليؤدى مهمته ، ولو كان مستقيماً ما جذب الشىء المراد جَذْبه به .

إذن : نقول التسوية : جَعْل الشىء صالحاً لمهمته ، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأَمْت[1] أو بالاستقامة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣) ﴾ [طه] أى : طرقاً ممهدة تُوصّلكم إلى مهماتكم بسهولة .

سلك : بمعنى دخل ، وتأتى متعدية ، تقول : سلك فلان الطريق . وقال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ[2] (٤٢) ﴾ [المدثر] فالمخاطبون

---

(١) الأَمْت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً . قال تعالى : ﴿ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه] . أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواء ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

(٢) قيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح . والاسم عربى من قولهم : سقرته الشمس ، أى : آذابته . [لسان العرب ـ مادة : سقر] .

مَسْلُوكون فى سقر يعنى : داخلون ، وقال : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. ﴿٣٢﴾﴾ [القصص] أى : أدخلها .

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيه ، فقوله : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ﴿٥٣﴾﴾ [طه] متعدية للمدخول فيه أى : عديت المخاطب إلى المدخول فيه ، فأنتم دخلتم ، والسُّبل مدخول فيه . إذن : المفعول مرة يكون المسلوك ، ومرة يكون المسلوك فيه .

وحينما تسير فى الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها ، فمنها الضّيق على قَدْر القدم للشخص الواحد ، ومنها المتسع الذى تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات ، فسلك لكم طرقاً مختلفة ومتنوعة على قَدْر المهمة التى تؤدونها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه]

وهذه أيضاً من مسألة الخَلْق التى لا يدعيها أحد ؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعيها ، فأنت يا مَنْ تدّعى الألوهية أخرجْ لنا شيئاً من ذلك ، أرِنا نوعاً من النبات فلن يقدر ، وبذلك لزمتْه الحجة .

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْى وخلافه ، لكن هذا العمل مستمد من الأسباب التى خلقها الله لك ؛ لذلك لما تكلم عن الماء قال (أَنْزَلَ) فلا دَخْل لأحد فيه ، ولما تكلم عن إخراج النبات قال (أَخْرَجْنَا) لأنه تتكاتف فيه صفات كثيرة ، تساعد فى عملية إخراجه ، وكان الحق - تبارك وتعالى - يحترم عملك السَّببى ويُقدِّره .

اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ [الواقعة] فاثبت لهم عملاً ، واحترم مجهودهم ، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور ؟ فإذا ما تتبعت سلسلة البذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له . كما لو تتبعتَ سلسلة الإنسان لوجدتها تنتهي إلى أب .. لا أب له إلا مَنْ خلقه .

وأنت بعد أن ألقيتَ البذرة في الأرض وسقيْتها ، ألكَ حيلة في إنباتها ونُموّها يوماً بعد يوم ؟ أمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو ؟ أم أنها قدرة القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة] ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها .

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر]

فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم ، فلما خسف الله به وبداره الأرض دلَّ ذلك على كذبه في مقولته .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة] أنه مؤكد باللام ، لماذا ؟ لأن لك شبهة عمل في مسألة الزرع ، قد تُطمعك وتجعلك مُتردداً في القبول . إنما حينما تكلم عن الماء قال :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة]

هكذا بدون توكيد ؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه] لم يقل : نباتاً فقط . بل أزواجاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء ، والتكاثر لا بُدَّ له من زوجين : ذكر وأنثى . وكما أن الإنسان يتكاثر ، كذلك

باقى المخلوقات ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، ولا بُدَّ لهذه الأقوات أن تكفى كل مَنْ يعيش على هذه الأرض .

فإذا ضاقت الأرض ، ولم تُخرِج ما يكفينا ، وجاع الناس ، فلنعلم أن التقصير مِنَّا نحن البشر فى استصلاح الأرض وزراعتها ؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق فى الغذاء خرجنا إلى الصحراء نستصلحها ، وقد بدأت الآن تُؤتى ثمارها ونرى خيرها ، والآن عرفنا أننا كنا فى غفلة طوال المدة السابقة ، فتكاثرنا ولم نُكثِّر ما حولنا من الرقعة الزراعية .

والذكر والأنثى ليسا فى النبات فحسب ، بل فى كل ما خلق الله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالزوجية فى كل شىء ، علمته أو لم تعلمه ، حتى فى الجمادات ، هناك السالب والموجب والالكترونات والأيونات فى الذرة ، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) ﴾ [طه] شتى مثل : مرضى جمع مريض فشتى جمع شتيت . يعنى أشياء كثيرة مختلفة ومتفرقة ، ليست فى الأنواع فقط ، بل فى النوع الواحد هناك اختلاف .

فلو ذهبت مثلاً إلى سوق التمور فى مدينة رسول الله ﷺ تجد أنواعاً كثيرة ، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام ، كلها تحت مُسمَّى واحد هو : التمر . وهكذا لو تأملتَ باقى الأنواع من المزروعات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ العلّة فى إخراج النبات :

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤ ﴾

(كُلُوا) : تدل على أن الخالق عز وجل خلق الحياة ، وخلق مقومات الحياة ، وأولها القوت من الطعام والشراب ، وهذه المقوّمات تناسبت فيها الملكية مع الأهمية ، فالقوت أولاً ، ثم الماء ، ثم الهواء .

فأنت تحتاج الطعام وتستطيع أن تصبر عليه شهراً على قَدْر ما يختزن فى جسمك من شحم ولحم ، يتغذّى منها الجسم فى حالة فقد الطعام ؛ لأنك حين تأكل تستهلك جزءاً من الطعام فى حركتك ، ثم يُختزن الباقى فى صورة دهون هى مخزن الغذاء فى الجسم ، فإذا ما نفد الدُّهْن امتصَّ الجسم غذاءه من اللحم ، ثم من العظم ، فهو آخر مخازن الغذاء فى جسم الإنسان .

لذلك لما أراد سيدنا زكريا عليه السلام أن يعبر عن ضعفه ، قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ۝٤ ﴾ [مريم]

لذلك تجد كثيراً ما يُملِّك الغذاء ؛ لأنك تصبر عليه مدة طويلة تُمكِّنك من الاحتيال فى طلبه ، أو تُمكِّن غيرك من مساعدتك حين يعلم أنك محصور جوعان .

أما الماء فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة ؛ لذلك قليلاً ما يُملَّك الماء لأحد .

أما الهواء فلا تصبر عليه أكثر من نفَس واحد ، فمن رحمة الله بعباده ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، وإلاَّ لو غضب عليك صاحب الهواء ،

فمنعه عنك لمتّ قبل أنْ يرضى عنك ، وليس هناك وقت تحتال في طلبه .

وقوله تعالى : ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ.. (٥٤)﴾ [طه] لأنها تحتاج أيضاً إلى القُوت ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات] ثم يصبُّ الجميع في أن يكون متاعاً للإنسان الذي سخّر الله له كل هذا الكون .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾ [طه]

آيات : عجائب . والنُّهَى : جمع نُهية مثل قُرَبٌ جمع : قُرْبة . والنُّهَى : العقول ، وقد سمّاها الله تعالى أيضاً الألباب ، وبها تتم عملية التدبير في الاختيارات .

والعقل من العقال الذي تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلَق لك كي تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك ، وتحكمها على قَدْر مهمتها في حياتك ، فغريزة الأكل مثلاً لبقاء الحياة ، وعلى قَدْر طاقة الجسم ، فإنْ زادت كانت شراهة مفسدة .

وقد جُعل حُبُّ الاستطلاع للنظر في الكون وكَشْف أسراره وآيات الله فيه ، فلا ينبغي أنْ تتعدّى ذلك ، فتتجسس على خَلْق الله .

وسُمّيَتْ العقول كذلك النُّهَى ، لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بد للإنسان من عقل يعقل غرائزه ، حتى لا تتعدى المهمة التي جُعلَتْ لها ، ويُوقفها عند حَدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدتْ في الكون ، لاَ بُدَّ للإنسان من نُهية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاّ فكيف تُطلِق العنان لشهواتك ، ولست

وحدك في الكون ؟ وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم ؟

وسُمِّي العقل لُبّاً ؛ ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعد نظراً ، وأعمق فكراً في الأمور ، فحين يأمرك أن تعطي شيئاً من فضل مالك للفقراء ، فسطحية التفكير تقول : لا كيف أتعب وأعرق في جمعه ، ثم أعطيه للفقير ؟ وهو لم يفعل شيئاً ؟

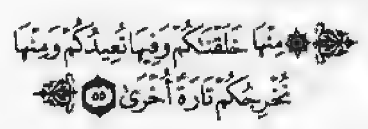
أما حين تتعمق في فَهْم الحكمة من هذا الأمر تجد أن الحق - تبارك وتعالى - قال لك : أعط المحتاجين الآن وأنت قادر حتى إذا ما احتجتَ تجد مَنْ يعطيك ، فقد يصير الغني فقيراً ، أو الصحيح سقيماً ، أو القوي ضعيفاً ، فهذه سنة دائرة في الخَلْق متداولة عليهم .

وحين تنظر إلى تقييد الشرع لشهواتك ، فلا تنسَ أنه قيَّد غيرك أيضاً بنفس المنهج وبنفس التكاليف ، فحين يقول لك : لا تنظر إلى محارم الناس وأنت فرد فهو في نفس الأمر يكون قد أمر الناس جميعاً ألاَّ ينظروا إلى حرماتك .

وهكذا جعل الخالق عز وجل آلة العقل هذه ، لا لنعربد بها في الكون ، إنما لنضبط بها الغرائز والسلوك ، ونحرسها من شراسة الأهواء ، فيعتدل المجتمع ويسلَم أفراده .

وإلاَّ فإذا سمحتَ لنفسك بالسرقة ، فاسمح للآخرين بالسرقة منك !! إذن : فمن مصلحتك أنت أنْ يوجد تقنين ينهاك ، ومنهج يُنظِّم حياتك وحياة الآخرين .

والحق سبحانه يقول :



نلحظ هنا أن موسى - عليه السلام - يعرض على فرعون قضايا لا تخصُّ فرعون وحده ، إنما تمنع أنْ يوجد فرعون آخر .

وقوله ﴿ مِنْهَا .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه] أى : من الأرض التى سبق أنْ قال عنها : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه]

ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاث : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه]

وفى آية أخرى يذكر مرحلة رابعة ، فيقول : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف]

بذلك تكون المراحل أربعة : منها خلقناكم ، وفيها تحيَوْن ، وإليها تُرجعون بالموت ، ومنها نُخرجكم بالبعث .

فقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه] الخلْق قسْمان : خَلْق أولى ، وخلْق ثانوى ، الخلق الأولىّ فى آدم عليه السلام ، وقد خُلق من الطين أى : من الأرض . ثم الخَلْق الثانى ، وجاء من التناسل ، وإذا كان الخَلْق الأوّلى من طين ، فكل ما ينشأ عنه يُعَدّ كذلك ؛ لأنه الأصل الأول .

ويمكن أن نُوجِّه الكلام توجيهاً آخر ، فنقول : التناسل يتولد من ميكروبات الذكورة وبويضات الأنوثة ، وهذه فى الأصل من الطعام والشراب ، وأصله أيضاً من الأرض . إذن : فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة .

وإنْ كانت قضية الخَلْق هذه قضية غيبية ، فقد ترك الخالق فى كونه عقولاً تبحث وتنظر فى الكون ، وتعطينا الدليل على صدْق هذه القضية ، فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً

تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهي بالمنجنيز ، وحين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها نفس العناصر الستة عشر ، ليثبتوا بذلك البحث التحليلي صدْق قضية الخَلْق التي أخبر عنها الخالق عز وجل .

وقوله : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ.. (٥٥)﴾ [طه] هذه مرحلة مشاهدة ، فكُلُّ مَنْ يموت منّا ندفنه في الأرض ؛ لذلك يقول الشاعر :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فَارْجِعْ إلَى الأرْضِ تَنَمْ آمِنًا مِنَ الأوْصَابِ[1]

هِيَ أمٌّ أحْنَى عليْكَ مِنَ الأم التي خَلَّفَتْكَ للإتْعَابِ

فبعد أن تُنقض بنية الإنسان بالموت لا يسارع إلى مواراته التراب إلا أقرب الناس إليه ، فترى المرأة التي مات وحيدها ، وأحب الناس إليها ، والتي كانت لا تطيق فراقه ليلة واحدة ، لا تطيق وجوده الآن ، بل تسارع به إلى أمه الأصيلة (الأرض) .

وذلك لأن الجسد بعد أنْ فارقته الروح سرعان ما يتحول إلى جيفة لا تطاق حتى من أمه وأقرب الناس إليه ، أما الأرض فإنها تحتضنه وتمتصُّ كل ما فيه من أذى .

ومن العجائب في نَقْض بنية الإنسان بالموت أنها تتم على عكس بنائه ، فعندما تكلم الخالق عز وجل عن الخلق الأول للإنسان قال : إنه خلق من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وقلنا : إن هذه كلها أطوار للمادة الواحدة ، ثم بعد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح ، فتدبُّ فيه الحياة .

فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب ، كما أنك لو

---

(١) الوصب : الوجع والمرض ، والجمع أوصاب . والوصب : دوام الوجع ولزومه . [لسان العرب - مادة : وصب] .

بنيتَ عمارة من عدَّة أدوار ، فآخر الأدوار بناءً أولها هدْماً . كذلك الموت بالنسبة للإنسان يبدأ بنزع الروح التى وُضعتْ فيه آخراً ، ثم يتصلّب الجسد و (يشخب) كالصلصال ثم يرمّ ، ويُنتن كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل باقى العناصر ، فتصير إلى التراب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه] أى : مرة أخرى بالبعث يوم القيامة ، وهذا الإخراج له نظام خاصٌ يختلف عن الإخراج الأول ؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ، ثم يكتمل لها الجسد .

هذه كلها قضايا كونية تُلْقَى على فرعون علّها تُثنيه عمّا هو عليه من ادّعاء الألوهية ، والألوهية تقتضى مألوهاً ، فالإله معبود له عابد ، فكيف يَدّعى الألوهية ، وليس له فى الربوبية شيء ؟ فلا يستحق الألوهية والعبادة إلا مَنْ له الربوبية أولاً ، وفى الأمثال : (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

الآيات : الأمور العجيبة ، كما نقول : فلان آية فى الذكاء ، آية فى الحسن ، آية فى الكرم ، يعنى : عجيب فى بابه ، وسبق أنْ قسّمنا آيات الله إلى : آيات كونية كالشمس والقمر ، وآيات لإثبات صدْق الرسل ، وهى المعجزات وآيات القرآن الكريم ، والتى تسمى حاملة الأحكام .

لكن آيات الله ـ عز وجل ـ كثيرة ولا تُحصى ، فهل المراد هنا أن

فرعون رأى كل آيات الله ؟ لا ؛ لأن المراد هنا الآيات الإضافية ، وهى الآيات التسعة التى جعلها الله حُجّة لموسى وهارون ، ودليلاً على صدقهما ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء]

وهى : العصا واليد والطوفان والجراد والقُمّل[1] والضفادع والدم والسنين والنقص من الثمرات . تلك هى الآيات التى أراها الله لفرعون .

والكلية فى قوله : ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه] كلية إضافية . أى : كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك (لقد أحضرتُ لك كل شىء) وليس المقصود أنك أتيتَ له بكل ما فى الوجود ، إنما هى كلية إضافية تعنى كل شىء تحتاج إليه .

ومع ذلك كانت النتيجة ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه] كذَّب : يعنى نسبها إلى الكذب ، والكذب قَوْل لا واقعَ له ، وكان تكذيبه لموسى علّة إبائه ﴿ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه] امتنع عن الإيمان بما جاء به موسى .

ولو ناقشنا فرعون فى تكذيبه لموسى عندما قال : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]

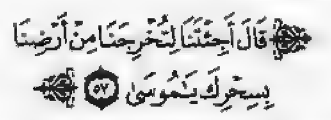
لماذا كذبتَ يا فرعون ؟ الحق سبحانه قال : خلقتُ هذا الكون بما فيه ، ولم يَأْتِ أحد لينقضَ هذا القول ، أو يدّعيه لنفسه ، حتى أنت يا مَنْ ادعيْتَ الألوهية لم تدَّعِ خَلْق شىء ، فهى - إذن - قضية مُسلَّم

---

(١) القُمّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/١٣٤] وهو ليس بقمل الرأس أو الجسد المعروف .

بها للخالق عز وجل لم ينازعه فيها أحد ، فأنت - إذن - كاذب فى تكذيبك لموسى ، وفى إبائك الإيمان به .

ثم يقول الحق سبحانه :



عاش المصريون قديماً على ضفاف النيل ؛ لذلك يقولون : مصر هبة النيل ، حتى إذا ما انحسر الماء بذروا البذور وانتظروها طوال العام ، ليس لهم عمل ينشغلون به ، وهذه الحياة الرتيبة عوَّدتهم على شىء من الكسل ، إلا أنهم أحبُّوا هذا المكان ، ولو قلت لواحد منهم : اترك هذه الأرض لمدة يوم أو يومين يثور عليك ويغضب .

لذلك استغلَّ فرعون ارتباط قومه بأرض مصر ، وحاول أن يستعدى هؤلاء الذين يمثِّل عليهم أنه إله ، يستعديهم على موسى وهارون فقال مقولته هذه ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه]

وهنا ثار القوم ، لا لألوهية فرعون المهددة ، إنما دفاعاً عن مصلحتهم الاقتصادية ، وما ينتفعون به على ضفاف هذا النيل المبارك ، الذى لا يضنّ عليهم فى فيضانه ولا فى انحساره ، فكان القوم يسمونه : ميمون الغَدَوات والروحَات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرْى الشمس والقمر ، له أوان .

وهكذا نقل فرعون مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته ،

فأصبحت المسألة بين موسى وهارون وبين رعية فرعون ؛ لأنه خاف من كلام موسى ومما يعرضه من قضايا إنْ فهمها القوم كشفوا زَيْفه ، وتمرَّدوا عليه ، وثاروا على حكمه ، ورفضوا ألوهيته لهم ، فأدخلهم طرفاً فى هذا الخلاف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾

فسمَّى فرعون ما جاء به موسى سِحْراً ؛ لذلك قال ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] وهذه التسمية خاطئة فى حق موسى ، وإنْ كانت صحيحة بالنسبة لقوم فرعون . فما الفرق - إذن - بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون ؟

السحر لا يقلب حقيقة الشىء ، بل يظل الشىء على حقيقته ، ويكون السحر للرائى ، فيرى الأشياء على غير حقيقتها ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] فلما ألقى السحرةُ حبالهم كانت حبالاً فى الحقيقة ، وإنْ رآها الناظر حيَّات وثعابين تسعى ، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية ، بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها .

وقوله : ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] أى : نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا ﴿ مَكَانًا سُوًى

(٥٨) ﴾ [طه] أى : مُستويا ؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً فتستوى فيه مرائى النظارة ، بحيث لا تحجب الرؤية عن أحد ، أو (سُوىً) يعنى : سواء بالنسبة لنا ولك ، كما نقول : نلتقى فى منتصف الطريق ، لا أنا أتعب ولا أنت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾

معلوم أن الحدث يحتاج إلى مُحدِث له ، ويحتاج إلى مكان يقع عليه ، ويحتاج إلى زمان يحدث فيه ، وقد عرفنا المحدِث لهذا اللقاء ، وهما موسى وهارون من ناحية ، وفرعون وسحرته من ناحية .

وقد حدد فرعون المكان ، فقال ﴿ مَكَانًا سُوًى (٥٨) ﴾ [طه] بقى الزمان لإتمام الحدث ؛ لذلك حدده موسى ، فقال : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. (٥٩) ﴾ [طه] ؛ لأن الحدث لا يتم إلا فى زمان ومكان .

لذلك لا نقول : متى الله ولا : أين الله ؟ فالحق - تبارك وتعالى - ليس حَدَثًا ، ومتى وأين مخلوقة لله تعالى ، فكيف يحدُّه الزمان أو المكان ؟

وقول موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. (٥٩) ﴾ [طه] ولم يقُلْ : يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلاً ، ويوم الزينة يوم يجتمع فيه كل سُكَّان مصر ، يظهر أنه يوم وفاء النيل ، فيخرجون فى زينتهم مسرورين بفيضان النيل وكثرة خيره وبركاته ، وما زالت مصر تحتفل بهذا اليوم .

وكان القاضي لا يقضي بأمر الخراج إلا بعد أنْ يطّلع على مقياس النيل ، فإنْ رآه يُوفي برىِّ البلاد حدَّد الخراج وإلاَّ فلا .

لكن ، لماذا اختار موسى هذا اليوم بالذات ؟ لماذا لم يحدد أي يوم آخر ؟ ذلك ؛ لأن موسى ـ عليه السلام ـ كان على ثقة تامة بنصر الله له ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون على هذا الملأ ، ووسط هذا الجمع ، فمثَّل هذا التجمع فرصة لا يضيعها موسى ؛ لأن النفس في هذا اليوم تكون مسرورة منبسطة ، فهي أقرب في السرور لقبول الحق من أيِّ وقت آخر .

وقوله : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] أي : ضاحين ، ويوم الزينة يمكن أن يكون في الصباح الباكر ، أو في آخر النهار ، لكن موسى متمكِّن واثق من الفوز ، يريد أن يتم هذا اللقاء في وضح النهار ، حتى يشهده الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾

تولى : أي : ترك موسى وانصرف ليُدبِّر شأنه ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه] الكيد : التدبير الخفي للخَصْم ، والتدبير الخفيّ هنا ليس دليلَ قوة ، بل دليل ضَعْف ؛ لأنه لا قوةَ له على المجابهة الواضحة ، مثل الذي يدسُّ السُّم للآخر لعدم قدرته على مواجهته .

إذن : الكيد دليل ضَعْف ؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة ، إنما دليلٌ على ضعفها ، فكما أن كيدهُنَّ عظيم ، فكذلك ضعفهُن عظيم .

فمعنى ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه] أدار فِكْره على ألوان الكَيْد

المختلفة ، ليختار منها ما هو أنكى لخصمه ، كما جاء فى آية أخرى فى شأن نوح عليه السلام ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ .. (٧١) ﴾ [يونس]

وكأن الأمر الذى هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة : نفعل كذا ، أو نفعل كذا ؟ ثم ينتهى من هذه المشاورة إلى رأى يجمع كل الاحتمالات ، بحيث لا يفاجئه شىء بعد أنْ احتاط لكل الوجوه .

فالمعنى : اتفقوا على الخطة الواضحة التى تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. (١٥) ﴾ [يوسف] . أى : اتفقوا على هذا الرأى ، وأجمعوا عليه ، بعد أن قال أحدهم ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩) ﴾ [يوسف] ، فكان الرأى النهائى أنْ يجعلوه فى غيابة الجب .

فهُمْ على أية حال سلالة نُبوة ، لم يتأصل الشرُّ فى طباعهم ؛ لذلك يتضاءل شرُّهم من القتل إلى الإلقاء فى متاهات الأرض إلى أهْوَن هذه الأخطار ، أنْ يُلْقوه فى الجُبِّ ، وهذه صفة الأخيار ، أما الأشرار الذين تأصل الشر فى نفوسهم وتعمَّق ، فشرُّهم يتزايد ويتنامى ، فيقول أحدهم : أريد أنْ أقابل فلاناً ، فأبصق فى وجهه ، أو أضربه ، أو أقطِّعه ، بل رصاصة تقضى عليه فيُصعِّد ما عنده من الشر .

وبعد ذلك يرجُونَ له النجاة ، فيقولون : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠) ﴾ [يوسف]

ثم يقول تعالى فى شأن فرعون : ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) ﴾ [طه] أى : أتى الموعد الذى سبق تحديده ، مكاناً وزماناً .

ثم يُحدثنا الحق سبحانه عن وقائع هذا اليوم ، فيقول :

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[1] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾

لما رأى موسى السحرة أراد أنْ يُحذِّرهم ممَّا هم مُقبِلون عليه ، وأنْ يعطيهم المناهي التي تمنعهم ، فذكَّرهم بأنَّ لهم رباً سيحاسبهم كما تقول لشخص ، تراه مُقْدِماً على جريمة ، لو فعلتَ كذا سأبلغ عنك الشرطة ، وستُعاقب بكذا وكذا ، وتُذكِّره بعاقبة جريمته .

﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. (٦١) ﴾ [طه] افترى أي : جاء بالفِرْية ، وهي تعمُّد الكذب ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ .. (٦١) ﴾ [طه] يعني : يستأصلكم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه] أي : خسر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) ﴾

يبدو أن تخويفَ موسى لهم بقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ .. (٦١) ﴾ [طه] قد أثَّر فيهم وأخافهم ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم .. (٦٢) ﴾ [طه] أخذوا يتساومون القَوْل ويتبادلون الآراء .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) ﴾ [طه] تحدثوا سراً ، وهذا دليل خوفهم من كلام موسى ، ودليل ما فيهم من استعداد للخير ، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار في الشوط إلى آخره .

---

(١) يسحتكم : يهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾

توقف العلماء طويلاً حول هذه الآية ، لأن فيها قراءتين[1] (إنْ هذان) بسكون (إنْ) والأخرى (إنَّ هذان) بالتشديد .

والقراءة التي نحن عليها قراءة حفص ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ٦٣﴾ [طه] و (إنْ) شرطية إنْ دخلت على الفعل ، كما تقول : إنْ زارني زيد أكرمته ، وتأتي نافية بمعنى ما ، كما في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. ٢﴾ [المجادلة]

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائي وَلَدْنهم ، كذلك في قوله تعالى : ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ٦٣﴾ [طه] فالمعنى : ما هذان إلا ساحران ، فتكون اللامَ في ﴿لَسَاحِرَانِ .. ٦٣﴾ [طه] بمعنى إلا ، كأنك قُلْتَ : ما هذان إلا ساحران .

وتأتي اللام بمعنى إلا ، إذا اختلفنا مثلاً على شيء ، كل واحد منّا يدّعيه لنفسه ، فيأتي الحكم يقول : لَزيدٌ أحقُّ به ، كأنه قال : مَا هذا الشيء إلا لزيد . إذن : اللام تأتي بمعنى إلا .

وعلى القراءة الثانية بالتشديد (إنَّ هذان لساحران) فإنَّ حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، تقول : إنَّ زيداً مجتهدٌ ، أما في الآية بهذه القراءة : (إنَّ هذان لساحران) جاء اسم إنَّ هذان بالرفع

---

(١) هناك قراءة ثالثة أوردها القرطبي في تفسيره (٦/٤٢٨٩) قال : « قرأ أبو عمرو « إنّ هذين لساحران » ورويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم من التابعين ، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدري ، فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف » .

بالألف ؛ لأنه مثنى ، والقاعدة تقتضى أن نقول (هذين) .

فكيف يتم توجيه إنَّ المشددة الناسخة وبعدها الاسم مرفوع ؟

قالوا : هذه لغة كنانة إحدى قبائل العرب ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة ولغتها المشهورة فيقولون : جعجعة خزاعة ، وطُمْطُمانيّة حِمْيَر[1] ، وتَلْتلة بَهْراء[2] ، وفحفحة هذيل .. الخ .

ولما نزل القرآن نزل على جمهرة اللغة القرشية ؛ لأن لغات العرب جميعها كانت تصبُّ في لغة قريش في مواسم الحج والشعر والتجارة وغيرها ، فكانت لغة قريش هي السائدة بين لغات كل هذه القبائل ؛ لذلك نزل بها القرآن ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يكون للقبائل الأخرى نصيب ، فجاءت بعض ألفاظ القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن القرآن ليس لقريش وحدها ، ليجعل لها السيادة على العرب ، وإنما جاء للجميع .

ومن لهجات القبائل التي نزل بها القرآن لهجة كنانة التي تلزم المثنى الألف في كل أحواله رَفْعاً ونَصْباً وجراً[3] . وشاهدهم في كتب النحو قول شاعرهم[4] :

---

(١) الطمطمة : العُجْمة . ورجل طِمْطِم بالكسر ، أي : في لسانه عُجمة لا يُفصح . وفي صفة قريش : ليس فيهم طُمْطُمانية حمير ، شبَّه كلام حمير لما فيه من الألفاظ المنكرة بكلام العجم . [لسان العرب ـ مادة : طمطم] .

(٢) تلتلة بهراء : كسرهم تاء تِفْعلون يقولون : تِعْلمون وتِشْهدون ونحوه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

(٣) هذا هو القول الأول من الأقوال الستة التي ذكرها القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٣٩٠) لتوجيه قراءة « إنَّ هذان لساحران » وقال : هي لغة بني الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد . وقال أبو جعفر النحاس : هذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ، إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى علمه وأمانته .

(٤) نُسب هذا الشاهد لرؤبة بن العجاج ، ونسبه آخرون لأبي النجم الفضل بن قدامة العجلي ، وقيلَ : لبعض أهل اليمن . وانظر شرح شواهد ابن عقيل (ص ٧) ، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ص ٦٨) .

وَاهًا لسلْمى ثُمَّ وَاهًا وَاهَا ... يَا ليْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَاهَا
هِيَ المُنَى لَوْ أنَّنَا نلْنَاهَا ... وموْضِع الخَلْخَال من قدَمَاهَا
إنَّ أبَاهَا وأبَا أبَاهَا ... قَدْ بلغَا فى المجْدِ غَايتَاهَا

فقال : إنَّ أباها . ولم يقل : إنَّ أبيها ؛ لأنه يُلزِم المثنى الألف .

إذن : لم ينزل القرآن بلغة قريش على أنها لغة سيادة ، وإنما لأنها تنطوى على زُبْدة فصاحات لغات الجزيرة كلها ، وكانت لغة قريش تصفَّى فى مواسم الشعر والأدب فى عكاظ وذى المجنّة وغيرها .

نعود إلى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا .. (٦٣)﴾ [طه] ويبدو أن استعداء فرعون لقومه على موسى وهارون جاء بنتيجة ونالت حيلته من نفوسهم ؛ لذلك يُردِّدون نفس كلام المعلم الكبير فرعون ، فيتهمون موسى وهارون بالسحر .

وقولهم : ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾ [طه] طريقتهم المثلى . أى : ما ارتضاه القوم للعيش عليه ، والمذهب والطريق الذى سلكوه . والمراد بالطريقة المثلى التى ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمره ، تلك هى الطريقة المثلى[1] !! والمثلى : أى الفاضلة مذكّرها أمثل .

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

---

(١) وقد قال تعالى عن فرعون أنه قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر] . وقال فى آية أخرى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر] .

أى : تنبهوا واشحذوا كل أذهانكم ، وكل فنونكم ، وحركاتكم فى السحر حتى لا يتمكنا من هذين الأمرين : إخراجكم من أرضكم ، والقضاء على طريقتكم المثلى .

وهذا قول بعضهم لبعض ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ .. (٦٤)﴾ [طه] فلا يُخفى أحد فناً من فنون السحر ، وليُقدِّم كُلٌّ منّا ما عنده ؛ لأن عادة أهل الحِرَف أن يوجد بينهم تحاسد ، فلا يُظهر الواحد منهم كل ما عنده مرة واحدة ، أو يحاول أنْ يُخفى ما عنده حتى لا يطلع عليه الآخر ، لكن فى مثل هذا الموقف لا بُدَّ لهم من تضافر الجهود فالموقف حرج ستعمُّ بلواه الجميع إنْ فشلنا فى هذه المهمة .

وقوله : ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. (٦٤)﴾ [طه] يعنى : مجتمعين كأنكم يد واحدة ، فهذا أهْيَبُ لكم وأدْخَلُ للرعب فى قلوب خصمكم ، كما أننا إذا جِئْنَا سوياً لم يتمكن أحد من التراجع ، فيكون بعضنا رقيباً على بعض .

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ [طه] أفلح : فاز ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون] وهذا اللفظ مأخوذ من فلح الأرض ومنه الفلاحة ؛ لأن الفلاح إذا شقَّ الأرض أو حرثها ورعاها تعطيه خيرها ، فحركتُه فيها حركة ميمونة مباركة .

لذلك ، لما أراد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُبيِّن لنا مضاعفة الأجر والثواب على الصدقة وعلى فعل الخير ضرب لنا مثلاً بالزرع ، فقال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى كل هذا العطاء ،

فما بالك بعطاء الخالق لهذه الأرض ؟ لذلك عقب المثل بقوله تعالى :
﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

ثم أُخِذَتْ كلمة الفلاح علماً على كل فلاح ، ولو لم يكن فيه صلة بالأرض ؛ لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نَوْعه بالأكل ، والأرض مصدر هذا كله ، فكانت لذلك مصدراً للفوز .

وقوله . ﴿ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] أى : طلب العُلو على خَصْمه . لكن هل الفلاح يكون لمن طلب العلو أم لمن علا بالفعل ؟ طبعاً يكون لمن علا ، إذن : مَنْ عَلاَ بالفعل لا بُدَّ أنْ يشحذ ذهْنه على أن يطلب العلو على خصمه ، فمهما علا الخصم استعلى عليه أى : طلب العُلو ، إذن : قبل علا استعلى .

ثم يقول الحق سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾

تُلقى : ترمى . والمراد أن يرمى واحد منهم ما أعدَّه من سحر ، فاختار موسى أنْ يُلْقُوا هم أولاً .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

لأنهم إنْ ألقوا سِحْرهم كانت للعصا مهمة حين يلقيها موسى ، فأراد أن يكون للعصا حركة بعد أن تنقلب إلى ثعبان أو حية أو جان ، وإلا لو ألقى هو أولاً ، فماذا سيكون عملها ؟

وقد ألهم الله تعالى سحرة فرعون هذا الأدب فى معركتهم مع

موسى ، فخيّروه بين أنْ يلقى هو ، أو يلقوا هُمْ ، والله - تبارك وتعالى - يحُول بين المرء وقلبه ، فألهمهم ذلك مع أنهم خصومه ، وأنطقهم بما يؤيد صاحب المعجزة الخالدة ، فقالوا : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه]

وقد اختار موسى - عليه السلام - أنْ يُلقى أخيراً ؛ لأن التجربة التى مَرَّ بها فى طوى مع ربه - عز وجل - لما قال له ربه : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [طه]

فلما ألقى موسى عصاه انقلبتْ إلى حيَّة تسعى ورأى هو حركتها ، لكن لم يكُنْ بهذه التجربة شيء تلقف العصا ، فإذا ألقى موسى أولاً وتحولَتْ العصا حية أو ثعباناً ، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التى تحولتْ أمامهم إلى حيَّات وثعابين ؟

إذن : لا بُدَّ من شيء يُميِّز عصا موسى كمعجزة عن سحْر السحرة وشعوذتهم ؛ لذلك اختار موسى أنْ يُلقى هو آخراً بإلهامٍ من الله حتى تلقف عصاه ما يأفكون ، فما يُلقف لا بُدَّ أن يسبق ما يَلْقف .

فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فَرْقَ بين عصا موسى وحبال السحرة وعصيهم ، فكلها تتحرك ، إنما تميزت عصا موسى بأنها تلقف ما يصنعون من السحر ، وتتتبع حبالهم وعِصيّهم ، وتقفز هنا وهناك ، فلها - إذن - عَيْن تبصر ، ثم تلقف سحرهم فى جوفها ، ومع ذلك تظل كما هى لا تنتفخ بطنها مثلاً ، وهذا هو موضع المعجزة فى عصا موسى عليه السلام[1] .

---

(١) قال محمد بن إسحاق : جعلت - العصا - تتبع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة ، حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا فى يده كما كانت . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٢٧) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] إذن : فحركة العصىّ والحبال ليستْ حركة حقيقية ، إنما هى تخيُّل ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ .. (٦٦) ﴾ [طه] فيراها تسعى ، وهى ليست كذلك .

وقد قال تعالى عن هؤلاء السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف] فجاءوا بأعمال تخيُّلية خادعة بأىِّ وسيلة كانت ، فالبعض يقول مثلاً : إنهم وضعوا بها الزئبق ، فلما حَمِيَتْ عليه الشمس تمدّد ، فصارتْ الأشياء تتلوّى وتتحرك ، فأياً كانت وسائلهم فهى مجرد تخيُّلات ، أمَّا الساحر نفسه فيراها حبالاً على حقيقتها . وهذا هو الفرق بين سِحْر السحرة ، ومعجزة عصا موسى .

والسحر يختلف عن الحيل التى تعتمد على خفّة الحركة والألاعيب والخُدَع ، فالسحر أقرب ما يكون إلى الحقيقة فى نظر الرائى ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

إذن : هو فَنٌّ يُتعلم ، يعطى التخييل بواسطة تسخير الجنّ ، فهم الذين يقومون بكل هذه الحركات ، فهى - إذن - ليستْ حيلاً ولا خفة حركة ، إنما هى عملية لها أصول وقواعد تُدرَّس وتُتعلَّم .

والخالق - عز وجل - حينما يعرض علينا قضية السحر ، وأنه عبارة عن تَسخير الشياطين لخدمة الساحر ، ويجعل لكل منهما القدرة على مضرّة الآخرين : الساحر بالسحر ، والشياطين بما لديهم من قوة التشكّل فى الأشكال المختلفة والنفاذ من الحواجز ؛ لأنّ الجن خُلِقُوا من النار ، والنار لها شفافية تنفذ خلال الجدار مثلاً .

أما الإنسان فَخُلِق من الطين ، والطين له كثافة ، وضربنا مثلاً

لنقرب هذه المسألة ، قلنا : هَبْ أنك تجلس خلف جدار ، ووراء هذا الجدار تفاحة مثلاً وهى من الطينية المتجمدة ، أيصل إليك من التفاحة شىء ؟ إنما لو خلف الجدار نار فسوف تشعر من خلال الجدار بحرارتها . هذه - إذن - خصوصيات جعلها الخالق عز وجل للشياطين فضلاً عن أنهم يرونكُم من حيث لا ترونهم .

لكن ، كان من لُطْف القدير بنا أن جعل لنا ما يحمينا من الشياطين ، فجعل الحق - تبارك وتعالى - الجن حين يتشكّلون فى الأشكال المختلفة تحكمهم هذه الأشكال ، بمعنى لو أن الشيطان تشكّل لك فى صورة إنسان فقد حكمتْه هذه الصورة ، فلو أطلقتَ عليه الرصاص فى هذه اللحظة لقتلتَه فعلاً .

لذلك ؛ فالشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه ، ولا يظهرون لنا إلا ومضة ولمحة سريعة خَوْفاً أن يكون الرائى له على علْم بهذه المسألة فيمسك به وساعتها لن يفلت منك .

وقد أمسك النبى ﷺ شيطاناً وقال[1] « لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ، يلعب به غلمان المدينة ، إلا أننى ذكرت دعوة أخى سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي .. ۝٣٥﴾ [ص] » .

إذن الحق سبحانه أعطاهم خصوصية التشكّل كما يحبون ، إنما قيدهم بما يتشكّلون به ، كأنه يقول له : إذا تركتَ طبيعتك وتشكّلْت بصورة أخرى فارْضَ بأنْ تحكمك هذه الصورة ، وأن يتحكم فيك

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمامه « إن عفريتاً من الجن تفلت علىّ البارحة ليقطع علىّ صلاتى ، فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان (رب هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى) » .

الأضعف منك ، وإلا لفزَّعوا الناس وأرهبوهم ، ولم نسلم من شرِّهم .

وكذلك الحال مع الساحر نفسه ، فلديه بالسحر والطلاسم أن يُسخِّر الجن يفعلون له ما يريد ، وهذه خصوصية تفوق بها قدرتُه قدرةَ الآخرين ، ولديه بالسحر فُرْصة لا تتوفر لغيره من عامة الناس ، فليس بينه وبينهم تكافؤ في الفُرص .

والله عز وجل يريد لخَلْقه أنْ تتكافأ فُرَصهم في حركة الحياة فيقول للساحر : إياك أن تفهم أن ما يسَّرته لك من تسخير الأقوى منك ليقدر على ما لا تقدر عليه يفيدك بشيء ، أو أنك أخذتَ بالسحر فرصةً على غيرك ، بل العكس هو الصحيح فلن تجنيَ من سِحْرك إلا الضرر والشقاء ، فالسحر فتنة للإنسان ، كما أنه فتنة للجن .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢)﴾ [البقرة]

والفتنة هنا معناها أن نختبر استعماله لمدى ما أعدَّه الله له ، أيستعمله في الخير أم في الشر ؟ فإنْ قُلْتَ : أتعلَّم السحر لأستعمله في الخير . نقول : هذا كلامك ساعة التحمُّل ، ولا تضمن نفسك ساعة الأداء . كما قلنا سابقاً في تحمُّل الأمانة حين تقبلها ساعة التحمل ، وأنت واثق من قدرتك على أدائها في وقتها ، ومطمئنٌ إلى سلامة نيتك في تحمُّلها ، أما وقت الأداء فربما يطرأ عليك ما يُغيِّر نيتك .

وكما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فاخترنَ التسخير على الاختيار وحَمْل الأمانة ؛ لأنهن لا يضمنَّ القيام بها .

وقد أعذر الله تعالى إلى السحرة في قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]

كان الساحر مآله إلى الكفر ؛ لأنه ابن أهواء وأغيار ، لا يستطيع أن يتحكّم في نفسه فيُسخِّر قوة السحر في الخير ، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُسخِّر القوى للخير : أيُسخِّر الطائع ؟ أم يُسخِّر العاصي ؟ سيُسخِّر الطائع ، والجن الطائع لا يرضى أبداً بهذه المسألة .

إذن : لن يستطيع الساحر إلا تسخير الجن العاصي ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

لذلك تلاحظ أن كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب ، وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشُؤْمها ، ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون في أضيق صور العيش ، فترى الساحر يأخذ من هذا ، ويأخذ من هذا ، ويبتز الناس ويخدعهم ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش في ضيق ، ويموت كافراً مُبْعَداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلَمون من شُؤْمه ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ[1] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن]

كما أن في حياة السحرة لفتة ، يجب أن نلتفت إليها ، وهي أن السحرة الذين يصنعون السحر للناس ويخدعونهم : من أين يرتزقون ؟ من عامة الناس الذين لا يفهمون في السحر شيئاً ، ولو

---

(١) قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضَرَّ أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي . قال ابن كثير في تفسيره (٤/٤٢٨) : « فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أي خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم » .

أنه أفلح بالسحر لاغتنى نفسه عن أنْ تمتد يده إلى هذا ، فيأخذ منه عدة جنيهات ، وإلى هذا يطلب منه أشياء غريبة يُوهمه أن مسألته لن تُحَلّ إلا بها .

ولماذا لم يستخدم سحره في سرقة خزينة مثلاً ويريح نفسه من هذا العناء ، وإنْ قال : كيف وهي أموال الناس والسطو عليها سرقة ، فليذهب إلى الرِّكاز[1] وكنوز الأرض فليست مملوكة لأحد .

نعود إلى سحرة فرعون ! أيّاً كان سحرهم أمِنْ نوع الألاعيب وخِفّة الحركة وخداع الناظرين ؟ أم من نوع السحر الذي علّمته الشياطين من زمن سليمان ـ عليه السلام ـ فهو سحر لن يقف أمام معجزة باهرة جاءت على يد موسى لإثبات صدقه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾

أوجس : من الإيجاس ، وهو تحرّك شيء مخيف في القلب لا يتعدّى إلى الجوارح ، فإنْ تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعي ، كأن يهرب أو يجري ، فالعمل النزوعي يأتي بعد الإحساس الوجداني ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ فِي نَفْسِهِۦ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

وقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعِصيّهم تتحول أمام النظارة إلى حيّات وثعابين ، وربما اكتفى

---

(١) الركاز : ما في الأرض من المعادن في حالتها الطبيعية . [المعجم الوجيز ـ مادة : ركز] وذهب أحمد بن حنبل إلى أنه كل ما خرج من الأرض مما يخلق فيها من غيرها ، مما له قيمة مثل : الذهب والفضة والحديد والنحاس والقار والنفط ونحو ذلك . ودليل وجوب الزكاة في الركاز قوله ﷺ : « في الركاز الخمس » أي ٢٠٪ راجع : فقه السنة (١/٣٥٦ ـ ٣٥٧) .

المشاهدون بما رأوه فهرجوا عليه وانهوا الموقف على هذا قبل أنْ يتمكّنْ هو من عمل شيء . فإنْ قُلْت : فلماذا لم يُلْقِ عصاه وتنتهى المسألة ؟ نقول : لأن أوامره من الله أولاً بأول ، وهو معه يتتبعه سماعاً ورؤية ، فتأتيه التعاليم جديدة مباشرة .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذا حكم لله عز وجل يأتى موسى على هيئة برقية مختصرة ﴿أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾[طه] أنت المنصور الفائز فاطمئن ، لكن تتحرك فى موسى بشريته : منصور كيف ؟

وهنا يأتيه الأمر العملى التنفيذى بعد هذا الوعد النظرى ، وكأن الحق سبحانه متتبع لكل حركات نبيه موسى ، ولم يتركه يباشر هذه المسألة وحده ، إنما كان معه يسمع ويرى ، فيردُّ على السماع بما يناسبه ، ويردُّ على الرؤية بما يناسبها ، ودائماً يرهف النبى سمعه وقلبه إلى ما يُلْقى عليه من توجيهات ربه عز وجل ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]

فسيأتيك الرد المناسب فى حينه . إذن : الحق سبحانه لم يخبر موسى بمهمته مع فرعون ثم تركه يباشرها بنفسه ، وإنما تمَّتْ هذه المسألة بتوجيهات مباشرة من الله تعالى .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهذا أصل المعجزة فى عصا موسى ، أن تلقف وتبتلع ما يأفكون من السحر وكلمة ﴿تَلْقَفْ .. ﴿٦٩﴾﴾ [طه] تعطيك الصورة الحركية السريعة التى تُشبه لمح البصر ، تقول : تلقفته يعنى أخذتُه بسرعة

وشدة ، وهذه هي العلّة في العصا أن تلقف ما صنعوا من السحر ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. ۝٦٩ ﴾ [طه] والكَيْد : التدبير الخفيّ للتغلّب على الخَصْم ، لكن ماذا يفعل كَيْد الساحر وألاعيبه وتلفيقه أمام قدرة الرب تبارك وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ ﴾ [طه] سبق أنْ تكلّمنا في مسألة فَلاَح الساحر ، وأنه مهما أُوتي من قدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس ، فلن يعطيه ذلك ميْزة على غيره ، ولن تكون له قدرة على شيء .

فإياكم أن تظنوا أن الله تعالى ملَّك مصالحكم لهؤلاء ، صحيح هو يفعل ، أما الإصابة والأذى فبإذن الله وتحت عنايته : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ۝١٠٢ ﴾ [البقرة] وهذه القضية لا تنسحب على الساحر فحسب ، إنما على الوجود كله ، وإلى أنْ تقوم الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ ﴾

قال الزجاج[1] في هذا الموقف : عجيب أمر هؤلاء ، فقد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يُلْقون أنفسهم للشكر والسجود .

نعم ، لقد دخلوا كافرين فجرة فخرجوا مؤمنين بررة[2] ، لأنهم

---

(١) هو : إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ٢٤١ هـ ومات في بغداد ٣١١ هـ ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو ، أدّب القاسم ولد عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد العباسي . [الأعلام للزركلي ١/ ٤٠]

(٢) قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة . [أورده ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٥٨] .

جاءوا بكل ما لديهم من الكَيْد ، وجمعوا صفْوة السحر وأساتذته ممنْ يَعْلمون السحر جيداً ، ولا تنطلي عليهم حركات السحرة وألاعيبهم ، فلما رأوا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شكٌّ في أنها معجزة بعيدة عمّا يصنعونه من السحر ؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون .

وهذا يدلُّنا على أن الفطرة الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا ما تيقظتْ الفطرة الإيمانية وأُزيلَتْ عنها الغشاوة سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ به .

لقد سارع السحرة إلى الإيمان ، وكان له هَوىً في نفوسهم ، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. (٧٣) ﴾ [طه] فكانوا مكرهين ، كانوا أيضاً مُسخَّرين ، بدليل قولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف]

كأنهم كانوا لا يأخذون على السحر أجراً ، فلما كانت هذه المهمة صعبة طلبوا عليها أجراً ، فهي معركة تتوقف عليها مكانته بين قومه ، أما ممارستهم للسحر إرهاباً للناس وتخويفاً لمن تُسوِّل له نفسه الخروج والتمرد على فرعون ، فكانت سُخْرة ، لا يتقاضَوْن عليه أجراً .

لذلك لم يعارض فرعون سحرته في طلبهم ، بل زادهم منحة أخرى ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾ [الأعراف] فسوف تكونون سدنة الفرعونية ، يريد أنْ يشحن هِمَمهم ، ويشحذ عزائمهم ، حتى لا يدخروا وُسْعاً في فَنّ السحر في هذه المعركة .

إذن : فطباعهم وفطرتهم تأبى هذا الفعل ، وتعلم أنه كذب

وتلفيق ، لكن مـاذا يفعلون وكبيرهم يأمـرهم به ، بل ويُكرِههم عليه ، ويلزمهم أنْ يُعلِّموا غيرهم[1] ، لماذا ؟ لأن السحر والشعوذة والتلفيق هي رأس ماله وبضاعته التي يسعى إلى ترويجها ، فعليها يقوم مُلْكه وتُبْنى ألوهيته .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] فَرْق بين ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء] وهذا منهم عمل اختيارى ، وبين ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] : يعني على غير اختيارهم وعلى غير إرادتهم ، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة ، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا لله ساجدين ، فالإلقاء هنا عمل تلقائي دون تفكير منهم ودون شعور ، فقد فاجـأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى ، لأنها ليستْ سِحْراً فهم أعلم الناس بالسحر .

ونلحظ في هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع : أُلقي السحرةُ ، قالوا ، آمنـا . لتدل على أنهم كـانوا يَداً واحدة لم يشذّ مـنهم واحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مُسخَّرين .

كما أن إعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] ، ثم بالقول المسموع ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] وفي آية أخرى : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء]

ونعلم أن مـوسى ـ عليه السلام ـ هو الأصـل ، ثم أرسل معه أخوه هارون ، ولما عرضَ القرآن موقف السحرة مع موسى حكى

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه] قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر بالعوماء ، وقال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض . أورده السيوطي في [الدر المنثور ٥/٥٨٧] .

قولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] وقولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء]

لذلك كانت هذه المسألة مثارَ جَدَلٍ من خصوم الإسلام ، يقولون : ماذا قال السحرة بالضبط ؟ أقالوا الأولى أم الثانية ؟

ولك أن تتصور جمهرة السحرة الذين حضروا هذه المعركة ، فكان رؤساؤهم وصفوتهم سبعين ساحراً ، فما بالك بالمرؤوسين ؟ إذن : هم كثيرون[1] ، فهل يُعقل مع هذه الكثرة وهذه الجمهرة أن يتحدوا في الحركة وفي القول ؟ أم يكون لكل منهم انفعاله الخاص على حَسْب مداركه الإيمانية ؟

لا شكَّ أنهم لم يتفقوا على قول واحد ، فمنهم مَنْ قال ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] وآخرون قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء]

كذلك كان منهم سطحيّ العبارة ، فقال ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء] ولم يفطن إلى أن فرعون قد ادّعى الألوهية وقال أنا ربكم الأعلى فربما يُفهم من قوله ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾[الشعراء] أنه فرعون ، فهو الذي ربّى موسى وهو صغير .

وآخر قد فطن إلى هذه المسألة ، فكان أدقَّ في التعبير ، وأبعد موسى عن هذه الشبهة ، فقال : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] وجاء أولاً بهارون الذي لا علاقة لفرعون بتربيته ، ولا فضل له عليه ، ثم جاء بعده بموسى .

---

(١) اختُلف في عدد السحرة . قال محمد بن كعب : كانوا ثمانين ألفاً . وقال القاسم بن أبي بَزة : كانوا سبعين ألفاً . وقال السدي : بضعة وثلاثين ألفاً وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً . وعن ابن عباس : كانت السحرة سبعين رجلاً . [أورد هذه الأقوال ابن كثير في تفسيره (٣/١٥٨)] .

إذن : هذه أقوال متعددة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيرى لا تنضبط حركاته ، ولا تتفق تعبيراته ، وقد حكاها القرآن كما كانت فليس لأحد بعد ذلك أن يقول : إنْ كان القول الأول صحيحاً ، فالقول الآخر خطأ أو العكس .

وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضية يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها ، تُرى أتتفق تعبيراتهم في وصف هذه المباراة ؟

نقول : إذن ، تعددت اللقطات وتعددت الأقوال للقصة الواحدة لينقل لنا القرآن كل ما حدث .

ثم يقص الحق سبحانه رد فعل فرعون على ما حدث ، فيقول :

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

طبيعى أن يشتاط فرعون غضباً بعدما سمعه من سحرته ، فقد جمعهم لينصروه فإذا بهم يخذلونه ، بل ويُقوِّضون عرشه من أساسه فيؤمنون بإله غيره ، ويا ليتهم لما خذلوه سكتوا ، إنما يعلنونها صريحة عالية مدوية : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه]

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه] فمع الخيبة التى مُنِى بها ما يزال يتمسك بفرعونيته وألوهيته ، ويهرب من الاستهزاء الذى حاق به ، يريد أن يعطى للقوم صورة المتماسك الذى لم تُؤثِّر فيه

هذه الأحداث ، فقال ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١) ﴾ [طه] فأنا كبيركم الذي علّمكم السحر ، وكان عليكم أنْ تحترموا أستاذيته ، وقد كنت سآذنُ لكم .

وكلمة (آمنتم) مادتها : أمِنَ . وقد أخذت حيزاً كبيراً في القرآن الكريم ، والأصل فيها : أمِنَ فلانٌ أمناً يعني : اطمأن . فليس هناك ما يُخوّفه . لكن هذه المادة تأتي مرة ثلاثية (أمِنَ) وتأتي مزيدة بالهمزة (آمن) .

وهذا الفعل يأتي متعدياً إلى المفعول مباشرة ، كما في قوله تعالى ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] يعني : آمن سكان مكة من الخوف .

وقد يتعدى بالباء كما في : آمنت بالله ، أو يتعدى باللام كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. (٨٣) ﴾ [يونس] وآمن له يعني : صدَّقه فيما جاء به .

إذن : لدينا : آمنَهُ يعني أعطاه الأمن ، وآمن به : يعني اعتقده ، وآمن له : يعني صدَّقه .

وقد تأتي أمن وآمن بمعنى واحد ، كما في قول سيدنا يعقوب : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤) ﴾ [يوسف]

فلماذا اختلفت الصيغة من آمن إلى أمن ؟

قالوا : لأن قوله ﴿ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤) ﴾ [يوسف] كانت تجربة أولى ، فجاء الفعل (أمن) مُجرّداً على خلاف الحال في المرة الثانية ، فقد احتاجت إلى نوع من الاحتياط للأمر ، فقال ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤) ﴾ [يوسف] فزاد الهمزة للاحتياط .

فمعنى قول فرعون : ﴿آمَنتُمْ لَهُ .. (٧١)﴾ [طه] يعنى أى : صدَّقتموه .

وتأمل هنا بلاغة القرآن فى هذا التعبير ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١)﴾ [طه] ومَنِ الذى يقولها ؟ إنه فرعون الآمر الناهى فى قومه يتحدث الآن عن الإذن . وفَرْق بين أمر وأذن ، أمر بالشىء يعنى : أنه يحب ما أمر به ، ويجب عليك أنت التنفيذ . أما الإذن فقد يكون فى أمر لا يحبه ولا يريده ، فهو الآن يأذن ؛ لأنه لا يقدر على الأمر .

وما دُمْتُمْ قد آمنتم له قبل أن آذن لكم فلا بُدَّ أن يكون هو كبيركم الذى علَّمكم السحر ، فكان وفاؤكم له ، واحترمتم هذا الكِبَر وساعدتموه على الفوز .

وهذا من فرعون سوء تعليل لواقع الإيمان ، ففى نظره أن موسى تفوّق عليهم ، لا لأنه يُجيد فنَّ السحر أكثر منهم ، إنما تفوّق عليهم لأنهم جاملوه وتواطأوا معه ؛ لأنه كبيرهم ومُعلِّمهم .

لذلك يتهدّدهم قائلاً : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه]

جاء هذا التهديد والوعيد جزاءً لهم ؛ لأنهم ـ فى نظره ـ هزموه وخذلوه فى معركته الفاصلة أمام موسى عليه السلام ، ومعنى : ﴿مِّنْ خِلَافٍ .. (٧١)﴾ [طه] الخِلاَف أن يأتى شىء على خلاف شىء آخر ، والكلام هنا عن الأيدى والأرجل ، فيكون المراد اليد اليمنى مع الرِّجْل اليسرى ، أو اليد اليُسْرى مع الرِّجْل اليُمْنى .

وقوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ..(٧١)﴾ [طه] المعروف أن التَّصْليب يكون على الجذوع ؛ لذلك حاول بعض المفسرين الخروج من

هذا الإشكال فقالوا : (فى) هنا بمعنى (على) . لكن هذا تفسير لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان القرآنىّ ، ويجب أن نتفق أولاً على معنى التصليب : وهو أن تأتى بالمصلوب عليه وهو الخشب أو الحديد مثلاً ، ثم تأتى بالشخص المراد صلْبه ، وتربطه فى هذا القائم رباطاً قوياً ، ثم تشدّ عليه بقوة .

ولك أنْ تُجرِّب هذه المسألة ، فتربط مثلاً عود كبريت على إصبعك ، ثم تشدُّ عليه الرباط بقوة ، وسوف تجد أن العود يدخل فى اللحم ، ساعتها تقول : العود فى إصبعك ، لا على إصبعك .

إذن قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه] (فى) هنا على معناها الأصلى للدلالة على المبالغة فى الصَّلْب تصليباً قوياً ، بحيث يدخل المصلوب فى المصلوب فيه ، كأنه ليس عليه ، بل داخل فيه .

ثم يقول : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] أينا : المراد فرعون وموسى ، أو فرعون ورب موسى الذى أرسله ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] فجمع فى العذاب شدته من حيث الكيفية ، ودوامه وبقاءه فى الزمن . ولم يذكر القرآن شيئاً عن تهديد فرعون ، أفعله أم لا ؟ والأقرب أنه نفّذ ما هدد به .

وكان من المفروض فى تهديد فرعون أن يأخذ من قلوب السَّحرة ويُرهبهم ، فيحاولون على الأقل الاعتذار عمَّا حدث ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قالوا ما أهاجه أكثر :

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾

الإيثار : تفضيل شيء على شيء في مجال متساوٍ تقول : آثرتُ فلاناً على فلان ، وهما في منزلة واحدة ، أو أن معك شيئاً ليس معك غيره ، ثم جاءك فقير فآثرتَهُ على نفسك .

ومنه قوله تعالى : ﴿ويُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨﴾ [الحشر]

فقولهم . ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. ⑦②﴾ [طه] لأنه قال ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ⑦①﴾ [طه] أنا أمْ موسى ؟ فالمعركة في نظره مع موسى ، فأرادوا أنْ يُواجهوه بهذه الحقيقة التي اتضحتْ لهم جميعاً ، وهي أن المعركة ليستْ مع موسى ، بل مع آيات الله البينات التي أُرسِل بها موسى ، ولن نُفضّلك على آيات الله التي جاءتْنا واضحة بيِّنة .

ولما رأى السحرة معجزة العصا كانوا هم أكثر القوم إيماناً ، وقد وَضُحَ عُمْق إيمانهم لما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ⑦⓪﴾ [طه] ولم يقولوا آمنا بموسى وهارون ، إذن : فإيمانهم صحيح صادق من أول وَهْلة .

وقد تعرضنا لهذه المسألة في قصة سليمان مع ملكة سبأ ، حين قالت . ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ④④﴾ [النمل] فأنا وهو مسلمان لله ، ولم تقل : أسلمت لسليمان ، فهناك رب أعلى ، الجميع مُسلِّم له

إذن فقولُ السَّحَرة لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا . ⑦②﴾ [طه] تعبير دقيق وواعٍ وحكيم ، لا تلحظ فيه ذاتيةَ موسى إنما تلحظُ البينة التي جاء بها موسى من الله .

لذلك يقول تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ[1] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة] ثم يبين عند من جاءت البينة : ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ [البينة]

فالارتقاء من الرسول إلى البينة إلى مَنْ أعطى له البينة ، فهذه مراحل ثلاث .

والبينات : هي الأمور الواضحة التي تحسم كل جَدَلٍ حولها ، فلا تقبل الجدل والمهاترات ؛ لأن حجتها جليّة واضحة .

وقولهم : ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا .. ۝٧٢﴾ [طه] أي : ولن نُؤْثرك أيضاً على الله الذي فطرنا ، أو تكون ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا .. ۝٧٢﴾ [طه] قسَم على ما يقولون ، كما تقول : لن أفعل كذا والذي خلقك ، فأنت تُقسِم ألاَّ تفعل هذا الشيء .

وهذه حيثية عدم الرجوع فيما قالوه وهو الإيمان بربِّ هارون وموسى .

ثم لم يَفُتْهم الإشارة إلى مسالة التهديدات الفرعونية : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ۝٧١﴾ [طه]

لذلك يقولون : ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ .. ۝٧٢﴾ [طه] أي : نفِّذ ما حكمتَ به من تقطيع الأيدي والأرجل ، أو اقْضِ ما أنت قاض من أمور أخرى ، وافعل ما تريد فلم تعُدْ تخيفنا هذه التهديدات ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٧٢﴾ [طه]

---

(١) انفكَّ : انفصل وزال وفارق ما كان عليه . قال تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ .. ۝١﴾ [البينة] أي : زائلين ومنفصلين عما هم فيه حتى جاءتهم البينة . [القاموس القويم ٢/٨٧] .

فأنت إنسان يمكن أن تموتَ في أي وقت ، فما تقضي إلا مُدّة حياتك ، وربما يأتي من بعدك مَنْ هو أفضل منك فلا يدّعي ما ادَّعيْته من الألوهية .

وهَبْ أن مَنْ جاء بعدك كان على شاكلتك ، فحياته أيضاً منتهية ، وحتى لو ظَلَّ ما سننته للناس من ادعاء الألوهية إلى يوم القيامة ، وامتدّ طغيان غيرك من بعدك ، فالمسألة ستنتهي ، ولو حتى بقيام الساعة .

كما سبق أن قُلْنا : إن نعيم الدنيا مهما بلغ فيتهدده أمران : إما أن تفوته أو يفوتك ، أما نعيم الآخرة فنعيم بَاقٍ دائم ، لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

فما دُمْنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رُشْدٌ في تفكيرنا لا يصح أنْ تلومنَا عليه ، ثم أوضحوا حيثية إيمانهم ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه] فالإيمان بالله سينفعنا ، وسيغفر لنا الخطايا وهي كثيرة ، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحر ، فقد صنعوا السحر مُكْرهين ، ومارسوه مُجْبَرين ، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم .

وما أكثر ما يُكْره الناس على أمور لا يرضونها ، وينفذون أوامر وهم غير مقتنعين بها ، خاصة في عصور الطُّغاة والجبّارين ، وقد سمعنا كثيراً عن السَّجانين في المعتقلات ، فكان بعضهم تأتيه الأوامر

بتعذيب فلان ، فماذا يفعل وهو يعلم أنه برىء مظلوم ، ولا يطاوعه قلبه في تعذيبه ، فكان يدخل على المسجون ويقول له : اصرخ بأعلى صوتك ، ويُمثِّل أنه يضربه .

ثم يقولون : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾ [طه] فأنت ستزول ، بل دنياك كلها ستزول بمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة ، ولن يبقى إلا الله ، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب في الدنيا ، أما في الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب . إنما بالمسبب عز وجل دون أسباب .

لذلك إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك ، وهذا نعيم الآخرة ، ولن تصل إليه حضارات الدنيا مهما بلغتْ من التطور .

لذلك في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤) ﴾ [يونس] . فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شيء في دُنْياهم فهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصلوا إليه .

إذن : اجعل الله - تبارك وتعالى - في بالك دائماً يكُنْ لك عوضاً عن كل فائت ، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه . وقد ورد في الحديث القدسي : «إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟! »[1] .

ولما سُئل أحد العارفين : فيم أفنيتَ عمرك ؟ قال : في أربعة أشياء : علمتُ أنِّي لا أخلو من نظر الله تعالى طَرْفَة عَيْن ، فاستحييتُ أن أعصيه ، وعلمتُ أن لي رزْقاً لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعتُ به ، وعلمتُ أن عليَّ ديْناً لا يُؤدِّيه عنِّي غيري فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لي أجلاً يبادرني فبادرته .

---

(١) بالبحث في كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء في كتاب « حلية الأولياء » (٨/١٤٢) قال رجل لوهيب بن الورد قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك . وجاء في كتاب جامع العلوم والحكم (١/٣٦) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع ، فقال : اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه .

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله .

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان ، فقالوا :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه] يعني مُجرِماً عمل الجريمة ، والجريمة أنْ تكسر قانوناً من قوانين الحق - عز وجل - كما يفعل البشر في قوانينهم ، فيضعون عقوبة لمَنْ يخرج عن هذه القوانين ، لكن ينبغي أن تُعيَّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس ، فإذا ما وقع أحد في الجريمة فقد أعذر من أنذر .

إذن : لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة ، ولا توجد جريمة إلا بنص .

وقوله : (يَأْتِ) أي : هو الذي سيأتي رغم إجرامه ، ورغم ما ينتظره من العذاب . لكن لماذا خاطبوه بلفظ الإجرام ؟ لأنه قال : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..﴿٧١﴾ ﴾ [طه] ولم يفعلوا أكثر من أنْ قالوا كلمة الحق ، فأيُّنا إذنْ المجرم ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه]

لأن الموت سيُريحهم من العذاب ؛ لذلك يتمنَّوْنَ الموت ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فيأتي رده ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

وفَرْقٌ بين عذاب وموت ، فالموت إنهاء للحياة ، وليس بعد الموت إيلام ، أمَّا العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة ؛ لأنه إيلام حَيٍّ .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لما عرض لهذه المسألة في قصة سليمان عليه السلام والهدهد وأن سليمان قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] فالعذاب شيء ، والذبح شيء آخر ؛ لأنه إنهاء للحياة الحاسة .

ومعنى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) ﴾ [طه] أن هناك مرحلة وحلقة بين الموت والحياة ، حيث لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياةً سالمة من العذاب ، فبقاؤهم في جهنم في هذه المرحلة ، التي لا هي موت ولا هي حياة .

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) ﴾

فكأنهم كانوا يشيرون بقولهم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. (٧٤) ﴾ [طه] إلى فرعون ، والآن يشيرون إلى أنفسهم ، وما سلكوه من طريق الإيمان ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ .. (٧٥) ﴾ [طه]

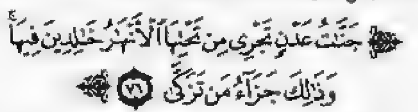
فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الإيمان هو الينبوع الوجدانى الذى تصدر عنه الحركات النزوعية على وَفْق المنهج الذى آمنت به ، وإلا فما فائدة أنْ تؤمنَ بشيء ، ولا تعمل له ، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) ﴾ [طه] الدرجات أى : درجات الجنة ، فالجنة درجات ، بعضها فوق بعض ، أما النار فدركات ، بعضها تحت بعض .

وقد جعل الحق - تبارك وتعالى - الجنة درجات ؛ لأن أهلها متفاوتون فى الأعمال[1] ، كما أنهم متفاوتون حتى فى العمل الواحد ؛ لأن مناط الإخلاص فى العمل متفاوت .

لذلك جاء فى الأثر : « الناس على خطر إلا العالمون ، والعالمون على خطر إلا العاملون ، والعاملون على خطر إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

والعُلاَ : جمع عُليا . فما الدرجات العُلاَ ؟



عدن : أى إقامة . منْ عَدَنَ فى المكان : أقام فيه ، فالمراد جنات أُعِدَّتْ لإقامتك ، وفرْقٌ بين أنْ تُعِد المكان للإقامة وأنْ تُعِدَّ مكاناً

(١) أخرج ابن المبارك فى الزهد (ص ٣٣) (رقم ٩٩) وأبو نعيم فى الحلية (٤\٢٤٧)عن عون بن عبد الله قال : إن الله ليدخل خلقاً الجنة فيعطيهم حتى يملوا ، وفوقهم ناس فى (الدرجات العلى) فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون : يا ربنا إخواننا كنا معهم فبم فضلتهم علينا ؟ فيقال : هيهات ، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمأون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويشخصون حين تخفضون .

لعابر ، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حَسْب المعدّ وإمكاناته ، فالإنسان العادى يُعد مكاناً غير الذى يعده عظيم من العظماء ، فما بالك إذنْ بمكان أعدَّه لك ربك - عز وجل - بقدراته وإمكاناته ؟

وقوله : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦) ﴾ [طه]

نعلم أن الماء من أهم مقومات الحياة الدنيا ، فبه تنبت الأرض النبات ، وفيه تذوب العناصر الغذائية ، وبدونه لا تقوم لنا حياة على وجه الأرض . والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يُنزل مطراً من السماء قد لا ينتفع بالمطر مَنْ نزل عليه المطر ، فربما نزل على جبل مثلاً ، فالنيل الذى نحيا على مائه يأتى من أين ؟ من الحبشة وغيرها .

لذلك جعل الخالق - عز وجل - كلمة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٧٦) ﴾ [طه] رمزاً للخضرة وللنضارة وللنماء وللحياة السعيدة الهانئة ، حتى الإنسان وإنْ لم يكُنْ محتاجاً للطعام بأنْ كان شبعان مثلاً ، يجد لذة فى النظر إلى الطبيعة الخضراء ، وما فيها من زرع وورود وزهور ، فليس الزرع للأكل فقط ، بل للنظر أيضاً ، وإنْ كنتَ تأكل فى اليوم ثلاث مرات ، والأكل غذاء للجسم ، فأنت تتمتع بالمنظر الجميل وتُسَرُّ به كلما نظرتَ إليه ، والنظر متعة للروح ، وسرور للنفس .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : لا تقصروا انتفاعكم بنعم الله على ما تملكون ، فتقول مثلاً : لا آكل هذه الفاكهة لأنها ليست ملْكى ، لأن هناك متعةً أخرى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] فقبل أن تأكل انظر ، فالنظر متعة ، وغذاء مستمر .

---

(١) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . والوصف منه يانع ، أى : ناضج . قال تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] أى : نضجه واختلاف طعمه بعد النضج . [القاموس القويم ٢/٣٧٢] .

فقوله تعالى : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴿٧٦﴾﴾ [طه] لأن ظاهرة جريان الأنهار في الدنيا وسيلة للخُضْرة والخصْب والإيناع ، و ﴿مِن تَحْتِهَا .. ﴿٧٦﴾﴾ [طه] أي : أن الماء ذاتيّ فيها ، ونابع منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ، ربما يُمنَع عنك أو تُحرم منه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة] فتحتها أنهار جارية ، لكن مصدرها ومنبعها من مكان آخر .

ونسب الجريان إلى النهر ، لا إلى الماء للمبالغة . فالنهر هو المجرى الذي يجري فيه الماء .

ثم يقول تعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. ﴿٧٦﴾﴾ [طه] وهذا هو التأمين الحقّ للنعيم ؛ لأن آفة النعم أنْ تزولَ ، إمّا بأن تفوتها أنت أو تفوتك هي ، أما نعيم الجنة فقد سلّمه الله تعالى من هذه الآفة ، فهو خالد بَاقٍ ، لا يزول ولا يُزال عنه .

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه] الزكاة : تُطلَق على الطهارة وعلى النماء ، فالطهارة : أن يكون الشيء في ذاته طاهراً ، والنماء : أنْ توجَد فيه خصوصية نمو فيزيد عمّا تراه أنت عليه .

كما ترى مثلاً الورد الصناعي والورد الطبيعي في البستان ، وفيه المائية والنضارة والرائحة الطيبة والألوان المختلفة والنمو ، وكلها صفات ذاتية في الوردة ، على خلاف الورد الصناعي فهو جامد على حالة واحدة .

وهذا هو الفرق بين صَنْعة البشر وصَنْعة الخالق للبشر ؛ لذلك كانت صنعة الله أخلد وأبقى ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

وتلحظ أنه لم يَضِنّ عليك بصفة الخَلْق ؛ لأنك استعملتَ الأسباب وأعملتَ الفكر ، فكان لك شيء من الخلق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين ؛ لأنك خلقتَ من باطن خَلْقته ، خلقتَ من موجود ، وهو سبحانه يخلق مِنْ عدم ، خلقتَ شيئاً جامداً لا حياة فيه ، وخلق سبحانه شيئاً حياً نامياً ، يتكاثر بذاته .

ومن هنا سُمِّى المال الذى تُخرجه للفقراء زكاةً ؛ لأنه يُطهِّر الباقى ويُنمِّيه . ومن العجائب أن الله تعالى سمَّى ما يخرج من المال زكاة ونماءً ، وسمَّى زيادة الربا مَحْقاً .

فمعنى : ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾ [طه] أى : تطهَّر من المعاصى ، ثم نَمَّى نفسه ، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن فى درجات الوصول للحق ، فهو مؤمن بداية ، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقى يوماً بعد يوم ، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُرْبه من ربه ، وازدادت فيوضات الله عليه . والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة .

إذن : زكَّى نفسه : طهَّرها أولاً ، ثم يُنمِّيها ثانياً ، كمَنْ يريد التجارة ، فعليه أولاً أن يأتى برأس المال الطاهر من حلال ثم يُنمِّيه ، لكن لا تأتى برأس المال مُدنَّساً ثم تُنمِّيه بما فيه من دَنَسٍ .

وكلما نَمَّى الإنسانُ إيمانَهُ ارتقى فى درجاته ، فكانت له الدرجات العُلاَ فى الآخرة .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا[2] لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾

---

(١) سَرَى يَسْرِى : سار ليلاً .

(٢) قال محمد بن كعب : يبساً : أى يابساً ليس فيه ماء ولا طين [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/ ٥٩٠ . وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

كان هذا الوحي لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن انتهت المعركة ، وانتصر فيها معسكر الإيمان ، أما فرعون فقد خسر سلاحاً من أهمّ أسلحته وجانباً كبيراً من سَطْوته وجبروته .

وهنا جمع موسى بنى إسرائيل ، وهم بقايا ذرية آل يعقوب ليذهب بهم إلى أرض الميعاد ، وسرعان ما أعدَّ فرعون جيشه وجمع جموعه ، وسار خلفهم يتبعهم إلى ساحل البحر ، فإذا بموسى وقومه مُحَاصرين : البحر من أمامهم ، وفرعون بجيشه من خلفهم ، وليس لهم مَخْرج من هذا المأزق .

هذا حُكْم القضايا البشرية المنعزلة عن ربِّ البشر ، أما فى نظر المؤمن فلها حلٌّ ؛ لأن قضاياه ليست بمعزل عن ربه وخالقه ؛ لأنه مؤمن حين تصيبه مصيبة ، أو يمسه مكروه ينظر فإذا ربُّه يرعاه ، فيلجأ إليه ، ويرتاح فى كَنَفه .

لذلك يقولون : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، وما دام لى رب ألجأ إليه فليست هناك معضلة ، المعضلة فيمن ليس له رَبٌّ يلجأ إليه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ لو أن إنساناً معه فى جيبه جنيه ، فسقط منه فى الطريق ، فإذا لم يكُنْ عنده غيره يحزن أمّا إنْ كان لديه مال آخر فسوف يجد فيه عِوَضاً عمّا ضاع منه ، هذا الرصيد الذى تحتفظ به هو إيمانك بالله .

وهنا جاء الأمر من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ ليُخرجه وقومه من هذا المأزق : ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. ﴿٧٧﴾﴾ [طه]

أَسْرِ : من الإسراء ليلاً ، أى : السير ؛ لأنه أستر للسائر .

وقوله ﴿ بِعِبَادِي .. (٧٧) ﴾ [طه] كلمة « عبد » تُجمع على « عبيد » و « عباد » والفَرْق بينهما أن كل مَنْ في الكون عبيد لله تعالى ؛ لأنهم وإنْ كانوا مختارين في أشياء ، فهم مقهورون في أشياء أخرى ، فالذي تعوَّد باختياره على مخالفة منهج الله ، وله دُرْبة على ذلك ، فله قَهْريات مثل المرض أو الموت .

أما العباد فهم الصَّفْوة التي اختارت مراد الله على مرادها ، واختياره على اختيارها ، فإنْ خيَّرهم : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] خرجوا عن اختيارهم لاختيار ربهم .

لذلك نسبهم الله إليه فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢) ﴾ [الحجر] وقال عنهم : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧) ﴾ [طه] : أي : يابساً جافاً وسط الماء .

والضرب : إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرْب العملة أي : سكُّها وختمها ، فبعد أنْ كان قطعةَ معدن أصبح عملة متداولة .

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر وانحسر الماء عن طريق جافٍّ صالح للمشي بالأقدام ، وهذه مسألة لا يتصورها قانون البشر ؛ لذلك يُطمئنه ربه ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧) ﴾ [طه] أي : من فرعون أنْ يُدركك ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه] أي : غرقاً من البحر ؛ لأن الطريق مضروب أي : مُعَد ومُمهَّد وصالح لهذه المهمة .

وهذه معجزة أخرى لعصا موسى التي ألقاها ، فصارت حية

تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق فصار ما تحت العصا طريقاً يابساً ، وما حولها جبالاً ﴿ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ[1] الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] وهى التى ضرب بها الحجر فانبجس[2] منه الماء .

والسياق هنا لم يذكر شيئاً عن الحوار الذى دار بين موسى وقومه حينما وقعوا فى هذه الضائقة ، لكن جاء فى لقطة أخرى من القصة حيث قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

وبتعدد اللقطات فى القرآن تكتمل الصورة العامة للقصة ، وليس فى ذلك تكرار كما يتوهّم البعض .

فقبل أنْ يُوحي إليه : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه] قال القوم ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فقال (كَلاَّ) . لكن كيف يقولها قَوْلة الواثق وما يخافون منه محتمل أنْ يقع بعد لحظة ؟

نقول : لأنه لم يقل (كَلاَّ) من عنده ، لم يَقُلْها بقانون البشر ، إنما بقانون خالق البشر ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فأنا لا أغالطكم ، ولستُ بمعزل عن السماء وتوجيه ربى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٢) البجس : انشقاق فى قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء . وانبجس الماء : تفجّر . قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]. غشيهم يعنى : غطَّاهم الماء، وقد أبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهوْله ، وأنه فوق الحَصْر والوصف ، كأن تقول فى الأمر الذى لا تقدر على تفصيله : حصل ما حصل .

وفى لقطة أخرى لهذه الحادثة يُبيِّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن عبر بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته فلا يتمكن فرعون من اللحاق به ، لكن توجيهات ربه لها شأن آخر ، فأوحى الله إليه : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أى : اتركه كما هو لا تُعدْه إلى استطراق سيولته ، فكما أنجيتك بالماء سأتلف عدوك بالماء ، فسبحان مَنْ يُنجى ويُهلك بالشىء الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾

وسبق أن قال فرعون لقومه . ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]

فأين سبيل الرشاد الذى تحدَّث عنه فرعون بعدَ أنْ أطبق الله عليهم البحر ؟ لقد سُقْتَهم إلى الهلاك ، ولم تسلك بهم مناط النجاة والهداية . فأنت ـ إذن ـ كاذب فى ادعاء سبيل الرشاد ؛ لأنك أضللتَهم ما هديتهم ، وأهلكتهم ما نجَّيتهم .

---

(١) رها البحر رهواً : سكن فهو راه . فقوله ﴿واترك البحر رهواً .. (٢٤)﴾ [الدخان] أى : اتركه ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه . أو : كن يا موسى هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ[1] وَٱلسَّلۡوَىٰ[2] ﴿٨٠﴾ ﴾

لله عز وجل على بنى إسرائيل مِنَنٌ كثيرة ونِعَم لا تُعَدُّ ، كان مقتضى العبادية التى وصفهم بها ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى .. ﴿٧٧﴾﴾ [طه] أن يُنَفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذِكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمة من نِعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء .

والحق - تبارك وتعالى - هنا يُذكِّرهم ببعض نعمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء ﴿يَٰبَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] وإسرائيل يعنى عبد الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب .. الورع ، فالحق يُذكّرهم بأصلهم الطيب ، وينسبهم إلى نبى من أنبيائه ، كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج ، وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] أى : من

---

(١) المنُّ : طلٌّ ينزل من السماء يشبه العسل كان ينزل على بنى إسرائيل عفواً بلا علاج فيصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه . [لسان العرب - مادة : منن] .

(٢) السلوى : طائر أبيض مثل السُّمانى . [لسان العرب - مادة : سلا] . قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم (٣٢٦/١) . « هو السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة ، ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى موطنه فى أوربا وهو طعام جيد ولحمه كالحمام أو هو أشهى ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده » .

فرعون الذى استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحى[1] نساءكم ويُسخِّرهم في الأعمال دون أجر ، وفعل بكم الأفاعيل ، ثم ﴿وواعدناكم جانب الطُّورِ الأيمن .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة . إذن : خلَّصناكم من أذى ، وواعدناكم لنعمة .

﴿وواعدناكم .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] واعد : مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل : شارك وخاصم ، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً : الله عز وجل وبني إسرائيل ؟ الوَعْد كان من الله تعالى ، لكن لم يقُلْ القرآن : وعدناكم . بل أشرك بني إسرائيل في الوعد ، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشيء ووافقتَ ، فكأنك دخلتَ في الوعد .

وجانب الطور الأيمن : مكان تلقِّي منهج السماء ، وهو مكان بعيد في الصحراء ، لا زرعَ فيه ولا ماء ؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقيتهم ﴿ونزَّلنا عليكم المنَّ والسَّلْوى ﴿٨٠﴾﴾ [طه]

المنّ : سائل أبيض يشبه العسل ، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار ، وفي الصباح يجمعونه كطعام حلو ، وهذه النعمة ما زالت موجودة في العراق مثلاً ، وتقوم عليها صناعة كبيرة هي صناعة المنّ .

والسَّلْوى : طائر يشبه طائر السُّمان .

وهكذا وفَّر لهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل ، وطائر شهي دون تعب منهم ، ودون مجهود ، بل يرونه بين أيديهم مُعَدّاً جاهزاً ، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا :

---

(١) استحيا النساء : استبقاهن ولم يقتلهن . [لسان العرب ـ مادة : حيا] .

﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وفى سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التى صاحبتهم فى جَدْب الصحراء نعمة أخرى ، فقال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ .. (٥٧) ﴾ [البقرة] أى : حَمَيْناكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون فى هذه الصحراء .

ونلحظ اختلاف السياق هنا (نَزَّلْنَا) ، وفى البقرة قال : (أَنزَلْنَا) ؛ ذلك لأن الحق - تبارك وتعالى - يعالج الموضوع فى لقطات مختلفة من جميع زواياه ، فقوله (أَنزَلْنَا) تدل على التعدِّى الأول للفعل ، وقد يأتى لمرة واحدة ، إنما (نَزَّلْنَا) فتدلُّ على التوالى فى الإنزال .

وأهل الريف فى بلادنا يُطلقون المنَّ على مادة تميل إلى الحمرة الداكنة ، ثم تتحول إلى السواد ، تسقط على النبات ، لكنها ليست نعمةً ، بل تُعَدُّ آفة من الآفات الضارة بالنبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) ﴾

(١) البقل : نبات عشبى يؤكل أو تؤكل بذوره ، أو : هو كل ما اخضرت به الأرض . [القاموس القويم ١/٧٨] .

والقثاء : الخيار ، والمعروف أنه أكبر من الخيار وأطول ومختلف عنه ، وهما من فصيلة واحدة . [القاموس القويم ٢/١٠٦] .

والفوم : هو الثوم ، وهو من مشهيات الطعام ، وقيل أقوال أخرى . [القاموس القويم٢/٩٢] .

الطعام والشراب والهواء مُقوِّمات الحياة التى ضمنها الله عز وجل لنا ، والأمر بالأكل هنا للإباحة ، وليس فَرْضاً عليك أنْ تأكل إلا إذا أردتَ الإضراب عن الطعام إضراباً يضرُّ بحياتك فعندها تُجبر عليه .

وقوله : ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١)﴾ [طه] خصَّ الطيبات ؛ لأن الرزق : منه الطيب ، ومنه غير الطيِّب ، فالرزق : كُلّ ما انتفعتَ به ولو كان حراماً ، بمعنى أن ما نلْتَه من الحرام هو أيضاً من رزقك إلا أنك تعجَّلته بالحرام ، ولو صبرْتَ عليه وعففْتَ نفسك عنه لَنِلْتَ أضعافه فى الحلال .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ .. (٨١)﴾ [طه] وفى آية البقرة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] فكأن ظلمَ النفس علّته أنهم طَغَوْا فى الأكل من الرزق .

والطغيان : من طغى الشىء إذا زاد عن حَدِّه المألوف الذى ينتفع به ، ومنه طغيان الماء إذا زاد عن الحدِّ الذى يزيل الشَّرق والعطش إلى حدٍّ أنه يُغرق ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى : تجاوز الحد الذى ينتفع به إلى العَطَب والهلاك .

وهكذا فى أى حَدٍّ ، لكن كيف تتأتى مجاوزة الحد فى الطعام والأقوات ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لما خلق الأرض قدَّر فيها أقواتها إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فاطمئنوا إلى هذه المسألة ، وإذا رأيتم الأرض لا تعطى فلا تتهموها ، إنما اتهموا أنفسكم بالتقصير والتكاسل عن عمارة

الأرض وزراعتها ، كما أمركم الله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وقد غفلنا زمناً عن هذه المسألة ، حتى فاجأتنا الأحداث بكثرة العدد وقلّة المدد ، فكان الخروج إلى الصحراء وتعميرها .

وما دام أن الخالق - عز وجل - خلق لنا أرزاقنا ومُقوِّمات حياتنا ، وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذى كرّمه وجعله خليفة له فى الأرض ، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقوِّمات حدوداً حدَّها وبيَّنها هى (الحلال) ، فلا ينبغى لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى فى تناول طعامك وشرابك .

ونحن نرى حتى الآلات التى صنعها البشر ، لكل منها وقودها الخاص ، وإذا أعطيتها غيره لا تؤدى مهمتها ، فمثلاً لو وضعت للطائرة سولاراً لا تتحرك ، فليس هو الوقود المناسب لطبيعتها .

إذن : حدودك فى مُقوِّمات حياتك الحلال ، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل فى الأشياء أنها حلال ، والكثير هو المحلل لك ، أما المحرم عليك فهو القليل المحصور الذى يمكن تحديده .

لذلك يقول عز وجل : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ مثلاً فى آية أخرى : تعالوا أتْلُ ما أحل الله لكم ؛ لأنها مسألة تطول ولا تحصى .

إذن : ساعةَ أعطاك ربك قال لك : هذا رزقُك الحلال الخالص ، ومنه وقودك ومُقوِّمات حياتك ، وبه بقاؤك ونشاط حركتك . فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قِلَّته وانحصاره فى عدَّة أنواع ، بيَّنها لك وحذَّرك منها .

وبالغذاء تتم فى الجسم عملية (الأيْض) يعنى : الهدم والبناء ، وهى عملية مستمرة فى كل لحظة من لحظاتك ، فإياك أنْ تبنى ذرّة

من ذراتك من الحرام ؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تُشاغبك وتُلح عليك كي تُوقعك في أصلها .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك »[1] .

ذلك لأن ذرات بنائه غير منسجمة ، لأنها تَمتْ على وقود ما أحله الله له .

لذلك تسمع من بعض المتمحكين : ما دام أن الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه ؟ نقول : لقد فهمتَ أن كل مخلوق خُلق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ، فالله خلق البترول الذى تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة ؟

إذن : فَرْق بين شيء مخلوق لشيء ، وأنت توجهه لشيء آخر ، هذه تسمى إحالة أى : تحويل الشيء إلى غير ما جُعِل له ، وهذا هو الطغيان فى القُوت ؛ لأنك نقلتَ الحرام إلى الحلال .

وقد يأتى الطغيان فى صورة أخرى ، كأن تأكل ما أحلَّ الله من الطيبات ، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسْب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالة عليه ، فإلى جانب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أنك تتغذّى على الحرام فأنت أيضاً تُزهّد غيرك في الحركة والإنتاج والملك، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صُوراً متعددة في مجتمعاتنا، فيمكن أن ندرج تحته: الغصب، والخطف، والسرقة، والاختلاس، والرشوة، وخيانة الأمانة، وخداع مَن استأجرك إلى غير ذلك من أخْذ أموال الناس بالباطل ودون وَجْه حق، وكل عمل من هذه التعديات له صورته.

فالخطف: أنْ تخطف مال غيرك دون أنْ يكون في متناول يد المخطوف منه ثم تَفِر به، فإنْ كان في متناول يده وأنت غالبته عليه، وأخذته عُنْوة فهو غَصْب مأخوذ من: غَصْب الجلد عن الشاة أي: سلخه عنها. فإنْ كان أخذ المال خُفْية وهو في حِرْزه فهي سرقة. وإن كنت مُؤتمناً على مال بين يديك فأخذتَ منه خفية فهو اختلاس.. الخ.

إذن: أحل الله لك أشياءً، وحرَّم عليك أخرى، فإنْ كان الشيء في ذاته حلالاً فلا تأخذه إلا بحقِّه حتى يحترم كل منّا عمل الآخر وحركته في الحياة وملكيته للأشياء، وبذلك تستقيم بنَا حركة الحياة، ويسعد الجميع، ونعين المنفق، ونأخذ على يد المتسيِّب البلطجي.

وللإسلام منهج قويم في القضاء على مسألة البطالة، تأخذ به بعض النظم الحديثة الآن، وهو أن الشرع يأمر للقضاء على البطالة أن تحفر بئراً وتطُمّها: أي احفرها وارْدِمها ثم اعْطِ الأجير فيها أجره. كيف هذا؟ تحفر البئر ولا تستفيد منها وتردمها فما الفائدة؟ ولماذا لم نعط الأجير أجره دون حفر ودون ردم؟

قالوا: حتى لا يتعوَّد على الخمول والكسل، وحتى لا يأكل إلاَّ من عرقه وكَدِّه، وإلا فسد المجتمع.

وللطغيان في القوت صورة أخرى ، هي أن تستخدم القوت الذي جعله الله طاقةً لك في حركة الحياة النافعة ، فإذا بك تصرف هذه الطاقة التي أنعم الله بها عليك في معصيته .

وهكذا ، كان الطغيان هو علة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ .. (١١٨)﴾ [النحل] أي : بالعقوبة ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] أي : بالطغيان .

ثم يقول تعالى : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١)﴾ [طه] الفعل : حَلَّ ، يحلّ يأتي بمعنى : صار حلالاً ، كما تقول للسارق : حلال فيه السجن ، وتأتي حلَّ يحل بمعنى : نزل في المكان ، تقول : حلَّ بالمكان أي : نزل به . فيكون المعنى : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١)﴾ [طه] أي : صار حلالاً ، ووجب لكم ، أو بمعنى : ينزل بكم . وقد يكون المعنى أعمَّ من هذا كله .

والغضب انفعال نفسيٌّ يُحدث تغييراً في كيماوية الجسم ، فترى الغاضب قد انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه ، وتغيَّرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال ، فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ؛ لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾ [طه] مادة : هَوَى لها استعمالان ، الأول : هَوَى يهْوِي : يعني سقط من أعلى سقوطاً لا إرادةَ له في منعه ، كأن يسقطَ فجأة من على السطح مثلاً ، ومن ذلك قوله :

* هُوِيّ الدلو أسْلَمَها الرِّشاء[1] *

إذا انقطع الحبل الذى يُخرِج الدَّلْو .

والآخر : هَوِيَ يهْوَى : أى أحبَّ .

فيكون المعنى ﴿فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة فى الحياة ، أو هَوَى فى الدنيا ، ويَهوى فى الآخرة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة] فأمه ومصدر الحنان له هاوية ، فكيف به إذا هوى فى الهاوية ؟

هذه كلها عظات ومواعظ للمؤمن ، يُبيِّنها الحق - سبحانه وتعالى - له - كى يبنىَ حركة حياته على ضَوْئها وهُدَاها .

ولما كان الإنسان عُرْضة للأغيار لا يثبتُ على حال يتقلَّب بين عافية ومرض ، بين غِنىً وفقر ، فكُلُّ ما فيه موهوب له لا ذاتيٌّ فيه ، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شىء من النعمة ؛ لأنها لن تبقى ولن تدوم ، وهَبْ أنك بلغتَ قمة النعيم ، فماذا تنتظر إلا أنْ تزول ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىْءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا تَمَّ لك الشىء ، وأنت ابْنُ أغيار ، ولا يدوم لك حال فلا بُدَّ لك أنْ تنحدر إلى الناحية الأخرى .

فكأن نقْصَ الإنسان فى آماله فى الحياة هى تميمة حراسة

---

(١) الرِّشاء : الحبل . وأرشى الدلو : جعل لها رشاء أى حبلاً . [لسان العرب - مادة : رشا] . وقد ذكر ابن منظور هذا الشطر فى [لسان العرب - مادة : هوى] قال : « قال ابن برى : ذكر الرياشى عن أبى زيد أن الهَوِى بفتح الهاء إلى أسفل ، وبضمها إلى فوق» .

النِّعَم ، وما فيه من نَقْص أو عيب يدفع عنه حَسَد الحاسد ، كما قال الشاعر في المدح :

شَخَصَ الأنَامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أعينهمْ بِعيْبٍ وَاحِدِ

أي : أن الأعين متطلعة إليك ، فاصرفها عنك ، ولو بعيب واحد يذكره الناس وينشغلون به .

وفي الريف يعيش بعض الفلاحين على الفطرة ، فإنْ رُزِق أحدهم بولد جميل وسيم يُلفِت نظر الناس إليه ، تراهم يتعمدون إهمال شكله ونظافته ، أو يضعون له (قاسوخة) دَفْعاً للحسد وللعين .

لذلك ، فالمرأة التي دخلت على الخليفة ، فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته ، وأقرَّ عينك ، ففهم الحضور أنها تدعو له ، فلما خرجتْ قال الخليفة : أعرفتم ما قالت المرأة ؟ قالوا : تدعو لك ، قال : بل تدعو عليَّ ، فقد أرادت بقولها : أتمَّ الله عليك نعمته تريد زوالها ؛ لأن النعمة إذا تمت لم يَبْقَ لها إلا الزوال ، وقولها : أقرَّ الله عينكَ تريد : أسكنها عن الحركة .

إذن : لا تغضَب إنْ قالوا عنك : ناقص في كذا ، فهذا النقص هو تميمة الكمال ، ويريدها الله لك لمصلحتك أنت .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فلا بُدَّ أنْ يغفل عن منهج الله ، فتكون له سَقَطات وهَفَوات تحتاج إلى غفران ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢ ﴾

غفار : صيغة مبالغة من غفر ، فإذا أثبت المبالغة فالترتيب اللغوي بالتالي يُثبِت الأقلَّ وهو غافر ، هذا في الإثبات . وكذلك في النفي في

مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] فنفى المبالغة في الظلم ، فهل يعني ذلك أنه - تبارك وتعالى - يمكن أن يكون ظالماً ؟

والشيء يُبالغ فيه لأمرين : الأول : أن تبالغ في نفس الحدث ، كأن تأكلَ رغيفاً في الوجبة أو رغيفين ، وآخر يأكل خمسة أرغفة ، فهذه منه مبالغة في نفس الحدث وهو الأكل ، والثاني : قد تكون المبالغة بتكرار الحدث ، فالعادة أن نأكل ثلاث مرات ، وهناك مَنْ يأكل ستّ وجبات ، ونسميه (أكول) أي : كثير الأكل ، لا في الوجبة الواحدة ، إنما في عدد الوجبات .

فمعنى (غَفَّارٌ) غافر لي ، وغافر لك ، وغافر لهذا وهذا .. غافر لكل الخَلْق ، فتكررت مغفرته عز وجل لخَلْقه .

وقد شرع الحق - سبحانه وتعالى - المغفرة والتوبة ليحمي المجتمعات من شرار الناس فيها ، فالشرير إذا ارتكب جريمة ولم يجد له فرصة للمغفرة والتوبة ، فإنه يستمرئ الجريمة ، بل ويبالغ فيها .

أما إذا فُتح له باب التوبة والمغفرة فإن هذا يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والله - عز وجل - ليس غافراً للذنوب فحسب ، بل هو غفار لها ، وكلما عدت إليه غفر لك ، ولكن وَطِّن نفسك أنك إذا فعلت الذنب وتُبْتَ منه فلا تعد إليه ، ولا ترتب وتخطط لمعصيتك على أمل أن تتوب ، فما يدريك أن تعيش إلى أن تتوب ؟

والمغفرة تكون ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [طه] وما دام قال ﴿تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [طه] فلابدَّ أن التوبة هنا عن الكُفْر ، ثم أنشأ

إيماناً بالله وبرسوله . والإيمان هو الينبوع الذى يصدر عنه السُّلوك البشرى ، وهذا يقتضى أن تسمع كلامه وتُنفِّذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وهذا هو المراد بقوله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه]

لكن ، أليس العمل الصالح هداية ؟ فلماذا قال بعدها ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه] قالوا[1] : لأن الهداية أنْ تستمر على هذا العمل الصالح ، وأنْ تستزيدَ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ[2] عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾

نقول : ما أعجلك ؟ يعني : ما أسرع بك ؟ لماذا جئتَ قبل موعدك ؟ وكان موسى عليه السلام على موعد مع ربه - عز وجل - ليتلقى عنه المنهج ، والمفروض فى هذا اللقاء أنْ يأتيَ معه مجموعة

---

(١) قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما ، وقد ذكره القرطبى في تفسيره (٦/٤٤٠٤) وذكر بعده سبعة أقوال أخرى :
- أي : لم يشك فى إيمانه . قاله ابن عباس ، وذكره الماوردى والمهدوى .
- أقام على السنة والجماعة . قاله ابن عباس أيضا ، وذكره الثعلبى .
- أخذ بسنة النبى ﷺ . قاله أنس ، وذكره المهدوى .
- أصاب العمل . قاله ابن زيد . ذكره المهدوى .
- تعلم العلم ليهتدي كيف يفعل . قاله ابن زيد .
- علم أن لذلك ثوابا وعليه عقابا . قاله الشعبى ومقاتل والكلبى والفراء .
- اهتدى فى ولاية أهل بيت النبى ﷺ . قاله ثابت البنانى .
ثم قال القرطبى « والقول الأول أحسن هذه الأقوال - إن شاء الله - وإليه يرجع سائرها » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦ / ٤٤٠٦) : « قال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم . وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا .. ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

من صفْوة قومه ورؤسائهم ، فتعجل موسى موعد ربه ، وذهب دون قومه ، فقال له : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾ [طه] أي : أسرعتَ وتعجلْتَ وجئْتَ بدونهم .

فقال موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾

أي : قادمين خلفي وسيتبعونني ، أما أنا فقد ﴿ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه] تعجلْتُ في المثول بين يديك لترضى .

وقد تعجَّل موسى إلى ميقات ربه ، وسبق قومه لحكمة ، فالإنسان حين يأمر غيره بأمر فيه مشقَّة على النفس وتقييد لشهواتها ، لا بُدَّ أن يبدأ بنفسه يقول : أنا لست بنجْوَة عن هذا الأمر ، بل أنا أول مَنْ أنفِّذ ما آمركم به ، وسوف أسبقكم إليه .

لذلك يقول القائد الفاتح طارق بن زياد[1] لجنوده : « واعلموا أني إذا التقى الفريقان مُقبل بنفسي على طاغية القوم - لزريق - فقاتله إن شاء الله ، فإن قتلته فقد كُفِيتم أمره » وهكذا تكون القيادة قدوة ومثلاً كما يقولون في الأمثال (اعمل كذا وإيدي في إيدك) وهنا يقول : يدي قبل يدك .

فموسى عليه السلام يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه] ترضى أن منهجك يُطبَّق من جهتي كرسول مؤتمن عليه ، ومن جهة قومي ؛ لأنهم حين يرونى قد تعجلت القائد في الموعد يعلمون

(١) هو : طارق بن زياد الليثي بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، فكان من أشد رجاله ولد نحو ٥٠ هـ ، تغلغل في أرض الأندلس ، وتوفي عام ١٠٢ هـ . [الأعلام - للزركلي - ٣/٢١٧] .

أن فى ذلك خيراً لهم ، وإلا ما سبقتهم إليه . وبذلك يسود منهج الله ويُمكَّن فى الأرض ، وإذا ساد منهج الله رضى الله عن خليفته فى الأرض .

ثم يُخبر الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - بما كان من قومه بعد مفارقته لهم من مسألة عبادة العجل .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

الفتنة : ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، ونتيجته هى التى تُحمَد أو تُذمّ ، كما لو دخل التلميذ الامتحان فإنْ وُفِّق فهذا خير له ، وإنْ أخفق فهذا خير للناس ، كيف ؟

قالوا : لأن هناك أشياءَ إنْ تحققتْ مصلحة الفرد فيها انهدمتْ مصلحة الجماعة . فلو تمكَّن التلميذ المهمل الكَسُول من النجاح دون مذاكرة ودون مجهود ، فقد نال انتفاعاً شخصياً ، وإنْ كان انتفاعاً أحمق ، إلا أنه سيعطى الآخرين إشارة ، ويُوحِى لهم بعدم المسئولية ، ويفرز فى المجتمع الإحباط والخمول ، وكفى بهذا خسارة للمجتمع .

وقد جاءتْ الفتنة بهذا المعنى فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : لابد من الاختبار لكى يعطى كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم ؟ نقول : بل ليعلم

الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط في معاملتهم .

إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .

أو : لأن الاختبار من الله لقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول : لو أعطاني الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضع في الاختبار الحقيقي وأُعْطِي المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندي كنتُ فعلت كذا وكذا .

فهناك علْم واقع من الله ، أو علم من خَلْق الله لكل مَنْ يفتن ، فإنْ كان مُحْسناً يقتدون به ، ويقبلون عليه ، ويحبونه ويستمعون إليه ، وإلاَّ انصرفوا عنه . فالاختبار - إذن - قصدُه المجتمع وسلامته .

وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بني إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة ، ثم نسبها إلى نفسه ﴿ فَتَنَّا .. (٨٥) ﴾ [طه] أي : اختبرنا .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) ﴾ [طه] أضلهم : سلك بهم غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط ، وقد تتعدَّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال ، فيحمل وزره ووِزْر غيره ممَّنْ أضلّهم .

وفي هذه المسألة يقول تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم .. (٢٥) ﴾ [النحل]

مع أن الله تعالى قال في آية أخرى : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. (١٨) ﴾ [فاطر]

وهذه من المسائل التي توقَّف عندها بعض المستشرقين ، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض ، وما ذلك منهم إلا لعدم فَهْمهم للغة القرآن واتخاذها صناعة لا ملكة ، ولو فَهِموا القرآن لَعلموا الفرق بين أن يضل الإنسان في ذاته ، وبين أن يتسبب في إضلال غيره .

والسامري[1] : اسمه موسى السامري ، ويُرْوَى أن أمه وضعته في صحراء لا حياة فيها ، ثم ماتت في نفاسها ، فظل الولد بدون أم ترعاه ، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربِّيه إلى أن شبَّ[2] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى السامري ، فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فِي بَنِيكَ عِنَايَةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِي وَخَابَ المؤَمِّلُ

فَمُوسَى الذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... وَمُوسَى الذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : كان السامري من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره ، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر : وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . [تفسير القرطبي ٤٤٠٧/٦] .

(٢) قال ابن عباس في قوله تعالى عن السامري : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه] : « عرف السامري جبريل ، لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه ، في واحدة لبناً ، وفي الأخرى عسلاً ، وفي الأخرى سمناً ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ ، فلما عاينه في البحر عرفه » .

رَجَع : تُستعمل لازمة ، مثل : رجع فلان إلى الحق - ومتعدية مثل ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى فيهما مختلف .

هنا رجع موسى أي : حين سمع ما حدث لقومه من فتنة السامري ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه] أي : شديد الحزن على ما حدث ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه] الوعد الحسن أن الله يعطيهم التوراة ، وفيها أصول حركة الحياة ، وبها تَحسُن حياتنا في الدنيا ، ويحسُن ثوابنا في الآخرة .

وقوله : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه]

يعني : أطال عهدي بكم ، وأصبح بعيداً لدرجة أنْ تنسوْه ، ولم أغبْ عنكم إلا مُدَّة يسيرة . قال الله عنها : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه]

وما دام أن عهدي بكم قريب لا يحدث فيه النسيان ، فلا بُدَّ أنكم تريدون العصيان ، وتبغون غضب الله ، وإلاَّ فالمسألة لا تستحق ، فبمجرد أنْ أغيبَ عنكم تنتكسون هذه النكسة ، وإن كان هذا حال القوم ورسولُهم ما زال بين أظهرهم ، فما بالهم بعد موته ؟

لذلك كان النبي ﷺ يقول : « أذلك وأنا بين ظَهْرانيكم ؟ »[1] .

أي : ما هذا الذي يحدث منكم ، وأنا ما زلت موجوداً بينكم ؟

---

(١) أخرج النسائي في سننه (٦/١٤٢) كتاب الطلاق من حديث محمود بن لبيد قال : أُخْبِر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضباناً ، ثم قال : أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل وقال : يا رسول الله ، ألا أقتله .

وقوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) ﴾ [طه] وفي آية أخرى قال : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذي سيخلفه من بعده في قومه ، وهو شريكه في الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذي أخلفوه مع نبيهم موسى - عليه السلام -.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ (٨٧) ﴾

مادة « ملك » لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدّعي البعض ، فتأتي مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعني تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر ممَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعني واحد . فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧) ﴾ [طه] أي : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم ؟

قالوا : ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ .. (٨٧) ﴾ [طه] (أَوْزَاراً) جمع وِزْر ، وهو الشيء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم ؛ لأنه ثقيل على النفس ثِقَلاً يتعدىَ إلى الآخرة أيضاً .

حيث لا ينتهى ألم الحمل فيها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ [طه]

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أى : قوم فرعون . وقالوا : إنهم كانوا فى أعيادهم يستعيرون الحُلِىّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذى واعدهم عليه ؟

قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يُسِرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم ، ويصدُّوهم عن الخروج فاعجلوا عن ردِّها .

وقال قوم : إن هذه الزينات والحلىّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه ، لكن هذا القول مردود ؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ ألْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾ [طه]

إذا أُطلقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب . والقَذْف هو الرَّمْى بشدة ، وكأن الرامى يتأفّف أنْ يحمل المرمىّ . وفى ذلك دلالة على أن بنى إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان ، فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامرى من هذه الناحية ، فأفهمهم : إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة فى النار[1] ، وهو يقصد شيئاً آخر ، هو أنْ ينصهر الذهب ، ويُخرِج ما فيه من الشوائب ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٠٨) نحو هذا من قول قتادة : إن السامرى قال لهم حين استبطأ القوم موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلى ، فجمعوه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام .

السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] أى : ألقى ما معه من الحُلىّ ، لكن فَرْق بين القَذْف والإلقاء ، الإلقاء فيه لُطْف وتمهُّل ، فهو كبيرهم ومُعلِّمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ[1] فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أى : أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر ﴿ عِجْلًا جَسَدًا .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه] كلمة جسد وردتْ أيضاً في القرآن فى قصة سليمان عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص]

وقد أعطى الله سليمان مُلْكاً عظيماً لا ينبغى لأحد من بعده ، فسخَّر له الطير والجنّ والإنس والريح يأتمرون بأمره ، ويبدو أنه أخذه شيء من الزَّهْو أو الغرور ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى مانح هذا الملْك ويُذكِّره بأن هذا الملْك لا يقوم بذاته ، إنما بأمر الله القادر على أن يُقعدك على كُرسيِّك جسداً ، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته .

كما ترى الرجل ـ والعياذ بالله ـ قد أصابه شلل كُلِّيٌّ أقعده جسداً ، لا حركة فيه ، ولا إرادة على جوارحه . فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه ، أفتكون له إرادة على الخارج عنه من طير أو إنس أو جن ؟

---

(١) الخوار : صوت الثور وما اشتد من صوت البقرة والعجل . وقد خار يخور : صاح . [لسان العرب ـ مادة : خور] .

فلا تغتر بأنْ جعل الله لك إمْرة على كل الأجناس ؛ لأنه قادر أنْ يسلبكَ هذا كله .

ويُروَى[1] أن سليمان ـ عليه السلام ـ ركب بساط الريح يحمله إلى حيث يريد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فداخله شيء من الفخر والزَّهْو ، فسمع من تحته مَنْ يقول : يا سليمان ـ هكذا دون ألقاب ـ أُمِرْنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله ، ثم ردَّه حيث كان .

لذلك استغفر سليمان ـ عليه السلام ـ وأنابَ .

وكذلك نرى الإنسان ساعة أنْ يموتَ أولَ ما يُنسَى منه اسمه ، فيقولون : الجثة : الجثة هنا ، ماذا فعلتم بالجثة ، ثم تُنسَى هذه أيضاً بمجرد أن يُوضَع في نعشه فيقولون الخشبة : أين الخشبة الآن ، انتظروا الخشبة .. سبحان الله بمجرد أنْ يأخذ الخالق ـ عز وجل ـ سِرَّه من العبد صار جثة ، وصار خشبة ، فما هذه الدنيا التي تكون نهايتها هكذا ؟

ففي قوله تعالى ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨) ﴾ [طه] أي : لا حركة فيه ، فهو مجرد تمثال ، صُنِع على هيئة معينة ، بحيث يستقبل الريح ، فيحدث فيه صفيراً يشبه الخوار أي : صوت البقر .

لكن ، لماذا فكَّر السامري هذا التفكير ، واختار مسألة العجل هذه ؟

---

(١) أخرج الخطيب البغدادي في رواية مالك عن سعيد بن المسيب ـ رضي الله عنه ـ قال : كان سليمان عليه السلام يركب الريح من اصطخر ، فيتغدى ببيت المقدس ، ثم يعود فيتعشى باصطخر . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٧٧) .

قالوا : لأن السامرى استغلَّ تشوّق بنى إسرائيل ، وميلهم إلى الصَّنمية والوثنية ، وأنها متأصلة فيهم . ألم يقولوا لنبيهم عليه السلام وما زالت أقدامهم مُبتلة من البحر بعد أن أنجاهم الله من فرعون ، وكان جديراً بهم شكر الله ، فإذا بهم يقولون وقد أتَوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف]

فجاءهم بهذا العجل ، وقد ترقّى به من الصنمية ، فجعله جسداً ، وجعل له خواراً وصَوْتاً مسموعاً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه] أى : نسي السامرى خميرة الإيمان فى نفسه ، ونسى أن هذا العمل خروجٌ عن الإيمان إلى الكفر ، ولَيْتَه يكفر فى ذاته ، إنما هو يكفر ويُكفِّر الناس . لا بُدَّ أنه نسى ، فلو كان على ذُكْر من الإيمان ومن عاقبة عمله وخيبة ما أقدم عليه ما فعل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

أى : كيف يعبدون هذا العجل ، وهو لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يملك لهم شيئاً ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا

---

(١) وقد قيل فى هذه الآية تأويل آخر ذكره القرطبي فى تفسيره (٦/٤٤٠٩) وابن كثير فى تفسيره (٣/١٦٢) ومؤدى هذا أنه من كلام السامرى عن موسى أنه ضل وذهب يطلب إلهه وهو هنا . وعن ابن عباس قال : « أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه » .

عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾ [الشعراء]

فَمنْ كان لديه ذرة من عقل لا يُقدم على هذه المسألة ؛ لذلك فالحق ـ سبحانه ـ يناقش هؤلاء : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ..(٢٨)﴾ [البقرة]

أى : أخبرونا بالطريق الذى يحملكم على الكفر ، كأنها مسألة عجيبة لا يقبلها العقل ولا يُقرُّها . ألم يخطر ببال هؤلاء الذين عبدوا العجل أنه لا يردّ عليهم إنْ سألوه ، ولا يملك لهم ضَرّاً إنْ كفروا به ، ولا نفعاً إن آمنوا به وعبدوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى (٩٠)﴾

وكان هارون ـ عليه السلام ـ خليفة لأخيه فى غَيْبته ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ [الأعراف]

اخْلُفْنِي واعمل الصالح ، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضى فى القوم بما يراه مناسباً ، وأنْ يُقدِّر المصلحة كما يرى . وقد شفَع هذا التفويض لهارون أمام أخيه بعد ذلك .

فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ .. (٩٠)﴾ [طه]

وهكذا وعظهم هارون على قدْر استطاعته ، وبيَّن لهم أن مسألة

العجلَ هذه اختبار من الله . وكان تقديره في هذه القضية ألاَّ يدخل معَ هؤلاء في معركة ؛ لأن القومَ كانوا جميعاً ثلاثمائة ألف ، عبد العجل منهم اثنا عشر ألفاً ، ولو جعلها هارون - عليه السلام - معركة لأفنى كل هذا العدد .

لذلك اكتفى بالوعظ ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ ﴾ [طه] كما أخذتم العهد عند موسى .

﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ(1) حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

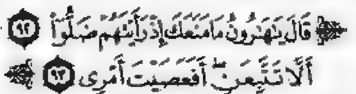
﴿ لَن نَّبْرَحَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [طه] . أي : سنظل على هذا الحال ، البعض يظن أنها للمكان فقط ، إنما هي حَسْبَ ما تتعلق به ، تقول : لا أبرح سائراً حتى أصلَ لغرضي ، ولا أبرح هذا المكان فقد تكون للمكان ، وقد تكون للحالَ . كما ورد في القرآن :

- للمكان والإقامة في قوله : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

- وللحال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] أي : لا أبرح السير .

فالمعنى ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [طه] سنظلّ على عبادته حتى يرجع موسى ، فلن تمكثَ هذه الفترة دون إله .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾

---

(1) أي : يقيمون عندها لعبادتها . [القاموس القويم ٢/٣١] .

هذا حوار دار بين موسى وأخيه هارون ﴿مَا مَنَعَكَ .. (٩٢)﴾ [طه] وقد وردتْ هـذه الكلمة في القرآن بأسلوبين : الأول : قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] أي : ما منعك من السجود .

والآخر : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] . أي : ما منعك أن لا تسجد ؛ لأن المانع قد يكون قَهْراً عنك ، وأنت لا تريد أن تفعل ، وقد يأتي آخر فيُقنعك أن تفعل . فمرّة يُرغمك : أنت لا تريد أنْ تسجد يقول لك : اسجدْ . إذن : منعك أن تسجد يعني قهراً عنك ، لكن أقنعك أن تسجد أنت باختيارك فقد منعك ألاَّ تسجد .

إذن : مرة من النفس ، ومرة من الغير ، وهكذا يلتقي الأسلوبان .

فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾ [طه] أي : من اتباعي ، لكن هل موسى عليه السلام هنا يستفهم ؟ الحقيقة أنه لا يريد الاستفهام ، فقد تخاطب إنساناً بذنب ، وأنت لا تعلم ذنبه ، إنما تخاطبه بصورة الذَّنْب لتسمع الردَّ منه ، فيكون ردّاً على مَنْ يعترض عليه .

ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ عند الحجر الأسود ، فلما قبَّله قال : « اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنّي رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك »[1] .

إذن : قبَّله عمر ؛ لأن رسول الله ﷺ قبَّله ، إلا أنه جاء بهذا الكلام ليعطينا الجوابَ المستمر على مَرِّ التاريخ لكل مَنْ يسأل عن تقبيل الحجر .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١٢٧٠) كتاب الحج . قال النووي في شرحه : « وإنما قال : وإنك لا تضر ولا تنفع ، لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها ورجاء نفعها » .

وهنا أثارها موسى شبهة ؛ كي نسمع نحن الجواب ، ولنسمع الردّ من صاحب الشأن باقياً سائراً في طول الأزمان .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي[1] وَلَا بِرَأْسِي[2] إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

إذن : صاحبُ خطابَ موسى لأخيه هارون فعْل نزوعيٌّ وحركة ، فهمناها من قول هارون : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه]

ثم ذكر العلة ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه] يقصد قول أخيه : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فذكّره بالتفويض الذي أعطاه إياه ، وقد اجتهد هارون حَسْبَ رؤيته للموقف ، ونأى بالقوم عن معركة ربما انتهتْ بالقضاء على خَلِيّة الإيمان في بني إسرائيل ، اجتهد في إطار ﴿ وَأَصْلِحْ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : أثار موسى هذه القضية مع أخيه ، لا ليسمع هو الرد ، وإنما ليُسمع الدنيا كلّها على مَرِّ التاريخ .

ثم ينقل موسى الخطاب إلى رأس هذه الفتنة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾

أي : ما شأنك ؟ وما قصتك ؟

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/١٦٣) : « ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف » .

(٢) قال ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره . [تفسير القرطبي ٦/٤٤١٢] .

والخَطْب : يُقال في الحدَث المهم الذي يُسمُّونه الحدَث الجلل ، والذي يُقال فيه « خطب » ، فليس هو الحدث العابر الذي لا يقف عنده أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ[1] يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. (٥١) ﴾ [يوسف]

وما حكاه القرآن من قول موسى ـ عليه السلام ـ لابنتَيْ شعيب : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا .. (٢٣) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه عن السامري :

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا[2] وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) ﴾

مادة : بَصُر منها أبصرت للرؤية الحسية ، وبصرت للرؤية العلمية أي : بمعنى علمتُ .

فمعنى ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦) ﴾ [طه] يعني : اقتنعتُ بأمر هم غير مقتنعين به ، فأنا فعلتُ وهم قلَّدوني فيما فعلتُ من مسألة العجل .

---

(١) راوده على الشيء مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف] : أي طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة ، ليتجاوز ويتنزل عن كبريائه نفسه وشرفها وعفتها ، وهي كناية عن طلب المعاشرة الجنسية . [القاموس القويم ١/٢٨١] .

(٢) نبذ الشيء : ألقاه ورماه . [القاموس القويم ٢/٢٥١] والنبذ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك . [لسان العرب ـ مادة : نبذ] .

وقد أدَّى به اجتهاده إلى صناعة العجل ؛ لأنه رأى قومه يحبون الأصنام ، وسبق أنْ طلبُوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً لما رأوا قوماً يعبدون الأصنام ، فانتهز السامريُّ فرصة غياب موسى ، وقال لهم : سأصنع لكم ما لم يستطع موسى صناعته ، بل وأزيدكم فيه . لقد طلبتم مجرد صنم من حجارة إنما أنا سأجعل لكم عِجْلاً جَسَداً من الذهب ، وله صوت وخُوار مسموع .

وقوله : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا .. (٩٦)﴾ [طه] قبض على الشيء : أخذه بجُمْع يده . ومثلها : قَبص[1] .

وقوله : ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] للعلماء في هذه المسألة روايات متعددة . منها : أن السامري حين كان جبريل عليه السلام يتعهَّده وهو صغير ، كان يأتيه على جواد فلاحظ السامري أن الجواد كلما مَرَّ على شيء اخضرَّ مكان حافره ، ودبَّتْ الحياة فيه . لذلك : فأصحاب هذا القول رأوْا أن العجل كان حقيقياً ، وله صوت طبيعي ليس مجرد مرور الهواء من خلاله[2] .

ورأى آخر يقول : ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] الرسول كما نعلم هوالمبلِّغ لشرع الله المباشر للمبلَّغ ، أما جبريل فهو رسول للرسول ، ولم يَرَه أحد فأُطلقت الرسول على حامل المنهج إلى المتكلِّم به ، لكنها قد تُطلق ويُراد بها التهكّم ، كما جاء في قوله تعالى :

---

(١) وهي قراءة للحسن البصري . فقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه كان يقرؤها « فقبصت » بالصاد . قال : والقبص بأطراف الأصابع . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٩٦] .

(٢) لهذا قالوا : معنى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] أي : من أثر فرسه . قال ابن كثير في تفسيره (٣/١٦٣) : « هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم » .

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ۞ ﴾ [المنافقون]
فيقولون : رسول الله تهكماً لا إيماناً بها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ۞ ﴾ [الفرقان]

إذن : قد يُراد بها التهكّم .

لكن ، ما المراد بأثر الرسول ؟ الرسول جاء لِيُبلّغ شرعاً من الله ، وهذا هو أثره الذى يبقى من بعده . فيكون المعنى : قبضتُ قبضة من شرع الرسول ، قبضة من قمته ، وهى مسألة الإله الواحد الأحد المعبود ، لا صنمَ ولا خلافه .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْتُهَا ..۞ ﴾ [طه] أى : ابعدتُها وطرحتها عن مُخيِّلتي ، ثم تركتُ لنفسى العنان فى أن تفكر فيما وراء هذا .

بدليل أنه قال بعدها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۞ ﴾ [طه] أى : زيّنتها لى ، وألجاتنى إلى معصية . فلا يقال : سوّلت لى نفسى الطاعة ، إنما المعصية وهى أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول ووَحْيه الذى جاء به من الله ، ثم يطرحه عن منهجه ويُبعده عن فكْره ، ثم يسير بِمَحْض اختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ ﴾

كان ردّ موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الفعْلة من السامرى : جزاؤك أن تذهب ، ويكون قولك الملازم لك ﴿لا مِسَاسَ .. ﴿٩٧﴾﴾ [طه] والمِسَاس أى : المسّ . المعنى يحتمل : لا مساس مِنّى لأحد ، أو لا مَساسَ من أحد لى .

ذلك لأن الذين يفترون الكذب ويدّعُون أن لهم رسالة ولهم مهمة الأنبياء ، حظُّهم من هذا كله أن تكون لهم سُلْطة زمنية ومكانة فى قلوب الناس ، وأن يكون لهم مذهب وأتباع وأشياع .

لذلك تراهم دائماً ـ فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية ـ يتحللون من المنهج الحق ، ويستبدلونه بمناهج حَسْب أهوائهم ، فيميلون إلى تسهيل المنهج وتبسيطه ، ويُعطون لأتباعهم حريةً ما أنزل الله بها من سلطان ، كالذى خرج علينا يُبيح للناس الاختلاط بين الرجال والنساء .

ومن العجيب أن تجد لهذه الأفكار أنصاراً يؤمنون بها ويُطبّقونها ، لا من عامة الناس ، بل من المثقفين وأصحاب المناصب . فكيف تحجب عنهم المرأة ، وهى نصف المجتمع ؟

إذن : ما أجملَ هذا الدين ومَا أيسره على الناس ، فقد جاء على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، ووسَّع لهم المسائل ، فالنفس تميل بطبعها إلى التدين ؛ لأنها مفطورة عليه ، لكن تريد هذا الدين سَهْلاً لا مشقةَ فيه ، حتى وإنْ خالف منهج الله .

لذلك تجد مثلاً مسيلمة وسجاح وغيرهما من مُدّعِى النبوة يُخفّفون عن أتباعهم تكاليف الشرع فى الصلاة والصوم ، أما الزكاة فهى ثقيلة على النفس فلا داعىَ لها . وإلاّ فما الميْزة التى جاءوا بها

ليتبعهم الناس ؟ وما وسائل التشجيع لاتباع الدين الجديد ؟

وهكذا يصبح لهؤلاء سُلْطة زمنية ومكانة ، وأتباع ، وجمهور ، إذن : الذى أفسد حياته أن يجد العزَّ والمكانة فى انصياع الناس له وتبعيتهم لأفكاره ، فيعاقبه الله بهم ، ويجعل ذُلَّه على أيديهم وفتنته من ناحيتهم ، فهم الذين أعانوه على هذا الباطل ، فإذا به يكرههم ويبتعد بنفسه عنهم ، لدرجة أن يقول ﴿لا مساس .. (٩٧)﴾ [طه] كأنه يفرُّ منهم يقول : إياك أنْ تقربَ منِّى أو تمسَّنى .

لقد تحول القُرْب والمحبة إلى بُعْد وعداوة ، هذه الجمهرة التى كانت حوله وكان فيها عزُّه وتسلُّطه يفرُّ منها الآن ، فهى سبب كَبْوته ، وهى التى أعانَتْه على معصية الله .

وهكذا ، كانت نهاية السامرىّ أن ينعزل عن مجتمعه ، ويهيم على وجهه فى البرارى ، ويفرّ من الناس ، فلا يمسّه أحد ، بعد أنْ صدمه الحق ، وواجهتْه صوْلته .

وما أشبهَ هذا الموقف بما يحدث لشابٍ متفوق مستقيم يُغريه أهل الباطل ، ويجذبونه إلى طريقهم ، وبعد أن انخرط فى سلْكهم وذاق لذة باطلهم وضلالهم إذا به يصحو على صدمة الحق التى تُفيقه ، ولكن بعد أن خسر الكثير ، فتراه بعد ذلك يفِرُّ من هذه الصُّحْبة وينأى بنفسه عن مجرد الاقتراب منهم .

لذلك من الذين اختاروا دينهم وَفْق أهوائهم عبدة الأصنام ، فإن كانت العبادة أنْ يطيع العابدُ معبوده ، فما أيسرَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة بدون تكليف ، وعبادة بدون مشقة ، لا تقيد لك حركة ، ولا تمنعك من شهوة ، وإلا فماذا أعدَّتْ الأصنام من ثواب لمَنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ من عذاب لمن كفر بها ؟

فكأن الحق - تبارك وتعالى - قال للسامرى : ستُعاقب بنفس المجتمع الذى كنت تريد منه العزّة والسُّلْطة والسيطرة والذكر ، فتتبرأ أنت منهم وتفرّ من جوارهم ، ولا تتحمل أنْ يمسك أحد منهم ، فهم سبب بلائك ، ومصدر فتنتك ، كما قال تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

فأخلاءُ الباطل ، وصُحْبَة السوء الذين يجتمعون على معصية الله فى سهرات مُحرَّمة عليهم أنْ يحذروا هذا اللقاء . أما الخُلّة الحقيقية الصادقة فهى للمتقين ، الذين يأتمرون بالحق ، ويتواصَوْن بطاعة الله .

وفَرْق بين مَنْ يقاسمك الكأس ومَنْ يكسرها ويُريقها قبل أنْ تذوقها ، فَرْق بين مَنْ يلهيك عن الصلاة ومَنْ يحثك عليها ، فَرْق بين مَنْ يُسعدك الآن بمعصية ومَنْ يحملك على مشقّة الطاعة ، فانظر وتأمَّلْ .

ثم يقول : ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ .. ﴿٩٧﴾﴾ [طه] أى : ما ينتظرك من عذاب الآخرة

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه]

(عاكفاً) أى : مقيماً على عبادته ، والاعتكاف : الإقامة فى المسجد ، والانقطاع عن المجتمع الخارجى .

ومعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ .. ﴿٩٧﴾﴾ [طه] أى : نُصيِّره كالمحروق ، بأنْ نبرده بالمبرد حتى يصبح فُتاتاً وذرات متناثرة ، بحيث يمكن أن نذروه فى الهواء ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه] أى : نذروه كما

يفعل الفلاحون حين يذرون الحبوب لفصل القشر عنها بآلة تسمى (المنسف)[1] تشبه الغربال ، وقد استبدلوا هذه الأدوات البدائية الآن بآلات ميكانيكية حديثة تؤدى نفس الغرض .

ذلك لأن إلهَ السَّامرى كان هذا العجل الذى اتخذه من ذهب ، فلا يناسبه الحرق فى النار ، إنما تريد له عملية أخرى ، تذهب به من أصله ، فلا تُبقى له على أثر . وهذا هو إلهك الذى عبدته إنْ أفلح كان يدافع عن نفسه ويحمى رُوحَه .

وبعد أن بيَّن الحق - سبحانه - وَجْه البطلان فيما فعله السامرى ، ومَنْ تبعه من القوم ، عاد ليذكّرهم بمنطقه الحق وجادة الطريق ، وأن كلَّ ما فعلوه هراء فى هراء :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - حينما يقول : ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه] نقولها نحن هكذا ، ونشهد بها ، فقد تعلَّمناها من رسول الله ﷺ الذى سمعها من ربه ونقلها إلينا ، فهى الشهادة بالوحدانية الحقَّة ، شهادة من الله لذاته أولاً : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فهذه شهادة الذات للذات قبل أنْ يخلق شاهداً يشهد بها . ثم شهدتْ له بذلك الملائكة شهادةَ المشهد أنه لا إله غيره ، ثم شهد

(١) ذكره ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : نسف] فقال : « نسف الشىء ، وهو نسيف : غربله . والنسف : تنقية الجيد من الردىء . ويقال لمنخل مُطوّل : المِنْسف ، والمنسفة : الغربال » .

بذلك أولو العلم شهادة استدلال بالمخلوقات التى رأوْها على أبدع نظام وأعجبه ، ولا يمكن أن ينشأ هذا كله إلا عن إله قادر .

وقد سلمتْ لله تعالى هذه الدَّعْوى ؛ لأنها قضية صادقة شَهِد بها سبحانه لنفسه ، وشَهِد بها الملائكة وأولو العلم ولم يَقُمْ لها معارض يدَّعِيها لنفسه .

وإلا - والعياذ بالله - أين ذلك الإله الذى أخذ الله تعالى منه الألوهية ؟ فإما أنْ يكون لا يعلم ، أو علم بذلك ولم يعترض ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً . والدَّعْوى إذا لم تُجَبَه بمعارض فقد سلمتْ لصاحبها ، إلى أن يُوجَد المعارض .

وكأن الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، وأنا خالق الكون كله ومُدبِّر أمره ، ولم يَأْتِ أحد حتى من الكفار يدَّعى شيئاً من هذا . وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أنه نزل عندك مجموعة ضيوف وزوار ، وبعد انصرافهم وجدتَ حافظة نقود فسألتَ عن صاحبها ، فلم يدَّعِها أحد إلى أنْ قال واحد منهم : هى لى ، إذن : فهو صاحبها ، وهو أحقُّ بها حيث لم يَقُمْ له معارض .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

يعنى إنْ كان هناك آلهة أخرى فلا بُدَّ أنْ يذهبوا إلى صاحب العرش ، إما ليخضعوا له ويستلهموا منه القدرة على فعل الأشياء ، أو ليُحاسبوه ويُحاكموه : كيف يدَّعى الألوهية وهم آلهة ؟ ولم يحدث شىء من هذا كله ، ولا أقام أحد دليلاً على أنه إله ، والدَّعْوى إذا لم يَقُمْ عليها دليل فهى باطلة .

وينفي الحق سبحانه وجود آلهة أخرى ، فيقول في موضع آخر :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فهذا إله للسماء ، وهذا إله للأرض ، وهذا للجن ، وهذا للإنس .. إلخ ، وبذلك تكون الميزة في أحدهم نقصاً في الآخر ، والقدرة في أحدهم عجزاً في الآخر ، وهذا لا يليق في صفات الألوهية .

ونلحظ هنا في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] أن كلمة (إله) لا تعني (الله) ، وإلا لو كان إلهاً بمعنى الله لأصبح المعنى : إنما الله الله .

إذن : هناك فَرْق بين اللفظين : الله عَلَم على واجب الوجود الأعلى ، أما الإله فهو المعبود المطاع فيما يأمر ، فالمعنى : أن المعبود المطاع فيما يأمر به هو الله خالق هذا الوجود ، وصاحب الوجود الأعلى .

فالله تعالى هو المعبود المطاع بحقٍّ ، لأن هناك معبوداً ومطاعاً لكن بالباطل ، كالذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ويُسمُّونهم آلهة ، فإذا كانت العبادة إطاعة أمر ونهي المعبود ، فبماذا أمرتْهم هذه الآلهة ؟ وعن أيِّ شيء نهتْهم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن عبدها أو لمن كفر بها ؟ إذن : هي معبودة ، لكن بالباطل ؛ لأنها آلهة بلا منهج .

وكلمة ﴿إِنَّمَا .. (٩٨)﴾ [طه] لا تأتي إلا استدراكاً على باطل ، وتريد أن تُصوِّبه ، كأن تقول : إنما الذي حضر زيد ، فلا تقولها إلا مَن ادَّعى أن الذي حضر غير زيد ، فكأنك تقول : لا ، فلان لم يحضر ، إنما الذي حضر زيد .

فلا بُدَّ أن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. ﴿٩٨﴾﴾ [طه] جاء ردّاً على كلام قبل يدَّعي أن هناك إلهاً آخر ، وإنما لا تُقال إلا إذا ادُّعِيَ أمر يخالف ما بعدها ، فتنفي الأمر الأول ، وتُثبت ما بعدها .

وهنا يقول : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. ﴿٩٨﴾﴾ [طه] لأن السامريَّ لما صنع لهم العجل قال : ﴿هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ .. ﴿٨٨﴾﴾ [طه] فكذَّبه الله واستدرك بالحقِّ على الباطل : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ .. ﴿٩٨﴾﴾ [طه]

ثم أضاف الحق ـ تبارك وتعالى ـ ما يُفرِّق بين إله الحق وإله الباطل ، فقال : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه] لأنه سبحانه هو الإله الحق ، وهذه أيضاً ردٌّ على السامريّ وما اتخذه إلهاً من دون الله ، فالعجل الذي اتخذه لا علمَ عنده ، وكذلك السامري الذي أمر الناس بعبادته ، فلو كان عنده علم لعرفَ أن عجله سيُحرق ويُنسف وتذروه الرياح ، ولعرفَ العاقبة التي انتهى إليها من قوله للقوم (لا مساس) ، وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلو علم هذه الحقائق ما أقدمَ على هذه المسألة .

ووسع علم الله لكل شيء يعني : مَنْ أطاع ومَنْ عصى ، لكن من رحمته تعالى بنا ألاَّ يحاسبنا عمَّا علم منَّا ، بل يعلمنا حين ندعوه أن نقول : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا .. ﴿٧﴾﴾ [غافر] فسبقتْ رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا ، وسبقت عذابه ونقمته ، وفي موضع آخر يقول عز وجل : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]

فلو وقفنا عند ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه] لأتعبتْنا هذه المسألة ؛ لأنه سيجازينا عن السيئة وعن الحسنة ، ومَنْ يطيق هذا ؟

● ● ●

ثم يُبيِّن الحق سبحانه حكمة القَصَص في القرآن ، والقَصَص لون من التاريخ ، وليس مطلق التاريخ ، القصص تاريخ لشيء مشهود يهمني وتفيدني معرفته ، وإلا فمن التاريخ أن نقول : كان في مكان كذا رجل يبيع كذا ، وكان يفعل كذا أو كذا .

إذن : فالقصص حدث بارز ، وله تأثيره فيمَنْ سمعه ، وبه تحدث الموعظة ، ومنه تؤخذ العبرة .

والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمنتها ، فحين تربط أيَّ حدث بزمنه فقد أرَّخْتَ له ، فإذا كان حَدَثاً متميزاً نسميه قصة تُروَى ، فإنْ كانت قصة شهيرة تعلو على القصص كله نسميها سيرة ، لذلك خُصَّ باسم السيرة تاريخ قصة رسول الله ﷺ ؛ لأن القَصَص شيء مميز ، أما السيرة فهي أميز ، ورسول الله خاتم الأنبياء ؛ لذلك نقول عن تاريخه سيرة ولا نقول قصة ؛ لأن واقعه في الحياة كان سَيْراً على منهج الله ، وعليه نزل القرآن ، وكان خُلُقه القرآن .

والقصص يأتي مرة بالحدث ، ثم تدور حوله الأشخاص ، أو يأتي بشخصية واحدة تدور حولها الأحداث ، فإذا أردتَ أن تؤرخ للثورة العرابية مثلاً وضعت الحدث أولاً ، ثم ذكرتَ الأشخاص التي تدور حوله ، فإنْ أردتَ التاريخ لشخصية عرابي وضعت الشخصية أولاً ، ثم أدرت حولها الأحداث .

وقَصص القرآن يختلف عن غيره من الحكايات والقصص التي نسمعها ونحكيها من وضع البشر وتأليفهم ، فهي قصص مُخْتَرعة تُبنى على عُقْدة وَحلُّها ، فيأخذ القاصُّ حدثاً ، ثم ينسج حوله أحداثاً من خياله .

وبذلك يكونون قد أخذوا من القصص اسمه ، وعدلوا عن مُسمَّاه ، فهم يُسمُّون هذا النسيج قصة ، وليست كذلك ؛ لأن قصة من قصَّ الأثر أي : مشى على أثره وعلى أقدامه ، لا يميل عنها ولا يحيد هنا أو هناك .

فالقصة - إذن - التزام حدثيٌّ دقيق لا يتحمل التأليف أو التزييف ، وهذا هو الفَرْق بين قَصَص القرآن الذي سماه الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الْقَصَصُ الْحَقُّ .. (٦٢) ﴾ [آل عمران] و ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف] وبين قَصَص البشر وتأليفهم .

القصص الحقُّ وأحسن القصص ؛ لأنه ملتزم بالحقيقة لا يتجاوزها ، وله غاية سامية أسْمى من قَصَص دنياكم ، فقَصَص الدنيا غايته وخلاصته - إن أفلح - أن يحميك من أحداث الدنيا ، أما قصص القرآن فحمايته أوسع ؛ لأنه يحميك في الدنيا والآخرة .

فإنْ رأيتَ في قصص القرآن تكراراً فاعلم أنه لهدف وغاية ، وأنها لقطات شتَّى لجوانب الحدَث الواحد ، فإذا ما تجمعتْ لديك كل اللقطات أعطتك الصورة الكاملة للحدث .

وهنا يقول تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) ﴾

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

فكأن فؤاده ﷺ كان في حاجة إلى تثبيت ؛ لأنه سيتناول كل

أحداث الحياة ، وسيتعرض لما تشيب لهوله الرؤوس ، ألم يَقُلْ الحق تبارك وتعالى عن الرسل قبله : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ألم يُضطهد رسول الله والمؤمنون ويُضربوا ويُحاصروا في الشِّعْب بلا مأوى ولا طعام ، حتى أكلوا الجلود وأوراق الشجر[1] ؟

فهذه أحداث وشدائد تضطرب النفس البشرية حين تستقبلها ، ولا بُدَّ لها من تأييد السماء لتثبت على الإيمان ؛ لذلك يقصُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على رسوله قصص مَنْ سبقوه في موكب الرسالات ليقول له : لست يا محمد بِدْعاً من الرسل ، فقد تحملوا من المشاق كيت وكيت ، وأنت سيدهم ، فلا بُدَّ أنْ تتحمل من المشاقّ ما يتناسب ومكانتك ، فوطِّن نفسك على هذا .

فقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ .. (٩٩) ﴾ [طه] (كَذَٰلِكَ) : أي : كما قصصنا عليك قصة موسى وهارون وفرعون والسامريّ نقصُّ عليك قصصاً آخر من أنباء مَنْ سبقوك من الرسل .

وأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر الهام العظيم ، فلا يُقال للأمر

---

(١) أورد هذا البيهقي في كتابه « دلائل النبوة » (٢/٣١١ ـ ٣١٤) وملخصه أن رسول الله ﷺ دخل في شعب بني عبد المطلب لخوف عمه أبي طالب عليه من قتل المشركين له علانية ، فاجتمع المشركون وأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا صحيفة وعهوداً ومواثيق ، فلبث بنو هاشم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، حتى أخبر رسول الله ﷺ عمه أن الله قد أخبره أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة فلم تدع فيها اسماً هو لله تعالى إلا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان ، فلما أفسد الله صحيفة مكرهم خرج النبي ﷺ ورهطه فعاشوا وخالطوا الناس .

التافه نبأ . ومن ذلك قوله تعالى عن يوم القيامة : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ] إنما يُقال « خبر » فى أى شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩﴾ [طه]

وأكد الإتيان بأنه ﴿مِن لَّدُنَّا .. ۝٩٩﴾ [طه] أى : من عندنا ، فلم يَقُلْ مثلاً : آتيناك ذكْراً . وهذا له معنى ؛ لأن كل الكتب التى نزلت على الرسل السابقين نزلت ورُويتْ بالمعنى ، ثم صاغها أصحابها بألفاظ من عند أنفسهم ، أمَّا القرآن فهو الكتاب الوحيد الذى نزل بلفظه ومعناه ؛ لذلك قال ﴿مِن لَّدُنَّا .. ۝٩٩﴾ [طه] أى : مباشرة من الله لرسوله .

والمتأمل فى تبليغ الرسول وتلقِّيه عن ربه يجد أنه يحافظ على لفظ القرآن ، لا يُخْفى منه حرفاً واحداً ، كما فى قوله تعالى مثلاً : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] فكان يكفى فى تبليغ هذه العبارة أن يقول رسول الله ﷺ : الله أحد ، لكنه يقول نصَّ ما جاءه من ربه مباشرة .

أرأيتَ لو قلت لولدك : اذهب إلى عمك وقُلْ له : أبى سيزورك غداً ، ألاَ يكفى أن يقول الولد : أبى سيزورك غداً ؟

إذن : فالقرآن الذى بين أيدينا هو نفسه كلام الله المنزَّل على محمد ﷺ لم يتغير فيه حرف واحد لا بالزيادة ولا بالنقصان ؛ لأنه نصُّ الإعجاز ، وما دام نص الإعجاز فلا بُدَّ أنْ يظلَّ كما قاله الله .

ومعنى ﴿ذِكْرًا ۝٩٩﴾ [طه] للذكْر معان متعددة ، فيُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

ويُطلَق ويُراد به الصِّيت والشَّرف والجاه في الدنيا ، كما في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ⦗١٠⦘﴾ [الأنبياء] أي : شرفكم ورفْعتكم بين الناس ، وقال : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ⦗٤٤⦘﴾ [الزخرف]

وقد يقول قائل : كيف يكون القرآن ذكراً وشرفاً للعرب ، وقد أبان عجزهم ، وأظهر ما فيهم من عِيٍّ ؟ وهل يكون للمغلوب صِيت وشَرف ؟

نقول : كونهم مغلوبين للحق شهادة بأنهم أقوياء ، فالقرآن أعجز العرب وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يتحدى لا يتحدى الضعيف ، إنما يتحدى القوى ، ومن الفخر أن تقول : غلبت البطل الفلاني ، لكن أيّ فخر في أن تقول : غلبت أيَّ إنسان عادى ؟

وكذلك يُطلَق الذكْر على كل كتاب أنزله الله تعالى ، كما قال لرسوله ﷺ : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⦗٤٣⦘﴾ [النحل] أي : أهل الذكر قبلكم ، وهم أهل التوراة وأهل الإنجيل .

ويُطلَق الذكر ، ويُراد به فعل العمل الصالح والجزاء من الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. ⦗١٥٢⦘﴾ [البقرة] أي : اذكروني بالطاعة أذكركم بالخير .

ويأتي الذكْر بمعنى التسبيح والتحميد ، وبمعنى التذكُّر والاعتبار ، فله ـ إذن ـ معانٍ متعددة يُحدِّدها السياق .

لكن ، لماذا اختار كلمة (ذكر) ولم يقل مثلاً كتاباً ؟

قالوا : لأن الذكْر معناه أن تذكر الشيء بداية ؛ لأنه أمر مهم

لا يُنسَى ، وهو ذكْر لأنه يُستلهم ، ومن الذكر الاعتبار والتذكير ، والشيء لا يُذكر إلا إذا كان له أهمية ، هذه الأهمية تتناسب مع الأمر من حيث مُدّة أهميته ومقدار أهميته ، وكل ذكر لشيء في الدنيا قصارى أمره أنْ يعطيك خير الدنيا ، أمّا القرآن فهو الذكر الذي يعطيك خيرى الدنيا والآخرة ؛ لذلك فهو أهم ذكر يجب أنْ يظلّ على بالك لا يُنسى أبداً .

إذن : فالقرآن ذكْر ذُكر أولاً ، وذكْر يُذكَر ثانياً ، ويستلهم ذكراً يشمل الزمن كله في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يصف الحق تبارك وتعالى هذا الذكر ، فيقول :

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾

أعرض : نعرف أن الطول أبعد المسافات ، وأن العرض أقصر المسافات ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أن يُصوِّر لنا اتساع مُلْكه سبحانه قال : ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] فأتى بالأوسع للأقل ، فإن كان عَرْضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ لا بُدَّ أنه لا نهاية له .

والإنسان منّا له طول ، وله عرض ، ولا يميز العرض إلا الكتفان ، ودائماً مرآهما من الخلف ، لا من الأمام ؛ لذلك نجد الخياط إذا ... أنْ يقيس لك الثوب قاسه من الخلف ، فعَرْض الإنسان مؤخرته من أعلى .

وبذلك يكون أعرض عن كذا ، يعني : تركه وذهب بعيداً عنه ، أو : أعطاه ظهره وانصرف عنه .

ومن ذلك ما نقوله (ادينى عرض كتافك) يعنى : دِر وجهك وانصرف عنى ، فإنْ كان جالساً نقول (انفُضْ طولك أو اطول) أى : قم وأرِنى طولك ، كى ترينى عرض أكتافك وتنصرف عنى .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة من الإعراض للذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيقول : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

وهكذا ترى ترتيب العذاب حسْب ترتيب الإعراض ، فأول ما واجهه السائل قَطَّب جبهته ، وكشَّر وبدَتْ عليه ملامح الغضب والضيق ، ثم أدار له جنبه ، ثم أعطاه ظهره وانصرف عنه .

والوِزْر: الحِمْل الثقيل ، وليْتَه فى الدنيا فيمكنك أن تتخلص منه ، إما بأن يُوضع عنك ، وإما أنْ تفوته بالموت ، إنما الوِزْر هنا فى الآخرة ؛ لذلك فهو وزر ثقيل لا ينحط عنك ولا تفوته بالموت ، فهو حِمْل لا نهايةَ له ولا أملَ فى الخلاص منه ، فهو ثقيل ممتد الإيلام ، فقد يكون الحمل ثقيلاً إلا أنه مُحبَّب إلى النفس ، كمَنْ يحمل شيئاً نافعاً له ، أمّا هنا فحِمْل ثقيل مكروه .

وبعد ذلك يستدرك به على العقوبة ، فالذى يأثم يُقال : أتى وزراً .

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) ﴾

ساء : قبح ذلك الحمل يوم القيامة ؛ لأن الحمل قد لا يكون قبيحاً إنْ كان خيراً ، وإن كان شراً فقد يحمله صاحبه فى الدنيا ويزول عنه أمّا الوزر فحِمْل سيىء قبيح ، لأنه فى دار الخُلْد التى لا نهايةَ لها .

فمتى يكون ذلك ؟

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهو يوم القيامة ، والصور : هو البوق الذى يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه]

أى : نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هى لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه ، وازرقّ لونه بسبب شىء تعرَّض له ، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام فى كيماوية الجسم من الداخل ، فهو انفعال داخلى يظهر أثره على البشرة الخارجية ، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدث لهم هذه الزرقة .

والبعض[1] يفسر ﴿ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه] أى : عُمْياً ، ومن الزُّرْقة ما ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التى تصيب العين وقد تسبب العمى .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

أى : فى هذه الحال التى يُحشرون فيها زرقاً ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [طه] أى : يُسِرُّون الكلام ، ويهمس بعضهم إلى بعض ، لا

(١) قاله الكلبى والفراء . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤١٨) وقد ذكر القرطبى أقوالاً أخرى فى تأويل (زرقا) :
« - عطاشاً قد ازرقت أعينهم من شدة العطش . قاله الأزهرى .
- الطمع الكاذب إذا أعقبته الخيبة . يقال : ابيضت عينى لطول انتظارى لكذا .
- شخوص البصر من شدة الخوف » .

يجرؤ أحد منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى ، والخائف حينما يلاقي من عدوه مَا لا قِبلَ له به يُخفي صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه ؛ أو : لأن الأمر مَهولٌ لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقة للكلام ، فليس في وُسْعه أكثر من الهَمْس .

فما وجه التخافت ؟ وبِمَ يتخافتون ؟

يُسِرُّ بعضهم إلى بعض ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣)﴾ [طه] يقول بعضهم لبعض : ما لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام ، ثم يُوضِّح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي ، بدليل قوله في الآية بعدها : ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾ [طه]

فانتهت العشرة إلى يوم واحد ، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فكُلُّ ما ينتهي فهو قصير .

إذن : أقوال متباينة تميل إلى التقليل ؛ كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هي إلا ساعة : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف]

وما هذا التقليل لمدة لُبْثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم وقِلَّة الخير الذي قدَّموه فيها ، لقد غفلوا فيها ، فخرجوا منها بلا ثمرة ؛ لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذْراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث ، كأنه لم يكُنْ لديهم وقت لعمل الخير !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ على رسوله ﷺ في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين في الآخرة ، فإذا ما وقعتْ القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله هي هي ؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شيء علماً .

وهذا القول الذي حكاه القرآن عنهم أمر في اختيارهم ، وقد سمعوا ذلك من رسول الله ، وبوسعهم ألاَّ يقولوا ، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيِّرون منه شيئاً .

وقوله : ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً .. (١٠٤)﴾ [طه] يعني : أحسنهم حُكْماً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾

تكلمنا عن (يسألونك) في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

والسؤال استفهام يعني : طلب فَهْم يحتاج إلى جواب ، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم ، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب ، أو : من عالم لجاهل ، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه ، يقولون : بينما الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] يقول في آية أخرى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] فالأولى تنفي السؤال ، والثانية تُثبته ؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته .

وهؤلاء معذورون ، فليست لديهم الملكة العربية لفَهْم الأداء القرآنى ، وبيان هذا الإشكال أن السؤال يردُ فى اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه .

فالحق سبحانه حين يقول : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] أى : سؤالَ إقرار ، لا سؤالَ استفهام ، فحين ينفى السؤال ينفى سؤال العلم من جهة المتكلم ، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير .

والحدث مرة يُنفَى ، ومرة يُثبت ، لكن جهة النفى مُنفكَّة عن جهة الإثبات ، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. (١٧)﴾ [الأنفال]

فنفى الرمى فى الأولى ، وأثبته فى الثانية ، والحدث واحد ، والمثبَت له والمنفىّ عنه واحد هو محمد ﷺ . فكيف نخرج من هذا الإشكال ؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذى جلس بجوار ولده كى يذاكر دروسه ، فأخذ الولد يذاكر ، ويُقلِّب صفحات الكتاب ، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من معلومات لم يجد عنده شيئاً ، فقال للولد : ذاكرت وما ذاكرت . ذاكرت يعنى : فعلت فِعْل المذاكر ، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئاً .

فرسول الله ﷺ حينما رمى ، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله ؟ إذن : فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش ، إنما قدرة الله هى التى أوصلتْ حفنة التراب هذه وذرَّتْها فى أعيُن الأعداء جميعاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الجاثية] فنفتْ عنهم العلمَ ، وفى آية أخرى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا[1] مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم] فأثبتتْ لهم علْماً .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] وحينما استعرضنا (يَسْأَلُونَكَ) فى القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقاً بـ (قُلْ) كما فى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ[2] قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] وهكذا فى كل الآيات ، ما عدا قوله تعالى هنا ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه] فاقترن الفعل (قُلْ) بالفاء ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال فى كُلِّ هذه الآيات سؤال عن شىء وقع بالفعل ، فكان الجواب بقُلْ . مثل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] أما ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] قال فى الجواب ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه] ؛ لأنه حدَثٌ لم يقع بَعْد .

والحق - سبحانه وتعالى - يُخبر رسوله ﷺ أنه سيُسأل هذا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢٧) : « أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشئونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة » .

(٢) الأهلة : جمع هلال . والهلال : القمر فى أول ظهوره فى أول الشهر العربى . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

السؤال ، فكأن الفاء هنا دلّتْ على شرط مُقدّر ، بمعنى : إنْ سألوك بالفعل فقُلْ : كذا وكذا .

إذن : السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية ، أمَّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة ، وسُئِلت لرسول الله قبل نزول آياتها .

وقد تأتي إجابة السؤال بدون (قُلْ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فقُلْ) لأنها تدلُّ على الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُوضِّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ .

وقد تتعجب : كيف تأتي في القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس ؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون ، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التي لم ينزل فيها حكم .

نقول : دلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه ، فالأشياء التي كانت عادات لهم في الجاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنَّها عبادة ، لا مجرد عادة جاهلية .

مع أن النبي ﷺ نهاهم عن السؤال فقال : « دعوني ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[1] .

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٨) والدارقطني في سننه (٢/٢٨١) بلفظ « دعوني » ، وقد أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤٧ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥) ، ومسلم في صحيحه (١٣٣٧) بلفظ « ذروني » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الله ، لا على أنه إلْف عادة كانت لهم فى الجاهلية ، إذن : هذه الأسئلة ترسيمٌ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه] تكلمنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه] فالمراد : نُفتّتها ونذروها فى الهواء ، وأكّد النسف ، فقال ﴿نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾[طه] ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء .

فقد يتصوّر البعض أنّ الجبال تُهَدّ ، وتتحول إلى كُتل صخرية كما تُفجّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة ؛ لذلك أكّد على النسف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير ؛ لذلك قال فى آية أخرى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة] أى : كالصوف المندوف .

لكن ، لماذا ذكر الجبال بالذات ؟

قالوا . لأن الإنسان يرى أنه ابنٌ أغيار فى ذاته ، وابن أغيار فيما حوله ممّا يخدمه من حيوان أو نبات ، فيرى الحيوان يموت أو يُذبَح ، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتّت ، والإنسان نفسه يموت وينتهى .

إذن : كل ما يراه حوله بيِّن فيه التغيير والانتهاء ، إلا الجبال يراها راسية ثابتة ، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور .

لذلك يُضرب بها المثل فى الثبات ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم]

فالجبال مظهر للثبات ، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخلْق الثابت المستقر ، ماذا سيفعل الله به ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [طه] : أرضاً مستوية مَلْساء لا نباتَ فيها ولا بناء ، والضمير في ﴿ فَيَذَرُهَا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [طه] يعود على الأرض لا على الجبال ؛ لأن الجبال لا تكون قاعاً صفصفاً[1] ، أمّا الأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية ، لا بناءَ فيها ولا جبال ، فالأرض شيءٌ والجبال فوقها شيء آخر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ[2] وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فالضمير في ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] لا يعود على الأرض ، إنما على الجبال[3] . لأن الجبال في الحقيقة هي مخازن القُوت ومصدر الخِصْب للأرض ، التي هي مصدر القوت ، فالإنسان مخلوق من الأرض ، واستبقاء حياته من الأرض ، فالنبات قوت للإنسان وللحيوان ، والنبات والحيوان قوت للإنسان .

إذن : لا بُدَّ للأرض من خُصُوبة تساعدها وتُمدّها بعناصر الغذاء ، ولو أن الخالق - عز وجل - جعل الأرض هكذا طبقة واحدة بها المخصّبات لانتهتْ هذه الطبقة بعد عدة سنوات ، ولأجدبتْ الأرض بعد ذلك .

---

(١) الأرض الصفصف : الملساء المستوية . وقال الفراء : الصفصف الذي لا نبات فيه . [لسان العرب - مادة : صفف] .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٩٢/٤) : « يعني : يوم الأحد ويوم الاثنين » .

(٣) قال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها . وقال السدي والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . [تفسير القرطبي ٦٠٠٧/٩] .

إذن : خلق الله الجبالَ لحكمة ، وجعلها مصدراً للخصب الذي يمد الأرض مَدَداً دائماً ومستمراً ما بقيتْ الحياة على الأرض ، ومن هنا تتضح لنا حكمة الخالق - سبحانه - في أن تكون الجبال صَخْراً أصمّ ، فإذا ما تعرضت لعوامل التعرية على مَرِّ السنين تتفتتْ منها الطبقة الخارجية نتيجة لتغيُّر الظروف المناخية من حرارة وبرودة .

ثم تأتي الأمطار وتعمل في الصخر عمل المَبْرَد ، وتُكوّن ما يسمى بالغرْيَن[1] ، فتحمل هذا الفتات إلى الودْيان ومجاري الأنهار ، وتُوزِّعه على طبقة الأرض ، فتزيدها خصْباً تدريجياً كل عام ، وإلاَّ لو كانت الجبال هَشّة غير متماسكة لانهالتْ في عدة أعوام ، ولم تُؤدِّ هذا الغرض . لذلك نقول : إن الجبال هي مصدر القوت ، وليست الأرض .

ألاَ ترى أن خصوبة الوادي والدلتا جاءت من طمي النيل ، والغرْين الذي يحمله الماء من أعالي أفريقيا . وهذا الغرْيَن الذي يُنحتُ من الجبال هو الذي يُسبب الزيادة في رقعة اليابسة ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة في المدن المطلّة على البحر ، فبعد أن كانت على شاطئه أصبحت الآن داخل اليابسة .

وقد مثّلْنا سابقاً للجبل بأنه مُثلث قاعدته إلى أسفل ، والوادي مُثلث قاعدته إلى أعلى ، فكل نحْت في الجبل زيادة في الوادي ، وكأن الخالق - عز وجل - جعل هذه الظّاهرة لتتناسبَ مع زيادة السكان في الأرض .

---

(١) الغرْيَن : الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . قال الأصمعي : الغرين أن يجيء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب - مادة : غرن] .

وقد حُذف العائد في ﴿فَيَذَرُهَا .. ۝١٠٦﴾ [طه] اعتماداً على ذهن السامع ونباهته إلى أنه لا يكون إلا ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] فلم يذكر عائد الضمير (هو) لأنه إذا قيل لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإنْ لم يتقدم اسمه .

وكما في قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝٣٢﴾ [ص] والمراد : الشمس التي غابت ، ففاتتْ سليمان ـ عليه السلام ـ الصلاة ، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس[1] .

كذلك في : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. ۝٤٥﴾ [فاطر] أي : على الأرض ولم تذكرها الآية ، كذلك هنا (فيذرها) أي الأرض .

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾

أي : كأنها مُستوية على « ميزان الماء » لا ترى فيها اعوجاجاً ولا (أمْتاً) يعني : منخفض ومرتفع ، فهي مستوية استواءً تاماً ، كما نفعل نحن في الجدار ، ونحرص على استوائه .

لذلك ترى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع الضوء ؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب في الجدار أو على ذرات التراب ؛ لأنها تسقط على استقامتها ، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما في الجدار من التواءات أو نتوءات .

---

(١) ذكره السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » (١٨٦/٣) ضمن أمثلة « حذف الفاعل » في فصل « أنواع الحذف » . وقال : « لا يجوز إلا في فاعل المصدر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

الداعي : المنادى ، كالمؤذّن الذى كثيراً ما دعا الناس إلى حضرة الله تعالى فى الصلاة ، فمنهم مَنْ أجاب النداء ، ومنهم مَنْ تأبّى وأعرض ، أما الداعي فى الآخرة ، وهو الذى ينفخ فى الصور فلن يتأبّى عليه أحد ، ولن يمتنع عن إجابته أحد .

وقوله : ﴿ لا عِوَجَ لَهُ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] لأننا نرى داعي الدنيا حين يُنادى فى جَمْع من الناس ، يتجه يميناً ويتجه يساراً ، ويدور ليُسمع فى كُلّ الاتجاهات ، فإذا لم يَصِلْ صوته إلى كل الآذان استيعاباً يستعمل مُكبِّر الصوت مثلاً ، أما الداعي فى الآخرة فليس له عوج هنا أو هناك ؛ لأنه يُسمِع الجميع ، ويصل صوته إلى كل الآذان ، دون انحراف أو ميْل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] هذا الهمْسُ الذى قال عنه فى الآيات السابقة : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [طه]

ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجَمْع كجمع القيامة من لَدُنْ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التى طالما قالتْ ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف ، والهَوْل عظيم ، لا يجرؤ أحد من الهَوْل على رَفْع صوته ، والجميع كُلٌّ منشغل بحاله ، مُفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدَّثوا تحدَّثوا سِراً ومخافتة : ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟

وكذلك نحن في أوقات الشدائد لا نستطيع الجهر بها ، كما حدث لما مات سعد زغلول[1] ـ رحمه الله ـ وكان أحمد شوقي[2] وقتها في لبنان ، فسمع الناسَ يتخافتون ، ويهمس بعضهم إلى بعض بأن سعداً قد مات ، ولا يجرؤ أحد أن يجهر بها لِهَوْل هذا الحادث على النفوس ، فقال شوقي :

يَطأ الآذانَ هَمْساً والشِّفَاهَا

قُلْتُ يا قَوْم اجمعُوا أحْلامكُمْ كُلُّ نَفْسٍ في وَرِيدِيْها رَدَاهَا

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

والشفاعة تقتضي مشفوعاً له وهو الإنسان ، وشافعاً وهو الأعلى منزلةً ، ومشفوعاً عنده . والمشفوع عنده لا يسمح بالشفاعة هكذا

---

(١) هو سعد باشا بن إبراهيم زغلول ، زعيم نهضة مصر السياسية ، ولد في « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م ، دخل الأزهر سنة ١٨٧٤م . اتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني . تولى وزارة المعارف ، فالحقانية . انتخب عام ١٩١٩م رئيساً للوفد المصري للمطالبة بالاستقلال فنفاه الإنجليز إلى مالطة . توفي عام ١٩٢٧م عن ٧٠ عاماً . (الأعلام للزركلي ٨٣/٣) .

(٢) هو : أمير الشعراء أحمد شوقي : أشهر شعراء العصر الحديث ، ولد بالقاهرة ١٨٦٨م نشأ في ظل البيت المالك بمصر ، درس الحقوق بفرنسا ، عالج أكثر فنون الشعر : مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً ، ثم تناول الأحداث السياسية ، توفي ١٩٣٢م . (الأعلام للزركلي ١٢٧/١) .

ترتجلها من نفسك . إنما لا بُدَّ أنْ يأذنَ لك بها ، وأنْ يضعك في مقام ومرتبة الشفاعة ، وهذا شَرْط في الشافع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه] هذه للمشفوع له ، أن يقول قولاً يرضى الله عنه - وإنْ قصَّر في جهة أخرى - وخَيْر ما يقوله العبد ويرضى عنه الله أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذه مَقُولة مَرْضيَّة عند الله ، وهي الأمل الذي يُتعلق به ، والبُشْرى لأهل المعاصي ؛ لأنها كفيلة أن تُدخلهم في شفاعة النبي ﷺ .

فإذا كان لديك خَصْلة سيئة ، أو نقطة ضعف في تاريخك تراها عقبةً فلا تيأس ، وانظر إلى زاوية أخرى في نفسك تكون أقوى ، فأكثِرْ بها الحسنات ، لأن الحسنات يُذهِبْنَ السيئات .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

معنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه] ما أمامهم ، ويعلم ما خلفهم ، أما أنت فلا تحيط به عِلْماً ، ولا تعرف إلا ما يُخبرك به ، إلا أن تكون هناك مقدمات تستنبط منها ، لأن ما ستره الحق في الكون كثير ، منه ما جعل الله له مقدمات ، فمَنْ ألمَّ بهذه المقدمات يصل إليها .

ومع ذلك لا يقال له : علم غيباً . إنما اكتشف غيباً بمقدمات أعطاها له الحق سبحانه وتعالى ، كما نعطي التلميذ تمريناً هندسياً ، ونذكر له المعطيات ، فيستدل بالمعطيات على المطلوب .

والكون مليء بالأشياء والظواهر التي إنْ تأملناها وبحثْناها ولم

نُعرض عنها وجدنا فيها كثيراً من الأسرار ، فبالنظر في ظواهر الكون اكتشفوا عصر البخار ويسَّروا الحركة على الناس ، وبالنظر في ظواهر الكون اكتشف أرشميدس قانون الأجسام الطافية ، واكتشفوا البنسلين .. إلخ .

هذه كلها ظواهر موجودة في كون الله ، كانت تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها ويكتشفها ؛ لذلك ينعي علينا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فلو التفتوا إليها الالتفات الحق لانتفعوا بها .

لكن هناك أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد يعطيها لمن أحبَّ من عباده ، ويُطلعهم عليها ، أو تظل في علم الله لا يعرفها أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَنَتِ[1] الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾

الوجه أشرف وأكرم شيء في تكوين الإنسان ، وهو الذي يُعطي الشخص سمَته المميزة ؛ لذلك يحميه الإنسان ويحفظه ، ألاَ ترى لو أصاب وجهك غُبَار أو تراب أو طين مثلاً تمسحه بيدك ، لم تزدْ على أنك جعلْتَ ما في وجهك في يدك لماذا ؟ لأنه أشرف شيء فيك .

لذلك ، كان السجود لله تعالى في الصلاة علامة الخضوع والخشوع والذِّلَّة والانكسار له عز وجل ، ورضيتَ أن تضع أشرف

---

(١) عنت : أي : ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابي وغيره . [تفسير القرطبي ٦/٤٤٢٢] . وقال ابن عباس : الركوع والسجود . وقال طلق بن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود .

جزء فيك على الأرض وتباشر به التراب ، والإنسان لا يعنُو بوجهه إلا لَمنْ يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يستحقُّ هذا السجود ، وأن السجود له وحده يحميه من السجود لغيره ، كما قال الشاعر :

والسُّجُودُ الذي تَجْتَويهِ ... مِن أُلُوفِ السُّجُودِ فيهِ نَجَاةُ

فاسْجُدْ لواحد يكْفك السجود لسواه ، واعمل لوجه واحد يكْفك كل الأوْجُه .

وقوله : ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)﴾ [طه] حمل : يعنى أخذه عبئاً ثقيلاً عليه . والظلم في أصله أنْ تأخذَ خيراً ليس لك لتنتفع به وتزيد ما عندك ، فأنت في الظاهر تزداد كما تظن ، إنما الحقيقة أنك تُحمِّل نفسك وِزْراً وحملاً ثقيلاً ، سوف تنوء به ، وازددْتَ إثماً لا خيراً .

والظلم مراتب ودرجات ، أدناها أنْ تأخذ ما ليس لك وإن كان حقيراً لا قيمة له ، أو تظلم غيرك بأنْ تتناوله في عرْضه ، ثم ترقى الظلم إلى أنْ تصلَ به إلى القمة ، وهو الشرك بالله ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

وهو عظيم ؛ لأنك أخذتَ حقاً لله تعالى ، وأعطيته لغيره .

إذن : فحاول أن تَسْلَم من هذه الآفة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾

الصالحات : هي الأعمال التي تعود بالخير عليك أو على غيرك ، وأضعفُ الإيمان في عمل الصالح أن تترك الصالح في ذاته على صلاحه فلا تفسده ، كأن تجد بئراً يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه . فإنْ رقيت العمل الصالح فيمكنك أن تزيد من صلاحه ، فتبني حوله جداراً يحميه أو تجعل له غطاءً .. إلخ .

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه حينما حثَّنا على العمل الصالح قال : ﴿ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه] ومن هنا للتبعيض ، فيكفي أنْ تفعل بعض الصالحات ؛ لأن طاقة الإنسان لا تسع كل الصالحات ولا تقوى عليها ، فحسْبك أن تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كل هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنَتْ لنا الصلاح الكامل .

كما سبق أن ذكرنا أن ليس بوسع أحد منا أن يجمعَ الكمال المحمدي في أخلاقه ، والرسول ﷺ يقول : « الخير فيَّ ـ حقاً ـ وفي أمتي إلى يوم القيامة »[1] .

ففي كل فرد من أفراد الأمة خصلة من خصال الخير ، بحيث إذا تجمعت خصال الكمال في الخلق أعطتنا الكمال المحمدي .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه] لأن الإيمان شرط في قبول العمل الصالح ، فإنْ جاء العمل الصالح من غير المؤمن أخذ أجره في الدنيا ذِكْراً وشُهْرة وتخليداً لذكراه ، فقد عمل ليقال وقد قيل ، وانتهتْ المسألة .

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال في المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعني في حديث : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين » .

ثم يقول تعالى : ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه] والظلم هنا غير الظلم في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره . إنما ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه] أى : ظُلْماً يقع عليه ، بألاّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه] الهَضْم يعني النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التي تأكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموي ، فتأخذ حَيِّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعني : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْي الظلم نَفْي للهضم ؟ نقول : لأنه مرة يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا[(١)] فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾

(كَذَٰلِكَ) أى : كالإنزال الذى أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنّ فارق الرسالات أنهم بُعِثوا لزمان محدود ، في مكان محدود ، وبُعِثْتَ

---

(١) أى : بيَّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . [قاله القرطبي في تفسيره ٦/٤٤٢٥] .

للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفهم من كلمة ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١١٣) ﴾ [طه] أن المُنزِّل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عالٍ ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا ، فيقولّ : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض ؛ لأنه يُقنِّن للحاضر ويجهل المستقبل ، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حين ينادينا إلى منهجه العلوى يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] يعني : اعلوا وخُذُوا منهجكم من أعلى ، لا من الأرض .

﴿ قُرْآنًا .. (١١٣) ﴾ [طه] يعني : مقروء ، كما قال ﴿ كِتَابًا..(١٠) ﴾ [الأنبياء] يعني : مكتوب ، ليُحفظ في الصدور وفى السطور ، وقال ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (١١٣) ﴾ [طه] مع أن النبى ﷺ مُرْسَل إلى الناس كافة فى امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه ﷺ هو المباشر لهذه الأمة العربية التى ستستقبل أول دعوة له ، فلا بُدَّ أنْ تأتى المعجزة بلسانها ، كما أن معجزة القرآن ليستْ للعرب وحدهم ، إنما تحدٍّ للإنس والجن على امتداد الزمان والمكان .

كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء].

فالقرآن تحدٍّ لكل الأجناس : الروسى ، والأمريكى ، والياباني ، والدنيا كلها ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لماذا والجن أيضاً داخل فى مجال التحدى ؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يمدُّه ويُوحي إليه ؛ لذلك أدخل الجن أيضاً في هذا المجال .

وقد يقول قائل : وكيف نتحدَّى بالقرآن غير العرب وهو بلسان عربي ، فهو حجة على العرب دون غيرهم ؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حيث أسلوبه العربي وأدائه البياني فقط ؟ لا ، فجوانب الإعجاز في القرآن كثيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات في التقنين لخير المجتمع ؟ ألم يأتِ القرآن بمنهج في أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب ؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل والبحث ؟

ثم الكونيات التي تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبيعي أن يأتي القرآن عربياً ؛ لأنه نزل على رسول عربي ، وفي أمة عربية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤) ﴾ [إبراهيم]

فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها في شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التي لا تعرف العربية ، أقنعوها بالمبادىء والمناهج التي جاء بها القرآن ؛ لأنها مبادىء ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

ثم يقول تعالى ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ .. (١١٣) ﴾ [طه] أي : حينما ينذر القرآن بشيء يُصرف هذا الإنذار على أوجه مختلفة ، ويكرِّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .

يعنى : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى فى نفس أحد المستقبلين ، فخاطبنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد فى القرآن مَا يناسبه ؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامى ، فلا بُدَّ أنْ يكون فى القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .

وفى القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتى بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :

أَنَاةٌ فَإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدها وَعيداً

فَإنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمُهُ

وفى الأثر : « إن الله ليزع[1] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد فى سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾ [الرحمن] فهذه نعم من الله .

أما فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فما النعمة فى النار والشُّواظ ؟

النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ فى فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرَّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك

---

(١) الوَزْع : كفُّ النفس عن هواها . ومعنى الأثر : أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى ، فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار . [لسان العرب - مادة : وزع] .

فسوف تفشل في الامتحان فيحتقرك زملاؤك ، ويحدث لك كيت وكيت ، فلم يترك ولده على غفْلته وإهماله ، إلى أنْ يداهمه الامتحان ويُفاجئه الفشل ، أليستْ هذه نعمة ؟ أليستْ نصيحة مهمة ؟

والتصريف : يعني التحويل والتغيير بأساليب شتَّى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة عند نزول القرآن لعلها تصادف وَعْياً واهتماماً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) ﴾ [طه]

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .. (١١٣) ﴾ [طه] الاتقاء عادة يكون للشر والمعاصي المهلكة ، أو يُحدث لهم الذكْر والشرف والرفعة بفعل الخيرات ، وهذا من ارتقاءات الطاعة .

ذلك لأن التكليف قسمان : قسم ينهاك عن معصية ، وقسم يأمرك بطاعة ، فينهاك عن شُرْب الخمر ، ويأمرك بالصلاة ، فهم يتقون الأول ، ويُحدث لهم ذكْراً يوصيهم بعمل الثاني ، وما دام القرآن نازلاً من أعلى فلا بُدَّ أن يقول بعدها :

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) ﴾

﴿ تَعَالَى .. (١١٤) ﴾ [طه] تنزَّه وارتفع عن كل ما يُشبه الحادث ، تعالى ذاتاً ، فليستْ هناك ذاتٌ كذاته ، وتعالى صفاتاً فليست هناك صفة كصفته ، فإنْ وُجدَتْ صفة في الخَلْق تشبه صفة في الخالق سبحانه ، فخُذْها في ضوء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه لا يضنُّ على عبده أنْ يُسميه خالقاً إنْ أوجد شيئاً من عدم ، إنما لما تكلم عن خَلْقه سبحانه ، قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فأنت خالق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين ، فأنت خلقتَ من موجود أمّا ربك عز وجل فقد خلق من العدم ، أنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالة واحدة ، والله خلق خَلْقاً حياً نامياً ، يُحسُّ ويتحرك ويتكاثر ، وسبق أنْ مثّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الأكواب الزجاجية من الرمال ، وأوضحنا الفرق بين خَلْق وخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤)﴾ [طه] تلفتنا إلى ضرورة التطلع إلى أعلى في التشريع ، فما الذي يُجبرك أنْ تأخذ تشريعاً من عبد مثلك ؟ ولماذا لا يأخذ هو تشريعك ؟ إذن : لا بُدَّ أن يكون المشرِّع أعلا من المشرَّع له .

ومن ألفاظ تنزيه الله التي لا تُقال إلا له سبحانه كلمة (سبحان الله) أسمعتَ بشراً يقولها لبشر ؟ وهناك كفرة وملاحدة ومنكرون للألوهية ومعاندون ، ومع ذلك لم يقُلْها أحد مدْحاً في أحد .

كذلك كلمة (تعالى وتبارك) لا تُقال إلا لله ، فنقول : (تباركت ربنا وتعاليت) أي : وحدك لا شريك لك .

فقوله : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ .. (١١٤)﴾ [طه] علا قَدْره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه ، أمّا التعالي في البشر فيما بينهم فأمْر ممقوتٌ ؛ أما تعالي الحق سبحانه فمن مصلحة الخلق ، وهذه اللفتة يُعبِّر عنها أهل الريف ، يقولون (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) ؛ لأن الكبير هو الذي سيأخذ بيد الضعيف ويدكّ طغيان القوي ، فإذا لم يكُنْ لنا كبير نختلف ونضيع .

إذن : من مصلحة الكون كله أنْ يكونَ الله متعالياً ، والحق ليس متعالياً علينا ، بل متعالٍ من أجلنا ولصالحنا ، فأيُّ مُتعالٍ أو جبار من

البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يتدكّ جبروته وتعاليه ، وأيّ ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد ، فيطمئن ويعيش آمناً وبذلك يحدث التوازن الاجتماعي بين الناس .

ونحن نحب عبوديتنا لله عز وجل ، وإنْ كانت العبودية كلمة بغيضة مكروهة حين تكون عبودية الخَلْق للخَلْق فيأخذ السيد خَيْرَ عبده ، إلا أن العبودية لله شرف وكرامة ؛ لأن العبد لله هو الذي يأخذ خَيْر سيده ، فأنا عبد الله وعبوديتي له لصالحي أنا ، ولن أزيد في مُلْكه شيئاً ، ولن ينتفع من ورائي بشيء ؛ لأنه سبحانه زاول مُلْكه وزاول سلطانه في الكون قبل أن يخلق الخَلْق ، فبقدرته وعظمته خلق ، وقبل أنْ توجد أنت أيها الإنسان الطاغي المتمرد أوجد لك الكون كله بما فيه .

فأنت بإيمانك لن تزيد شيئاً في مُلْك الله ، كما جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تملكوا نفعي فتنفعوني ، ولن تملكوا ضري فتضروني ... »[1] فأنا إنْ تصرّفْتُ فيكم فلمصلحتكم ، لا يعود عليَّ من ذلك شيء .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] لأن هناك ملوكاً كثيرين ، أثبتَ الله لهم المُلْك وسمّاهم مُلُوكاً ، كما قال سبحانه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾[يوسف] وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : في الدنيا ملوك ، لكنهم ليسوا مُلُوكاً بحق ، الملك بحق هو الله ؛ لأن ملوك الدنيا ملوك في مُلْك موهوب لهم من الله ، فيمكن أن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٥٤) ، ومسلم في صحيحه (٢٥٧٧) ، وابن ماجة في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

يفوت مُلْكَه ، أو يفوته الملكُ ، وأىُّ مُلْك هذا الذى لا يملكه صاحبه ؟ أىّ مُلْك هذا الذى يُسلب منك بانقلاب أو بطلقة رصاص ؟

إذن : الملك الحق هـو الله ، وإن ملَّك بعض الخلق شـئون بعض لمـصلحـتـهم ، فهـو سبـحانه الذى يهَبُ الملْك ، وهو الذى ينـزعه إن أراد : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فالحق سـبحانه له الملْك الحق ، ويهَبُ من مُـلْكه لمَنْ يشاء ، لكن يظل الملْك وما ملَّـكه فـى قبضة الله ؛ لأنه سـبحانه قيُّـوم على خَلْقه لا يخرجَ أحد عن قيوميته .

وقد نسمع مَنْ يسبُّ الملوك والرؤساء ، ومَنْ يخوض فى حقهم ، وهو لا يدرى أن ملْكهم من الله ، فهو سبحانه الذى ملَّكهم وفوَّضهم ، ولم يأخذ أحد منهم مُلْكاً رَغْماً عن الله ، فلا تعترض على اخـتيار الله واحتـرم مَنْ فوَّضه الله فى أمـرك ، واعلم أن فى ذلك مصلحـة البلاد والعباد ، ومَنْ يدريك لعلَّ الطاغية منهم يصبح غداً واحداً من الرعية .

إذن : الحق سبـحانه ملَّك بعض الناس أمْر بعض : هذا يتـصرف فى هذا ، وهذا يملك هذا لتـسيير حـركة الكون ، فإذا كـانت القيـامة ، قال عز وجل : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] هذا هو الملْك الحق .

ومن عظمته فى التعالى أنه يريحك هو سبحانه بعمله لك ، فيقول لك : نَمْ ملْءَ جفـونك ، فـأنا لا تأخذنـى سِنَة ولا نوم ، نَمْ فلكَ رب قيوم قائم على أمرك يرعاك ويحرسك .

ومن مـعـانى ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤) ﴾ [طه] أى : الثـابت الذى لا يتغير ، وكُلُّ ظاهرة من ظواهر القوة فى الكون تتغير إلا قوة الحق

ـ تبارك وتعالى ـ لذلك يُلْقى سبحانه أوامره وهو واثق أنها ستُنفذ ؛ لأنه سبحانه ملكٌ حقّ ، بيده ناصية الأمور كلها . فلو لم يكُنْ سبحانه كذلك ، فكيف يَقول للشيء : كُنْ فيكون ؟ فلا يعصاه أحد ، ولا يخرج عن طَوْعه مخلوق ، فيقول له : كُنْ فلا يكون .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ أنزل القرآن عربياً ، وصرَّف فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ؛ لأنه من حقه أن يكون له ذلك ؛ لأنه ملك حق ليس له هوى فيما شرع ؛ لذلك يجب أن تقبل تشريعه ، فلا يطعن في القوانين إلا أن تصدر عن هوى ، فإنْ قنَّن رأسمالي أعطى الامتياز للرأسماليين ، وإنْ قنَّن فقير أعطى الامتياز للفقراء ، والله عز وجل لا ينحاز لأحد على حساب أحد .

وأيضاً يجب في المقنِّن أن يكون عالماً بمستجدَّات الأمور في المستقبل ، حتى لا يستدرك أحد على قانون فيُغيِّره كما يحدث معنا الآن ، وتضطرنا الأحداث إلى تغيير القانون ؛ لأننا ساعة شرعناه غابتْ عنا هذه الأحداث ، ولم نحتط لها ؛ لذلك لا استدراكَ على قانون السماء أبداً .

وطالما أن الحق سبحانه وتعالى هو ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤) ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ يضمن للخلق أنْ يصلهم الكتاب والمنهج كما قاله سبحانه ، لا تغيير فيه ؛ لذلك قال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

نحن الذين سنحفظه ؛ لأن البشر جُرِّبوا في حِفْظ مناهج السماء ، ولم يكونوا أمناء عليها ، فغيَّروا في التوراة وفي الإنجيل وفي الكتب المقدَّسة . إما بأن يكتموا بعض ما أنزل الله ، وإما أنْ ينسوا بعضه ،

والذى ذكروه لم يتركوه على حاله بل حرّفوه . وإنْ قُبِل منهم هذا كله فلا يُقبَل منهم أنْ يفترُوا على الله فيُؤلِّفون من عندهم ، ويقولون :
﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٨)﴾ [آل عمران]

ذلك لأن الحفْظ للمنهج كان موكولاً للبشر تكليفاً ، والتكليف عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، ولأن يُعْصَى ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

أى : طلب منهم أن يحفظوها بهذا الأمر التكليفى ، فعصَوْه نسياناً ، وكتماناً ، وتحريفاً ، وزيادة ؛ لذلك تولّى الحق - تبارك وتعالى - حفْظ القرآن ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذى لا استدراكَ عليه ، وضمن سبحانه للقرآن ألاّ يُحرَّف بأىّ وجه من أوْجُه التحريف .

فاطمئنوا إلى أن القرآن كتاب الله الذى بين أيديكم هو كلام الله الذى جاء من علمه تعالى فى اللوح المحفوظ الذى قال عنه : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين ، وهو مُؤتَمن عليه لم يتصرَّف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذى قال الله عنه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علْماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبي ﷺ ، فلا حجة لنا بعد أن جمع الحق - سبحانه وتعالى - للقرآن كُلّ ألوان الحفظ .

---

(١) قوله : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾ [الواقعة] . قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦]

لذلك كان ولا بُدَّ حين يُنزل الله القرآن على رسوله أن يقول له : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] فليست هناك حقيقة بعد هذا أبداً ، وليس هناك شيء ثابت ثبوتَ الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] وهذه مُقدِّمات ليطمئن رسول الله على حِفْظ القرآن ؛ لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي ، فيحاول إعادته كلمة كلمة . فإذا قال الوحي مثلاً : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجن] فيأخذ الرسول في تكرارها في سرِّه ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حِرْصه على القرآن[1] .

فنهاه الله عن هذه العَجَلة ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] أي : لا تتعجل ، ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه طالما أنني تكفّلْتُ بحفْظه ؛ لذلك يقول له في موضع آخر : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة ؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى .

والعَجَلة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه ، كأن تقطف الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها ، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد ، أو تتعجل قَطْفها وهي صغيرة لا تكفي شخصاً واحداً ، ولو تركتها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي . قاله السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٠٢) . وأورد القرطبي نحو هذا في تفسيره (٦/٤٤٢٥) ، وكذا تفسير ابن كثير (٣/١٦٧) .

والقرآن كلام في مستوى عَالٍ من البلاغة ، وليس كلاماً مألوفاً له يسهُل عليه حِفْظه ؛ لذلك كان حريصاً على الحِفْظ والتثبيت .

وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة] أي : لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وهذه الظاهرة من معجزات النبي ﷺ ، فبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن ، أو السورة كاملة ، ثم حين يُسرى عنه الوحي يعيدها كما أُنزلتْ عليه ، ولك أن تأتي بأكثر الناس قدرة على الحفظ ، واقرأ عليه لمدة عشر دقائق مثلاً من أي كتاب أو أي كلام ، ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع .

أما النبي ﷺ فكان يأمر الكَتبة بكتابة القرآن ، ثم يمليه عليهم كما سمعه ، لا يُغير منه حرفاً واحداً ، بل ويُملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول : « ضعوا هذه في سورة كذا ، وهذه في سورة كذا »[1] .

ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمر إلى حدٍّ ما سهلاً ، إنما تنزل الآيات متفرقة ، فإذا ما قرأ ﷺ في الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة ، هذه نزلت اليوم ، وهذه نزلت بالأمس ، وهكذا ، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية .

وقوله تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة] وخاطب

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٧/١٥٣) من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور ، ذوات عدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه ، فيقول : « ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » ، وكذا أخرجه الترمذي في سننه (٥/٢٧٢) ، والحاكم في مستدركه (٢/٢٢١ ، ٣٣٠) .

النبى فى آية أخرى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ .

ومعنى : ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ﴿١١٤﴾﴾ [طه] أى : انتظر حتى يسرى عنك ، لكن كيف يعرف الرسول ذلك ؟ كيف يعرف أن الحالة التى تعتريه عند نزول الوحى قد زالتْ ؟ والصحابة يصفون حال النبى ﷺ عند نزول الوحى عليه فيقولون : كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل ، وكان جبينه يتفصد عرقاً[1] ، ويبلغ منه الجهد مبلغاً ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ برسول الله : لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل]

إذن : هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحى : لأن الوَحْى من ملَك له طبيعته التكوينية التى تختلف وطبيعة النبى البشرية ، فلكى يتم اللقاء بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب فى الطبيعة ، فإمَّا أن يتحول الملك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية ، أو ينتقل رسول الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقَّى عن الملك .

لذلك ، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية فى طبيعته ، هذه التغييرات هى التى تجعله يتصبَّبُ عَرَقاً حتى يقول : « زملونى زملونى » أو « دثرونى دثرونى »[2] لما حدث فى تكوينه من تفاعل .

فكان الوحى شاقاً على رسول الله خاصة فى أوله ، فأراد الحق ـ

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها .

سبحانه ـ أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة ، وأنْ يُريحه فترة من نزول الوحي ليريحه من ناحية وليُشوِّقه للوحي من ناحية أخرى ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح] والوِزْر هو الحِمْل الثقيل الذي كان يحمله رسول الله في نزول الوحي عليه .

فلما فتر الوحي عن رسول الله شمتَ به الأعداء ، وقالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه[1] . سبحان الله ، أفي الجفْوة تذكرون أنّ لمحمد رباً ؟ ألستم القائلين له : كذاب وساحر ؟ والآن أصبح له رب لأنه قلاه ؟

وما فهم الكفار أن فتور الوحي لحكمة عالية ، أرادها ربُّ محمد ، هي أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية في تكوينه ، وأنْ تتجدد طاقته ، ويزداد شوقه للقاء جبريل من جديد ، والشَّوْق إلى الشيء يُهوِّن الصعاب في سبيله . كما يسير المحب إلى حبيبه ، لا تمنعه مشاقّ الطريق .

فردَّ الله على الكفار : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى]

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار ، ثم عدَّل عبارتهم : إن ربَّ محمد قد قلاه فقال : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] هكذا بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع قد يكون للحبيب .

أمَّا في قوله : ﴿وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] فلم يأت هنا بكاف الخطاب حتى مع النفي ، فلم يقُلْ (وما قلاك) ؛ لأنَّ النفي مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله .

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلي أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير في تفسيره (٥٢٢/٤) .

كما لو قلت : أنا لم أرَ شيخ الأزهر يشرب الخمر ، أمدحتَ شيخ الأزهر بهذا القول أم ذَمَمْته ؟ الحقيقة أنك ذممته ؛ لأنك جعلته مظنة أن يحدث منه ذلك .

فهذا التعبير القرآنى يعطى لرسول الله منزلته العالية ومكانته عند ربه عز وجل .

لكن ، ما الحكمة فى أن الحق - تبارك وتعالى - أقسم فى هذه المسألة بالضحى وبالليل إذا سَجَى ؟ وما صلتهما بموضوع غياب الوحى عن رسول الله ؟

الله عز وجل يريد بقوله : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ [الضحى] أن يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونية مُشَاهدة ومُعْتَرف بها عند الجميع ، وهى أن الله خلق النهار وجعله مَحلاً للحركة والنشاط والسعى ، وخلق الليل وجعله مَحَلاً للراحة والسكون ، فيرتاح الإنسان فى الليل ليعاود نشاطه فى الصباح من جديد .

وهكذا أمر الوحى مع رسول الله ﷺ ، فلما أجهده الوحى احتاج إلى وقت يرتاح فيه ، لا لتنتهى المسألة بلا عودة ، بل ليُجدِّد نشاط النبى ، ويُشوِّقه للوحى من جديد ؛ لذلك بشَّره بقوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④﴾ [الضحى] أى : انتظر يا محمد ، فسوف يأتيك خير كثير .

فالحق سبحانه يُرجعهم إلى ظواهر الكون ، وإلى الطبيعة التى يعيشون عليها ، فأنتم ترتاحون من عَنَاء النهار بسكون الليل ، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحى ومشقته ؟ وهل راحتكم فى سكون الليل تعنى دوام الليل وعدم عودة النهار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه] هذا توجيه للنبى ﷺ للاستزادة من العلم ، فما دُمْتَ أنت يا رب الحافظ فزِدْنى منه ، ذلك لأن رسول الله سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لَدُنْه إلى أن تقوم الساعة ، علْمٌ يشمل الأزمنة والأمكنة ، فلا بُدَّ له أنْ يُعَدَّ الإعدادَ اللازم لهذه المهمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) ﴾

كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعزِّى رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يعانيه من كفر القوم وعنادهم بقوله له : اقبلهم على عِلاَّتهم ، فهُمْ أولاد آدم ، والعصيان أمر وارد فيهم ، وسبق أن عهدنا إلى أبيهم فنسى ، فإذا نسى هؤلاء فاقبل منهم فهم أولاد « نسَّاى » .

لذلك ، إذا أوصيتَ أحداً بعمل شيء فلم يَقُمْ به ، فلا تغضب ، وارجع الأمر إلى هذه المسألة ، والتمس له عُذْراً .

وقوله : ﴿ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ .. (١١٥) ﴾ [طه] أى : أمرنا ووصَّيْنا ووعظنا ، وقلنا كل شيء .

﴿ مِن قَبْلُ .. (١١٥) ﴾ [طه] هذه الكلمة لها دَوْر فى القرآن ، وقد حسمتْ لنا مواقف عدة ، منها قوله هنا عن آدم والمراد : خُذْ لهم أُسْوة من أبيهم الذى كلَّفه الله مباشرة ، ليس بواسطة رسول ، وكلَّفه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة ، هذا هو التكليف ، ومع ذلك نسى آدم ما أُمِر به .

إذن : حينما يأتي التكليف بواسطة رسول ، وبأمور كثيرة ، فمَنْ نسى من ولد آدم فيجب أنْ نعذره ونلتمس له عذراً ، ولكثرة النسيان فى ذرية آدم قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ .. (٨٢)﴾ [طه] بالمبالغة ؛ لأن الجميع عُرْضَة للنسيان وعُرْضَة للخطأ ، فالأمر - إذن - يحتاج إلى مغفرة كثيرة .

كذلك جاءتْ (من قبل) فى قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

فكان لها دور ومَغْزى ، فلو قال الحق سبحانه : فَلِمَ تقتلون أنبياء الله ؟ فحسْب ، فربما جرَّأهم على الاعتداء على رسول الله أنْ يقتلوه ، أو يفهم منها رسول الله أنه عُرْضَة للقتل كما حدث مع سابقيه من الأنبياء . لذلك قيَّدها الحق - تبارك وتعالى - وجعلها شيئاً من الماضى الذى لن يكون ، فهذا شيء حدث من قبل ، وليس هذا زمانه .

وقوله : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] أى : نسى العَهْد ، هذه واحدة . ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] ليس عنده عزيمة قوية تُعينه على المضىِّ والثبات فى الأمر .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يعطينا فكرة بأنه سبحانه حين يأمر بأمْر فيه نفع لك تتهافت عليه ، أمَّا إذا أمر بشيء يُقيِّد شهواتك تأبَّيْتَ وخالفتَ ، ومن هنا احتاج التكليف إلى عزيمة قوية تعينك على المضىِّ فيه والثبات عليه ، فإنْ أقبلتَ على الأمر الذى يخالف شهوتك نظرتَ فيه وتأملتَ : كيف أنه يعطيك شهوة عاجلة زائلة لكن يعقبها ذلٌّ آجل مستمر ، فالعَزْم هنا ألاَّ تغريك الشهوة .

ألا ترى أن الله تعالى سمَّى الرسل أصحاب الدعوات والرسالات الهامة فى تاريخ البشرية ﴿أُولُوا الْعَزْمِ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف] لأنهم

سيتحملون مشاقَ ومهامَ صعبة تحتاج إلى ثبات وصبر على التكاليف.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة] أي : عزيمة تدفع إلى الطاعات ، وتمنع من المعاصي .

ومسألة نسيان العبد للمنهيات التي يترتب عليها عقاب وعذاب أثارتْ عند الناس مشكلة في القضاء والقدر ، فتسمع البعض يقول : ما دام أن الله تعالى كتب عليّ هذا الفعل فلِمَ يعاقبني عليه ؟

ونعجب لهذه المقولة ، ولماذا لم تَقُلْ أيضاً : لماذا يثيبني على هذا الفعل ، ما دام قد كتبه عليّ ؟ لماذا توقفتَ في الأولى و(بلعْت) الأخرى ، بالطبع ؛ لأن الأولى ليست في صالحك . إذن ، عليك أن تتعامل مع ربك معاملة واحدة ، وتقيس الأمور بمقياس واحد .

والعهد الذي أخذه الله على آدم أنْ يأكل رَغَداً من كل نعيم الجنة كما يشاء إلا شجرة واحدة حذَّره من مجرد الاقتراب منها هو وزوجه : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

وهذه المسألة تلفتنا إلى أن المحللات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى أمّا المحرمات فقليلة معدودة محصورة ؛ لذلك حينما يُحدِّثنا الحق سبحانه عن التكليف يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام] فالمحرَّمات هي التي يمكن حصرها ، أما المحللات فخارجة عن نطاق الحَصْر .

ونلحظ أن الله تعالى حينما يُحذِّرنا من المحرمات لا يُحذِّرنا من مباشرتها ، بلْ من مجرد الاقتراب منها ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] ولم يقلْ : لا تأكلا منها ؛ ليظل الإنسان بعيداً عن منطقة الخطر ومظنّة الفعْل .

وحينما يُحدِّثنا ربُّنا عن حدوده التي حدَّهَا لنا يقول في الحدّ

المحلَّل : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] وفى الحدِّ المحرَّم يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] ذلك لأن مَنْ حامَ حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول ما نسيه آدم عليه السلام ، فمنهم مَنْ قال : نسى (كُلْ من هذه ولا تقرب هذه) ، وعلى هذا الرأى لم ينْسَ آدم لأنه نفَّذ الأمر فأكل ممَّا أحله الله له ، أما كونه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها فليس فى هذه أيضاً نسيان ؛ لأن إبليس ذكَّره بهذا النهى فقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف]

فحينما أكل آدم من الشجرة لم يكُنْ ناسياً ما نهاه الله عنه . إذن : ما المقصود بالنسيان هنا ؟

المقصود أن آدم ـ عليه السلام ـ نسى ما أخبره الله به من عداوة إبليس ـ لعنه الله ـ حين قال له : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

والفكر البشرى لا بُدَّ أن تفوتَهُ بعض المسائل ، ولو كان عند الإنسان يقظة وحذر ما انطلى عليه تغفيل إبليس ، فتراه يُذكِّر آدمَ بالنهى ولم يَدَعْهُ فى غفلته ثم يحاول إقناعه : إنْ أكلتُما من هذه الشجرة فسوف تكونَا ملكين ، أو تكونَا من الخالدين .

وما دُمْتَ أنت يا إبليس بهذا الذكاء ، فلماذا لم تأكل أنت من الشجرة وتكون ملَكاً أو تكون من الخالدين ؟ لماذا تضاءلت فصرْتَ أرْنباً تقول : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف]

إذن : هذا نموذج من تغفيل إبليس لآدم وذريته من بعده ، يلفتنا الله تعالى إليه يقول : تيقظوا واحذروا ، فعداوته لكم مُسْبقة منذ سجد الجميع لآدم تكريماً ، وأبَى هو أن يسجد .

فكان على آدم أنْ يُحذِّر عدوه ، وأنْ يتحصَّن له بسوء الظن فيه ، فينظر في قوله ويفكر في كلامه ويفتش في اقتراحه .

والبعض يقول : إن خطأ آدم ناتج عن نسيان ، فهو خطأ غير مُتعمَّد ، والنسيان مرفوع ، كما جاء في الحديث الشريف : « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] .

فهل كان النسيان قديماً لا يُرْفَع ، ورُفِع لهذه الأمة إكْراماً لها ؟ فأصحاب هذا القول يلتمسون العُذْر لآدم عليه السلام ، لكن كيف وقد كلَّفه ربُّه مباشرة ، وكلَّفه بأمر واحد ، فالمسألة لا تحتمل نسياناً ، فإذا نسى آدم مع وحدة التكليف وكَوْنه من الله مباشرة ، فهذا على أية حال جريمة .

ثم يقص الحق سبحانه علينا قصة آدم مع إبليس :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ علينا قصة آدم عليه السلام ، لكن نلاحظ أنه سبحانه أعطانا مُجْمل القصة ومُوجزها في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] وأصل القصة وترتيبها الطبيعي أنه سبحانه يقول : خلقتُ آدم بيدي وصوَّرته ، وكذا وكذا ، ثم أمرتُ الملائكة بالسجود له ثم قلت له : كذا ....

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (٢٠٤٥) والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم في مستدركه (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجة منقطع .

وعَرْض القصة بهذه الطريقة أسلوبٌ من أساليب التشويق ، يصنعه الآن المؤلفون والكُتّاب في قصصهم ، فيعطوننا في بداية القصة لقطة لنهايتها ؛ لإثارة الرغبة في تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لونٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه .

ومن ذلك أسلوب القرآن في قصة أهل الكهف ، حيث ذكر القصة مُوجَزة فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾ [الكهف]

ثم أخذ في عَرْضها تفصيلاً : ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. (١٣)﴾ [الكهف]

وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً في قَصَص القرآن ، ففي قصة لوط - عليه السلام - يبدأ بنهاية القصة وما حاق بهم من العذاب : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[2] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ[3] (٣٤)﴾ [القمر]

ثم يعود إلى تفصيل الأحداث : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر]

---

(١) الرقيم . قيل : هو كتاب كان معهم . وقيل : اسم وادٍ بفلسطين كان فيه كهفهم . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

(٢) أي : عذاباً يحصبهم أي : يرميهم بحجارة من سجيل . ويُقال للريح التي تحمل التراب والحصى : حاصب . [لسان العرب - مادة : حصب] .

(٣) السَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح . والجمع : أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [لسان العرب - مادة : سحر] .

ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى في قصة موسى وفرعون:
﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾ [الأعراف] أي: من بعد موكب الرسالات إلى فرعون وملئه فظلموا بها، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين، هذا مُجمل القصة، ثم يأخذ في قَصِّ الأحداث بالتفصيل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [الأعراف]

وهكذا أسلوب القرآن في قصة آدم عليه السلام، يعطينا مُجْمل القصة، ثم يُفصِّلها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا (١١٦)﴾ [طه] يعني: اذكر إذ قُلْنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ .. (٣٤)﴾ [البقرة]

وقبل أن نخوضَ في قصة أبينا آدم - عليه السلام - يجب أن نشير إلى أنها تكررتْ كثيراً في القرآن، لكن هذا التكرار مقصود لحكمة، ولا يعني إعادة الأحداث، بل هي لقطاتٌ لجوانب مختلفة من الحدَث الواحد تتجمع في النهاية لتعطيك القصة الكاملة من جميع زواياها.

كما أن الهدف من قَصَص القرآن تثبيت النبي ﷺ؛ لأنه سيمرُّ بكثير من الأحداث والشدائد، سيحتاج في كل منها إلى تثبيت، وهذا الغرض لا يتأتَّى إذا سردنا القصة مرة واحدة، كما في قصة يوسف عليه السلام مثلاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. (١١٦)﴾ [طه] البعض يعترض يقول: كيف تسجد الملائكة لبشر؟ نعم، هم سجدوا لآدم، لكن ما سجدوا من عند أنفسهم، بل بأمر الله لهم، فالمسألة ليستْ سجوداً لآدم، بقدر ما هي إطاعة لأمر الله. ولقائل هذا الكلام: أأنت ملَكِيٌّ أكثر من الملك؟ يعني: أأنت ربانيٌّ أكثر من الربِّ؟

وما معنى السجود ؟ السجود معناه : الخضوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا.. ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف] أي : سجودَ تعظيم وخضوع ، لا سجودَ عبادة .

وآدم - عليه السلام - هو خليفة الله في الأرض ، لكنه ليس الوحيد عليها ، فعلى الأرض مخلوقات كثيرة منها المحسّ ، كالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والأرض والجبال ، وكُلّ ما فيه مصلحة لهذا الخليفة ، ومنها ما هو خفيّ كالملائكة التي تدير خفي هذا الكون ، فمنهم الحفظة والكتبة ، ومنهم المكلَّفون بالريح وبالمطر .. إلخ من الأمور التي تخدم الخَلْق . فلا بُدَّ - إذن - أن يخضع الجميع لهذا المخدوم الآتي .

وقد يحلو للبعض أن يقول : لقد ظلَمنا آدمُ حين عصى ربه ، فأنزلنا من الجنة إلى الأرض . نقول : يجب أن نفهم عن الله تعالى ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق آدم للجنة التي هي دار الخُلْد ، إنما خلقه ليكون خليفة له في الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

فأوّل بلاغ من الله عن آدم أنه خالقه للأرض لا للجنة . والجنة ، وإن كانت تُطلَق على دار الخُلْد ودار النعيم الأُخْروي فهي تُطلَق أيضاً على حدائق وبساتين الدنيا ، كما جاء في قول الحق سبحانه :

---

(١) قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أبوه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديماً . وقال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان . قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه . قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٩١) بعد سرد هذه الأقوال : « ظاهر القرآن يدل على حياتها ، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق » .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧)﴾ [القلم]

وقوله : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ.. (٣٢)﴾ [الكهف]

إذن : تُطلَق الجنة على شيء في الدنيا يضمُّ كل ما تطلبه النفس وسمَّوْها الجنة ؛ لأنها تستر بشجرها وكثافتها مَنْ يدخل فيها ، أو جنة لأنها تكفي الإنسان ولا تُحوجه إلى شيء غيرها .

فلا تظلموا آدم بأنه أخرجكم من الجنة ؛ لأنه لم يكُنْ في جنة الخُلْد ، إنما في مكان أعدَّه الله له ، وأراد أنْ يُعطيه في هذا المكان درساً ، ويُدرِّبه على القيام بمهمته في الحياة وخلافته في الأرض .

أرأيتَ ما نفعله الآن من إقامة معسكرات للتدريب في شتى مجالات الحياة ، وفيها نتكفَّل بمعيشة المتدرب وإقامته ورعايته .

إنها أماكن مُعدَّة للتدريب على المهام المختلفة : رياضية ، أو علمية ، أو عسكرية .. الخ .

هكذا كانت جنة آدم مكاناً لتدريبه قبل أنْ يباشر مهمته كخليفة لله في الأرض ، فأدخله الله في هذه التجربة العملية التطبيقية ، وأعطاه فيها نموذجاً للتكليف بالأمر والنهي ، وحذَّره من عدوه الذي سيتربص به وبذريته من بعده ، وكشف له بعض أساليبه في الإضلال والإغواء .

---

(١) الصَّرْم : القطع ماديًا ، كقطع الثمار ، أي : يقطعون ثمارها . قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم] أي : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودِّ ، أو صارت كالأرض التي قطعت أشجارها ولا نبات فيها » . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

وهذه هي خلاصة منهج الله في الأرض ، وما من رسول إلا وجاء يمثل هذا المنهج : أمر ، ونهي ، وتكليف ، وتحذير من الشيطان ووسوسته حتى يُخرِجنا عن أمر الله ونَهْيه .

وبعد هذا (الكورس) التدريبي في الجنة علم آدم بالتطبيق العملي أن الشيطان عدوه ، وأنه سيُغريه ويخدعه ، ثم بعد هذه التجربة أنزله الله ليباشر مهمته في الأرض ، فيكون من عدوه على ذكْر وحذر .

والبعض يقف طويلاً عند مسألة عصيان آدم : كيف يعصى الله وهو نبي ؟ ويذكرون قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

نقول : ما دام أن آدم - عليه السلام - هو خليفة الله في أرضه ، ومنه أنْسَالُ الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة ، ومن نَسْله الأنبياء وغير الأنبياء ، من نسله الرسل والمرسل إليهم . إذن : فهو بذاته يمثل الخلْق الآتي كله بجميع أنواعه المعصومين وغير المعصومين .

كما أن آدم - عليه السلام - مرَّ بهذه التجربة قبل أن يُنبأ ، ومرَّ بها بعد أن نُبئ ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب ، ثم لما أُهبط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة آدم عليه السلام ، ومثَّل آدم الدَّوْرَيْن : دَوْر العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه ، ودَوْر البشر العادي غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأيِّ إنسان من أناس الأرض :

ينبغي - إذن - أن نفهم أن آدم خُلق للأرض وعمارتها ، وقد هيّأها الله لآدم وذريته من بعده ، وأعدّها بكُلّ مقوّمات الحياة ومُقوِّمات بقاء النوع ، فمَنْ أراد ترف الحياة فليُعمل عقله في هذه المقوّمات وليستنبط منها ما يريد .

لقد ذكرنا أن في الكون مُلكاً وملكوتاً : المُلْك هو الظاهر الذي نراه ونشاهده ، والملكوت ما خفي عنّا وراء هذا المُلْك ، ومن الملكوت أشياء تؤدي مهمتها في حياتنا دون أنْ نراها ، فمثلاً ظاهرة الجاذبية الأرضية التي تتدخل في أمور كثيرة في حياتنا ، كانت في حجاب الملكوت لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً ، ثم لما اهتدتْ إليها العقول واكتشفتْها عرفنا أن هناك ما يسمى بالجاذبية .

ومن الملكوت الملائكة الموكّلون ، كما قال تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

ومنهم الكتَبة : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

فلما خلق الله آدم ، وخلق الملائكة الموكلين بمصالحه في الأرض أمرهم بالسجود له ؛ لأنهم سيكونون في خدمته ، فالسجود طاعة لأمر الله ، وخضوع للخليفة الذي سيعمر الأرض .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)﴾ [طه] وفي آية أخرى[1] : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ .. (٧٤)﴾ [ص]

وقد أوضح الحق سبحانه سبب رَفْض إبليس للسجود لآدم بقوله : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

---

(١) وفي آية ثالثة جمع بين الإباء والاستكبار في قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ .. (٣٤)﴾ [البقرة] .

أي : لا سبب لامتناعك إلا الاستكبار على السجود ، أو تكون من العالين ، أي : الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، فكأن الأمر كان لملائكة خاصة هم الموكَّلون بخدمة آدم ، أمَّا العالون فهم الملائكة المهيَّمون ، ولا علاقة لهم بآدم ، وربما لا يدرُون به .

ومن الأساليب التي أثارتْ جَدلاً حول بلاغة القرآن لدى المستشرقين قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] وقوله في موضع آخر : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] فأيُّ التعبيريْن بليغ ؟ وإنْ كان أحدهما بليغاً فالآخر غير بليغ .

وهذا كله ناتج عن قصور في فَهْم لغة القرآن ، وعدم وجود الملَكة العربية عند هؤلاء ، فهناك فَرْق بين أنك تريد أن تسجدَ ويأتي مَنْ يقول لك : لا تسجد ، وبين أنْ يُقنعك شخص بألاَّ تسجد . فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] كنت تريد السجود وواحد منعك ، وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] يعني : أمرك ألاَّ تسجد ، وأقنعك وأنت اقتنعتَ .

ومن المسائل التي أثيرتْ حول هذه القصة : أكان إبليس من الملائكة فشمله الأمر بالسجود ؟ وكيف يكون من الملائكة وهم لا يعصُون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؟ وإذا لم يكُنْ مَلَكاً فماذا أدخله في الأمر ؟

ولتوضيح هذه المسألة نقول : خلق الله الثَّقَلَيْن : الجن والإنس ، وجعلهم مختارين في كثير من الأمور ، ومقهورين في بعض الأمور ، ليثبت طلاقة قدرته تعالى في خَلْقه ، فإنْ كنتَ مختاراً في أمور التكليف وفي استطاعتك أنْ تطيع أو أنْ تعصي ، فليس في اختيارك أنْ تكون صحيحاً أو مريضاً ، طويلاً أو قصيراً ، فقيراً أو غنياً ، ليس في اختيارك أنْ تحيا أو تموت .

والحق - تبارك وتعالى - لا يُكلِّفك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، إلا إذا خلقك صالحاً للفعل ولعدم الفعل ، هذا في أمور التكليف وما عداه أمور قَهْرية لا اختيارَ لك فيها هي القدريات .

لذلك نقول للذين ألِفُوا التمرد وتعوَّدوا الخروج على أحكام الله في التكليفات : لماذا لا تتمردوا أيضاً على القدريات ما دُمْتم قد ألِفْتم المخالفة ؟ إذن : أنت مقهور وعَبْد رَغْماً عنك .

لذلك ، إذا كان المختار طائعاً يلزم نفسه بمنهج ربه ، بل ويتنازل عن اختياره لاختيار الله ، فمنزلته عند الله كبيرة ، وهو أفضل من الملك ؛ لأن الملك يطيع وهو مرغم . ومن هنا يأتي الفرْق بين عباد وعبيد ، فالكل في القهر عبيد ، لكن العباد هم الذين تركوا اختيارهم لاختيار ربهم .

ومن هنا نقول : إن إبليس من الجن ، وليس من الملائكة ؛ لأنه أُمِر فامتنع فعُوقِب ، وإنْ كان الأمر في الأصل للملائكة .

وقد حسم القرآن هذه القضية حين قال : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] وهذا نصٌّ صريح لا جدالَ حوله[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا شمله الأمر بالسجود ، وهو ليس ملكاً ؟

نقول : لأن إبليس قبل هذا الأمر كان طائعاً ، وقد شهد عملية خَلْق آدم ، وكان يُدْعَى « طاووس الملائكة » لأنه ألزم نفسه في الأمور الاختيارية ففاق بذلك الملائكة ، وصار يزهو عليهم ويجلس في مجلسهم ، فلما جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم شمله الأمر ولزمه من ناحيتين :

(١) قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . نقله ابن كثير في تفسيره (٧٧/١) : « هذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء » .

الأولى : إنْ كان أعلى منهم منزلة وهو طاووسهم الذى ألزم نفسه الطاعة رغم اختياره فهو أَوْلَى بطاعة الأمر منهم ، ولماذا يعصى هذا الأمر بالذات ؟

الأخرى : إنْ كان أقلَّ منهم ، فالأمر للأعلى لا بُدَّ أنْ يشمل الأدنى ، كما لو أمرتَ الوزراء مثلاً بالقيام لرئيس الجمهورية ، وبينهم وكلاء ومديرون ، فطبيعيٌّ أنْ يشملهم الأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِزَوْجِكَ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] كلمةُ الزوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، الزوج فرد واحد معه مثله ، فليس صحيحاً أنْ نقول : توأم إنما توأمان ، فكل منهما توأم للآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ملْحَظ آخر فى قوله تعالى : ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] الخطاب لآدم وزوجه يُحذِّرهما من إغواء إبليس وكَيْده ، ثم يقول ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : فتشقيا . لماذا ؟ لأن مسئولية الكَدْح والحركة للرجل أمَّا المرأة فهى السكن المريح المنشّط لصاحب الحركة ، على خلاف ما نرى فى مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة فى تبعات الحياة .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾

فقد أعددتُ لك الجنة ، وجعلتُ لك فيها كل ما تحتاجه ، وأبحتُ لك كل نعيمها ونهيتُك عن شيء واحد[1] منها ، ولك علينا ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه] فلن تجوع فيها ؛ لأن فيها كل الثمرات ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]

ونلحظ هنا أن الله تعالى تكفَّل لهما بشيء ظاهر يُلبِّي غريزة ظاهرة هي اللباس والتستُّر ، وغريزة باطنة هي غريزة الطعام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

(تظمأ) يعني : تعطش ، و (تضحى) : أي : لا تتعرض لحرارة الشمس اللافحة ، فتكفَّل لهما ربهما أيضاً بغريزة باطنة هي العطش ، وغريزة ظاهرة هي ألاَّ تلفحك حرارة الشمس .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

نلحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسماً يناسب الإغراء

---

(١) وهي الشجرة التي قال عنها الحق سبحانه : ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة] ، وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٧٩/١) . ستة أقوال عن هذه الشجرة ، فقال :
- هي الكرم . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي والشعبي .
- هي الحنطة . زعمته يهود .
- هي السنبلة . قاله ابن عباس .
- هي البر . قاله ابن عباس أيضاً .
- هي النخلة . قاله أبو مالك .
- هي التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .

بالشيء ، وهى كلمة (الوَسْوَسة) وهى فى الأصل صوت الحليّ - أى : الذهب الذى تتحلّى به النساء ، كما نقول : نقيقُ الضفادع ، وصهيل الخيل ، وخُوار البقر ، ونهيق الحمير ، وثغاء الشاة ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر .

وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحليّ الذى يجذب الأسماع ، ويُغرى بالتطلع إليه ، وكأن الحق سبحانه يُحذِّرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين .

فما الذى وَسوس به إلى آدم ؟

﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه]

ونعجب لإبليس : ما دُمْت تعرف شجرة الخُلْد والملْك الذى لا يبلى ، لماذا لم تأكل أنت منها وتحوز هذه الميزة ؟

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ[1] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

أى : بعد أن أكلا من هذه الشجرة ظهرتْ لهما سوءاتهما ، والسَّوْأة هى العورة أى : المكان الذى يستحى الإنسان أن ينكشف منه ، والمراد القُبل والدُّبُر فى الرجل والمرأة . ولكل من القُبل والدُّبر مهمة ، وبهما يتخلص الجسم من الفضلات ، الماء من ناحية الكُلى والحالب والمثانة عن طريق القُبل ، وبقايا وفضلات الطعام الناتجة عن حركة الهَضْم وعملية الأيْض ، وهذه تخرج عن طريق الدُّبُر .

لكن ، متى أحسَّ آدم وزوجه بسوءاتهما ، أبعد الأكل عموماً من

---

(١) أى : يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت [القاموس القويم ١/١٩٥] .

شجر الجنة ، أم بعد الأكل من هذه الشجرة بالذات ؟

الحق - تبارك وتعالى - رتَّب ظهور العورة على الأكل من الشجرة التى نهاهما عنها ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (١٢١) ﴾ [طه] فقبل الأكل من هذه الشجرة لم يعرفا عورتيهما ، ولم يعرفا عملية الإخراج هذه ؛ لأن الغذاء كان طاهيه ربُّه ، فيعطى القدرة والحياة دون أن يخلف فى الجسم أىَّ فضلات .

لكن ، لما خالفوا وأكلوا من الشجرة بدأ الطعام يختمر وتحدث له عملية الهضم التى نعرفها ، فكانت المرة الأولى التى يلاحظ فيها آدم وزوجه مسألة الفضلات ، ويلتفتان إلى عورتيهما : ما هذا الذى يخرج منها ؟

وهنا مسألة رمزية ينبغى الالتفات إليها ، فحين ترى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطل .

إذن : لم يعرف آدم وزوجه فضلات الطعام وما ينتج عنه من ريح وأشياء مُنفِّرة قذرة إلا بعد المخالفة ، وهنا تحيَّرا ، ماذا يفعلان ؟ ولم يكن أمامهما إلا ورق الشجر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (١٢١) ﴾ [طه]

أى : أخذا يلصقان الورق على عورتيهما لسترها هكذا بالفطرة ، وإلا ما الذى جعل هاتين الفتحتين عورة دون غيرهما من فتحات الجسم كالأنف والفم مثلاً ؟

قالوا : لأن فتحتىْ القُبُل والدُّبُر يخرج منهما شىء قذر كريه يحرص المرء على ستْره ، ومن العجيب أن الإنسان وهو حيوان ناطق فضَّله الله ، وحين يأكل يأكل باختيار ، أمّا الحيوان فيأكل بغريزته ،

ومع ذلك يتجاوز الإنسان الحد فى مأكله ومشربه ، فيأكل أنواعاً مختلفة ، ويأكل أكثر من حاجته ويأكل بعدما شبع ، على خلاف الحيوان المحكوم بالغريزة .

ولذلك ترى رائحة الفضلات فى الإنسان قذرة مُنفِّرة ، ولا فائدة منها فى شىء ، أما فضلات الحيوان فلا تكاد تشمُّ لها رائحة ، ويمكن الاستفادة منها فيجعلونها وقوداً أو سماداً طبيعياً . وبعد ذلك نتهم الحيوان ونقول : إنه بهيم .. إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه] أى : فيما قبل النبوة ، وفى مرحلة التدريب ، والإنسان فى هذه المرحلة عُرْضة لأنْ يصيب ، ولأنْ يخطىء ، فإنْ أخطأ فى هذه المرحلة لا تضربه بل تُصوِّب له الخطأ . كالتلميذ فى فترة الدراسة ، إنْ أخطأ صوَّب له المعلم ، أما فى الامتحان فيحاسبه .

ومعنى ﴿ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه] يعنى : لم يُصِبْ الحقيقة ، كما يقولون لمن تاه فى الصحراء غاوٍ أى : تائه . ثم تأتى المرحلة الأخرى : مرحلة العصمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

إذن : مثَّل آدم دَوْر الإنسان العادى الذى يطيع ويعصى ، ويسمع كلام الشيطان ، لكن ربه شرعَ له التوبة كما قال سبحانه : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : عصى آدم وهو إنسان عادى وليس وهو نبى كما يقول البعض .

فقوله : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] هذه بداية لمرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام ، و (ثُمَّ) تعنى الترتيب مع التراخى ﴿اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] اصطفاه ربه .

ولم يقل الحق سبحانه : ثم اجتباه الله ، إنما ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] لأن الرب المتولى للتربية والرعاية ، ومن تمام التربية الإعداد للمهمة ، ومن ضمن إعداد آدم لمهمته أنْ يمرَّ بهذه التجربة ، وهذا التدريب فى الجنة .

﴿وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] المراد بالهداية قوله :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾

أى : اهبطا إلى الأرض وامضوا فيها على ضوء التجربة الماضية ، واعلما أن هناك أمراً ونهياً وعدواً يوسوس ويُزيِّن ويُغوى حتى يظهر عوراتكم ، وكأنه ـ عز وجل ـ يعطى آدم المناعة الكافية له ولذريته من بعده لتستقيم لهم حركة الحياة فى ظل التكاليف ؛ لأن التكاليف إما أمر وإما نهى ، والشيطان هو الذى يفسد علينا هذه التكاليف .

ومع ذلك لا ننسى طَرَفاً آخر هو النفس الأمَّارة التى تُحرِّكك نحو المعصية والمخالفة . إذن : ليس عدوك الشيطان فحسب فتجعله شماعة تُعلِّق عليها كل معاصيك ، فهناك مَعَاصٍ لا يدخل عليك الشيطان بها إلا عن طريق النفس ، وإلا إبليس لما غوى ، مَنْ أغواه ؟ ومَنْ وسوس له ؟

وقوله : ﴿ اهْبِطَا .. (١٢٣) ﴾ [طه] بصيغة التثنية أمر لاثنين : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فقوله : ﴿ اهْبِطَا .. (١٢٣) ﴾ [طه] إشارة إلى الأصل ، وقوله في موضع آخر : ﴿ اهْبِطُوا .. (٣٨) ﴾ [البقرة] إشارة إلى ما يتفرّع عن هذا الأصل .

وقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٣٦) ﴾ [البقرة] أي : بعض عدو للبعض الآخر ، وكلمة (بعض) لها دَوْر كبير في القرآن ، والمراد : أنت عدو الشيطان إنْ كنتَ طائعاً ، والشيطان عدوك إنْ كنتَ طائعاً ، فإنْ كنتَ عاصياً فلا عداوة إذن ؛ لأن الشيطان يريدك عاصياً . وحين لا يُعيِّن البعض تكون العداوة متبادلة ، فالبعض شائع في الجميع .

كما في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فمَن المرفوع ؟ ومَنْ المرفوع عليه ؟ أصحاب النظرة السطحية يفهمون أن الغنيّ مرفوع على الفقير .

والمعنى أوسع من هذا بكثير ، فكُلُّ الخَلْق بالنسبة للحق سبحانه سواء ، ومهمات الحياة تحتاج قدرات كثيرة ومواهب متعددة ؛ لذلك لا تتجمع المواهب في شخص ، ويُحرم منها آخر ، بل ينشر الخالق - عز وجل - المواهب بين خَلْقه ، فهذا ماهر في شيء ، وذاك ماهر في شيء آخر ، وهكذا ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، ويتم الربْط بين أفراد المجتمع ، ويحدث بينهما الانسجام اللازم لحركة الحياة .

إذن : كُلُّ بعض في الوجود مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ، فليكُنْ الإنسان مُؤدَّباً في حركة حياته لا يتعالى على غيره لأنه نبغ في شيء ، ولينظر إلى ما نبغ فيه الآخرون ، وإلى ما تميَّزوا به حتى لا يسخَر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً

منهم ، وربما لديهم من المواهب ما لم يتوفَّر لك .

لكن ما دام بعضكم لبعض عدواً أى : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فَمنْ سيكون الحَكَم ؟ الحَكَم بينهما منهج الله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. (١٢٣) ﴾ [طه] فإياكم أنْ تجعلوا الهدى من عندكم ؛ لأن الهدى إنْ كان من عندكم فلن ينفع ولن يفلح .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فكأن هدى الله ومنهجه هو (كتالوج) سلامة الإنسان وقانون صيانته . ألاَ ترى الصانع من البشر حين يرفق بصنعته (كتالوجاً) يضم تعليمات عن تشغيلها وصيانتها ، فإنْ اتبعتَ هذه التعليمات خدمتْك هذه الآلة وأدَّتْ لك مهمتها دون تعطّل .

وكما أن هذا (الكتالوج) لا يضعه إلا صانع الآلة ، فكذلك الخالق - عز وجل - لا يضع لخَلْقه قانونهم وهُدَيهم إلا هو سبحانه ، فإنْ وضعه آخر فهذا افتئات على الله عز وجل ، كما لو ذهبتَ إلى الجزار تقول له : ضَعْ لى التعليمات اللازمة لصيانة (الميكروفون) !!

إذن : الفساد فى الكون يحدث حينما نخرج عن منهج الله ، ونعتدى على قانونه وتشريعه ، ونرتضى بهَدْى غير هَدْيه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فإنْ كانت هذه نتيجة مَن اتبع هدى الله وعاقبة السير على منهجه تعالى ، فما عاقبة مَنْ أعرض عنه ؟

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾

والإعراض : هو الانصراف ، وأن تعطيه عَرْض أكتافك كما ذكرنا من قبل .

وقوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] الضنك هو الضيق الشديد الذي تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضَّنْك هذه تأتي مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بالله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ؛ لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر . المؤمن يقول : لي ربٌّ يرزقني ويُفرِّج كَرْبي ، كما يقول عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

لذلك يقولون : لا كَرْب وأنت رَبٌّ ، وإذا كان الولد لا يحمل هَمّاً في وجود أبيه فله أبٌ يكفيه متاعب الحياة ومشاقها ، فلا يدري بأزمات ولا غلاء أسعار ، ولا يحمل هَمَّ شيء ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - ، قلنا : هَبْ أن معك جنيهاً ثم سقط من جيبك ، أو ضاع منك فسوف تحزن عليه إنْ لم يكُنْ معك غيره ، فإنْ كان معك غيره فلن تحزن عليه ، فإن كان لديك حساب في البنك فكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا المؤمن لديه في إيمانه بربه الرصيد الأعلى الذي يُعوِّضه عن كل شيء .

والحق - تبارك وتعالى - أعطانا مثالاً لهذا الرصيد الإيماني في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، حينما حُوصِر موسى وقومه بين البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم ، وأيقن القوم أنهم مُدْركون ، ماذا قال نبي الله موسى ؟

قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] هكذا بملء فيه يقولها قَوْلَةَ الواثق مع أنها قَوْلة يمكن أن تكذب بعد لحظات ، لكنه الإيمان الذي تطمئن به القلوب ، والرصيد الذي يثقُ فيه كلُّ مؤمن .

إذن : مَنْ آمن بالله واتبع هُدَاه فلن يكون أبداً في ضَنْك أو شدَّة ، فإنْ نزلت به شدَّة فلن تُخرِج عَزْمه عن الرضى ، واللجوء إلى ربه .

ومن آيات الإعجاز القرآني في مسألة الضيق ، قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام]

فمن أين عرف محمد ﷺ أن مَنْ يصعَد في السماء يضيق صدره ؟ وهل صَعَد أحد إلى السماء في هذا الوقت وجرَّب هذه المسألة ؟ ومعنى ضيق الصدر أن حيِّز الرئة التي هي آلة التنفس يضيق بمرض أو مجهود زائد أو غيره ، ألاَ ترى أنك لو صعدتَ سُلَّما مرتفعاً تنهج[1] ، معنى ذلك أن الرئة وهي خزينة الهواء لا تجد الهواء الكافي الذي يتناسب والحركة المبذولة ، وعندها تزداد حركة التنفس لتُعوِّض نَقْص الهواء .

والآن وبعد غزو الفضاء عرفنا مسألة ضيق التنفُّس في طبقات الجو العليا مما يضطرهم إلى أخذ أنابيب الأكسوجين وغيرها من آلات التنفس .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾

وكلمة ﴿ أَعْمَىٰ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه] جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) النهج والنهيج : تواتر النفَس من شدة الحركة . [لسان العرب - مادة : نهج] .

والمراد بالعَمَى ألاَّ تُدركَ المبصَرات ، وقد توجد المبصَرات ولا تتجه لها بالرؤية ، فكأنك أعمى لا ترى ، وكذلك المعرض عن الآيات الذى لا يتأملها ، فهو أعمى لا يراها .

لذلك فى الآخرة يقول تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] فساعة يُبعث الكافرون يُفزَّعون بالبعث الذى كانوا ينكرونه ويضطربون اضطراباً ، يحاول كل منهم أن يرى منفذاً وطريقاً للنجاة ، ولكن هيهات ، فقد سلبهم الله منافذ الإدراك كلها ، وسَدَّ فى وجوههم كل طرق النجاة ، والإنسان يهتدى إلى طريقه بذاته وبعيونه ، فإنْ كان أعمى أمكنه أنْ ينادى على مَنْ يأخذ بيده ، فإنْ كان أيضاً أبكم ، فلربما سمع مَنْ يناديه ويُحذره ويُدله ، فإنْ كان أصمَّ لا يسمع ؟

إذن : سُدَّتْ أمامه كل وسائل النجاة ، فهو أعمى لا يبصر النجاة بذاته ، وأبكم لا يستطيع أنْ يستغيث بمَنْ ينقذه ، وهو أيضاً أصمّ لا يسمع مَنْ يتطوع بإرشاده أو تحذيره .

وقد وجد كثير من المشككين فى هذه الآية شيئاً ظاهرياً يطعنون به على أسلوب القرآن ، حيث يقول هنا : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ .. (١٢٥) ﴾ [طه] وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣) ﴾ [الكهف] فنفى عنهم الرؤية فى آية ، وأثبتها لهم فى آية أخرى .

وفاتَ هؤلاء المتمحكين أن الإنسانَ بعد البعث يمرُّ بمراحل عدَّة : فساعة يُحشرون من قبورهم يكونون عُمْياً حتى لا يهتدوا إلى طريق النجاة ، لكن بعد ذلك يُريهم الله بإيلام آخر ما يتعذبون به من النار .

وهذا الذى حاق بهم كِفَاءً لما صنعوه ، فقد قدَّموا هم العمى

والصمم والبكم في الدنيا ، فلما دعاهم الرسول إلى الله صَمُّوا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أي : نعاملك كما عاملتنا ، فننساك كما نسيت آياتنا .

والآيات جمع آية ، وهي الأمر العجيب ، وتُطلق على الآيات الكونية التي تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتُطلَق على المعجزات التي تؤيد الرسل ، وتثبت صدْق بلاغهم عن الله ، وإنْ كانت الآيات الكونية تُلفت إلى قدرة الخالق - عز وجل - وحكمته ، فالرسول هو الذي يدلُّ النَّاس على هذه القوة ، وعلى صاحب هذه الحكمة والقدرة التي يبحث عنها العقل .

أيها المؤمن هذه القوة هي الله ، والله يريد منك كذا وكذا ، فإنْ أطعتَه فلَكَ من الأجر كذا وكذا ، وإنْ عصيتَه فعقابك كذا وكذا . ثم يؤيد الرسول بالمعجزات التي تدلُّ على صدْقه في البلاغ عن ربه .

وتُطلَق الآيات على آيات الكتاب الحاملة للأحكام وللمنهج .

وأنت كذَّبْتَ بكل هذه الآيات ولم تلتفت إليها ، فلما نسيت آيات الله كان جزاءَك النسيان جزاءً وفاقاً . والنسيان هنا يعني الترك ، وإلا فالنسيان الذي يقابله الذكر مُعْفىً عنه ومعذور صاحبه .

أما قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه] أي تُنسَى في النعيم وفي الجنة ، لكنك لا تُنسى في العقاب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه] أى : مثل هذا الجزاء ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه] والإسراف : تجاوز الحدّ فى الأمر الذى له حدٌّ معقول ، فالأكل مثلاً جعله الله لاستبقاء الحياة ، فإنْ زاد عن هذا الحدّ فهو إسراف .

دَخْلك الذى يسَّره الله لك يجب أن تنفق منه فى حدود ، ثم تدّخر الباقى لترقى به فى الحياة ، فإنْ أنفقتَه كله فقد أسرفْتَ ، ولن تتمكن من أنْ تُرقِّى نفسك فى ترف الحياة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وللإسلام نظرته الواعية فى الاقتصاديات ، فالحق يريد منك أنْ تنفق ، ويريد منك ألاَّ تُسرف وبين هذين الحدَّيْن تسير دَفّة المجتمع ، ويدور دولاب الحياة ، فإنْ بالغتَ فى حَدٍّ منهما تعطلتْ حركة الحياة ، وارتبك المجتمع وبارت السلع .

وقد أوضح الحق سبحانه هذه النظرة فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

فربُّك يريد منك أنْ تجمع بين الأمرين ؛ لأن التقتير والإمساك يُعطِّل حركة الحياة ، والإسراف يُجمِّد الحياة ويحرمك من الترقى ، والأخذ بأسباب الترف ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى ؛ فربُّك عز وجل خلقك ،

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . والقتر والإقتار والتقتير كله بمعنى واحد : هو التضييق الذى هو نقيض الإسراف . [القاموس القويم ٢/ ١٠٠] .

وخلق لك مُقوِّمات حياتك ، وحدَّد لك الحلال والحرام ، فإذا حاولتَ أنت أنْ تزيد في جانب الحلال مما حرمه الله عليك ، فهذا إسراف منك ، وتجاوز للحدِّ الذي حدَّه لك ربك ، تجاوزتَ الحدَّ فيما أحلَّ لك ، وفيما حرَّم عليك .

وقد يأتي الإسراف من ناحية أخرى : فالشيء في ذاته قد يكون حلالاً ، لكن أنت تأخذه من غير حِلّه .

فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن الله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شيء أحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

إذن : فربّك لا يُضيِّق عليك ، وينهاك أنْ تُضيِّق على نفسك وتُحرِّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أنْ تُحلِّل ما حرَّم عليك لأن ذلك في صالحك .

وكما يكون الإسراف في الطعام والشراب وهما من مُقوِّمات استبقاء الحياة ، يكون كذلك في استبقاء النوع بالزواج والتناسل ، إلى أنْ تقوم الساعة ، فجعل الحق سبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال ، فمَنْ تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف .

ومن رحمته تعالى أنه يغفر لمنْ أسرف على نفسه شريطةَ أن يكون مؤمناً : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ .. (١٢٧)﴾ [طه] فأنزل الإسراف منزلة تالية لعدم الإيمان ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ .. (١٢٧)﴾ [طه] لأنه حين ينقل الحلال إلى الحرام ، أو الحرام إلى الحلال ، فكأنه عطّل آيات الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طه] إذن : فالكلام هنا عن الدنيا ، فلا تظن أن الله يُؤخِّر للكافر كُلَّ العذاب ، فهناك أشياء تُعجَّل له في الدنيا لا تُؤخَّر .

وأول ما لا يُؤخَّر ويُعجل الله به في الدنيا عقوبة الظلم ، فلا يمكن أنْ يموتَ الظالم قبل أن يرى المظلوم ما صنعه الله به ، وإلاَّ فالذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالجزاء كانوا فجروا في الخَلْق وعَاثُوا في الأرض ، فمن حكمة الله أن نرى لكل ظالم مصرعاً حتى تستقيم حركة الحياة ، ولو لم يكُنْ الإنسان مؤمناً .

والحق سبحانه حين يريد أنْ يُعذِّب يتناسب تعذيبه مع قدرته تعالى ، كما أن ضربة الطفل غير ضربة الشاب القوي ، إذن : ما يناله من عذاب في الحياة هين لأنه من الناس ، أمّا عذاب الآخرة فشيء آخر ؛ لأنه عذاب من الله يتناسب مع قدرته تعالى .

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طه] أبقى : لأن عذاب الدنيا ينتهي بالموت ، أو بأن يرضى عنك المعذِّب ويرحمك ، وقد يتوسط لك أحد فيزيل عنك العذاب ، أمّا في الآخرة فلا شيء من ذلك ، ولا مفرّ من العذاب ولا ملْجأ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨)﴾

الهداية : الدلالة والبيان ، وتهديه أى : تدلّه على طريق الخير . والاستفهام فى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (١٢٨)﴾ [طه] والاستفهام يَرِد مرة لتعلم ما تجهل ، أو يرد للتقرير بما فعلتَ .

فالمراد : أفلم ينظروا إلى الأمم السابقة وما نزل بهم لما كذَّبوا رسُل الله ؟ كما قال فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر]

ألاَ ترونَ كل هذه الآيات فى المكذبين ؟ ألاَ ترون أن الله ناصرٌ رسُلَه ؟ ولم يكُنْ سبحانه ليبعثهم ، ثم يتخلى عنهم ، ويُسلمهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠)﴾ [الحج]

وبعد هذا كله يُعرِض المكذبون ، وكأنهم لم يروا شيئاً من هذه الآيات .

وساعة ترى (كَمْ) فاعلم أنها للشيء الكثير الذى يفوق الحصر ، كما تقول لصاحبك : كم أعطيتُك ، وكم ساعدتُك . أى : مرات كثيرة ، فكأنك وكلته ليجيب هو بنفسه ، ولا تستفهم منه إلا إذا كان الجواب فى صالحك قطعاً .

---

(١) الحجر : العقل ؛ لأنه يمنع صاحبه ويحجره عما لا يليق به . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

(٢) جابه يجوبه : قطعه . جابوا : أى قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥]

فمعنى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (١٢٨) ﴾ [طه] يعنى : يُبيِّن لهم ويدلُّهم على القرى الكثيرة التى كذَّبت رسلها ، وماذا حدث لها وحاق بها من العذاب ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا ويأخذوا منهم عِبْرة ولا ينصرفوا عنها .

وقوله تعالى : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (١٢٨) ﴾ [طه] كقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات] فليس تاريخاً يُحكَى إنما واقع ماثل ترونَه بأعينكم ، وتسيرون بين أطلاله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) ﴾ [طه] أى : عجائب لمَنْ له عقل يفكر .

وكلمة (النُّهَى) جمع نُهية ، وهى العقل ، وهذه الكلمة تحلُّ لنا إشكالات كثيرة فى الكفر ، فالبعض يظن أن الله تعالى خلق لنا العقل لنرتع به فى مجالات الفكر كما نشاء ، وننفلت من كل القيود .

إنما العقل من العقال الذى يُعقَل به البعير حتى لا ينفلتَ منك ، وكذلك عقلُك يعقلك ، ويُنظِّم حركتك حتى لا تسير فى الكون على هَواك ، عقلك لتعقلَ به الأمور فتقول : هذا صواب ، وهذا خطأ ، قبل أن تُقدِم عليه .

فالسارق لو عقل ما يفعل ما أقدمَ على سرقة الناس ، وما رأيك لو أبحنا للناس جميعاً أنْ يسرقوك ، وأنت فرد ، وهم جماعة ؟

الحق ساعةَ يعقل بصرك أنْ يمتدَّ لما حرم عليك فلا تقُلْ : ضيق عليَّ ، لأنه أمر الآخرين أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك ، والغير أكثر منك ، إذن : فأنت المستفيد ، فإنْ أردتَ أن تُعربد فى أعراض الناس ، فأبح لهم أن يُعربدوا فى أعراضك .

والنبى ﷺ لما جاءه شاب يشكو عدم صبره على غريزة

الجنس ، يريد أن يبيح له الزنا والعياذ بالله ، فأراد ﷺ أن يُلقّنه درساً يصرفه عن هذه الجريمة . فماذا قال له ؟

قال : « يا أخا العرب ، أتحب هذا لأمك ؟ أتحب هذا لأختك ؟ أتحب هذا لزوجتك ؟ » والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك . ولك أنْ تتصوَّر ماذا ينتاب الواحد منا إنْ سمع سيرة أمه وأخته وزوجته في هذا الموقف .

ثم يقول ﷺ للشاب بعد أن هزَّه هذه الهزة العنيفة : « كذلك الناس لا يحبون ذلك لأمهاتهم ، ولا لزوجاتهم ، ولا لأخواتهم ، ولا لبناتهم » .

وهنا قال الشاب : « فو الله ما همَّتْ نفسي لشيء من هذا إلا وذكرتُ أمي وزوجتي وأختي وابنتي »[1] .

إذن : فالعقل هو الميزان ، وهو الذي يُجري المعادلة ، ويُوازن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللُّب فإنها تؤدي نفس المعنى : فالنُّهى من النهي عن الشيء ، واللب أي : حقيقة الشيء وأصله ، لا أنْ يكون سطحيَّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

الكلام عن آيات الله في المكذبين للرسل وما حاق بهم من العذاب وقد مرَّ عليها القوم دون أن يعتبروا بها ، أو يرتدعوا ، أو يخافوا أن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ دعا له قائلاً : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

تكون نهايتهم كنهاية سابقيهم ، وربما قال هؤلاء القوم : ها نحن على ما نحن عليه دون أن يصيبنا شيء من العذاب : لا صَعْق ولا مَسْخ ولا ريح ، فبماذا تهددنا ؟

لذلك يوضح لهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المسألة : ما منعنا أنْ نفعل بكم ما فعلنا بسابقيكم من المكذبين بالرسل ، ما منعنا من إذلالكم وتدميركم إلا شيء واحد هو كلمة سبقتْ من الله .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩)﴾ [طه]

فما هذه الكلمة التي سبقتْ من الله ، ومنعتْ عنهم العذاب ؟

المراد بالكلمة قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

فهذه الكلمة التي سبقت مني هي التي منعتْ عنكم عذابي ، والرسول ﷺ يوضح هذه المسألة فيقول : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[(١)] .

فإنْ قال قائل : الله يهدد الذين كذبوا محمداً ﷺ بأنْ يُنزل بهم ما أنزل بالمكذِّبين منَ الأمم السابقة ، وها هم كفار مكة يُكذِّبون رسول الله دون أن يحدث لهم شيء .

نقول : لأن لهم أمانين من العذاب ، الكلمة التي سبقتْ ، والأجل المسمَّى عند الله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩)﴾ [طه] فلكل واحد أجَلٌ معلوم .

ومعنى : ﴿لَكَانَ لِزَامًا .. (١٢٩)﴾ [طه] أي : لزم لزاماً أنْ يحيق بهم ما حاقَ بالأمم السابقة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾

فما دام أن القوم يُكذِّبون رسول الله ، وهم في مأمن من العذاب ، فلابُدَّ أن يتمادوا في تكذيبهم ، ويستمروا في عنادهم لرسول الله ؛ لذلك يتوجه الحق - سبحانه وتعالى - إلى الناحية الأخرى فيعطي رسوله ﷺ المناعة اللازمة لمواجهة هذا الموقف ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. (١٣٠) ﴾ [طه] لأن لك بكل صبر أجراً يتناسب مع ما تصبر عليه .

والصبر قد يكون مُيْسوراً سهلاً في بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصَعْباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرةً يقول الحق لرسوله : اصبر . ومرة يقول : اصطبر[1] .

فما الأقوال التي يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر ، وقولهم : شاعر وقولهم : مجنون وكاهن ، كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله ؛ لأن كلَّ قولة من أقوالهم تحمل معها دليل كذبهم .

فقولهم عن رسول الله : ساحر ، فمَن الذي سَحَره رسول الله ؟ سحر المؤمنين به ، فلماذا - إذن - لم يسحركم أنتم أيضاً ، وتنتهي المسألة . إذن : بقاؤكم على عناده والكفر به دليل براءته من هذه التهمة .

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/٣٦٧]

وقولهم : شاعر ، كيف وهم أمة صناعتها الكلام ، وفنون القول شعره ونثره ، فكيف يَخْفى عليهم أسلوب القرآن ؟ والشعر عندهم كلام موزون ومُقفَّى ، فهل القرآن كذلك ؟ ولو جاء هذا الاتهام من غيركم لكان مقبولاً ، أما أنْ يأتيَ منكم أنتم يا مَنْ تجعلون للكلام أسواقاً ومعارض كمعارض الصناعات الآن ، فهذا غير مقبول منكم .

وسبق أنْ قلنا : إنك إذا قرأتَ مقالاً مثلاً ، ومَرَّ بك بيت من الشعر تشعر به وتحسُّ أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . فخُذْ مثلاً قول ابن زيدون[1] :

« هذا العَذْل محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوة غمرة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدى أنْ أبطأ سَيْبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها . ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له العتب فى احتباله ، ولا عتبَ عليه فى اغتفاله .

فَإنْ يكُن الفعلُ الذى ساءَ واحداً ... فَأفعالُه اللائى سَرَرْنَ أُلُوفُ »

على الفور تحس أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر .

فإذا ما قرأتَ فى القرآن مثلاً قوله تعالى : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢)﴾ [يوسف]

---

(١) هو : أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون ، المخزومي الأندلسي ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، فأعجبوا به ، كانت له مراسلات ، وله ديوان شعر ، توفى عام ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/١٥٨] .

فهل أحسستَ بانتقال الأسلوب من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر ؟ ومع ذلك لو وزنتَ ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.. (٣٢) ﴾ [يوسف] لوجدتَ لها وزناً شعرياً .

وقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

لو أردتها بيتاً شعرياً تقول (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) . ومع ذلك تقرأها فى سياقها ، فلا تشعر أنها شعر ؛ لأن الأسلوب فريد من نوعه ، وهذه من عظمة القرآن الكريم ، كلام فذٌّ لوحده غير كلام البشر .

أما قولهم « مجنون » فالمجنون لا يدرى ما يفعل ، ولا يعقل تصرفاته ولا يسأل عنها ، ولا نستطيع أنْ نتهمه بشىء فنقول عنه مثلاً : كذاب أو قبيح ؛ لأن آلة الاختيار عنده مُعطّلة ، وليس لديه انسجام فى التصرفات ، فيمكن أن يضحك فى وجهك ، ثم يضربك فى نفس الوقت ، يمكن أن يعطيك شيئاً ثم يتفل فى وجهك .

والمجنون ليس له خُلق ، والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

والخُلق هو الملَكة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً ، وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبْتُم عليه شيئاً مما يفعله المجانين ؟

أما قولهم : إن رسول الله افترى هذا القرآن ، كيف وأنتم لم تسمعوا منه قبل البعثة شعْراً أو خطباً ولم يسبق أن قال شيئاً مثل هذا ؟ كيف يفترى مثل هذا الأسلوب المعجز ، وليس عنده صنعة الكلام ؟ وإن كان محمد قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون أنتم مثله وتعارضونه ؟

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

وهكذا تقوم من نفس أقوالهم الأدلة على كذبهم وادعائهم على رسول الله .

ثم يقول تعالى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا .. (١٣٠) ﴾ [طه]

والتسبيح هو التنزيه لله تعالى ، وهو صفة لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ويُنزِّهه ؛ لذلك يقول تعالى في استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] ؛ لأن العملية مخالفة لمنطق القوانين ، فقال : نزِّه فعل الله عن أفعالك .

إذن : فسبحان معناها أن التنزيه ثابت لله ، ولو لم يوجد المنزِّه ، فلما خلق الله الكون سبَّحتْ السموات والأرض وما فيهن لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله قبل أن يوجد المسبِّح ، ثم سبح لله أول خلقه ، ولا يزالون يُسبِّحون ، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك الأعلى . أي : نزِّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وأقوالاً عمَّا تراه من المخلوقات .

ومعنى ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. (١٣٠) ﴾ [طه] لأن من لوازم الخلق أن يكون مختلفاً في الأهواء والأغراض والمصالح ، يتشاكلون ويتحاربون على عَرَضٍ زائل ، فمنهم الظالم والمظلوم ، والقوى والضعيف .

إذن : لا بُدَّ من وجود واحد لا توجد فيه صفة من هذه الصفات ، ليضع القانون والقسطاس المستقيم الذي يُنظِّم حياة الخَلْق ، فهذا التنزُّه عن مشابهة الأحداث كلها ، وعن هذه النقائص نعمة يجب أن نشكر الله ونحمده على وجودها فيه ، نحمده على أنه ليس كمثله

شىء ، فذلك يجعل الكون كله طائعاً ، إنما لو مثله شىء فلربما تأبَّى على الطاعة فى « كُنْ فيكون » .

والتسبيح والتنزيه يعنى أن المقياس الذى يضبط العالم ليس كمقياس العالم ، إنما أصلح وأقوى ، وهذا فى صالحك أنت ، فساعةَ أن تُسبِّح الله اذكر أن التسبيح نعمة ، فاحمد الله على أنه لا شىءَ مثْله . سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمْدِ ربك ؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على مَنْ خلق ، وهذه نعمة تستحق أن تحمدَ الله عليها .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - ربُّ الأسرة ، هذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها ، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون الله على وجوده بينهم ؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة ، ويُنظِّم العلاقات بين أفرادها . ألم نَقُلْ فى الأمثال (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً ؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته ، حيث سيلزم كل واحد منهم حدوده .

لذلك من أسماء الله تعالى : المتعال المتكبر ، وهذه الصفة وإنْ كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد ، فهى محبوبة لله تعالى ؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له ، فتكبُّره سبحانه وتعاليه بحقٍّ : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

إذن : لا يحفظ التوازن فى الكون إلا قوة مغايرة للخَلْق .

وقوله : ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾ [طه]

أى : تسبيحاً دائماً مُتوالياً ، كما أن نعم الله عليك متوالية

لا تنتهى ، فكلُّ حركة من حركاتك نعمة ، النوم نعمة ، والاستيقاظ نعمة ، الأكل نعمة ، والشرب نعمة ، البصر والسمع ، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد ، وكل نعمة من هذه ينطوى تحتها نِعَم .

خُذْ مثلاً حركة اليد التى تبطش بها ، وتأمّل كم هى مرنة مطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك ، أصابعك تتجمع وتمسك الأشياء دون أن تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها ، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله فى حركة يده ، إلا إذا أصابها شلل والعياذ بالله ، ساعتها يعرف أنها عملية صعبة ، ولا يقدر عليها إلا الخالق عز وجل .

لذلك ؛ فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا زمن التسبيح ، فيعيشه فى كل الوقت ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠) ﴾ [طه]

وآناء : جمع إنْى ، وهو الجزء من الزمن ، وهذا الجزء يترقّى حسْب تنبهك لتسبيح التحميد ، فمعنى التسبيح آناء الليل ، يعنى أجزاء الليل كله ، فهل يعنى هذا أن يظل الإنسانُ لا عملَ له إلا التسبيح ؟

المناطقة يقولون عن الجزء من الوقت : مقول بالتشكيك ، فيمكن أن تُجزِّىء الليل إلى ساعات ، فتُسبِّح كل ساعة ، أو تترقّى فتسبح كل دقيقة ، أو تترقّى فتُسبِّح كل ثانية ، وهكذا حسْب مقامات المسبّح الحامد وأحواله .

فهناك من عباد الله مَنْ لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة ، فتراه

يُسبِّح الله فى كل حركة من حركاته ؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته بدليل أنها قد تُسلَب منه فى أى وقت .

إذن : فأجزاء الوقت تختلف باختلاف المقامات والأحوال ، ألاَ تراهم فى وحدة القياس يقيسون بالمتر ، ثم بالسنتيمتر ، ثم بالمللى متر ، وفى قياس الوقت توصَّل اليابانيون إلى أجهزة تُحدِّد جزءاً من سبعة آلاف جزء من الثانية .

ثم يقول : ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠)﴾ [طه] ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره ، والمقامات والأحوال كلها ؛ لذلك يقول بعض العارفين فى نصائحه التى تضمن سلامة حركة الحياة :

(اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك) فهذا الذى يستحق المراقبة ، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة ، فلا تكنْ مراقبته لمن يغفل عنه ، أو يتصرف ، أو ينام عنه .

(واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك) فإذا شربتَ كوب ماء فقُلْ : الحمد لله أن أرواك ، فساعةَ تشعر بنشاطها فى نفسك قل : الحَمد لله ، وساعةَ أنْ تُخرجها عرقاً أو بولاً قل : الحمد لله ، وهكذا تكون موالاة حمد الله ، والمداومة على شُكْره .

(واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه) فطالما أنك لا تستغنى عنه ، فهو الأوْلَى بطاعتك .

(واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه) وإلاَّ فأين يمكنك أن تذهب ؟

لكن ، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل ، فقال ﴿آنَاءِ اللَّيْلِ .. (١٣٠)﴾ [طه] وحدده فى النهار فقال ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠)﴾ [طه] ؟

قالوا : لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسَّعْى ، فربما شغلك التسبيح عن عملك ، وربنا يأمرنا أن تضربَ فى الأرض وتُسهم فى حركة الحياة ، والعمل يُعين على التسبيح ، ويُعين على الطاعة ، ويُعينك أنْ تلبى نداء : الله أكبر .

ألاَ تقرأ قول الله ـ عز وجل ـ فى سورة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الجمعة]

ذلك لأن حركة الحياة هى التى تُعينك على أداء فَرْض ربك عليك ، فأنت مثلاً تحتاج فى الصلاة إلى ستْر العورة ، فانظر إلى هذا الثوب الذى تستتر به عورتك : كم يَدٍ ساهمتْ فيه ؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرتْ فى إخراجه على هذه الصورة ؟

أمَّا فى الليل فأنت مستريح ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله فى أيٍّ وقت من أوقاته .

ويلفتنا قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. ۝ ﴾ [طه] فأىّ طلوع ؟ وأىّ غروب ؟ وأىُّ ليل ؟ وأىّ نهار ؟ أهى لمصر أم للجزائر أم للهند أم لليابان ؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهى ، فالشمس فى كل أوقاتها طالعة غاربة ، ففى هذا إشارة إلى أن ذِكْر الله وتسبيح الله دائمٌ لا ينقطع .

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح ، فيقول ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ ﴾ [طه] ونلحظ أن الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية ، فلم

يقلْ : لعلِّي أرضى ، قال : لعلك أنت ترضى ، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك .

والرضا : أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمّل ، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد ، وحقّق ما يرجو ، كما تقول لصاحبك : أأنت سعيد الآن ؟ يقول : يعني ، يقصد أنه لم يصل بعد إلى حدِّ الرضا ، فإنْ تحقّق له ما يريد يقول لك : سعيد والحمد لله .

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول : ربنا يُديم عمرك ، جزاك الله خيراً .

إذن : رضا الإنسان له مراحل ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي كما روى النبي ﷺ : « إن الله يتجلى على خَلْقه في الجنة : يا عبادي هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ، قال : أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وهل يوجد أفضل من ذلك ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً »[1] .

وهكذا يكون الرضى في أعلى مستوياته . الغاية من التسبيح - إذن - الذي كلّفك ربك به أنْ ترضى أنت ، وأن يعودَ عليك بالنفع ، وإلا فالحق سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق ، أنت مُسبِّح قبل أن يخلق الكون كله ، ولا يزيد تسبيحك في ملكه تعالى شيئاً . ويتم لك هذا الرضا حين تُرضِي الله فيرضيك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

بعد أن قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] حذره أن ينظر إلى هؤلاء الجبابرة والمعاندين على أنهم في نعمة تمتد عينه إليها . ومعنى مدّ العين ألاّ تقتصر على مجرد النظر على قدْر طاقتها ، إنما يُوجهها باستزادة ويوسعها لترى أكثر مما ينبغي ، ومَدُّ العين يأتي دائماً بعدْ شغل النفس بالنعمة وتطلّعها إليها ، فكأن الله يقول : لا تشغل نفسك بما هم فيه من نعيم ؛ لأنه زهرة الدنيا التي سرعان ما تفنى .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] الأزواج لا يُراد بها هنا الرجل والمرأة ، إنما تعني الأصناف المقترنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) أخرج الواحدي في أسباب النزول (ص ١٧٤) عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن ضيفاً نزل برسول الله ﷺ ، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً يقول لك محمد رسول الله ﷺ : نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذي يصلحه ، فبعني كذا وكذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال رجب ، فقال اليهودي : لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن ، قال : فرجعت إليه فأخبرته . قال . والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ، ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه ، اذهب بدرعي إليه ، ونزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٦١٢) وعزاه لابن أبي شيبة والبزار وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن جرير . قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٤٣٨) : « قال ابن عطية : هذا معترض أن يكون سبباً ، لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي ﷺ ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذكرت » .

كل واحد له شيطان يلازمه لا يفارقه . هذه هي الزوجية المرادة ، كذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الصافات]

والزَّهْرة إشارة إلى سرعة النهاية والحياة القصيرة ، وهى زَهْرة لحياة دنيا ، وأيّ وصف لها أقل من كَوْنها دنيا ؟ وهذا الذي أعطيناهم من متاع الدنيا الزائل فأخذوا يزهُون به ، ما هو إلا فتنة واختبار ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه]

والاختبار يكون بالخير كما يكون بالشر ، يقول تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر]

ويشكر أنه عرفها لله ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر]

وهنا يُصحِّح لهم الحق سبحانه هذه الفكرة ، يقول : كلاكما كاذب في هذا القول ، فلا النعمةُ دليلُ الإكرام ، ولا سلبها دليلُ الإهانة : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ[1] أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفجر]

فهَبْ أن الله أعطاك نعمة ولم تُؤَدِّ شكرها وحقَّها ، فأيُّ إكرام فيها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] أي :

---

(١) التراث : ما يتركه الميت من مال فيورث عنه . قال تعالى : ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفجر] . أي : تأكلون ما ترثونه أكلاً لماً جامعاً للحلال والحرام ، وهو تصوير للطمع والحرص الشديد على الدنيا . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٩] .

لا تشغل بالك بما أعطاهم الله ؛ لأنه سبحانه سيعطيك أعظم من هذا ، ورزْق ربك خير من هذا النعيم الزائل وأبْقى وأخلد ؛ لأنه دائم لا ينقطع في دار البقاء التي لا تفوتها ولا تفوتك ، أما هؤلاء فنعيمهم موقوت ، إمّا أنْ يفوتهم بالفقر ، أو يفوتوه هم بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

هنا يعطينا الحق - تبارك وتعالى - منهجاً لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه ، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو ربُّ الأسرة ، فعليه أنْ يُصلح نفسه أولاً ، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية ، وهي الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته ، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه ، فعليه أنْ يُصلح الدوائر الأخرى المباشرة له .

فقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] لتستقيم الوحدة الأولى في بناء الكون ، فإذا ما صَلُحَتْ الوحدة الأولى في بناء الكون ، فأمَرَ كل واحد أهله بالصلاة ، استقام الكون كله وصلُح حال الجميع .

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئوليته عند هذا الحدُّ إنما ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] لأنَ في الصلاة مشقة تحتاج إلى صبر ، فالصلاة تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التي هي سبب الخير والنفْع لك ، فلا بُدَّ - إذن - من صبر عليها .

وفَرْق بين اصبر واصطبر : اصبر الفعل العادي ، إنما اصطبر

فيها مبالغة أي : يتكلّف حتى الصبر وتعمُّده .

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ في أذهانهم أهمية الصلاة ، فمثلاً تدخل البيت فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك : انتظروني دقائق حتى أصلي ، هنا يلتفت الأولاد إلى أن الصلاة أهمّ حتى من الأكل ، وتغرس في نفوسهم مهابةَ التكليف ، واحترامَ فريضة الصلاة ، والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ يقوم من الليل يصلي ما شاء الله له أنْ يصلي حتى يؤذن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَواْ رَشَّ في وجوههم الماء[1] ؛ لأن الصلاة خَيْر من النوم ، فالنوم في مثل هذا الوقت فيه راحة للبدن ، أمّا الصلاة فهي أفضل وأعظم ، ويكفي أنك تكون فيها في حضرة الله تعالى .

وهَبْ أن رب الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام ، ثم فجأة قالوا : أبوكم جاء ، فترى الجميع يُهرولون إليه ، وهكذا لله المثل الأعلى ، إذا دعاك ، فلا تتخلّف عن دعوته ، بل هَرْوِل إليه ، وأسرع إلى تلبية ندائه ، ولك أنْ تتصوَّر واحداً يناديك وأنت لا تردّ عليه ولا تجيبه ، أعتقد أنه شيء غير مقبول ، ولا يرضاه صاحبك .

إذن : عليك أنْ تُعوِّد أولادك احترام هذا النداء ، وبمجرد أن يسمعوا « الله أكبر » يُلبُّون النداء ، لا يُقدِّمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك في عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) ؛ لأنك انشغلتَ بالنعمة عن المنعم عز وجل .

---

(١) أخرج ابن ماجة في سننه (١٣٣٦) عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فصلت ، فإن أبت رش في وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى ، فإن أبى رشت في وجهه الماء » .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تعرف خير عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر) ، فإنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو أعلى منه منزلة ، فانظر إلى آخرهم خروجاً من المسجد ، وليس كذلك مَنْ يأتي الصلاة دُبُراً ، وبمجرد السلام يسرع إلى الانصراف .

ويُروى أن سيدنا رسول الله ﷺ عابَ على أحد الصحابة إسراعه في الانصراف من المسجد بعد السلام ، فتعمَّد رسول الله أنْ يناديه في إحدى المرات ، قال : « أزهداً فينا » ؟

وهل هناك مَنْ يزهد في رؤية رسول الله والجلوس معه ؟ فقال الرجل : لا يا رسول الله ، ولكن لي زوجة بالبيت تنتظر ثوبي هذا لتصلي فيه ، فيدعو له رسول الله ، وينصرف الرجل إلى زوجته ، فإذا بها تقول له : تأخرت بقدْر كذا تسبيحة ، فقال : لقد استوقفني رسول الله وحدث كذا وكذا ، فقالت له : شكوتَ ربَّك لمحمد ؟

ثم يقول تعالى : ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ .. (١٣٢)﴾ [طه] إذن : ما الذي يشغلك عن حَضْرة ربك ، الرزق ؟ ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا .. (١٣٢)﴾ [طه] فالذي لا يستطيع العمل نُوجِّه إليه من الأغنياء مَنْ يطرق بابه ويعطيه ، فالغنيّ شَرْطٌ في إيمانه الفقيرُ ، وليس شرطاً في إيمان الفقير الغني .

وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير ، والطَّرْق على بابه لإعطائه حقَّه في مال الغنيّ ، لا ينتظره حتى يسأل ، ويُريق ماء وجهه وهو يطلب حَقّاً من حقوقه في مجتمع الإيمان .

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ .. (١٣٢)﴾ [طه] أي : لا نسألك رزقاً ثم

نتركك ، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك ، فاطمئن إلى هذه المسألة .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) ﴾ [طه] لأنك إذا تأزمتْ معك أمور الحياة تلجأ إلى الله ، كما كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر قام إلى الصلاة ، وتأزُّم الأمور يأتي حينما نفقد نحن الأسباب المعطاة من الله ، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحيَل لم يَبْقَ لك إلا أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، كما يقول في آية أخرى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) ﴾

مرت بنا (لولا) في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ .. (١٩) ﴾ [يونس] وتعني : امتناع التعذيب لوجود الكلمة ، أما (لولا) هنا فتعني : هلا ، للحثِّ والطلب ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٣٣) ﴾ [طه] كما في ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ .. (٣٩) ﴾ [الكهف]

فكأن القرآن لا يعجبهم ، مع أنهم أمةُ بلاغة وبيان ، وأمة فصاحة وكلام ، والقرآن يخجلهم لفصاحته وبلاغته ، فأيُّ آيةٍ تريدونها بعد هذا القرآن ؟

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٣٣) ﴾ [طه] كدليل صدْق على بلاغه عن الله كالمعجزات الحسِّية التي حدثتْ لمن قبله من الرسل ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

إذن : فالآيات من الله لا دَخْلَ لى فيها ولا أختارها ، وها هو القرآن بين أيديكم يخبركم بما كان فى الأمم السابقة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

وقال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ .. (١٦٣)﴾[النساء]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٣٣)﴾ [طه]

فالقرآن جاء جامعاً ومُهيْمناً على الكتب السابقة ، وفيه ذِكْر لكل ما حدث فيها من معجزات حسية ، وهل شاهد هؤلاء معجزة عيسى عليه السلام فى إبراء الأكمه والأبرص ؟ هل شاهدوا عصا موسى أو ناقة صالح ؟

لقد عرفوا هذه المعجزات عندما حكاها لهم القرآن ، فصارت خبراً من الأخبار ، وليست مَرْأىً ، والمعجزة الحسِّية تقع مرة واحدة ، مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ لم يرها فهى بالنسبة له خبر ، ولولا أن القرآن حكاها ما صدَّقها أحد منهم .

لكن هؤلاء يريدون معجزة حِسِّية تصاحب رسالة محمد العامة للزمان وللمكان ، ولو كانت معجزة محمد حسِّية لكانت لمَنْ شاهدها فقط ، والحق سبحانه يريدها معجزة دائمة لامتداد الزمان والمكان ، فَمنْ آمن بمحمد نقول له : هذه هي معجزته الدائمة الباقية إلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك ، كان القرآن معجزة لكل القرون ، ولو أفنى القرآن معجزته مرة واحدة للمعاصرين له فحسب لاستقبلتْه القرون الآتية بلا إعجاز ، لكن شاءتْ إرادة الله أن يكون إعجاز القرآن سراً مطموراً فيه ، وكل قرن يكتشف من أسراره على قدر التفاتهم إليه وتأملهم فيه ، وهكذا تظل الرسالة محروسة بالمعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى : أنا قطعت عليهم الحجة ؛ لأنني لو أهلكتُهم على فَتْرة من الرسل لقالوا : لماذا لم تُبقنَا إلى أن يأتينا رسول ، فلو جاءنا رسول لآمنا به قبل أن نقع في الذُّلّ والخزْي ، فمعنى : ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبل أن يأتي القرآن لقالوا : ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً لآمنّا به واهتدينا .

وهذه مجرد كلمة هو قائلها ، وكما قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام] إنها مجرد كلمة تنقذهم من الإشكال .

وقولهم : ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ [طه] الذل : ما يعترى الحىَّ مما ينشأ عنه انكساره بعد أنْ كان متعالياً ، والذلّ يكون أولاً بالهزيمة ، وأذلّ من الهزيمة الأسْر ، لأنه قد يُهزم ثم يفرُّ ، وأذلُّ منهما القتل . إذن : الذل يكون في الدنيا أمام المشاهدين له والمعاصرين لانكساره بعد تعاليه .

أما الخزى : نخزى يعنى : يُصيبنا الخزى ، وهو تخاذل النفس بعد ارتفاعها . ومن ذلك يقولون : أنت خزيت. يعنى : كنت تنتظر شيئاً فوجدت خلافه .

ومنه قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٩٤)﴾ [آل عمران] فإنْ عُجِّل لهم الذلُّ فى الدنيا ، فإن الخزى مُؤخَّر للآخرة حتى تكون فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، كما يقولون (فضيحة بجلاجل) حيث يشهد خِزْيَهم أهلُ الموقف جميعاً .

وكلمة « الخزى» هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول ـ عليه رحمة الله ـ وكان رجلاً مكفوفَ البصر ، وكنا (نستلخمه) فإذا وجدنا فرصة تفلّتنا منه وهربنا من تصحيح اللوح الذى نحفظه ، فالذى يحفظ بمفرده هكذا من المصحف يكون عرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبد البارى ، وقد حضر مدير المدرسة فجاة ، وأراد أن يُسمِّع لنا ، وكان الشيخ عبد البارى لم يصحح لوحه الذى سيقرأ منه فقرأ : (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) فقرأها بالراء بدلاً من الزاى ، فضحك الشيخ طويلاً ـ رحمه الله ـ وقال : يا بنى المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا .

فكنا نأخذها على الشيخ عبد البارى ، فَمَنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار ..) ويسكت !!

فشاء الله تعالى أن يتعرض كُلٌّ منا لموقف مشابه يُؤْخَذ عليه ، وقد أُخِذ عليّ مثلُ هذا حين قرأت دون أنْ أُصحِّح اللوح أول سورة الشورى : (حم عسق) وقد سبق لى أن عرفت (حم) لكن لم يمر بى (عسق) فقرأت : (حم عَسَقَ) بالوصل ، فصار الشيخ عبد البارى كلما قلت له : (إنك من تدخل النار ....) يقول : (حم)

فقلنا سبحان الله :

مَنْ يَعِبْ يَوْماً بشَيء لَمْ يمُتْ حتَّى يَراهُ

إذن : فقول هؤلاء : ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ [طه] تمحُّك منهم : لو أرسلت لنا رسولاً لاتبعناه من قبل أنْ نذلّ فى الدنيا هزيمةً ، أو أسْراً ، أو قَتْلاً ، ونخزى فى الآخرة بفضيحة علنية على رؤوس الأشهاد .

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾

التربُّص : التحفُّز لوقوع شيء بالغير ، تقول : فلان يتربص بى يعنى : يلاحظنى ويتابعنى ، ينتظر متى هَفْوة أو خطأ ، فقوله : ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .. (١٣٥)﴾ [طه] فكُلٌّ منَّا يتربص بالآخر ، لأننا أعداء ، كل منا ينتظر من الآخر هفوة ويترقب ماذا يحدث له .

وقد أوضح سبحانه وتعالى توجيهات التربُّص منه ومنهم فى آية أخرى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. (٥٢)﴾ [التوبة]

ماذا تنتظرون إلا إحدى الحُسْنيين : إما أن نموت في قتالكم شهداء ، أو ننتصر عليكم ونُذلكم ، فأيُّ تربُّص يحدث شرف لنا ، إما النصر أو الشهادة ، فكلاهما حُسْنى ، ونحن نتربّص بكم أنْ يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فكلاهما سوءة .

وما دام الأمر كذلك فتربَّصُوا بنا كما تحبون ، ونحن نتربص بكم كما نريد ؛ لأن تربصنا بكم يفرحنا ، وتربصكم بنا يُؤلمكم ويُحزنكم .

ومعنى ﴿قُلْ .. (١٣٥)﴾ [طه] هنا أن القول ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ .. (١٣٥)﴾ [طه] ليست من عند محمد ، فليس في يده زمام الكون ولا يعلم الغيب ، فهو قَوْل الله الذي قال له (قل) يا محمد ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .. (١٣٥)﴾ [طه]

إذن : قيلت ممَّنْ يملك أزِمّة الأمور وأعنّتها ، ولا يخرج شيء عن مراده تعالى ، وربما لو قُلْت لكم من عندي تقولون : كلام بشر لا يملك من الأمور شيئاً . إذن : خذوها لا بمقياس كلام البشر ، إنما بمقياس مَنْ يملك زمام أقْضية البشر كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾ [طه] متى سيحدث هذا ؟ ساعةَ تقوم الساعة حيث الانصراف ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوي : نحن أمْ أنتم ؟ لكنه سيكون علْماً لا ينفع ولا يُجدي ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، جاء وقت الحساب لا وقت العمل وتلافي الأخطاء .

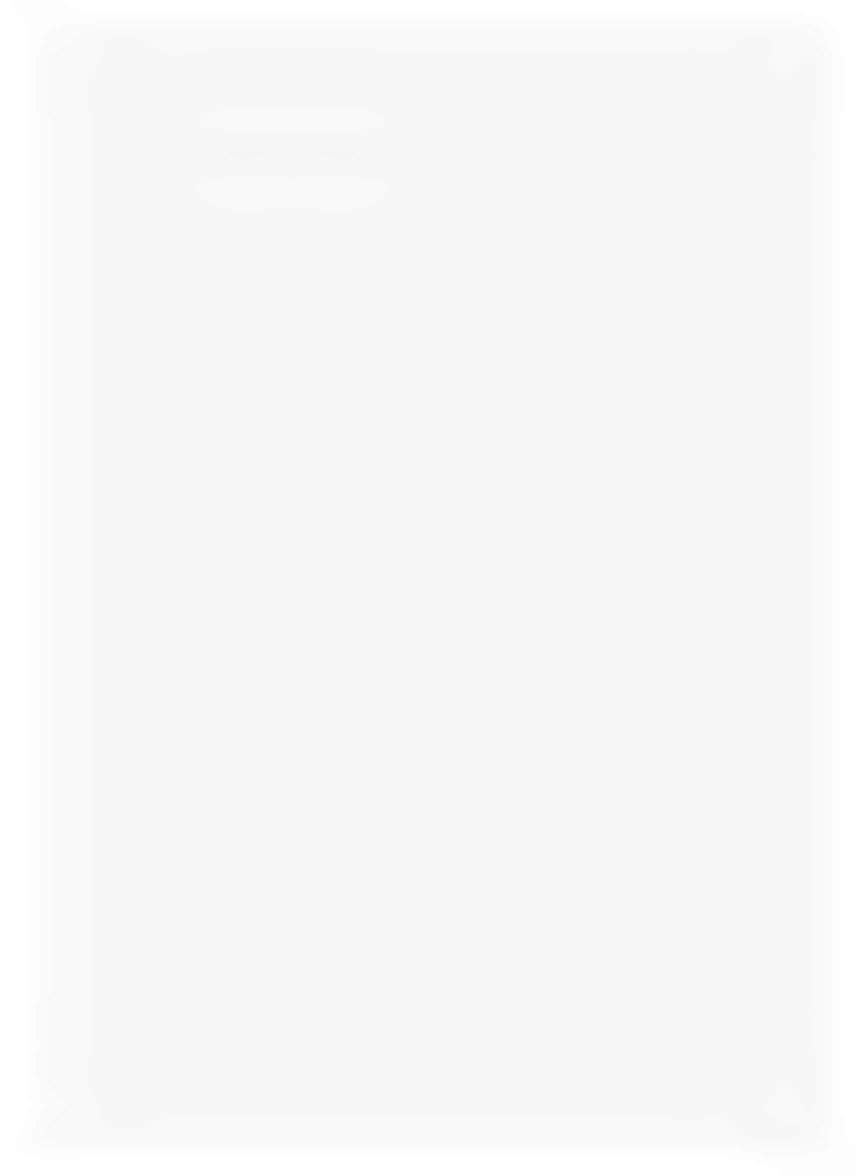
إنه علْم لا يترتب عليه عمل ينجيكم ، فقد انتهى وقت العمل ، وهكذا يكون علْماً يُزيد حسرتهم ، ويُؤذيهم ولا ينفعهم .

والصراط : الطريق المستقيم . والسَّوِيّ المستقيم الذى لا عِوَجَ فيه ولا أَمْتَ .

وقال بعدها ﴿ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾ [طه] لأنه قد يوجد الصراط السويّ ، ولا يوجد مَنْ يسلكه ، فالمراد : الصراط السَّوِى ومَن اهتدى إليه وسلكه .

وقد يظن ظانٌ أن مسألة التربُّص هذه قد تطول ، فيقطع الحق سبحانه هذا الظن بقوله فى أول سورة الأنبياء الآتية بَعْد : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تنسجم السُّورتان ، ويتصل المعنى بين الآيات .




سورة الأنبياء



سورة الأنبياء[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ[2] وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة في مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعني مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفيه زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضي ﴿اقْتَرَبَ .. ①﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مستقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذي يملك الأحداث ويقدر

---

(١) سورة الأنبياء هي السورة رقم (٢١) في ترتيب المصحف ، وهي سورة مكية في قول الجميع ، وعدد آياتها ١١٢ آية ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنين ، وهي السورة رقم ٧٢ في ترتيب نزول القرآن . [انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٢٧] .

(٢) قال الضحاك : أي اقترب عذاب أهل مكة ، لأنهم استبطئوا ما وُعدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بدر . [تفسير القرطبي ٦/٤٤٤٣] .

عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] فأتى تعني أن الأمر حدث قبل أن يتكلم ، والأمر ما زال مستقبلاً بدليل قوله : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد . فكيف - إذن - جمع بين الماضي ﴿أَتَىٰ .. ①﴾ [النحل] والمستقبل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] ؟

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضيٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ㉓ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ㉔﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ لها عناصر : الفاعل أنت والمفعول به والزمن غداً ، والسبب الذي يدعوك للفعل والقدرة التي تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغي أن تُبرِّيء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذي يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك تجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضي : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أي قريباً ، أو سوف يحضر أي : بعد ذلك .

هذا الذى يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلُّ شيء مرهون بأمره التكوينى ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شيءَ يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذى يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضى ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضى (اقترب) أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ⑲﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعنى دنا ، أما اقترب أى : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عدَّة ، فالحساب أنْ تحسب الشيء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين . أو تربط المسبَّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتى بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ㊲﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطانى زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب فى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء] فيقتضى مُحَاسِباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحَاسَباً عليه وهى الأعمالَ والأحداث التى أحدثوها فى دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع في نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شيء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذي يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضي أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً : جماعة في الجنة وجماعة في النار ، وقوله سبحانه في الحديث القدسي : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي »[1] بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففي علم الله ما فعلوا وما تركوا .

ولا تنسَ أن المحاسب في هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب في الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب في الشر كان على قَدْره دون زيادة ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ]

وما دام المحاسِب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بنا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرَّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدَّ له ، فلا نسير في الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٦/٤٤١) وعبد الله بن أحمد في زوائده على مسند أبيه من حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالي » .

فمن رحمته تعالى بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم في سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعظنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

إذن : ما أخذنا ربنا على غِرَّة ، ولم تُفاجئنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات في بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدري ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء] مع أن الساعة ما زالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة ما لا يعلمه إلا الله . فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التي يقضيها في القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شيء ظنيّ لا نضمنه ، والإنسان عُرْضة للموت في أيّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس)

أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾ [الأنبياء]

إذن : الحساب ليس في مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون في مثل هذا السياق ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء] ما دام الأمر على الكفار ؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أي : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها : زحزحة الشيء عن بال الواجب ألاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التي جاء بها الدين ، وهذه هي المعاصي ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ .. ②﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الربِّ الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّث النبي ﷺ صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت في جِذْر[1] قلوب الرجال)

---

(١) الجذر : الأصل من كل شيء . وفي حديث حذيفة بن اليمان : نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال . أي : في أصلها . [لسان العرب ـ مادة : جذر] .

والأمانة هي الإيمان الحق بالله ، أي : حلَّ الإيمان ، واستقر في القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أي : يغفل الغفلة (فيظل أثرها مثل أثر الوكت)[1] الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجِلْد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أي : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط[2] فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شيء) أي : انتفخ (فيصبح الناس) أي : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوي : (وقد مر عليَّ زمان ما كنت أبالي أيكُم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه عليَّ دينه) يعني : إنْ غشَّني في شيء أو حدث خطأ ما في البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه عليَّ ساعيه) أي : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحِسْبة ، فإنْ رأوْا غشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)[3] فإنْ كان هذا في أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها

---

(١) الوكت : الأثر اليسير في الشيء ، كالنقطة من غير لونه . [اللسان ـ مادة . وكت] .

(٢) النفطة : بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماء . قال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء . [اللسان ـ مادة : نفط] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٩٧) وكذا مسلم في صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

راحلة »[1] أي : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفي رواية أخرى : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً »[2] أي : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان[3] على القلب .

فغفْلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف ؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلِّف سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿مُّعْرِضُونَ ①﴾ [الأنبياء] تدل على الافتعال أي : أنهم مفتعلون هذا الإعراض ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② ﴾

أي : ذكر من القرآن ﴿مُّحْدَثٍ .. ②﴾ [الأنبياء] يعني : يسمعونه جديداً لأول مرة ﴿إِلاَّ استمعوه وهم يلعبون ②﴾ [الأنبياء] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِي بعضهم

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٩٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . قال ابن حجر في فتح الباري (١١/٣٣٥) : « المعنى : لا تجد في مائة إبل راحلة تصلح للركوب ، لأن الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون وطيئاً سهل الانقياد ، وكذا لا تجد في مائة من الناس من يصلح للصحبة بأن يعاون رفيقه ويلين جانبه » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) ، ومسلم في صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان ، وتمامه : « فأيّما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء » .

(٣) الران والرين : هو كل ما غلبك وعلاك ، والرين : سواد القلب من الذنوب ، وأصل الرين : الطبع والتغطية . [لسان العرب - مادة : رين] .

بعضاً به ويُحرِّضـون عليه ، كما جاء في قول الحق سـبحانه وتعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

إنهم يخـافون إنْ سـمعـوا القرآن أنْ يتـأثروا به فيـؤمنوا ؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد فى هدوء واطمئنان فـيـؤمن به . وهذا يـعنى أن هذا العـمل فى مـصلـحـتـهم ؛ لأنهم لا يستطيعـون ردَّ حُجَج القرآن ولا الثبـات أمام إعجازيتـه ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فـهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفـوا الناس عن سماعـه ، والتشويش عليـه ، حتى لا يتمكّن من الأسمـاع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نـفسك بعمل لا قـصدَ فيه لغاية ، كمـا يأخذ الطفل الصـغير كـراسة أخيه ، ويعبـث فيهـا بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضـاً اللهو : وهو عـمل مقصـود لغاية ، لكن هذه الـغاية تضعـها أنت لنفـسك ، أو يضعهـا غيرك مـمَّنْ يريد أنْ يُفسـدك بها ، إذن : هو عـمل مقـصـود وله غـاية ، ليس مـجرد (شـخبطَة) كـمَنْ ينشغـل مثلاً برسـم بعض الـصور للتسليـة ، أو ينشغل بحلِّ الـكلمات المتقاطعة ، فهى أعمال لا فائدة منها .

أمـا العمل النافع الـذى ينبغى أن ينشـغل الإنسـان به فهـو الذى يضـعه لـك مَنْ هو أعلى منك ، وأنْ يكون حكيمـاً مُحبـاً لك ، وهذه المواصفـات لا تجدها إلا فى الإله ؛ لذلك كل ما يُلهيك عمَّـا يضعه لك إلهك فهو لَهْو ؛ لأنه شَغَلك عما هو أهمّ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [محمد]

فاللعب في مرحلة الطفولة ، بل نأتي نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أن تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية ، لكنها تلهيك عن غاية أسمى هي التي وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتهى اللهو واللعب أن يلعبوا عند سماع القرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غايةَ له ولا فائدةَ منه : لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً في فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق في هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان ، وهذه مهمة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به . وهكذا في كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربَّى في الولد مواجيده على اليقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونِعَمه . ويرى أباه الذي يتعهده ، ويأتي له بكل شيء لا يتصيَّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كل شيء إلى الله .

فأبوه ـ وهو المثل الأعلى له ـ يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللَّهْو واللَّعِب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المواجيد ، ولا ينشأ الفعل دون مَوجدة إلا فعل المجنون ، والقلوب هي التي تُوجِّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - حينما دخل على رجل يعبث بذقنه وهو يصلي - كما يفعل الكثيرون - قال : لو خشع قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه[1] . فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب ؟ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ ﴾

ويا ليت كلاً منهم يفعل هذا الفعل في نفسه ، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. ۝ ﴾ [الأنبياء] أي : يتناجَوْن في الإثم ، ويُسِرُّونه يعني : يجعلونه سراً . والنَّجْوى أو التناجي : خَفْض الصوت ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ .. ۝ ﴾ [المجادلة]

فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله ، أو تُخْفُون عنه شيئاً . ونلاحظ في ارتقاءات العدد في هذه الآية أنها لم تذكر اثنين ، فبدأت من العدد ثلاثة ؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين ، إنما تكون بين الثلاثة ، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث .

كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب ، فلم تَقُلْ مثلاً : ولا أربعة إلا هو خامسهم ؛ ذلك لأن الآية لا تقصد الترتيب العددي ، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .

---

(١) أورده الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (١٥١/١) من حديث رسول الله ﷺ ، قال العراقي في تخريجه للإحياء : « أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف لأنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم » .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسِرُّونه ، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقاً لقالُوه علانية ، فالنجْوى دليلُ اتهامهم في العقل ، وفي القلب ، وفي كل شيء .

أما قوله تعالى في شأن النبي ﷺ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. ﴿١٢﴾ ﴾ [المجادلة]

وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سراً ؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور]

فالمراد ألاَّ نرفع أصواتنا في حضرة النبي ﷺ كما يحدث منّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً ، بل نُكلِّمه كلام المهيب ، ونلتزم معه الأدب والخشوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء] هل (الذين) هنا هي الفاعل لأسرُّوا ؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم الفعل على الفاعل لزم صورة الإفراد نقول : أكل القوم ، لا نقول : أكلوا القوم ، وهنا ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء] لو أن (الذين ظلموا) هي الفاعل لقال : وأسرَّ الذين ظلموا ، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هي الفاعل ، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .

فكأن سائلاً سأل : ومَن الذي أسرَّ ؟ فأجاب : (الَّذِينَ ظَلَمُوا)

وكلمة (ظَلَمُوا) عامة في الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً ؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشئ من أنه ظلم الحق الأعلى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

ثم ظلم الناس في أمور أخرى وفي حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة ؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظلَم الله فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .

فما النجوى التي أسرَّها القوم ؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها ؟

النجوى قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]

فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها في أنفسهم وأسرُّوها ؟ ألم يكُن على هؤلاء أنْ يتنبَّهوا : كيف عرف محمد مقولتهم ؟ وأن الذي أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذي لا تَخْفى عليه خافية . كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذي يعلم خَبْءَ كل شيء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء في تناجيهم : ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] فسمُّوا القرآن سحراً ، لأنهم يرونَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] أن القرآن يفعل مثل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

كان سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرَّه القوم ؟ ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٤) ﴾ [الأنبياء] فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) ﴾ [الأنبياء] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال

ومما قالوه أيضاً :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ[1] بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ﴾

(بَلْ) تعنى أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفوا بما قالوا ، بل قالوا أيضاً ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ .. (٥) ﴾ [الأنبياء] وأضغاث : جمع ضِغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء فى قصة أيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص] أى : حزمة من أعواد الحشيش .

ووردتْ أيضاً فى رُؤْيا عزيز مصر : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ [يوسف]

وقوله ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ .. (٥) ﴾ [الأنبياء] أى تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلاقه ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ .. (٥) ﴾ [الأنبياء] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة فى ماهية ما هو ؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكرون أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر !!

وقد سبق أنْ فنَّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل فى

---

(١) أضغاث أحلام . أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/٣٩٤] .

طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾ [الأنبياء] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ، فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التى جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم فى هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التى اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ يؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله ؛ لذلك لم يُجبْهم إلى ما طلبوا من الآيات ؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنْزِل بهم العذاب ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

إذن : هذه التجربة مَرَّتْ مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٢٨ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. ⑥﴾ [التغابن]

يعني : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منَّا ، فكيف يهدوننا ؟! وهل الرسول يهديكم ببشريته ؟ أم بشيء جاءه من أعلى ؟ هل منهجه من عنده ؟

الرسول ليس مُصلحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ربي وربكم . وقد سبقتْ السوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. ⑦﴾ [الأنبياء] ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجاءكم الرسول ملكاً . ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦﴾ [الأنبياء] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة ؟

ذلك لأن المفروض في النبي أن يكون قدوة لقومه وأسْوة ، مُبلِّغ منهج ، وأسْوةَ سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة[1] ، إنما هو أسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسي في القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّي مع المتأسَّى به .

فلو رأيتَ مثلاً في الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر في يوم ما أن تكون أسداً ؟! هل تأخذ الأسد لك أُسْوة ؟! لا ، لأنه يُشترط في أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب في الأعداء يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

---

(١) النجوة : ما ارتفع من الأرض . قال أبو زيد . النجوة المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاؤك . [لسان العرب - مادة : نجا] .

كذلك إذا جاء النبي ملكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ؛ إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا في صورة بشرية .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥)﴾ [الإسراء]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر ، ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء في الحديث الشريف : « يرد عليَّ - يعني من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤْخَذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء] أي : إنْ كنتم في شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب[1] .

وقال : ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء] لأنها مسألة علْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾

---

(١) قاله سفيان . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن . أي : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن . قال جابر الجعفي : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه : نحن أهل الذكر . [تفسير القرطبي ٤٤٤٧/٦] .

﴿ جَعَلْنَاهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : الرسل ﴿ جَسَداً .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأىّ بشر ، ويمشون فى الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعلموا عنهم هذه الحقيقة .. وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]

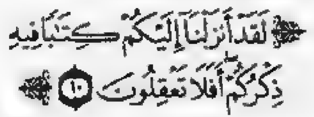
ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه سُنَّة من سُنَن الله فى الرسل أنْ يَصْدُقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه ؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم .



﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبى : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتم فيه ،

ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن في القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعي أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (الم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً في رسول الله ؛ لأن العرب في لغتهم وأسلوبهم في الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلِّم والسامع ، المتكلِّم لا يُفَاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمَّا السامع فقد يُفَاجأ بكلام المتكلم، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقظه ويُنبِّهه حتى لا يفوته شيء .

وهكذا وُضعتْ في اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام في شيء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شيء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم[1] :

* ألاَ هُبِّي بِصَحْنِك فَاصْبِحينَا[2] *

---

(١) هو . عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بني تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة . كان من أعز الناس نفساً ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمر طويلاً ، مات في الجزيرة الفراتية عام ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلي ٥/٨٤] .

(٢) شطر البيت الأول من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والجمع : الصحون . ومعنى البيت : ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية واسقيني الصبوح بقدحك العظيم ولا تشفري خمر هذه القرى . [انظر شرح المعلقات السبع للزوزني . ص ١٦٥].

وقول آخر :

أَلاَ انعِمْ صَبَاحاً أَيُّهـا الطَّلَلُ البَـالِي[1]

وَهَـلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العَصْرِ الخالى[2]

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعنى : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس] ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ .. ۝٥﴾ [هود]

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ۝١٠﴾ [الأنبياء] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزّلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف ، أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُراد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدى إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصَّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التى اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة فى القتل هى نفس الدية التى حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ،

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . [لسان العرب ـ مادة : طلل] .

(٢) البيت لامرىء القيس ، ذكره الزوزنى فى شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ (هامش) .

كثيرون منهم كانوا يُحرِّمون الخمر ولا يشربونها ، هكذا بالفطرة ، وكثيرون كانوا لا يسجدون للأصنام . إذن : الفطرة السليمة قد تهتدى إلى الحق ، ولا تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى ﴿ ذِكْرُكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] شرفكم وصيتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم ؛ لأن القرآن الذى نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثنى عقول الناس جميعاً ، ويثنى قلوبهم للغتكم ، ويحثهم على تعلّمها ومعرفتها والحديث بها ونشرها فى الناس . فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأىُّ شرف بعد هذا ؟!

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أفلا تُعملون عقولكم وتتأملون أن خيركم فى هذا القرآن ، فإنْ كنتم تريدون خُلُقاً وديناً ففى القرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففى القرآن ، وأىُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبى عربى ، والقرآن عربى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قصمنا : القَصْم هو الكَسْر الذى لا جَبْرَ فيه ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة ، ليأخذوا منها عِبْرة وعظة ، فليس بِدَعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين ، بل لها سوابق كثيرة فى التاريخ[1] .

(١) قال القرطبى هنا فى تفسيره (٦/٤٤٤٩) : « يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور ، وكان بُعث إليهم نبى اسمه شعيب بن ذى مَهْدَم ، وليس بشعيب صاحب مدين » .

لذلك قال : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا .. (١١)﴾ [الأنبياء] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التى لا تُعَدُّ ، فاحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أنْ يُنزِل بكم ما نزل بهم .

وقوله : ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)﴾ [الأنبياء] أى : خلف بعدهم خَلْف آخرون .

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا[1] إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)﴾

أى : حين أحسُّوا العذاب ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)﴾ [الأنبياء] حتى لا يلحقهم العذاب . والركْضُ : الجَرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : ركْضُ الدابة ، يعنى : ضَرْبها برِجْله كى تُسرع . ومنها : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢)﴾ [ص] يعنى : اضرب الأرض برِجْلك لِتُخرج الماء ﴿هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص]

وفى هذه الآية مَلْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآنى ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ فى جلده ، وأراد له ربُّه - عز وجل - الشفاء ، فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوْا مثلاً البثور والدمامل فى الجلد يعالجونها بالمراهم التى يندمِلُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهى فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ، وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة فى الجوف .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قصة هؤلاء المكذِّبين قدّم الغاية من العذاب ، فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ثم فصَّل القَصْم بأنهم لما أحسُّوا العذاب تركوا قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترِفْتم فيه .

والتَّرفُ : هو التنعُّم تقول : ترف الرجل يترف مثل : فرح يفرَح أي : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .

ومنها أيضاً : أترفهُ الله يعني : غرَّه بالنعيم ؛ ليكون عقاباً له .

فقوله هنا ﴿ إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء] من أترفه الله يعني : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرُّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم ؟

قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعِّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .

وقد مثَّلْنا لذلك بأنك إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلمَ له .

ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] أعطيناهم الصحة والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

ومَلْمَح آخر في قوله تعالى : ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] لا لهم كما في : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سَيَبْطرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم :

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾

لما أحسَّ المكذِّبون بأسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿يَا وَيْلَنَا .. ﴿١٤﴾﴾ [الأنبياء] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسي) أو (يا شقائي) وهل أحد ينادي على العذاب أو

البُؤس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادي إلا على ما يُفرح .

فالمعنى : يا ويلتي تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضى إلاَّ أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭﴾ [الانبياء] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا كفرنا به ، كما قال فى آية أُخْرى : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ .. ⑯﴾ [الزمر]

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ⑮﴾

قوله تعالى : ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ .. ⑮﴾ [الانبياء] أى : قولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭﴾ [الانبياء] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، واتخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فلا شىءَ يشفى صدورهم إلا هذه الكلمة يُردِّدونها . كما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول : أنا مُخطىء ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ⑮﴾ [الانبياء] الحصيد : أى المحصود وهو الزرْع بعد جمعه ﴿خَامِدِينَ ⑮﴾ [الانبياء] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يشير إلى حرارتهم فى عداء الرسول وجَدلهم وعنادهم معه ﷺ ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ربنا - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل الأعلى في الخلق ؛ لأن خَلْق السموات والأرض مسألة كبيرة : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر] فالناس تُولَد وتموت وتتجدد ، أمَّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخَلْق السماء والأرض وما بينهما ؛ لأنها أعجب شيء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو في النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى في هذا الكون فما عمله هو ؟ وما وظيفته في كون الله ؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك ؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة في الحياة فأنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك ؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات

وهى أقوى منك ، ألك قدرة على السماء ؟ أتطول الشمس والقمر ؟

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : كان يجب عليك أن تبحثَ بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له » .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما ؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهى - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل الأعلى - نقول له : أين القصيدة التى قلتها ؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شِعْره وآثاره التى ادَّعاها ، وهى دعوى دون دليل ؟!

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ؛ لأنها تعمل بالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار . أما الإنسان فهو المخلوق صاحب الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً في نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذي يحدث فيه الخَلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شيء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة ٣٦٥ يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها في عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ في اليوم الأول من نفس المكان ، وفي اليوم الثاني من نفس مكان اليوم الثاني ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك ؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجَّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئي أو حلَقي ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً في نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه ؛ لأنه لا تدخُّل لنا فيه أبداً .

---

(١) العرجون : هو أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض ، وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ١٤/٢] .

وفي المقابل انظر إلى أيِّ شيء للإنسان فيه تدخُّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض .. الخ انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاَّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإنْ سارت على منهج الله استقامتْ كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخالق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شيء ، ولا اختلتْ فيه ظاهرة ، أمَّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندي أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك في الدنيا ، فأنا أخدمك في الآخرة ، وألبِّي لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أنني شغلت نفسي بمَنْ يملكني وهو الله تعالى لاستقام لي ما أملكه .

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا ؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأنِّي يكفيني من خلقي أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذي يملك أنْ يشهد أو لا يشهد .

كما أنني بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً يافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هي الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .

وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالي لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ السماء والأرض بدون غاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا[1] لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) ﴾

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شيء ، وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ .. (١٧) ﴾ [الأنبياء] تدل على أن ذلك لن يحدث .

فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة في ذاتها ، فليس لها هدف كمالي نسعى له في الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عبثاً .

(١) اللهو : المرأة بلغة اليمن ، قاله قتادة . وقال عقبة بن أبي جسرة ، وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا .. (١٧) ﴾ [الأنبياء] فقال : اللهو الزوجة ، وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد ، وقاله الحسن أيضاً . [تفسير القرطبي ٤٤٥٢/٦] .

وهذا يمتنع فى حق الله سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ(١) فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله فى السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملى للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .

فقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] القذف : الرَّمْى بشدة مثل القذائف المدمرة ﴿ فَيَدْمَغُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يقال : دمغه أى : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أىّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ فى النجاة بعده .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عَظْمة الدماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت ـ مثلاً ـ إذا توقف القلب ؛ لأن القلب يجرى له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية الأولى والتى تحتفظ بآخر مظاهر الحياة فى الجسم ؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكى .

وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ،

---

(١) دمغ الحق الباطل : أبطله ومحقه وأزاله . [القاموس القويم ١/٢٣٢] .

فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفي طاقته الاحتراقية في العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعام ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذّى على اللحم ، ثم على العَظْم ليُوفّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد في الجسم ، ومن بعده تتغذّى باقي الأعضاء .

إذن : كل شيء في الجسم يخدم المخ ؛ لأنه أعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جَفَّ الماء في التربة ولم يجد النباتُ الغذاءَ الكافي يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم تتساقط الأوراق ، ثم تجفّ الفروع الصغيرة ، ثم الجذع ، ثم الجذر .

ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] فالعَظْم آخر مخزن للغذاء في الجسم ، فَوهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَيَدْمَغُهُ .. ⑱﴾ [الأنبياء] أي : يصيبه في أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها ، لا في عضو آخر يمكن أنْ يُجبر ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ⑱﴾ [الأنبياء] زاهق : يعني خارج بعنف .

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ⑱﴾ [الأنبياء] يعني : أيها الإنسان المغترّ بلججه وعناده في الباطل ، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق ، سنقذف بالحق على باطلك ، فنصيب دماغه فيزهق ، ساعتها ستقول : يا ويلتي كما سبق أنْ قالوا : ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭﴾ [الأنبياء] حينما يباشرون العذاب .

ومعنى : ﴿تَصِفُونَ ⑱﴾ [الأنبياء] تكذبون كذباً افترائياً ، كما لو رأيتَ شخصاً جميلاً ، فتقول : وجهه يَصِفُ الجمال ، يعني : إنْ كنت

تريد وَصْفاً للجمال ، فانظر إلى وجهه يعطيك صورة للجمال . كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل] يعني : إنْ أردتَ أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .

كما يقولون : حديث خرافة[1] ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندي سهم إنْ أطلقتُه على الظَّبي يَسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذي نراه اليوم !! فسار كلامه مثلاً يُضرب للكذب[2] .

لذلك قال الشاعر :

* حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أمَّ عَمْرٍو *

فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قولٌ لا يوافق الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب ؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أي : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملي الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه ؟

---

(١) الخرافة : الحديث المستملح من الكذب . ذكر ابن الكلبي : أن خرافة من بني عذرة أو من جهينة اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ، فكذَّبوه ، فجرى على ألسن الناس » . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٦/١٥٧) عن عائشة قالت : حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة فقال : أتدرون ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة ، أسرته الجن في الجاهلية ، فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس : حديث خرافة » .

نقول : الحكمة من هذا أنْ تتم الابتلاءات ، والناس لا تتعشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ ... وَالشَّعْرُ مثْلُ الليْلِ مُسْوَدُّ

ضدَّان لَمَّا استْجمعَا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ

إذن : لا نعرف جمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر .

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ(1) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سبق أن أخبر الحق سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فما المظروف فيه ؟ المظروف فيه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصي ، فإنْ كان مختاراً في أمور التكليف فهو مقهور في الأمور الكونية لا دَخْلَ له فيها .

فليس للإنسان تحكم في ميلاده أو وفاته ، ولا تحكم له في صحته وعافيته أو مرضه أو ذكائه أو طوله أو قصره ، إذن : فهو ملْك لله ، مقهور له ، إلا أنه سبحانه ترك له زاوية اختيار تكليفية .

أما السماء والأرض فهي مُسخَّرة مقهورة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

(1) قوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . [تفسير القرطبي ٦/٤٤٥٢] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذى لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجِّه هذه الأمانة التوجيه السليم ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فوصفه رَبُّه بأنه كان فى هذا الحمل ظلوماً جهولاً ؛ لأنه لا يدرى عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السموات والأرض وهى مضطرة ؟ نقول : هى مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .. ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء] أى : ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة ؛ لأنهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]

﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء] من حسر : يعنى ضَعُفَ وكَلَّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك] أى : كليل ضعيف ، لا يَقْوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية ؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ..﴿١٧٢﴾﴾ [النساء] لأن عزْمهم فى هذه المسألة .

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[1] ﴿٢٠﴾ ﴾

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه ؛ فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق ؟ ألهم آلهة غيرى وأنا خالق السماء والأرض ، وهى لى بمَنْ فيها من الإنس والجن والملائكة ؟ فالجميع عَبْد لى يُسبِّح بحمدى ، فما الذى أعجبهم فى غيرى فأعرضوا عنى ، وانصرفوا إليه ؟ أهو أحسن منى ، أو أقرب إليهم منى ؟

كأن الحق - تبارك وتعالى - يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذى له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادى والنِّعَم .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم ، وشىء من هذا كله لم يحدث ؛ لأنه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشىء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

فمع انصرافكم عن الإله الحق الذى له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شىء من خَلْق الله .

ومعنى ﴿إِلاَّ اللَّهُ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو المجىء ، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] يعنى : لو كان هناك آلهة ، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض .

إذن : ما الحال لو قلنا : لو كان هناك آلهة والله معهم ؟ معنى ذلك أنها لا تفسد ، فإلا إنْ حققت وجود الله ، فلم تمنع الشَّركة مع الله ، وليس هذا مقصود الآية ، فالآية تقرر أنه لا إله غيره .

إذن : (إلا) هنا ليست أداة استثناء ، إنما هى اسم بمعنى (غير) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ .. (٣٦)﴾ [هود]

فالمعنى : لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لفسدتا ، فامتنع أن يكون هناك شريك .

وهناك آية أخرى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا القسمة العقلية فى القرآن : فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا

يقولون إذا .. (٤٢)﴾ [الإسراء] أى : لو حدث هذا ﴿لأبتغوا إلى ذى العرش سبيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

السبيل : الطريق ، أى طلبوا طريقاً إلى ذى العرش أى : إلى الله ، لماذا ؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة فى ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقى هو الذى خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لسلبها هذه القدرة ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قلنا ينار كونى بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩)﴾ [الأنبياء]

وقوله : ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض .. (٩١)﴾ [المؤمنون] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهى تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهى - إذن - اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذى ظهر على لفظ الجلالة (اللهُ) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ؟

قالوا : لأنك فى هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستوية فى صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا ؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شيء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لي . ويقول الآخر : هذه لي ، فقد علا بعضهم على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلي هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيرُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

إن هؤلاء الذين تدعونهم مع الله يطلبون إليه الوسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أي : تنزيها لله عَمّا قال هؤلاء ﴿عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء] أي : يُلحدون ويكذبون ويفترون .

والعرش : هو السرير الذي يجلس عليه الملك ، وهو علامة المُلْك والسيطرة ، كما في قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] فحين يقول سبحانه ﴿رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] ينصرف

إلى عرشه تعالى ، الذى لا يعلو عليه ، ولا ينازعه عَرْش آخر .

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل ؛ لأن السائلَ له مراتب مع المسئول ، والعادة أن يكون المسئول في مرتبة أدْنى من السائل ؛ لذلك لا أحدَ يسأل الله تعالى عَمَّا يفعل . أمَّا هو سبحانه فيسأل الناس .

لذلك قال بعض الظرفاء : الدليل على أن الله لا شريك له ، خَلْقه لفلان ، لأنه لو كان له شريك كان عارضه في هذه المسألة .

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صِدْقها ، كما أن الله تعالى - وهو الإله الحق - أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن ؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهى آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ

يُجابهوا الحقائق ويدافعوا عن أنفسهم ؟ إذن : هم ضعفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذى أوجدتُ ؟ هل أرسل رسولاً بآية ؟

إذن : هذا كلام كذب وافتراء واختلاق من عند أنفسكم ؛ لأنكم لستم أهلَ علم فى شىء ، ولا يعنى هذا عدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعرضون عن سماعه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

كأن للحق سمات يعلم بها ، فَمَنْ أقبل على معرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعرض عن المعرفة ، فمن أين له أنْ يعرفَ ؟ إذن : فالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذن : فقضية التوحيد واضحة منذ بداية الرسالات إلى خاتمها ، الكل جاء بقول لا إله إلا الله قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء .

وقوله تعالى : ﴿ مِن رَّسُولٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء] (مِنْ) هنا للشمول والتعميم ، يعنى : كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شخص : ما عندى مال ، لا يمنع هذا القول أن يكون عنده قليل

من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لها مال ، فإنْ قال لك : ما عندي من مال فقد نفى وجود جنس المال من بداية ما يقال له مال ، ما عندي حتى مليم واحد .

إذن : ما جئتم به من مسألة الشرك بالله أو إنكاره عز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ[1] بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم :

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ومع أنهم عباد مكرمون إنما لا يسبقونه بالقول ، فلا يقولون ما لم يقُله ولا يتقدمون عليه بقول حتى إنْ وافق مراد الله ، ولا يفعلون ما لم يأمر به ، وكان الحق سبحانه يعطينا إشارة لبعض آفات المجتمع ، فمن آفات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُله ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدِّمون أوامرهم على أوامره .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا ، وإنْ نَهَى تركوا .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٤٥٧/٦) : « نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً في شفاعتهم لهم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فَمَع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

أى : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبَّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مُدلَّلون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ[1] إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) قال الضحاك : لم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر . وقال قتادة : إنما كانت هذه خاصة لإبليس . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٢٥] .

أى : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [الأنبياء] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم فى أعلى مراتبه وعُنفوانه وطغيانه ، ظلم فى مسألة القمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

لذلك يُهدِّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفى هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

● ● ●

بعد ذلك أراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التى أكَّدها فى كلامه السابق . والوحدانية فى طَيِّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصْفان لله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد]

فالواحد أى : الفرد الذى لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد فى ذاته أحد أى : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون فى ذاته مكوَّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كُوِّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً فى وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له فى وجوده ليكُون كله ، إذن : فلا هو كليٌّ ، ولا هو جزئى .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التى لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرئية واضحة ونافعة فى الوقت نفسه ، فقد يكون المرئى واضحاً لكن لا حاجةَ لك فيه - فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر .. إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضى الالتفات إليها ، والتفعية فيها تقتضى أيضاً الالتفات إليها ، حتى وهى غائبة عنك ، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا[1] فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أعميتْ أبصارهم ، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام ، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى .

لكن كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] والحديث هنا عن السماء والأرض ، وقد قال تعالى ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد ، ولم يخبرهم أحد بها ، فكيف يرونها ؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية فى القرآن ، وأن لهما

---

(١) رتقا : أى مرتوقتين أى متصلتين فى كتلة واحدة ، وبهذا يقول علم الفلك الحديث . [القاموس القويم ١/٢٥٤] وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٦/٤٤٥٩] آثاراً للسلف فى هذا ، منها : « قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء » .

استعمالات مختلفة : فتارة تأتى بمعنى : نظر أى : بصرية ، وتأتى بمعنى : علم ، ففى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل]

والنبى ﷺ لم يرَ هذه الحادثة ولم يشهدها ؛ لأنه وُلد فى نفس عامها ، فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدَلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هى آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أيْن ؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ : أنت صحيح لم ترها بعينيك ، لكن ربك أخبرك بها ، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشيء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل . أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ⑧٣﴾ [مريم]

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض ؟

قالوا : لأن الإنسانَ حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب ؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشيء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له ؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَنِ الذى نبَّأ رسول الله بهذه المسألة ؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله

بمعجزة تُثبِت صدقه في البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ [النساء]

وقد نزل القرآن وفي جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبيّ سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبي ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام في خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفي التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول : إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض .

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون « إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » . أورده ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقًا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] قالوا : السموات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثنَّى .

وفي القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة ؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربي المبنيّ على الفطْنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات]

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا ؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوي جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه الجمع ﴿واقْتَتَلُوا.. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] فإذا ما جئنا للصُّلْح نرى أن الصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين ؛ لذلك يعود السياق للتثنية .

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ..﴿٩﴾﴾ [الحجرات]

والرَّتْق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] أي : فصلْناهما وأزحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكر في التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها في هَيْبة ، فحصل لها كذا

وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة ؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلُّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذي لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمَّا الأمور الكونية التي تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمِّلة أنْ تُكملَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة في إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً ﷺ صادق في بلاغه عن الله .

الموقف الثاني : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْدُ ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد ؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظرى أى : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا - إذن - ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك ؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك ؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطىء البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقى المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلاَمَ يدلُّ ذلك ؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجي ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية

إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هي التي تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومبانٍ وغيره ؟ ولك أن تأخذ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء ، لماذا ؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التي تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ في دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُدّ من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هي التي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة في طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتَّبة حسب قُرْبها من الشمس في المركز : عطارد ، فالزهرة ، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشترى ، فزُحل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار - منهم الشيخ المراغي - بالقول بأنها السموات السبع ، وكتبوا في ذلك بحوثاً ، وفي القرآن الذي سبق إلى هذا ، ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكوكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع[1] .

إذن : ربْط النظرية التي لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر - كما يقول بعض علماء الفضاء - لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة في المجرة التي نسميها

---

(١) لم يتم اكتشاف كوكب (بلوتو) إلا في عام ١٩٣٠ م . [موسوعة المعرفة - ص ٣٧] .

(سكة التبّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبنى)[1] .

وهذه الكواكب التى نراها كبيرة وعظيمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التى نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة[2] ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس فى جوفه . والمسافة بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب فى ستين ثانية ، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل يعنى : ثلاثمائة ألف كيلومتر[3] .

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْرى الذى امتنّ الله به فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها فى السماء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التى تحدثوا عنها ؟!

لذلك حاول كثيرون من عُشّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبّة فى حقّهم وزلّة فى طريقهم العلمى .

كذلك من النظريات التى قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم : إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوّنت نتيجة دوران الشمس وهى كتلة ملتهبة ، فانفصل عنها بعض (طراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التى بردتْ بمرور الوقت ، ومنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ

---

(١) أول من وصف حزمة الضوء العريضة التى تعرف باسم الطريق اللبنى هو ديموكريتس والذى ذهب إلى أن الطريق اللبنى إنما يتكون من عدد وفير من النجوم بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بينها ، ولقد أثبتت المناظير الفلكية الحديثة صحة ما ذهب إليه . [موسوعة المعرفة ص ٥] .

(٢) جاء فى « موسوعة المعرفة » (ص ٢٢) : « لو كانت الشمس كرة مفرغة لأمكنها أن تستوعب ١,٣٠٠,٠٠٠ كرة ، كل واحدة منها فى مثل حجم الأرض ، من قبل أن تمتلئ » .

(٣) أى : أن الشمس تبعد عن الأرض بحوالى ٩٤ مليون ميل ، ويصلنا ضوؤها الذى ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية فى أكثر من ثمانى دقائق بقليل . [موسوعة المعرفة ص ٣٦] .

الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان ، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف)[1] مثلاً .

والقياس العقلي يقتضي أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعي أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهي بالاستطراق الحراري ، إذن : فهذه نظرية غير سليمة ، وقولكم بها يقتضي أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْق السموات والأرض ما لخبر الله به ، وقد قال تعالى : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥١)﴾ [الكهف]

ثم يقول في آية جامعة ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

والمضلّ هو الذي يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلَّلة في هذه المسألة تقول : حدث في الخلق كيت وكيت .

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق - عز وجل - وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشيء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلقَتْ ؟ وكيف كانت ؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .

فالرجل الأميّ الذي لا يعلم شيئاً يشتري مثلاً « التليفزيون » ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت .. الخ . فخُذْ ما في الكون من

(١) يقع بركان « فيزوف » على بعد ١١ كم من مدينة نابولي بإيطاليا ، وهو عبارة عن بركان داخل بركان ، لأنه يقع في فوهة حوض البركان الخامد المسمى مونت زوما . [موسوعة المعرفة - صفحة ١٢-١] .

جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض في أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهيّ اتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِي هذا الطعام ؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأي الذي قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوَّنت السماء والأرض .

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) ﴾ [عبس]

وفي موضع آخر قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

فالمراد - إذن - أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر[1] ، فشقّ الله السماء بالمطر ، وشقّ الأرض بالنبات الذي يصدعها : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) ﴾ [الطارق]

وقال عن السماء : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. (٢٥) ﴾ [الفرقان]

---

(١) قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوي : إن السماوات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات [تفسير القرطبي ٦/ ٤٤٦٠]

على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلك ، فيكون السحاب من السماء .

نفهم من هذا الرأى أن الفتق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حدة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطى حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام ، وقد تأتى بشىء آخر ، المهم أن القولين لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] قال أصحاب التأويل الثانى : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق فى كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شىء حيًا ، إنما ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] وقد استدلوا بها على أن الحىَّ المراد به الحياة الإنسانية التى نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ فى تكوين كل شىء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء مذكور موجود .

والتحقيق العلمى أن لكل شىء حياةً تناسبه ، وكل شىء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أى ، حياة أخرى لها قيمة ؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هى حياة الآخرة .

وسُمِّي الشيء الذي يتصل بالمادة ، فتدبّ فيها الحياة روحاً ، فقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمِّي الملَك الذي ينزل به روحاً ؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يَنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فوَصْف كل ما يقال له شيء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾[الأنفال] فالحياة ضدها الهلاك .

إذن : فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفي تكوينه مائية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ فكان يجب عليهم أنْ يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج في كلية كذا ... الخ .

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف ـ إذن ـ عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا[1] سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

الرواسي : الجبال جمع راسٍ يعني : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] شبّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر علّة ذلك : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما احتاجت لأنْ يُثبّتها بالجبال ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وإنْ كنا لا نراها ؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها ؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : من حكمة الله أنْ جعل لنا في الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم

(١) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . [القاموس القويم ٢/٧٢] . والفجاج : المسالك ، والفج : الطريق الواسع بين الجبلين . [تفسير القرطبي ٦/٤٤٦٢] .

فيها ، فقال ﴿فِجَاجًا سُبُلًا .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] أي : طرقاً واسعة في الوديان والأماكن السهلة . وفي موضع آخر قال : ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح]

ومعنى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] يصح في الجبال أو في الأرض ، ففي كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهي في الجبال على شكل شِعاب ووديان .

ثم يذكر سبحانه علَّة ذلك ، فيقول : ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] والهداية هنا تحتمل معنيين : يهتدون لخالقها ومكوِّنها ، ويستدلون بها على الصانع المبدع سبحانه ، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتجاهات ، وقديماً كانوا يتخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات ، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال ، فيقولون : المكان الفلاني قريب من جبل كذا ، وعلى يمين جبل كذا ، وقد قال شاعرهم :

خُذَا بَطْنَ مِرْشَى[1] أو قَفَاهَا فَإِنَّهُ   كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[2]

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك ، كما في قوله تعالى : ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل] أي : يهتدون إلى الطرق والاتجاهات ، وكان العربي يقول مثلاً : اجعل الثُّريا عن يمينك أو النجم القطبي ، أو سهيل أو غيرها ، فكانوا على علم بمواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها .

(١) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة من الجُحْفة يُرَى منها البحر ، ولها طريقان ، فكلُّ من سلكهما كان مصيباً . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

(٢) أورد ابن منظور هذا البيت في لسان العرب ، ولم يعزه لأحد . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

أو : يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحيّ ، وقديماً كانوا يقولون : فلان هَوَى نَجْمه ، كأن لكل واحد منا نجماً في السماء له علاقة ما به ، وهذه يعرفها بعض المختصين ، وربما اهتدوا من خلالها إلى شيء ، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله .

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] أي : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً في الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾

سمَّى السماء سقفاً ؛ لأن السماء كل ما علاك فأظلك ، وفرقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم .. الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطي الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مُستْوٍ لا نتوءَ فيه ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام . فالخَلْق جميعاً خُلقوا بكُنْ من أب وأم ، أمَا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)﴾ [ص] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال في خَلْق السماء : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[1] .. (٤٧)﴾ [الذاريات]

(١) بأييد : أي بقوة وقدرة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٣٧) .

وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات] يعني : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التي لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ؛ لذلك ترى السماء ملساء ؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا ۝٢٨﴾ [النازعات]

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنيَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتي عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد في الجدار تعاريج ، ثم يأتي عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له في الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله في إعداد بيته كما يحب تأتي بعد عدة أيام ، فترى الحق - سبحانه وتعالى - يُعدِّل على الجميع ، ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما في الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحَذَقه في عمله ، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذي يبني ويُسوِّي ويُزيِّن ؟

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[2] مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. ۝٣﴾ [الملك]

وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن ، يُسوِّي سقفاً لعدة حجرات ،

---

(١) أي : جعل سقفها مرفوعاً عالياً ، أو جعل المسافة بينها وبين الأرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٢٩] .

(٢) أي : طبقة فوق طبقة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] . قال ابن كثير في تفسيره (٤/٣٩٦) : « أي : طبقة بعد طبقة ، وهل هُنَّ متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان . أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء » .

ويستخدم مادة واحدة ويلوِّنها بلون واحد ، لابدَّ أن تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتي اللون مختلفاً ، لماذا ؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل في نفس اليوم تجد ما تبقَّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً في درجة اللون .

ومعنى ﴿مَّحْفُوظًا .. (٣٢)﴾ [الأنبياء] أي : في بنية تكوينه ؛ لأنه مُحْكَم لا اختلافَ فيه ، ولا يحفظ إلا الشيء النفيس ، تحافظ عليه لنفاسته وأصالته . لكن من أيّ شيء يحفظه الله ؟ يحفظها أن تمور ، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج]

وقال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. (٢٥)﴾ [الروم]

إذن : في خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، ولا يقدر عليها إلا الله . فالصيانة من عندنا نحن ، ولن نترك لكم صيانتها ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

ومن المسائل التي بيَّنها لنا الحق - سبحانه وتعالى - في أمر السماء مسألة استراق السمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع[1] ، لكن بعد رسالة محمد ﷺ شاء الحق سبحانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحي إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه :

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن] قال ابن عباس : كان الشياطين لهم مقاعد في السماء يستمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً ، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنِعُوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس . ما هذا الأمر إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وأبو نعيم في دلائل النبوة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٨/٣٠٢]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء] كأن السماء آيات خاصة بها ، ففي الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أن من كواكب السماء ما لم يصلنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر في الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا في ضوء قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات]

لذلك يعطينا رسول الله ﷺ صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نُرهق أنفسنا بالتفكير فيها : « ما السموات والأرض وما بينهما بالنسبة لملك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة »[(١)] .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حُبِّهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

والمراد هنا : سلطان العلم الذي مكَّنهم من الصعود .

لكن ما داموا نفذوا بسلطان العلم ، فلماذا قال بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[(٢)] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] إذن :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٤ ـ موارد الظمآن) من حديث طويل لأبي ذر الغفاري وفيه « يا أبا ذر ، ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » .

(٢) الشواظ : بضم الشين وكسرها ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ٣٦١/١] .

السلطان المراد ليس هو سلطان العلم كما يظنون ، إنما المراد سلطانٌ مِنِّى ، بإذنى وإرادتىَ .

ولو كان الأمر كما يقولون لقالوا لرسول الله ﷺ لما أخبرهم بالمعراج : كيف تقول ذلك يا محمد وربك هو القائل : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[1] السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : المراد هنا سلطان من الله تعالى هو سبحانه الذى يأذن بهذه المسألة ، فتُفتَح له أبواب السماء .

ثم ما علاقة القمر بالسماء ؟ والكلام عن النفاذ من أقطار السموات ، وأين القمر من السماء ؟ إن المسافة بين الأرض والقمر ستتان ضوئيتان ، فالقمر ـ إذن ـ ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، كالمعادى مثلاً بالنسبة للقاهرة ، فأىُّ سماء هذه التى يتحدثون عنها ؟!

وقوله تعالى : ﴿ مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الانبياء] سبق أن تحدّثنا عن الإعراض ، وهو الانصراف عن الشىء مِنْ أعرض يعنى: أعطاه ظهره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يمتنّ ببعض خَلْقه ، ولا يمتن الله إلا

(١) الأقطار : جمع قُطر ، وهو الناحية والجانب ، فأقطار السموات والأرض : نواحيهما . [لسان العرب ـ مادة : قطر] .

بشيء عظيم ونعمة من نعمه على عباده ، ومن ذلك الليل والنهار ، وقد أقسم سبحانه بهما في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ ﴾ [الليل]

وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ ﴾ [الضحى] فالليل والنهار آيتان متكاملتان ، ليستا متضادتين ، فالأرض خلقها الله ليعمرها خليفته فيها : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ۞ ﴾ [هود]

أي : طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة ، فالعقل المدبر ، والجوارح الفاعلة ، والقوة ، والمادة كلها مخلوقة لله تعالى ، وما عليك إلا أنْ تستخدم نِعَم الله هذه في عمارة أرضه ، فإذا ما تَمَّتْ الحركة في النهار احتاج الجسم بعدها إلى الراحة في الليل .

لذلك كان النوم آية عُظْمى من آيات الله للإنسان تدلّ على أن الخالق ـ عز وجل ـ أمين على النفس أكثر من صاحب النفس .

لذلك نرى البعض منّا يُرهق نفسه في العمل ، ولا يعطي لجسده راحته الطبيعية ، إلى أنْ يصيرَ غير قادر على العمل والعطاء ، وهنا يأتي النوم كأنه رادع ذاتيٌّ فيك يُجبرك على الراحة ، ويدقُّ لك ناقوس الخطر : أنت لستَ صالحاً الآن للعمل ، ارحم نفسك وأعطها حقَّها من الراحة . فإنْ حاولتَ أنت أنْ تنام قبل وقت النوم يتأبّى عليك ولا يطاوعك ، أما هو فإنْ جاء أخذك من أعتى المؤثرات . وغلبك على كل شيء فتنام حتى على الحصى .

وفي المثل العربي : (فراش المتعَب وطيء ، وطعام الجائع هنِيء) أي : حين ينام الإنسان المتعَب المجهد ينام ، ولو على

الحصى ، ولو دون أىِّ وسائل للراحة ، ومع ذلك ينام نَوْمة مريحة .

وفى المثل أيضاً : (النوم ضيف ، إنْ طلبتَه أعْنتَكَ ، وإنْ طلبك أراحك) والحق سبحانه يُحدِّثنا عن آية النوم فى موضع آخر : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم]

وهنا احتياط وملْحظ ، فإنْ كان النوم بالليل للسكن وللراحة ، فهناك مَنْ يعملون بالليل ، فينامون بالنهار كالحرّاس ورجال الشرطة والخبازين وغيرهم ، وهؤلاء لا مانعَ أن يناموا بالنهار ليسايروا حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٣)﴾ [الأنبياء] نعم هناك آيات أخرى كثيرة فى كَوْن الله ، لكن أوضحها وأشهرها : الشمس والقمر فهما تحت المشاهدة ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء] فالليل والنهار والشمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْف الآخر ويخلفه ، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢)﴾[الفرقان]

وكلمة ﴿يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء] تعبير قرآنى دقيق للأداء الحركى ، وهى مأخوذة من سبحة السمك فى الماء حيث يسبح السمك فى ليونة الماء بحركة انسيابية سهلة ؛ لأن الحركة لقطع المسافات إما حركة انسيابية ، وإما حركة قفزية .

وتلاحظ هاتين الحركتين فى عقارب الساعة ، فلو لاحظتَ عقرب الثوانى مثلاً لوجدتَه يتحرك حركة قفزية ، يعنى : ينطلق من الثبات إلى الحركة إلى الثبات ، فالزمن فيه جزء للحركة وجزء للسكون . أما عقرب الدقائق فيسير بحركة انسيابية مستمرة ، كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة ، وهكذا تكون سُبْحة السمك ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)﴾ [النازعات]

وكذلك تكون حركة الظل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] وأيضاً حركة نمو الطفل ، فلو أدمْتَ النظر إلى طفلك الصغير لا تكاد تلاحظ عليه مظاهر النمو ، وكأنه لا يكبر أمام عينيك ، أمّا لو غِبْتَ عنه مثلاً عدة شهور يمكن أن تلاحظ نُموه ! ذلك لأن النمو حركة مُوزّعة على كل ثانية في الزمن ، لا أن النمو يتجمع ثم يظهر فجأة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ (٣٤) ﴾

ذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر عليه من مكان عالٍ[1] وهكذا يتخلّصون منه ﷺ ، وكانوا يتمنون ذلك ، فيخاطبه ربه : يا محمد لست بدعاً من الرسل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر]

وهذه سُنّة الله في خَلْقه ، بل موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحمّلته من مشاقّ الدعوة ، وعناء الحياة الدنيا .

لذلك لما خُيِّر رسول الله ﷺ في الموت قال : « بل الرفيق الأعلى »[2] أما نحن فنتشبث بالحياة ، ونطلب امتدادها .

---

(١) أتى رسول الله ﷺ يهود بني النضير ليعيناه في دية قتيلين قُتِلا ، فقالوا : نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ، فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه صخرة ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم . [السيرة النبوية - لابن هشام ٣/١٩٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره قالت : فلما حُضِر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

فقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ .. (٣٤) ﴾ [الأنبياء] فأنت كغيرك من البشر قبلك ، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾ [الأنبياء] فلا يفرحوا بموتك ؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾

إذن : فالموت قضية كونية عامة ، وهي في حقيقتها خَيْر ، فإنْ كانوا أخياراً تُعجَّل لهم جزاءهم عند الله ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ الله منهم البلاد والعباد .

لكن ، كيف يُذَاق الموت ؟ الذَّوْق هنا يعني إحساسَ الإنسان بالألم من الموت ، فإنْ مات فعلاً يستحيل أنْ يذوق ، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت ، والشاعر يقول :

وَالأَسَى بَعْدَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ   وَالأَسَى لاَ يكُونُ قَبْلَ الفِرَاقِ

فعلى أيِّ شيء يحزن الإنسان بعد أن يموت ؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت ؟

فالمراد - إذن - ذائقةُ مقدمات الموت ، التي يعرف بها أنه ميت ، فالإنسان مهما كان صحيحاً لابُدَّ أنْ يأتي عليه وقت يدرك أنه لا محالةَ ميت ، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) ﴾ [القيامة] فالموت في هذه الحالة أمر مقطوع به .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أي : نختبركم ، والابتلاء لا يُذَمُّ في ذاته ، إنما تذم غاية الابتلاء :

أينجح فيه أم يفشل ؟ كما نختبر الطلاب ، فهل الاختبار في آخر العام شَرٌّ ؟ لكن هل الحق سبحانه في حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم ؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم ، ولكن ليقيم عليهم الحجة .

والمخاطب في ﴿ نَبْلُوكُم .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الجميع : الغني والفقير ، والصحيح والسقيم ، والحاكم والمحكوم .. الخ .

إذن : كلنا فتنة ، بعضنا لبعض : فالغنيّ فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغني ، كيف ؟ الفقير : هل يصبر على فقره ويرضى به ؟ هل سيحقد على الغني ويحسده ، أم يقول : بسم الله ما شاء الله ، اللهم بارك له ، وأعطني من خَيْرك ؟ والغني : هل يسير في ماله سَيْراً حسناً ، فيؤدي حقَّه ، وينفق منه على المحتاجين ؟

وهكذا ، يمكنك أنْ تُجري مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار ، ينتهي إما بالنجاح وإما بالفشل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] لنجازي كُلاً على عمله ، فإنْ حالفك التوفيق فلكَ الأجر والمكافأة ، وإنْ أخفقتَ فلكَ العقوبة ، فلا بُدَّ أن تنتهي المسألة بالرجوع إلى الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : « مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف . فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي ، فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك . وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] . الآية » أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٣٠) .

هذا خطاب لرسول الله ﷺ عن واقع حدثَ له مع الكفار : ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] و (إنْ) هنا ليست شرطية ، إنما للنفي كما في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ.. (٢)﴾ [المجادلة] أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنهم .

فالمعنى : إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا هُزُواً ، أى : يهزأون بك ، لكن ما وَجْه الهُزْو هنا ؟

قولهم : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] أى : يعيبها ويسبُّها ، ويقول عنها : إنها باطلة ومعنى ﴿أَهَـٰذَا .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] كأنهم يستقلّونه ، ويستقلّون أنْ يقول هذا عن آلهتهم .

والذكر قد يكون بالخير ، وقد يكون بالشر ، فإنْ ذكرك صديق تتوقع أنْ يذكرك بخير ، وإنْ ذكرك عدو تتوقع أنْ يذكرك بشرٍّ ، وطالما أن محمداً سيذكر آلهتهم ، فلا بُدَّ أنه سيذكرها بشرٍّ ، والشر الذى ذكره محمد عن آلهتكم أنها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع :

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ .. (١٤)﴾ [فاطر]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء] فكيف تتعجبون وتغضبون أنْ يسبَّ محمد آلهتكم الباطلة ، وأنتم تسبُّون الإله الحق ، وتكفرون به ، ونلحظ أن السياق ذكر الضمير العائد عليهم مرتين : ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء] ليؤكد أن ذلك حدث منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ[1] سَأُوْرِيكُمۡ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ ﴾

معنى : ﴿ مِنۡ عَجَلٖ .. ٣٧ ﴾ [الأنبياء] أى : مُتعجِّلاً كأن فى طينته عجلة ، والعجلة أن تريد الشيء قبل نُضْجه وقبل أوانه ، وقد يتعجَّل الإنسان الخير ، وهذا أمر جائز ، أما أنْ يتعجَّل الشر فهذا هو الحمق بعينه والغباء ، ألم يقولوا لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ ﴾ [الأنبياء]

ألم يقولوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ ﴾ [الأنفال]

إذن : تعجُّل هؤلاء العذاب ؛ لأنهم غير مؤمنين به ، لا يُصدِّقون أن شيئاً من هذا سيحدث ؛ لذلك يردُّ عليهم : ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ ﴾ [الأنبياء] وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧ ﴾ [غافر]

أى : سنُريك فيهم آياتنا ، وسترى ما وعدناهم من العذاب ، فإنْ قبضناك إلينا فسترى ما ينزل بهم فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ ﴾

---

(١) أى : طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٥] .

وهذا استبطاء منهم لوَعْد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيُعذِّبهم بالنار التي تُنضج جلودهم ، ويُبدِّلهم الله جلوداً غيرها .. الخ ؛ لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به ، وسبق أنْ قالوا لرسول الله : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)﴾ [الإسراء]

ثم يقول تعالى :

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩)﴾

أي : لو يعلمون ما يحدث لهم في هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النار عن وجوههم ، وذكر الوجه بالذات لأنه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها ؛ لذلك إذا أصابك أذىً في وجهك تحرص على إزالته بيدك ، وأنت لم تفعل أكثر من أنك نقلْتَ الأذى من وجهك إلى يدك ، لماذا ؟ لأن الوجه عزيز عليك ، لا تقبل إهانته ، ولا تتحمَّل عليه أيَّ سوء.

فقوله تعالى : ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ .. (٣٩)﴾ [الأنبياء] دلالة على إهانتهم ﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ .. (٣٩)﴾ [الأنبياء] لأنها تأتيهم من كل مكان : ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩)﴾ [الأنبياء] أي : لا يجدون مَنْ ينقذهم ، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم .

حتى الشيطان الذي أغواهم وأغراهم في الدنيا سيتبرأ منهم يوم القيامة ، ويقول : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] وأصرخه : أزال سبب صراخه ، والهمزة في أصرخه تسمى

همزة إزالة ، تقول : صرخ فلان إذا وقع عليه ما هو فوق طاقته واحتماله ، فيصرخ صرخةً يستدعي بها مَنْ يغيثه ويُعينه ، فإنْ أجابه وأزال ما هو فيه فقد أصرخه ، يعني : أزال سبب صراخه . فالمعنى : لا أدافع عنكم ، ولا تدافعون عني ، ولا أنقذكم من العذاب ، ولا تنقذونني .

وفي موضع آخر : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] فحظُّ الشيطان أنْ يُوقعك في المعصية ، ثم يتبرأ منك .

فما جواب (لو) هنا ؟ المعنى : لو يعلم الذين كفروا الوقت الذي لا يكفُّون فيه النار عن وجوههم ، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفّوا عما يُؤدِّي بهم إلى ذلك ، وانتهَوْا عن أسبابه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾

أي : القيامة ، والبغتة : نزول الحدث قبل توقعه لذلك ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأنبياء] من البهت : أي : الدهشة والحيرة ، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيرون ماذا يفعلون ؟ وأين يفرون ؟

والبغتة تمنع الاستعداد والتأهُّب ، وتمنع المحافظة على النفس . ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار التي تُنبِّه الناس إلى حدوث غارة مثلاً ، فيأخذ الناس استعدادهم ، ويلجئون إلى المخابيء ، أمّا إن داهمهم العدو فجأة فلن يتمكنوا من

ذلك ، ولن يجدوا فرصة للنجاة من الخطر .

ومن البَهْت قوله تعالى فى قصة الذى حاجَّ إبراهيم عليه السلام فى ربه : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾ [الأنبياء] أى : لا يُمهلُون ولا يُؤخَّرون ، فليست المسألة تهديداً وننصرف عنهم إلى وقت آخر ، إنما هى الأخْذة الكُبْرى التى لا تُرَدُّ عنهم ولا تُؤخَّر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾

سبق أنْ خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ..(٣٦)﴾ [الأنبياء] لذلك يُسلِّيه هنا : لست بدعاً من الرسل ، فَخُذْ هذه المسألة بصدر رَحْب ، فلقد استهزيء بالرسل من قبلك فلا تحزن ، فسوف يحيق بهم ما صنعوا ، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء .

كما جاء فى قصة نوح عليه السلام : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨)﴾ [هود] فيردُّ نوح : ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] أى : انتظروا النهاية ، وسوف ترون !!

ومعنى ﴿فَحَاقَ.. (٤١)﴾ [الأنبياء] أى : حلَّ ونزل بقسوة ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾ [الأنبياء]

وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] أي : مسرورين فرحين ، وهذا دليل على لُؤْمهم ورذالة طباعهم ، فلم يكتفوا بالاستهزاء ، وإنما يحكونه ويتبجحون به .

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

هل استطعنا أنْ نُجازيهم بما عملوا ؟ نعم يا ربّ .

ولا تنسى أن استهزاء الكفار بأهل الحق استهزاء موقوت بوقته في الدنيا ، أمّا استهزاء الله بهم فاستهزاء أبديّ لا نهايةَ له . ويجب هنا أن نتنبه لهذه المسألة ، فكثيراً ما يتعرض أهل الإيمان للاستهزاء وللسخرية من أهل الباطل ، وهؤلاء الذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب ، كما جاء في الحديث القدسي : « فلولا أطفال رُضّع ، وشيوخ رُكّع ، وبهائم رُتّع[1] لصببتُ عليكم العذاب صبا »[2] .

فحين ترى تقياً ، فإذا لم تشكره على تقواه وتقتدي به فلا أقلَّ من أنْ تدعَه لحاله ، لا تهزأ به ، ولا تسخر منه ؛ لأن في وجوده

---

(١) الرَّتْع : الرعي في الخصب ، ورتعتْ الماشية : أكلت ما شاءت ، وجاءت وذهبت في المرعى نهاراً . [لسان العرب - مادة : رتع] .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٢٧) من حديث أبي هريرة وعزاه للبزار والطبراني في الأوسط إلا أنه قال : « لولا شباب خشع ، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ، لصب عليكم العذاب صبا » وفيه : إبراهيم بن خيثم وهو ضعيف .

استبقاءً لحياتك وأمْنكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيِّم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلنْ يعتدى عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسوؤك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُجرى مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذى ﴿ يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كلاءة صادرة من الله الرحمن .

كما فى قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذى أراده الله فيه ؛ لأن الحفْظَ صادر من الله ، والحفَظَة مكلّفون من قبله تعالى بحفظكم ، ولَيس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك فى النهار وفى الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك ، ويدفعون عنك الأذى .

وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً فى فراشه ، ولم يُصبْه بسوء ، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف ، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له ، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن : لا أحدَ يرقبك ويحفظك فى نومك ممَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .

وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحفْظ من المعاطب ، فمن كلاءته سبحانه أن يمدَّكم بمقوّمات الحياة ، فالشمس بضوئها ، والقمر

بنوره ، والأرض بنباتها ، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به ، وتسخرون من رسله وأهل طاعته ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢)﴾ [الأنبياء] وما كان يصح أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾

ألهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله ؟ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم ، وكيف ينصرون أنفسهم ، وهي أصنام من حجارة نحتها عُبّادها على أشكال اختاروها ؟ كيف ينصرون أنفسهم ، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه ويقيمه ؟

وقوله تعالى : ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾ [الأنبياء] كانوا قديماً في البادية ، إذا فعل أحدهم ذنباً ، أو فعل فَعْلة في إحدى القبائل ، واحتاج إلى المرور عليهم في طريقه يذهب إلى واحد قويٍّ يصاحبه في مشواره ، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤)﴾ [الشعراء]

فالمراد : يصحبه كي يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون في صُحْبتهم لننجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، فلا هذه ولا تلك .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى : أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلَّبون فى نعَم الله ، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك ، فخذوا منهم عبرة : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا[1] الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴿٩﴾﴾ [الروم]

ومع ذلك أخذوا أخْذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا[2] آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء]

وفي موضع آخر : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

---

(١) أثار الأرض : حرثها وشقها وقلبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط المياه . [القاموس القويم ٢/ ١١٣] .

(٢) القرن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن من الناس : أهل زمان واحد . قال الأزهرى : الذى يقع عندى والله أعلم أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبى أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّت السنون أو كثرت » . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

وهذه آية من الآيات التي وقف عندها بعض علمائنا من المعنيين بعلميات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية الشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعني : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الاكتشاف في قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] يعني : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤٤)﴾ [الأنبياء] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن في القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل ﴿أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] رأى هنا علمية أم بصرية ؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا في القرن العشرين ، ولم يتنبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهي ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمة علم ، ولا أمة ثقافة ، ولا شيء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب ؟

نقول : إنْ كانت رأى بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرة في الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه ؛ لأنه جاء ليقضي على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التي تُهدم وتُخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص

الناس ، وتنقص مظاهر العمران في جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة في أرض الإيمان[1] . وهذه الظاهرة حدثت في جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ، والآية مكية ؟ نقول : كَوْن الآية مكية لا يقدح في المعنى هنا ، فليس من الضروري أن يَرَوْا ذلك في أنفسهم ، ويكفي أنْ يروها في الأمم السابقة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الفجر]

وإن اعتبرنا (رأى) علمية ، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب ممَّنْ تحالفوا معهم ، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها ، أم أن هذا لم يحدث ، وهم الغالبون ؟ أيهما الغالب : رسل الله ، أم الكافرون ؟ الإجابة أنهم غُلبوا واندحروا ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أولم يروا أنَّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٧٠) : « القول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية وهذا اختيار ابن جرير » .

أي : أن رسول الله ما أبلغكم بشيء من عند نفسه ، إنما كل ما جاء به من وعد ووعيد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيئاً كما تقولون ، وهذه تُحسب له لا عليه ، إنما ربه يوحي إليه .

فلو قال محمد : إنما أنذركم .. لكان لكم حق أنْ تتشكّكوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذي يملك أعِنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء]

وحاسّة السمع هي أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسمع أولاً ، لينطق ما سمعه ؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن ـ كما قلنا ـ تسبق العين في أداء مهمتها .

لذلك قدَّمه الحق سبحانه ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

والسمع هو الآلة التي لا تتعطّل عن مهمتها ، حتى ولو كان الإنسان نائماً ؛ لأن به يتم الاستدعاء ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ضرب على آذانهم ، وعطّل عندهم حاسة السمع حتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خارج الغار ، فقال : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

ومعنى : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء] صحيح أنهم يسمعون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سماعٌ لا فائدةَ

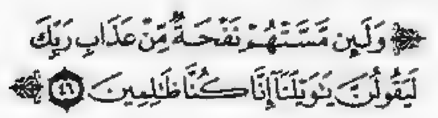
منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرتَ العامل مثلاً بشيء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش ؟ ولذلك سماهم القرآن : صُمّاً .

وقوله تعالى : ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء] أي : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادي ، إنما يتغافلون وينصرفون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء] حين يُخوِّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره ساعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعة في التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلّم شخصاً في أمر لا يعجبه ، فتجده « أذن من طين ، وأذن من عجين » ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً ، كأحدهم لما قال لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السر ؟ قال : نعم سِرُّك في بير ، قال : أعطني عشرة جنيهات ، فردَّ عليه : كأنّي لم أسمع شيئاً !!

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الآن فقط تنبهتم ووعَيْتُم ؟ الآن بعد أن مسَّكم العذاب ؟

ومعنى : ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : مساً ولمساً خفيفاً ، والنفحة : هى الريح اللينة التى تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها ، كأن تحمل لك الريحُ رائحةَ الورود مثلاً ، هى لا تحمل لك الورود نفسها ، إنما رائحتها ، وتظل الورود كما هى .

كذلك هذه المسَّة من العذاب ، إنها مجرد رائحة عذاب ، كما نقول لفح النار الذى نشعر به ، ونحن بعيدون عنها .

والنفحة : اسم مرَّة أى : تدل على حدوثها مرة واحدة ، كما تقول : جلس جلْسة أى : مرة واحدة ، وهذا أيضاً دليل على التقليل . (مَسَّتْهُمْ) تقليل و (نَفْحَة) تقليل ، وكونها مرة واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبدىّ ؟!

وقوله تعالى : ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التى طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل ؟ إذن : المسألة - كما قلنا - ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَآ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد فى النفس وفى الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقرُّون على أنفسهم ويعترفون : ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء]

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ[1] أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحى ، وصَمِّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط . فلماذا هذه النُّقْلة ؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذى قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شىء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتهم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ؛ لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس .. الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن - تقريباً - فى باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل .. الخ .

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعة من الحجارة تساوى كيلو مثلاً ، ويستعملونها فى الوزن ؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

---

(١) الخردل : نبات له حَبٌّ صغير جداً ، وإذا جفَّت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر ، وهو نبات عُشْبى تستعمل بذوره فى الطب . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] . أى : إن كان عمل الإنسان فى الخير أو الشر صغيراً قليلاً فى وزن حبة واحدة من الخردل أحضرها الله يوم الحساب وحاسبه عليها . [القاموس القويم ١/١٩٠]

وهنا تكلَّم عن الشيء الذي يُوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التي لها كثافة هي الأكثر ، وكانوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن ؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشاً مُنتفشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد في الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض ، إذن : العُمْدة في التقدير : الثقل .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ[1] الْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ [الرحمن] فهل هي موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد ؟

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره ، بل في وقت واحد ؛ لذلك لما سُئِل الإمام علي - كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب الله الخَلْق جميعاً في وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد . فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه .

والقِسْط : صفة للموازين ، وهي مصدر بمعنى عدل ، كما تقول في مدح القاضي : هذا قاضٍ عادل ، أي : موصوف بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاضٍ عَدْل ، كأنه هو نفسه عَدْل أي (معجون بالعدل) ؛ لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل ، ولا نقول : العادل .

وهذه المادة (قسط) لها دور في اللغة ، فهي من الكلمات المشتركة التي تحمل المعنى وضده ، مثل (الزوج) تُطلق على

---

(١) قال الإمام أبو يحي زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٤٠٥) : « قرن وضع الميزان برفع السماء ؛ لأنه تعالى عدَّد نعمه على عباده ، ومن أجلّها الميزان ، الذي هو العدل ، الذي به نظام العالم وقوامه » .

الرجل والمرأة ، و (العَيْن) تطلق على : العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذهب والفضة .

كذلك (القسْط) نقول : القِسْط بالكسر مثل : حِمْل بمعنى العدل من قَسَط قسْطاً . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] ونقول : القَسْط بالفتح يعني : الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] أي : الجائرون الظالمون .

والقسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعني كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل في الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد ﷺ في مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال : ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ .. (٥)﴾ [الأحزاب] جاء ليبطل التبني ؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد في الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة في شرع الله لا تستقيم في وجود هذه

المسألة ، وإلاَّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنَّى ويبلغ مَبْلغَ الرجال ؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت ، وهو فى الحقيقة غريب عن الأسرة ؟

ومسألة الموازين هذه من المسائل التى وجد فيها المستشرقون تعارضاً فى ظاهر الآيات ، فجعلوا منها مَأخَذاً على كتاب الله ، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.. (٤٧)﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(١٠٥)﴾ [الكهف] حيث أثبت الميزان فى الأولى ، ونفاه فى الثانية .

وقلنا : إن هؤلاء معذورون ؛ لأنهم لا يملكون الملكة اللغوية التى تمكِّنهم من فَهْم كلام الله . ولو تأملنا اللام فى ﴿نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] لانحلَّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفاع ، كما يقولون فى لغة البنوك : له وعليه . والقرآن يقول : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

فالمعنى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : وزناً فى صالحهم ، إنما نقيم عليهم وندينهم . كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل فى اللغة إمَّا لوزن الماديّ ، أو لوزن المعنى ، كما نقول : فلان لا وَزْنَ له فى الرجال .

وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة فى قصة ابن نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا بُنوَّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم في الآخرة ، كما كانت لهم في الدنيا ، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً :

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ في الآخرة ، فالوزن في القيامة للأعمال ، لا للأعيان .

إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم ؛ لذلك قال النبي ﷺ لقرابته : « لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأحسابكم »[1] .

وقال ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد اعملي فإنِّي لا أغني عنك من الله شيئاً »[2] .

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها في هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] مع أن القاعدة : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردَّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائي يوم القيامة هم المتقون ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، لا يأتي الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتقولون : يا محمد . فأقول هكذا ، وأعرض في عطفيه » . أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٤) .

(٢) عن حذيفة قال : جئت إلى النبي ﷺ والعباس جالس عن يمينه وفاطمة - رضي الله عنها - عن يساره . فقال : يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ اعملي لله خيراً ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً يوم القيامة » . أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شيء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمي للكيلو ، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوياً في الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

ومعنى : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلِّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصي كل شيء في الحساب ، وحبَّة الخردل تدل في صغرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فلا أحدَ يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضَبْط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزنَ الوزن المضبوط ؛ لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضة في استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً ، وهذا في صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعة على خلاف ما حولها . إذن : أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى في الموازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة

فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية . وهذا معنى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُسلِّي رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذجَ من إخوانه أولي العزم[1] من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى ـ عليه السلام ـ لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ .. (٤٨) ﴾ [الأنبياء] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه]

والفرقان : هو الفارق القوي بين شيئين ؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ،

(١) يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٧٧) : « قد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون (من) في قوله (من الرسل) لبيان الجنس والله أعلم » .

وتقول : قرأت قراءة ، وقرأت قرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسماء القرآن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ۝١ ﴾ [الفرقان]

فالفرقان ـ إذن ـ مصدر يدلُّ على المبالغة ، تقول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة فى المعنى ، وإن الفَرْق فى هذه المسألة فَرْق جليل وفَرْق واضح ؛ لأن كونك تُفرِّق بين شيئين الامر بينهما هيِّن تسمى هذا فَرْقاً ، أمَّا أن تفرق بين شيئين يترتب على ذلك خطورة فى تكوين المجتمع وخطورة فى حركة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ۝٢٩ ﴾ [الأنفال] وتقوى الله لا تكون إلا بتنفيذ أوامره وتعاليمه الواردة فى القرآن الذى نزل على محمد ، والفرقان هنا يعنى : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر ما تتقى الله باتباع الفرقان الأول يجعل لكم الفرقان الثانى ، وتتكوَّن لديكم فراسة المؤمن وبصيرته ، وتنزل عليكم الإشراقات التى تُسعف المؤمن عندما يقع فى مأزق .

ألاَ تراهم يقولون : فلان ذكى ، فلان حاضر البديهة ، أى : يستحضر الأشياء البعيدة وينتفع بها فى الوقت الحاضر ، وهذا من توفيق الله له ، ونتيجة لبصيرته وفراسته ، وكانت العرب تضرب

المثل فى الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر[1] :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ   فى حِلْمِ أحنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله فى آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثورى[2] يتناوله وينتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العام ، وأريد أنْ أراه مصلوباً فى مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثورى يقيم بها فى جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثورى ويعتزان به .

وفى يوم كان الثلاثة فى المسجد والثورى مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه فى حِجْر أحدهما ، ورِجْلَيْه فى حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثورى : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يضعف اعتقاد الناس فى المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثورى : والذى نفسى بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثورى .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام (٢٣١هـ) عن ٥١ عاماً .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مُضَر ، أبو عبد الله ، أمير المؤمنين فى الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧ هـ) ، كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى وأراده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى ، مات مستخفياً بالبصرة من المهدى عام (١٦١ هـ) [الأعلام للزركلى ٣/١٠٤] .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله ، ولا يصدر فى أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدى الخليفة العباسي أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار ، والصبى يُلقِى عليهم درساً ، فتعجب المهدى وقال : أُفٍّ لهذه السعانين يعنى الذقون ، أما كان فيهم مَنْ يتقدم ؟! ثم دنا من الصبى يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له : كم سنّك يا غلام ؟ فقال الصبى : سنى سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدى ـ معترفاً بذكائه وأحقيته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان ـ إذن ـ لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصبح علَماً على القرآن ، فهناك فَرْق بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمَّا إنْ سُمِّي به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل فى مادة (فَرَق) فى القرآن يجد أن لها دوراً فى قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ .. ۝٥٠ ﴾ [البقرة]

والفَرْق أنْ تفصل بين شيء مُتصل مع اختلاف هذا الشيء ، وفى علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى ـ عليه السلام ـ ليس فَرْقاً بل فرقاناً ،

لأن أعظم ألوان الفروق أن تفرق السائل إلى فرقين ، كل فرق كالطود[1] العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أي : نوراً يهدى الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاّ فكيف يسيرون في دروب الحياة ؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتحطم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء - إذن - هام وضروري في مسيرة الإنسان ، وبه يهتدي لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بيّنة ، فلا يَتْعب ، ولا يُتعب الآخرين .

﴿وَذِكْرًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أي : يذكّر وينبّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات تكوَّنَ الران الذي يحجب الرؤية ويُعمي البصيرة ؛ لذلك لما شبه النبي ﷺ غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفي رواية : « عوذاً عوذاً »[2] أي : يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحصير ؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير في البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أشْربها - يعني قَبِلَها - العود تلو العود - نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالي . قال تعالى : ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] .

(٢) وقال ابن الأثير : روى بالذال المعجمة ، كأنه استعاذ من الفتن . [لسان العرب - مادة : عوذ] .

على قلبين - صدق رسول الله - على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ، ما دامت السموات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً - يعنى منكوساً - لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[1] .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ ﴾ [المطففين] والذكر هو الذى يُجلِّى هذا الران .

﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ﴾ [الأنبياء] ومن صفاتهم أنهم :

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩ ﴾

الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه أو تحتقره ، فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير . فمعنى الخوف من الله : أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلِب منك ، وفيما كُلِّفك به ؛ لأن مقاييسه تعالى عالية ، وربما فاتكَ من ذلك شيء .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ۝٢٨ ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته فى كونه ، وكلما تكشَّفتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ، ومنه مهابة وإجلالاً ؛ لذلك قال عنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ .. ۝٥٠ ﴾ [النحل] أى : أعلى منهم وعلى رؤوسهم ، لكن بحُبٍّ ومهابة .

ومعنى : ﴿ بِالْغَيْبِ .. ۝٤٩ ﴾ [الأنبياء] أنهم يخافون الله ، مع أنهم

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

لا يَرَوْنه بأعينهم ، إنما يَرَوْنَه في آثار صُنْعه ، أو بالغيب يعني : الأمور الغيبية التي لا يشاهدونها ، لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم في خَلَواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى في خَلْوتهم وانفرادهم ، على خلاف مَنْ يُظهر هذا السلوك أمام الناس رياءً ، وهو نمرود في خَلْوته .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف أيضاً ، لكنه خَوْفٌ يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه .

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أي : كما جاءت التوراة ﴿ ذِكْراً .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] كذلك القرآن الذي نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يقولون : هذا شيء مبارك يعني : فيه البركة ، والبركة في الشيء أنْ يعطي من الخير فوق ما يتوقع فيه .

كما كان النبي ﷺ يسقي صحابته من قَعْب[1] واحد من اللبن[2] ،

---

(١) القَعْب : القدح الضخم الغليظ ، وقيل : قدح من خشب مُقَعَّر ، وهو يُروي الرجل . [لسان العرب - مادة : قعب] .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٤١٥٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١١٥) من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي يوم الشجرة في الحديبية بماء في تور ، فوضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، فقيل لجابر : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا ، كنا ألفاً وخمسمائة .

ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل[1] . وتسمعهم يقولون : فلان راتبه ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده في كذا وكذا فنقول : لأن الله يُبارك له في هذا القليل .

فمعنى ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ۝٥٠ ﴾ [الأنبياء] أي : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسبْ ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار مَا لا ينتهي ، فبركته تشمل جميع النواحي وجميع المجالات إلى أنْ تقومَ الساعة . فمهما رددنا آياته تجدها جميلة مُوحية مُعبِّرة . فكل عصر يأتي بجديد ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول ﷺ وكل العصور والأعمار والقرون فيعطي كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .

إذن : فالقرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ۝٥٠ ﴾ [الأنبياء] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذي نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطي كل يوم لوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به ؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له : ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٥٠ ﴾ [الأنبياء] أَمِثْل هذا الكلام يُنكر ؟

وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم في القرآن .

منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال :

---

(1) عن عبد الله بن عباس قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ في صلح قريش قال أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله لو نحرنا من ظهورنا فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جمَام قال : لا ولكن ائتوني بما فضل من أزوادكم . فبسطوا أنطاعاً ثم صبّوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ بالبركة ، فأكلوا حتى تضلعوا شبعاً ، ثم لفّقوا فضول ما فضُل من أزوادهم في جُربهم . أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب اللقطة ـ باب استحباب خلط الأزواد إذا قلّت) . وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٢٠/٤) .

كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس في الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] إذن : هم يعرفون صدق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه في شيء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفي هذا دليل على أنهم ليستْ عندهم يقظة في تغفيلهم .

وتأمل : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠) ﴾ [الأنبياء] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ[1] وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا ؟ قالوا : لأن موسى له صلة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جدَلٍ وعناد .

ومعنى ﴿ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل في الصلاح والأعلى في الخير ، بحيث لا يأتي بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يجرُك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلمك الخير إلى شر ، فليس في ذلك رُشدٌ .

---

(١) أي : من قبل النبوة ، أي : وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « من قبل » أي : من قبل موسى وهارون . والرشد على هذه النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير . قاله القرطبي في تفسيره (٦/٤٤٧٣) .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل .. سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميلٌ ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدى من مفاتنها وحركاتها مَا لاَ تُحسنه زوجته في البيت ؟ كم بيوت خَرِبَتْ وأسَر تهدمت بسبب راقصة ، فأىُّ رقىٍّ ؟ وأىُّ جمال فى هذا الفن ؟!

لذلك ؛ قالإمام على ـ كرَّم الله وجهه ـ لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ في شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ فى خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذى هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّى كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح فى الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فنأكل الثمرة ونستبقى نوعها ببذرتها الصالحة ، أمّا لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها فى الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ في التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التي لا تعرفها ولا تدركها . وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربِّ وقد جاءتني هذه الغريزة ففعلتْ بي كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز في جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل في المرحلة التي لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه في صِغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبِر واستطاع أنْ يُنظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكري معنوي ، رُشْد يستوي فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْن الذي يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْده البُنْياني الجسماني دون أنْ يكتملَ عقله وفِكْره ، وفي هذه الحالة لا تُمكِّنه من التصرف حتى نختبره ، لنعلم مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح في الاختبار فَلْنُعْطه المال الذي له ، يتصرف فيه كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ⑥ ﴾ [النساء] أي : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه

---

(١) آنس الشيء : أدركه وأحسه ببصره ، أو بعلمه وفكره . وقوله ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ⑥ ﴾ [النساء] ، أي : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١ / ٣٧] .

ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خِبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتُشرِكه في خضَمِّ الحياة ومعتركها ، فيشبُ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ⑤﴾ [النساء] لأنهم إنْ بلغوا الرُّشْد البدنيّ فلم يبلغوا الرُّشْد العقلي ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ⑤﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشدّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي(١) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ⑮﴾ [الأحقاف]

والأشُدُّ هو : التسامي في الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سنِّ البلوغ في الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق في عنفوان شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين لما عذره ؟

وإذا لم يتلقَّ مبادىء الرُّشْد في صِغَره وفي شبابه ، فلا شكَّ أنه سيجد في أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ،

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. ⑮﴾ [الأحقاف] . أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحبِّبه إليَّ . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغى أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً فى الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسى » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد فى مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجأتْهم إلى التفكير فى ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل فى ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشى ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا فى ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله فى وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه متجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتى ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرِج منه هذه اللبابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها فى الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال فى « ترشيد الخبز » يقال فى « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى فى الوضوء الذى هو قربى إلى الله .

هذا الرُّشْد الذى وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدى إلى قضايا حياته ، ويتصرَّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح فى الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى فى حَقِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ .. (٥١)﴾ [الانبياء] وكان رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل فى النجوم ويبحث عن ربه :

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الانعام]

فكان ـ عليه السلام ـ مُؤهَّلاً للرسالة منذ صغَره ، ولما أُرسِل ونُبِّىء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقى فى النار ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكرى والعقدى عند إبراهيم .

وفى حقِّه قال تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : اختبره فى أشياء فأتمهُنَّ وأتى بِهنَّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يكفى أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال فى أنْ يأتىَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر فى الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن فى حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء] هذا واضح في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ ﴾

أي : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ.. (٥٢) ﴾ [الأنبياء]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشيء يعني : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التي لها جِرْم ويُصوِّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون في ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون في عينيه خرزتين ليظهر للرائي أن له نظراً ، وهي ألوان من التفنن في هذه الصناعة .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول مستنكراً لأبيه وقومه ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء]

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكاري يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولابد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائي يُوحي بالتقريع .

وسبق أنْ تحدَّثنا في معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ،

بدليل قوله في موضع آخر : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] فقد بدأ المسألة بأبيه أو عمه ، وهو أقربُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القومَ قد لا يكونُ لهم في نفسه تأثير هَيْبة أو حُبٌّ إنما الهيبة والحب موجود بالنسبة لأبيه أو لعمه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء في قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

وقد وقف المفسرون عند اللام في قوله تعالى : ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] مع أن المعنى : يعكفون علي عبادتها ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف] وهنا جاءت باللام ؛ لذلك قال بعضهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدل عن على إلى اللام ؟

ولو تنبّهنا لمعطيات الألفاظ ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة ، فلان عاكف في المسجد يعني : على الإقامة في المسجد ، فكلمة عاكفون وحدها تعطي معنى (على) أي : لصالح هذه الآلهة . أمّا اللام فلشيء آخر ، اللام هنا لام الملكية والنفعية . وذكروا لها مثالاً آخر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء]

السِّجل هو : القرطاس والورق الذي تكتب فيه ، ومنه قولهم : نُسجِّل كذا يعني : نكتبه في السِّجل أو الورق لتحفظ ، ومعنى

﴿ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] يعني : الشيء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوى الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) ﴾

إذن : لا حُجَّة لهم فى عبادتهم لهذه التماثيل التى صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رأَوْا آباءهم يعبدونها ، فحُجَّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها .

وفي موضع آخر قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : تعييب عليهم هذا التقليد وتعييب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون ردُّ إبراهيم إذن ؟

وكلمة ﴿ عَابِدِينَ (٥٣) ﴾ [الأنبياء] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عابد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه :

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) ﴾

أراد أنْ يُرشِّد هذا السَّفَه فقال : أنتم في ضلال ؛ لأنكم قلَّدتم فى الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسنُّوهَا لكم .

ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم فى هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذى يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتى بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .

لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم في ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما تحب أنت ، فإذا ما شبَّ وكَبر صارتْ له شخصيته الخاصة وفكْره المستقلّ ، فيختار هو مَأكله ومَلْبسه ، والكلية التي يدخلها ، وربما انتقدكَ في بعض الأمور .

إذن : هؤلاء قلَّدوا آباءهم في هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تتمسَّكون فيها بالتقليد ؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طِبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففي هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفكْره الخاص .

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم في هذه العبادة دون غيرها من الأمور ؛ لأنها عبادة وتديُّن بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم في شيء ، ولا تمنعهم شيئاً مما ألفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تَبِعة .

لذلك : فالحق سبحانه يردُّ عليهم في أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : ﴿ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة : ﴿ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فلماذا ؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففي الأولى قالوا ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾

[البقرة] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد .

وفى الثانية قالوا : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فقصروا أنفسهم على ما وجدوا عليه آباءهم .

لذلك قال فى عَجُز الأولى : ﴿لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى عَجُز الثانية ﴿لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] لأن العاقل هو الذى يهتدى إلى الأمر بذاته .

أمَّا الذى يعلم فيعلم ما عَقَله هو ، وما عَقَله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل ؛ لأن العقل يهتدى للشيء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين .

فكان ردُّهم :

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥)﴾

يعنى : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ ؟ أم أنك تهزر معنا ؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جِداً ؛ لأنه بعيد عن مداركهم .

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)﴾

يردُّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذى يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذى يستحق العبادة هو الله ربُّ السموات والأرض : ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] فـ (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبت الحكم لما بعدها

﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] يعني : خلق السموات والأرض والأصنام ، وكل ما في الوجود .

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء] والشاهد هو الذي اهتدى إلى الحق ، كأنه رأى العَيْن ، وليس مع العين أيْن ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السموات والأرض ومعي الدليل على هذه الحقيقة .

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام ﴿تَاللَّهِ .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] والتاء هنا للقسم ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] وهل الأصنام تُكاد ؟ أم أن المراد : لأكيدنكم في أصنامكم ؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجملَ ما قاله الشاعر[1] في هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار في غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغارُ وتحسد حراء : لأن المصطفى ﷺ كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور : لأنه صار في منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى	الرُّوحَ أَمِيناً يغزُوكَ بالأنْوَارِ
فَحِرَاءٌ وَثَوْرٌ صَارَا سَوَاءً	بِهِمَا تشفع لدولة الأحْجَارِ
عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعبَدُ	لِلَّهِ مِنَ القَائِمِينَ بِالأسْحَارِ
تَخِذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلاً	فَغَدَوْنَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ

---

(١) من شعر الشيخ ـ رضي الله عنه ـ في قصيدة عن الهجرة .

لأن الله قال : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ تَجنَّوْهُ على ابْنِ مرْيَم والحَوارِى
لِلْمُغَالِى جَزَاؤُهُ وَالمغالَى فيه تُنْجيه رَحْمةُ الغَفَّار

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملى الذى لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُوني وليردّوا الفأسَ من يدى ، وإنْ كنتُ على حق تركونى وما أفعل .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾ [الأنبياء] أى : بعد أنْ تنصرفوا عنها . يعنى : على حين غَفْلة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾

ونلحظ هنا أن السياق القرآنى يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما فى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ والهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] وحذف ما كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها ، وأنها أخذته وعرضتْه على مستشاريها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

ومعنى ﴿ جُذَاذًا .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] أى : قطَعاً متناثرة وحطاماً ،

بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ .. (٥٨)﴾ [الأنبياء] أي : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور) ، بحيث يكون الكبير في الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعني : كان له سيطرةٌ عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون في عينه الزبرجد ، حتى يُخيِّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾ [الأنبياء] فيسألونه عمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأس على كتفه ؟

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)﴾

أي : لما ذهبوا إلى المعبد الذي يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)﴾ [الأنبياء] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبَّهوا إلى هذه المسألة ، كيف يقبلُون عبادتها ، ولو أوقعتْ الريحُ أحدَهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه ، فأيُّ ألوهية هذه التي يدافعون عن حقوقها ؟!

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى[1] يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾

أي : تطوَّع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدَّد يذهبون

---

(١) الفتى : الشاب ، وقد يُراد به الكامل من الشباب . [القاموس القويم ٢/٧٢] . قال القتيبي : ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدَث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزْل (الجيد الرأى العاقل) من الرجال . [لسان العرب - مادة : فتا] . قال ابن عباس فيما أخرجه ابن أبي حاتم وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/١٨٢) : « ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب » .

فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدَّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدي وينصرف عمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادَّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ[1] ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء] والذكْر هنا يعني بالشر بالنسبة لهم ، ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء] يعني : اسمه إبراهيم ، أو حين تناديه تقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

ومعنى ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ .. ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء] يعني : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء] أي : يشهدون ما نُوقعه به من العذاب حتى لا يجترئ أحد آخر أنْ يفعل هذه الفعْلة ، ويكون عبرةً لغيره .

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

هنا أيضاً كلام محذوف : فأتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا .. ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء] استفهام عن الفاعل :

---

(١) قال تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات] . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات] . أي : ضعيف . [تفسير ابن كثير ٤/١٢] .

لأن الفعلَ واضح لا يحتاج إلى استفهام ؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا .. ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء] كما تقول : أبنيتَ الدار التي كنتَ تنوي بناءها ؟ فهذا استفهام عن الفعل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل .

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا - إذن - تعبدونهم ؟

وقوْل إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث ردَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتَّى منه ، وقد ضرب الزمخشري - رحمه الله - مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة ؟ فيقول : لا بل أنت الذي كتبتَها !! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء] وهم لن يسألوهم ؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم .

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي : تنبَّهوا وعادوا إلى عقولهم ، ونطقوا بالحق : ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنبياء] يعني : بعبادتكم هذه الأصنام ، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ ، ولا ترى ولا تتكلم .

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه

العبادة ، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم ، وخسارتهم بها ستكون كبيرة ، هذه الصحوة ستُفقدهم السُّلْطة الزمنية التي يعيشون في ظلها ، وينتفعون من ورائها بما يُهدَى للأصنام ؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1]

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] والنكسة : أن الأعلى يأتي في الأسفل ، وأنتم تعلمونها طبعاً !! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] وهذا هو التغفيل بعينه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾

يعني : لا ينفعكم بشيء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشيء إنْ تركتم عبادته .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أي : عادوا إلى الضلال والانتصار لآلهتهم المحطّمة بعد أن أرشدهم إبراهيم عليه السلام إلى أنها عاجزة لا تصلح آلهة . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية ؛ لذلك يسمونها « الخالفة » لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يعبِّر بهذه الكلمة (أفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الانبياء] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكثوا أربعين يوماً يسجرونها[1] بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذى يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها[2] .

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها ، فصنعوا له منجنيقاً ليُلْقُوه به فى النار من بعيد .

وقولهم : ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الانبياء] حسب اعتقادهم كأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التى يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة ـ إذن ـ بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .

---

(١) سجر التنور يسجره سَجْراً : أوقده وأحماه . وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب ـ مادة : سجر] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أنْ كان الطائر ليمرّ بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٨١]

وقولهم : ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء] يعني : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فحرِّقوه .

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ من هذه المَحْرقة :

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ؛ ليخرق بالمعجزة نواميسَ الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا في قصة موسى عليه السلام ، الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه ؛ لذلك فرّقه لموسى فُرْقاناً ـ كما قلنا ـ كلُّ فِرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطِّل قانون الأشياء إلا خالقها ؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّي مهمة ، والذي خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها .

وفَرْق بين فعْل العبد وفِعْل الحق سبحانه : فلو أنَّ في يدك مسدساً ، وأنت تُحسن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصةً ، ألَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك ؟ أيمكن أنْ تأمرها أنْ تميلَ يميناً أو شمالاً ؟

لكن الحق سبحانه يتحكَّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا .. (٦٩) ﴾ [الأنبياء] انطفأت كل نار فى الدنيا ، فلما قال : ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران الدنيا عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام ؛ لأن البرد المطلق يؤذى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفىٌّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالح الشىء ، ويكون ضده ، ففى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : لصالحه فلم يقُلْ : كِدْنا يوسف إنما كِدْنا له ، وقالوا فى الكيد : إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة ، فالذى يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاَّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنِّى قوىٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكَّن الضعيف من الفرصة لا يدعها ؛ لأنه لا يضمنها فى كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه فى أىِّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً   قَتلتْ كَذلكَ قُدْرَةُ الضُّعفاء

---

(١) قال ابن عباس : لو لم يتبع بردها (سلاماً) لمات إبراهيم من بردها ، فلم يبق فى الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أنها هى تعنى . أخرجه الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم [قاله السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٠] .

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم يقول تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة في الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم في مسألة حَرْق إبراهيم من عدّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصبْه سوء رغم إلقائه في النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيُجازون على فعلهم ، هذا في الآخرة ، فأيُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)﴾

﴿نَجَّيْنَاهُ .. (٧١)﴾ [الأنبياء] يعني : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً ممّا تعرَّض له من أذاهم .

﴿وَلُوطًا .. (٧١)﴾ [الأنبياء] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)﴾ [الأنبياء] أي : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض - وهي أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما في هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. (٨٠)﴾ [يوسف]

فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر .

لكن قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] فلم تُعيِّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعني : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أي : المرة التي سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] وهكذا يتجمَّعون في مكان واحد ، فيسْهُلُ القضاء عليهم .

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهي الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهي بركة القيَم في الأرض المقدسة ، وهي أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً[1] وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمَّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] مع أنه كان عنده

---

(١) النافلة : الحفيد ؛ لأنه زيادة بعد الابن . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٠] . قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٤٨٤) : « أي : زيادة ؛ لأنه دعا في إسحاق ، وزيد في يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أي : زيادة على ما سأل ، ويُقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد » .

إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت في نفسها ما تجده النساء في مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التي زوَّجتها له دون أن يكون لها مثله .

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد في ملحظ عقدي يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم في الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه في هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غِرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبني عليها ، بل تراه يقول : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : افعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] أي : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُۥ[1] لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] يقال : تله يعني جعل رأسه على

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض . وقوله ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] . أي : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١٠٦/١] .

التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و ﴿لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات] يعني : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. (١٠٥)﴾ [الصافات] وما دُمْتَ صدّقتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى في تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل[1] :

سلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فلحكمَةٍ يَقْضِيـ ـه حتى تستريح وتنْعمَا

واذْكُرْ خليلَ الله في ذَبْحِ ابنـه إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضِيَ به ، فلا أحدَ يُجبر الله على شيء . وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمَّا لو عارض الولد وتبجَّح في وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢)﴾ [الصافات] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هي مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

---

(١) الشيخ رحمه الله .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء] والنافلة : الزيادة ، وقد طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء] يعني : أمر زائد عما طلبتَ ، فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : « أعز من الولْد ولْد الولد » والإنسان يضمن بقاء ذِكْره في ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمِن ذِكْره لجيل آخر .

والهبة جاءت من الله ؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ[1] فَصَكَّتْ[2] وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) ﴾ [الذاريات] فردَّ عليها : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [هود] أي : أنه سبحانه قادر على كل شيء.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ [الأنبياء] فالحفيد نافلة وزيادة في عطاء الذرية ، ومبالغة في الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم]

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾

---

(١) الصرة : تقطيب الوجه ، والصيحة ، والجماعة ، أي : أقبلت في صيحة من التعجب ، أو في تقطيب وجه استبعاداً وتعجباً ، أو في جماعة من خدمها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤].

(٢) الصك : الضرب الشديد بالشيء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأي شيء كان [لسان العرب ـ مادة : صكك]

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فهم لا يصدرون في شيء إلا على هُدًى من الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : يفتح لهم أبواب الخير وييسِّر لهم ظروفه ؛ لأن الموفَّق الذي يتوفر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه

﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وإقامة الصلاة هي : عَيْن الخيرات كلها ؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة في جانب المنعم سبحانه ، فالصلاة هي خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت ... الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا ؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا - إذن - تحتال في هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال في وقت الصلاة ؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة ، وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففي إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامي في المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحي ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه في هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين في بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم في حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوَّلُ

المستفيدين من تدريس الدين الإسلامى لأولاد المسلمين .

وفعلاً فى اليوم التالى أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامى فى مدارسهم لأولاد المسلمين ؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابى تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه فى أول أفعال الخيرات ، وفى مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذى يهبُكَ هذه الخيرات .

﴿ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣) ﴾ [الأنبياء] والزكاة تطبيق عمليٌّ للاستجابة لله حين تُخرج جزءًا من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال فى الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهى تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء] أى : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عابد لمعبوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ[1] ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ[2] إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) ﴾

(١) هى قرية « سَدُوم » قال ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله . وهى زُغَر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة ، ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٥) : « فى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما : اللواط ، والثانى : الضراط ، أي : كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم » .

﴿ وَلُوطًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] جاءتْ منصوبة ؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده . والحُكْم : يعنى الحكمة ، وأصله من الحكمة[1] التى تُوضَع فى حنك الفَرَس ؛ لأن الفرس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه ؛ لذلك يوضع فى حنكه اللجام أو الحكمة ، وهى قطعة من الحديد لها طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .

ومن ذلك الحِكْمة ، وهى وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنه الحُكْم ، وهو : وضع الحق فى مَوْضعه من الشاكى أو المشكو أى : الخصمين .

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] وفَرْقٌ بين العلْم والحكم العلم أن تُحقِّق وتعرف ، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلَم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] فقد نجَّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجَّى لوطاً من أهل القرية التى كانت تعمل الخبائث ، والخبائث فى قوم لوط معروفة[2] .

لذلك يقول بعدها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء] ورجل السَّوْء هو الذى يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسوؤه .

---

(١) الحكمة : حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب ـ مادة : حكم] .

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : كان فى قوم لوط عشر خصال يُعرفون بها : لعب الحمام ، ورمى البندق ، والمكاء (الصَّفير بالفم) ، والخذف فى الأنداء (رَمْى الحصى أو النوى) ، وتسبيط الشعر ، وفرقعة العلك (اللبان) ، وإسبال الإزار (إطالته حتى يجاوز الكعبين) ، وحبس الأقبية ، وإتيان الرجال ، والمنادمة على الشراب ، وستزيد هذه الأمة عليها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٤] .

والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلِّ التعابير القرآنية مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفسْق من فَسقَت الرُّطبة عن قشرتها حين تستوى البلحة فتنفصل عنها القشرة حتى تَظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدى مهمة ، وهي حفْظ الثمرة ، كذلك نقول فى الفسق عن المنهج الدينى الذى جاء ليُؤدى مهمة فى حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

كيف ؟ ألسنا جميعاً فى رحمة الله ؟ قالوا : لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر ، وهناك رحمة خاصة تعدى الرحمة منه إلى الغير ، وهذه يعنُون بها النبوة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] أى : النبوة : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة ، وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟

فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا.. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : فى رَكْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرك عليه برسول بعده ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن رسول آخر من أولى العزم من الرسل :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] مثلما قلنا فى ﴿ وَلُوطًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : آتيناه هو أيضاً رُشْده ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] والنداء فى حقيقته . طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُسَاوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبٌّ اغفر لى ، فلو كان نبيهاً يقول : ربِّ مدعو . والتقدير يا رب ، ومن قال - منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً ، فالياء فى أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق فى الأداء ، كذلك فى : اغفر لى ، إنْ قال فِعْل أمر تعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام فى ندائه ؟ المراد قوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] والمراد بالكرب ما لبثه نوح فى دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمَّله فى سبيل دعوته من عَنَت ومشقَّة قال الله فيها :

---

(١) الديار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية . ويقال . ما بالدار ديَّار . أى : ما فيها أحد . ومعنى دعاء نوح عليه السلام : أى . لا تذر أحداً منهم حياً . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[1] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح]

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلْك أخذوا يسخرون منه : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود]

إذن : استجاب الله دُعَاءه ونداءه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء] وفي موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ [الصافات] فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح بـ (نِعْمَ) الدالة على المدح .

فهل يعني ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب ؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك ، أمَّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب ؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان في دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قَيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية علْمي أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك ألاَّ أجيبك ؛ لأنني نِعْم المجيب .

وَهبْ أن الله تعالى يجيب كُلاً منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التي تغضب مثلاً من وحيدها ، وفي لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهي أشرب نارك) ؟ فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يردُّ مثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب ؛ لأنه نِعْم المانع .

---

(١) استغشى ثيابه وتغشّى بها : تغطّى بها كي لا يُرَى ولا يَسْمَع [لسان العرب ـ مادة : غشى] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] أي : يدعو ويُلحُّ في الدعاء بما يظنُّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك .

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾

ما زالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النبوات ، ونحن في سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضدَّان لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ! ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شيء .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن نبيين من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[(١)] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (٧٨) ﴾

---

(١) النفش : الرعي بالليل . نفشت : أي : رعت فيه ليلاً . [تفسير القرطبي ٦/٤٤٨٦] .
نفشت الإبل : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها . [لسان العرب - مادة : نفش] .

يحكمان تعنى أن هناك خصومة بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة ؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

والحرْث ذاته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً ؛ لأنه ناشىء عنه ، كما فى قوله تعالى أيضاً : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[1] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .. (١١٧)﴾ [آل عمران]

لكن ، لماذا سَمَّى الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة ؟ قالوا : ليُبيِّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث ؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتجفيفها من الماء الزائد ؛ لأن الأرض بعد عملية الريّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التى تُسبِّب عطباً فى جذور النبات .

لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهى التى تجمع بين هذه وهذه ، فتسمح للنبات بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

---

(١) الصِّر : البرد الشديد . [القاموس القويم ١/٣٧٤] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٩٧) : « عن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى : نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يُحرق الشىء بالنار » .

لذلك سُمِّي الزرع حَرْثاً ؛ لأنه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع بدون حَرْث ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة]

ففي هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله في الكون ، هي أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال ، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد ، وقبل أن يُكلِّفك بشيء ، ومكثت إلى سِنِّ البلوغ ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شيء من تصرفاتك .

وكذلك الأمر في الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهي ، دون أن تتعب في طلبه ، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه في الأمور الاختيارية في سِنِّ التكليف .

إذن : لقد نِلْتَ قبل أن تعمل ، وستنال في الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل ، فلا بُدَّ لك من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة .

لذلك ، في الحديث الشريف يقول ﷺ : « أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه »[1] ما دام قد عمل فقد استحق الأجر ، والأمر كذلك في مسألة الحرث .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء] هذه خصومة بين طرفين ، احتكما فيها لداود عليه السلام : رجل عنده زرع ، وآخر عنده غنم ، فالغنم شردتْ في غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع ، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود ، فحكم في هذه

(١) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ١٤٢) من حديث أبي هريرة ، والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر بن عبد الله ، وابن ماجة في سننه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر ، وفي سند ابن ماجة ضعيفان . قاله البوصيري في الزوائد .

القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرعِ الغنَم ، وربما وجد سيدنا داود أن الزرع الذى أتلفتْه الغنم يساوى ثمنها .

فحينما خرج الخَصْمان لقيهما سليمان - عليه السلام - وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وعرف منهما حكومة أبيه فى هذه القضية ، فقال : (غير هذا أرفق بالفريقين)[1] فسمَّى حُكْم أبيه رِفْقاً ، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً ، لكن عنده ما هو أرفق .

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله : ما الرِّفق بالفريقين ؟ قال سليمان : نعطى الغنم لصاحب الزرع يستفيد من لبنها وأصوافها ، ونعطى الأرض لصاحب الغنم يُصلحها حتى تعود كما كانت ، ساعتها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زَرْعه .

ومعنى ﴿ نفشت .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] نقول : نفش الشىء أى : أخذ حَجْماً فوق حَجْمه ، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبز أو البقسماط ووضعتَها فى لبن أو ماء ، تلاحظ أنها تنتفش ويزداد حجمها نقول : انتفشت ، كما نقول لمن يأخذ حجماً أكثر من حجمه : « أنت نافش ريشك » .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء] أى مراقبين .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٧) أن سليمان سأل الخصمين بعد أن خرجا من عند أبيه داود ، بم قضى بينكما نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحرث . فقال : لعل الحكم غير هذا ، انصرفا معى . فأتى أباه فقال : يا نبى الله إنك حكمت بكذا وكذا ، وإنى رأيت ما هو أرفق بالجميع ، وقال حكمه بين الخصمين . فقال داود : رفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾

فداود وسليمان - عليهما السلام - نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما في هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح في علْم داود ، ولا يطعن في حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضي الابتدائي قد يحكم في قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضي استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتي حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] حينما جمع السياق القرآني بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرفاً مِمَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن ميْزةً لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

والتسخير : قَهْر المسَخّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ،

وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخَّر الجبال وهي جماد ، ثم الطير وهي أرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير ؛ لأنه حَيٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبِّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء ؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا يُعمِّق ونظر في لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبِّر كما للطير ؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح ، فكيف لها ذلك وهي جمادات ؟

لكن : ما العجب في ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس في الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التي يعيشون فيها ، فالناس مختلفون في مثل هذه الأمور متفقون فقط في الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .

ألم تَرَ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] فما دام أنه سبحانه الذي يُضحِك ، والذي يُبكِي ، فلن تختلف في هذه الأمور .

فالكلام - إذن - من الأشياء التي يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس في صوت الحروف ، فالحروف هي هي ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن - إذن - متحدون في الحروف ، لكن نختلف في معاني الأشياء .

وقد يعزُّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها . فغيْر العربي لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما في العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاي والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك تجد غير العربي يقول في (على) : إلي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومتكلّم .

فإذا كنا - نحن البشر - لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربي ، وهذا إنجليزي ، وهذا فرنسي .. الخ فإذا لم تتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذي لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزي في بيئة عربية لنطق بالعربية .. وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهي أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعني عدم فَهْمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ .. ﴿١٦﴾﴾ [النمل] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما علمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقّد الطير، ولم يجد الهدهد فتوعّده: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ونلحظ هنا دقّة سليمان ـ عليه السلام ـ في استعراض مملكته، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد، ونلحظ أدبه في قوله: ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فقد اتهم نظره وشكّ أولاً، فربما الهدهد يكون موجوداً، ولم يَرَهُ سليمان.

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [النمل] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٤)﴾ [النمل]

ويعترض الهدهد على هذا الشرك، ويردُّ عليه بشيء خاص به، وبظاهرة تُهمه: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٢٥)﴾ [النمل]

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخَبْء؛ لأن منه طعامه، فلا يأكل من ظاهر الأرض، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض، ويُخرِج خبأها ليأكله.

وكذلك النمل، وهو أقلُّ من الهدهد، فقد كان للنملة مع سليمان لغة، وكلام، وفَهْم عنها: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

---

(١) الخبا: المخبوء المخفيّ. [القاموس القويم ١/١٨٥]. قيل: الخبء الذي في السماوات هو المطر، والخبء الذي في الأرض هو النبات. قيل: والصحيح أن الخبء كل ما غاب. [لسان العرب ـ مادة: خبأ].

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَهِمه سليمان ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ⁽¹⁹⁾ ﴾ [النمل]

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ⁽⁷⁹⁾ ﴾ [الأنبياء] قالوا : يعني تسبيح دلالة ، فهي بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعترفوا لها بالتسبيح ؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ⁽⁴⁴⁾ ﴾ [الإسراء]

والآن نرى في طموحات العلماء السَّعْي لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات ، ولا نستبعد في المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم في المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيَّة التي أعطاها الله تعالى لنبيه داود ـ عليه السلام ـ ليستْ في تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة في أنها تُردِّد معه ، وتوافقه التسبيح ، وتجاوبه ، فحين يقول داود : سبحان الله تردد وراءه الجبال : سبحان الله . وكأنهم جميعاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياةَ فيه ، فهو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ المحاجر في طبقات الأرض لوجدتَ بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السنين ، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَوْنُ الحجر وتتغير طبيعته ، وهذا دليل الحياة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحجرة لَوْناً معيناً تراه يتغير مع مرور الزمن ، إذن : في هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولون في معجزات النبي ﷺ أنه سبَّح الحصى في يده . أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلي ، فالحجر مُسبِّح في يد رسول الله ، وفي يد أبي جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هي أن رسول الله سمع تسبيح الحصى في يده .

فما من شيء في كون الله إلا وله حياة تناسبه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فرع وجود حياة ، وكل شيء في الوجود له حياة ، فعلبة الكبريت هذه التي نستعملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعلات تكفي لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سبحانه وتعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فكلُّ ما يقال له شيء - إلا وَجْه الله - هالك ، والهلاك يعني أن فيه حياةً ؛ لأن الهلاك ضد الحياة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال]

فكُلُّ شيء في الوجود له حياة بقانونه ، وليس من الضروري أن تسمع الكلام حتى تعترف بوجوده ، فهناك مثلاً لغة الإشارة ، وهي لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحارة لهم إشارات يتعارفون عليها ويتفاهمون بها ، جهاز التلغراف لَوْن من ألوان الأداء ووسيلة من وسائل التفاهم ، إذن : الأداء والبيان ليس من الضروري أنْ يتمّ بالكلام المسموع ، إنما تتفاهم الأجناس ويُكلِّم بعضها بعضاً كلٌ بلغته ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس .

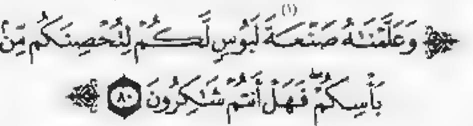
لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] والتنوين هنا دالٌّ على التعميم ، فلكل شيء صلاته التي تناسبه ، وتسبيحه الذي يناسب طبيعته .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات جميعاً لله يأتي الكلام عاماً في كل الأجناس بلا استثناء ، إلا في الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج] هكذا بلا استثناء ، أمّا في الإنسان ، فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شيء ، وفاعل كل شيء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانع والمحرك.

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام :



---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٠٠) : « الصنعة يكفُّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويبغض السائل الملحف » وقد كانت صناعة داود هي صناعة الدروع » .

﴿عَلَّمْنَاهُ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] العِلْم نقل قضية مفيدة في الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسانَ دائماً في حاجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله في الأرض ، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير ليِّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليه لكذا وكذا .. الخ .

وقضايا العلم التي تحتاجها حركة الإنسان في الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخَلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحي ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذي نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التي لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقي عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق - سبحانه - لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يواري سوأة أخيه ، فقال سبحانه : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١)﴾ [المائدة]

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات في الكون حين نُعمِل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتي القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله في قَلْب الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحي ، أو بالتجربة أو الإلقاء في الرُّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هى الملابس التى تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل]

أما فى الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التى نجدها فى اللباس ، فى الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو فى الأماكن القاتلة ؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة فى الجسم البشرى ، وتتمثل هذه فى الرأس والصدر ، ففى الرأس المخ ، وفى الصدر القلب ، فإن سَلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداواته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وهذه كانت صنعة داود - عليه السلام - كان يصنع الدروع ، وكانت قبل داود مُلْساء[2] يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] أى : تحميكم فى حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .

إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير فى ارتقاء صَنْعة إنما ينشأ من ملاحظة عيب فى صَنْعة سابقة ،

---

(١) السربال : القميص والدرع ، وقيل فى قوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ..(٨١)﴾ [النحل] . إنها القُمُص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كان ما وقى الحر وقى البرد ، وأما قوله تعالى : ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل] ، فهى الدروع [لسان العرب - مادة سربل] .

(٢) قال قتادة : كانت صفائح ، فأول من سَدَّها وحلَّقها داود عليه السلام أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٥٠) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى وأبى الشيخ فى العظمة .

فيحاول اللاحق تلافى أخطاء السابق ، وهكذا حتى تصلَ إلى شيء لا عَيْبَ فيه ، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقه ؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الانبياء] شاكرون على نعمة الله الذى يرعاكم ويحفظكم في المآزق والمواقف الصعبة ، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو ؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر ، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

فليست مُهمة الحديد في الحياة أنه ينفع الناس فحسْب ، إنما له مهمة قتالية أيضاً ؛ لذلك قال : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] كما قال : ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإنسان] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية ، حيث نضرب به على أيدى الكافرين العاصين ، ونحمي به صدور المؤمنين المصدِّقين ؛ لذلك قال ﴿ أَنزَلْنَا.. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] أى : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .

إذن : مسألة الحديد في الأرض نعمة كبيرة من نِعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقُّ منّا الشكر الدائم الذى لا ينقطع .

ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

لا شكَّ أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه ـ تبارك وتعالى ـ أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أي : القوية الشديدة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] وكأنها مواصلات داخلية في مملكته من العراق إلى فلسطين[1] .

وفي موضع آخر قال : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص]

رُخَاء : أي : هيِّنة ليِّنة ناعمة ، وهنا قال ﴿ عَاصِفَةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة في (عاصفة) وصفة الراحة في (رخاء) ، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صفة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهي في الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر في تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على

---

(١) « قال الحسن البصري : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع » نقله ابن كثير في تفسيره (٥٢٨/٣) . وكابل : هي عاصمة أفغانستان حاليا .

الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذى يقبض الزمن فى حق قوم ويبسطه فى حق آخرين .

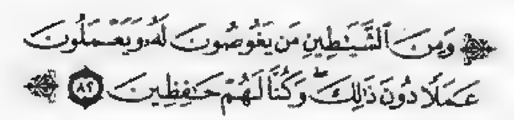
ومعنى : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : بركة حسِّية بما فيها من الزروع والثمار والخصْب والخيرات ، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحى والنبوات وآثار الأنبياء .

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا فى (السينما) بساط الريح الذى نراه يحمل شيئاً ويسير به فى الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب فى البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهى لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخاء تحمله فى رحلة داخلية فى مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله فى رحلات وأسفار خارجية ، كالتى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [سبأ] فيجوب بها فى الكون كيف يشاء ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه :



فبعد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين ﴿يَغُوصُونَ لَهُ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] والغَوْصُ : النزول إلى أعماق البحر ؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التي ادخرها الله فيه ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] أي : مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقد شرحت هذه الآية في موضع آخر : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣)﴾ [سبأ] فأدخل مرادات العمل في مشيئته .

والمحاريب جمع محراب ، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهي القَصْعة الكبيرة الواسعة التي تكفي لعدد كبير ، والقدور الراسيات أي : الثابتة التي لا تنقل من مكان لآخر وهي مبنية .

وقد رأينا شيئاً من هذا في الرياض أيام الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القِدْر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان مادّاً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفي الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدي .

أما التماثيل فهي معروفة ، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُتِن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف ؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحرَّمة ؟

نقول : كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة ،

---

(١) الجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء . وقال ابن عباس : كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك . [تفسير ابن كثير ٥٢٨/٣] .

إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأنْ يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد ضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفة من شرفاته ، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام .. الخ ، أي أنها ليست على سبيل التقديس .

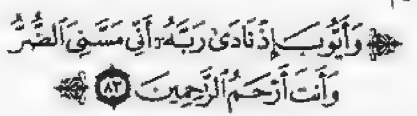
ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾ [الأنبياء] حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال حتى لا تؤذيهم الشياطين أو تفزعهم ، ومعلوم أن الشياطين يروْنَ البشر ، والبشر لا يروْنَهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفي قصته : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] .. (١٤) ﴾ [سبأ]

وفي هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ]

ويُقال : إن سليمان - عليه السلام - بعد أنْ امتنّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم في القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .

هذه مجرد لقطة من قصة سليمان ، ينتقل السياق منها إلى أيوب عليه السلام :



(١) المنسأة : العصا الغليظة . بلسان الحبشة . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٢] .

(نَادَى) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أى : دعاه وناداه بمطلوب هو : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] والضُّر : ابتلاء من الله فى جسده بمرض أو غيره .

أما الضَّر بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء فى أى شىء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .

لكن ، كيف ينادى أيوب عليه السلام ربه ويتوجع ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أليس فى علم الله أن أيوبَ مسَّه الضُّر ؟ وهل يليق بالنبى أنْ يتوجَّع من ابتلاء الله ؟

نعم ، يجوز له التوجُّع ؛ لأن العبد لا يَتَشجَّعُ على ربه ؛ لذلك فإن الإمامَ علياً رضى الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتتوجَّع وأنت أبو الحسن ؟ فقال : أنا لا أتشجع على الله يعنى : أنا لست فتوة أمام الله .

ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أنْ يُثبت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهِر له ولو مجاملة أنه أقوى منك ؟

ومعنى : ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً فى صفة من الصفات يُدخل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما فى : ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] و ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] و ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] فاعلم أن الله تعالى يُثبِت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .

فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء في الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[1] .

وفي « ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء »[2] .

فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، والنبي ﷺ يقول : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

إذن . للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً ؛ لأن رحمته تعالى وسعتْ كل شيء . كما قلنا في صفة الخَلْق فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخلْقك للكوب كخَلْق الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ[3] وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذي أصابه ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٦٠) ، والترمذي في سننه (١٩٢٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أخرج أبو نعيم في الحلية (٤/٢١٠) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٢٧٧) وكذا في المعجم الصغير (١/١٠١) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : « ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء » .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٠٧) : « اختُلفَ في مدة إقامته في البلاء ، فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقال وهب ثلاثين سنة . وقال الحسن : سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثماني عشرة سنة ، رواه ابن شهاب عن النبي ﷺ ذكره ابن المبارك » .

وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بهـا ، حيث كان فى قِلَّة من الأهل ، وليس له عِزْوة .

﴿ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ [الأنبياء] ليعلـم كلُّ عابد أخلص عـبادته لله تعـالى ، أنه إذا مسَّه ضُـرٌّ أو كَرْب ولجـأ إلى الله أجـابه الله إلى مَـا يريد ، وأعطاه فـوق الإجابة نافلة أخـرى ، وكـان ما حدث لنبى الله أيوب نموذج يجب أن يُحتَذَى .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ[1] كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾

قلنا : إن سـورة الأنبياء لا تذكـر قَصَـصاً كامـلاً للأنبيـاء ، إنما تعطينا طَرَفـاً منها ، وهنا تذكـر إسماعـيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .

ثم يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] كان الصبر فى حدِّ ذاته حـيثيـة يُرسل الله من أجلها الرسـول ، ولنتأمل الصـبر عند إسماعـيل ، وكيف أنه صـبر على أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فـأىُّ صبر أعظم من هذا ؟

ثم يعـيش فى صِغَـره ـ وحـتى كبـر ـ فى وادٍ غيـر ذى زرع ، ويتحمل مشـاق هذه البيئة الجـافة المجْدِبة ، ويخضعُ لقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكان فى خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٩٠) : « الظاهر من السياق أنه ما قُرن مع الأنبياء إلا وهو نبى . وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحـاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك والله أعلم » .

والزروع والثمار تأبياً على إقامة الصلاة ؛ لذلك نراه يُفضِّل البقاء في هذا المكان ، ويزهد في نعيم الدنيا الذي يتمتع به غيره امتثالاً لأمر الله .

وتكون النتيجة أنْ أعطاه الله ما هو خَيْرٌ من الزروع والثمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جميع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبي الخاتم محمد بن عبد الله ، وأيُّ ثمرة أحسن من هذه ؟

وإدريس : وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام ، وبعض العلماء يقولون هو « أوزوريس » ، ونحن لا نقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهل السير يقولون : إن نبي الله إدريس أول مَنْ علّمه الله غزل الصوف وخياطة الملابس ، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود .

وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .

وذا الكفل : الكِفْل هو الحظ والتصيب ، فلماذا سُمِّي « ذو الكفل » ؟ ذو الكفلَ ابن أيوب عليه السلام ، ويظهر أن أولاد أيوب كانوا كثيرين ، إنما اختص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب ؛ لذلك سُمِّي « ذو الكفل »[1] .

---

(١) قال مجاهد عن ذي الكفل : رجل صالح غير نبي ، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل . [أورده ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٩٠] ، وقد أورد القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٠٨) أقوالاً أخرى منها :
– كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه .
– سمي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه .

وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى - عليه السلام - والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى - عليه السلام - آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أي : نصيبان وحظَّان من رحمة الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد ﷺ .

ثم يقول تعالى في وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] فوصف كلَّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال في سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله .

﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٦) ﴾

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهي أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحملوا في سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ في ذلك .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٧) ﴾

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك

سُمِّيَ به ، وقد أرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَى) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبي ﷺ لعداس : « أنت من بلد النبي الصالح : يونس ابن متى »[1] .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشيء آخر ، كما في (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . تقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطي معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن في أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية في أحدهما ، والمفعُولية في الآخر ، كما تقول : شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء في قَوْل الشاعر العربي الذي يصف السير في أرض معقربة ، والتي إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٤٢١/٢) ، وفيه : أن عداساً قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ[1] والشُّجاعَ القَشْعَمَا[2]

أى : أنه سالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : الأفْعوانَ والشجاعَ القشعمَا ؛ لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَممَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرأوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخَّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]

أى : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هى قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغَاضِباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث فى مسألة هجرة النبى ﷺ فرسول

---

(١) الأفعوان : ذَكَر الأفاعى . والقشعم : الضخم . [لسان العرب ـ مادتا : فعا ، قشعم] .

(٢) أورد ابن منظور فى لسان العرب (مادة : شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ « الشجاع الشجعما » وقال : الشجعم : الضخم منها ، وقيل : هو الخبيث المارد منها ، ثم قال : « نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها » .

الله هاجر من مكة لكنه لم يهجرها ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته والجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف في الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال ﷺ مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ »[1] .

وقد أخذ المتنبي[2] هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفَارِقَهُمْ فالراحِلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] البعض ينظر في الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشيء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشيء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة في القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما في قوله تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق] معنى قُدِر عليه رزقه يعني : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٠)﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (٣١٠٨) ، والدارمي في سننه (٢/ ٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفاً بالحزورة يقول .. الحديث .

(٢) هو : أحمد بن الحسين الكندي أبو الطيب المتنبي ، الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي . ولد ٣٠٣ هـ بالكوفة في محلة ، كندة ، ونشأ بالشام . ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . وفد على سيف الدولة الحمداني صاحب حلب فمدحه ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي ثم هجاه . قتل بالنعمانية وابنه وغلامه عام ٣٥٤ هـ (الأعلام للزركلي ١/ ١١٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

إذن : فقوله : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] أي أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ[1] أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس[2] ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسلْمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه في هذا الكرب .

وقد وُجدَتْ شبهة في قصة يونس - عليه السلام - في قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]

فكيف يلبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتي أجل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس في بطنه ؟

---

(١) قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة . [قاله ابن كثير في تفسيره ٣/١٩٢] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١١/٦) : « هذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه » .

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر في كوب ماء ، فسوف تحتوي جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوي الأقل ، فقالب السكر لا يحتوي الماء ، إنما الماء يحتوي السكر .

فلو مات الحوت ، ومات في بطنه يونس ـ عليه السلام ـ وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما[1] .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

استجاب الله نداء يونس ـ عليه السلام ـ ونجّاه من الكرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : مثل هذا الإنجاء نُنَجِي المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فيُذهب الله غمّه ، ويُفرّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « ثوّروا القرآن » يعني : أثيروه ونقِّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره[2] .

---

(١) قال قتادة في قوله تعالى ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] قال : لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ١٢٧/٢ ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم] .

(٢) في حديث عبد الله : أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه . [لسان العرب – مادة : ثور] .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما تقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق في الصدر لا يدرى سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعترى الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرِجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى ممَّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان في هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه ... وتَبْقَى لَهُ حَاجةٌ مَا بَقِي

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم في ذلك مُخْطئون ؛ لأن تمام الشيء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شيءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سمة البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمة ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شيء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ، وهم لا يدرون أن هذا النقص

هو الذي يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سيئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذي يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدَهم .

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى ، وعبَّر عنه في مدحه لسيف الدولة[1] ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَـرِّ أعيُنِهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

نعود إلى (روشتة) سيدنا جعفر الصادق التي استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] فإنِّي سمعت الله يعقبها يقول : ﴿ فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فإنِّي سمعت الله

---

(١) هو : علي بن عبد الله بن حمدان أبو الحسن سيف الدولة الحمداني ، صاحب المتنبي وممدوحه ، ولد في ميافارقين (بديار بكر) عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ شجاعاً مهذباً عالي الهمة ، امتلك واسطاً ودمشق وحلب وتوفي فيها عام (٣٥٦ هـ) عن ٥٣ عاماً . الأعلام للزركلي (٣٠٣/٤) .

(٢) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . فانقلبوا : أي : رجعوا . [القاموس القويم ١٢٩/٢] .

بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكِرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فإنِّي سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف] فإنِّي سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف]

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيَّة الله ، ويضع كما نقول (في بطنه بطيخة صيفي) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب في كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة في ذاتك أو في أهلك أو في مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف بالمنعم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نبي آخر من أنبيائه ، فيقول تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

لقد بلغ زكريا ـ عليه السلام ـ من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[1] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ [مريم]

---

(١) الموالي هنا : الأقارب وبنو العم والعَصَبة الذين يلونه في النسب . قاله القرطبي في تفسيره (٦/٤٢٦٨) .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب ؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكِّد هذه البُشْرى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم]

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق ؛ لأن الذي يُبشِّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطي بالأسباب ، ويعطي إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تبارى أهل مريم في كفالتها ، وتسابقوا في القيام بهذه الخدمة ؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها ؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورمَوْها في البحر[1] فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القَدَر ، حتى لا تتدخَّل فيها الأهواء .

فلما كفَل زكريا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفي أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأت

(١) ذكر عكرمة والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت . ويقال : إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء . [تفسير ابن كثير ١/٣٦٣] .

به[1] : ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا ملْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى في البيت شيئاً لم يأت به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون « من أين لك هذا ؟ » الذي نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التي جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذي لا يتلجلج : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ في بُؤرة شعوره ، فقد ذكّرته بها مريم : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾ [آل عمران]

أي : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لي ولداً يرثُ النبوة من بعدي . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكِبَر سنِّه ، وكوْن امرأته عاقراً ، وهي حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل في المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء] أي : لا أطلب الولد ليرث مُلْكي من بعدي ، فأنت خير الوارثين ترثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شيء .

---

(١) يعني : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والعوفي . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٦٠) .

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ ﴾[1]

فلم تكنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سمّاه ، ولله تعالى سِرٌّ فى هذه التسمية ؛ لأن الناس أحرار فى وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمى فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلى ، ليصير علَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمّى .

وقد نُسمّى الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذى سمّى ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعانى من موت الأولاد ؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فَلَم يكُنْ لِرَدّ قَضَاءِ اللهِ فيه سَبيلُ

أى : سمَّيْته يحى أملاً فى أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمّى عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[2] .

---

(١) ذكر المفسرون هنا قولين :
الأول : أنها كانت عاقراً فجُعلَتْ ولوداً . قاله أكثر المفسرين .
الثانى : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قاله ابن عباس وعطاء .
قال ابن كثير فى تفسيره (١٩٣/٣) : « الأظهر من السياق الأول » .
قال القرطبى فى تفسيره (٤٥١٦/٦) : « يحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً » .

(٢) عن أبى الحكم التنوخى قال : « لما كان اليوم السابع (لميلاد رسول الله ﷺ) ذبح عبد المطلب عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سمَّيته ؟ قال : سمَّيته محمداً . قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله تعالى فى السماء وخَلْقه فى الأرض . أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (١١٣/١) ، وابن عساكر فى « تهذيب تاريخ دمشق الكبير » (٢٨٢/١) ، ونقله ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢٦٤/٢) .

لكن ، حين يُسمَّى يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمًّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ؛ لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى ﴿ وَهَبْنَا .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء] أي : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنساني ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء] فبعد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب ؛ لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التي تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه البويضات في عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض في الدجاجة ؛ لذلك يسمون آخر الأولاد « آخر العنقود » .

إذن : وُجِد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك ؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبلة ، فهي التي يحدث منها التوقُّف .

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب ؛ لأن المسألة ليست (آليّة) ، بل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى]